بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القـــرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : سعيد إبراهيم مرعي خليفة كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة ....
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراة .... في تخصص : العقيدة ....
عنوان الأطروحة : ((جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة)) .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٦ / ٦ / ١٤٢١هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ محمود محمد مزروعة	الاسم : د/ عبد العزيز عبد اللطيف المرشدي	الاسم : د/ سعود عبد العزيز الخلف
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : ....

يعتمد

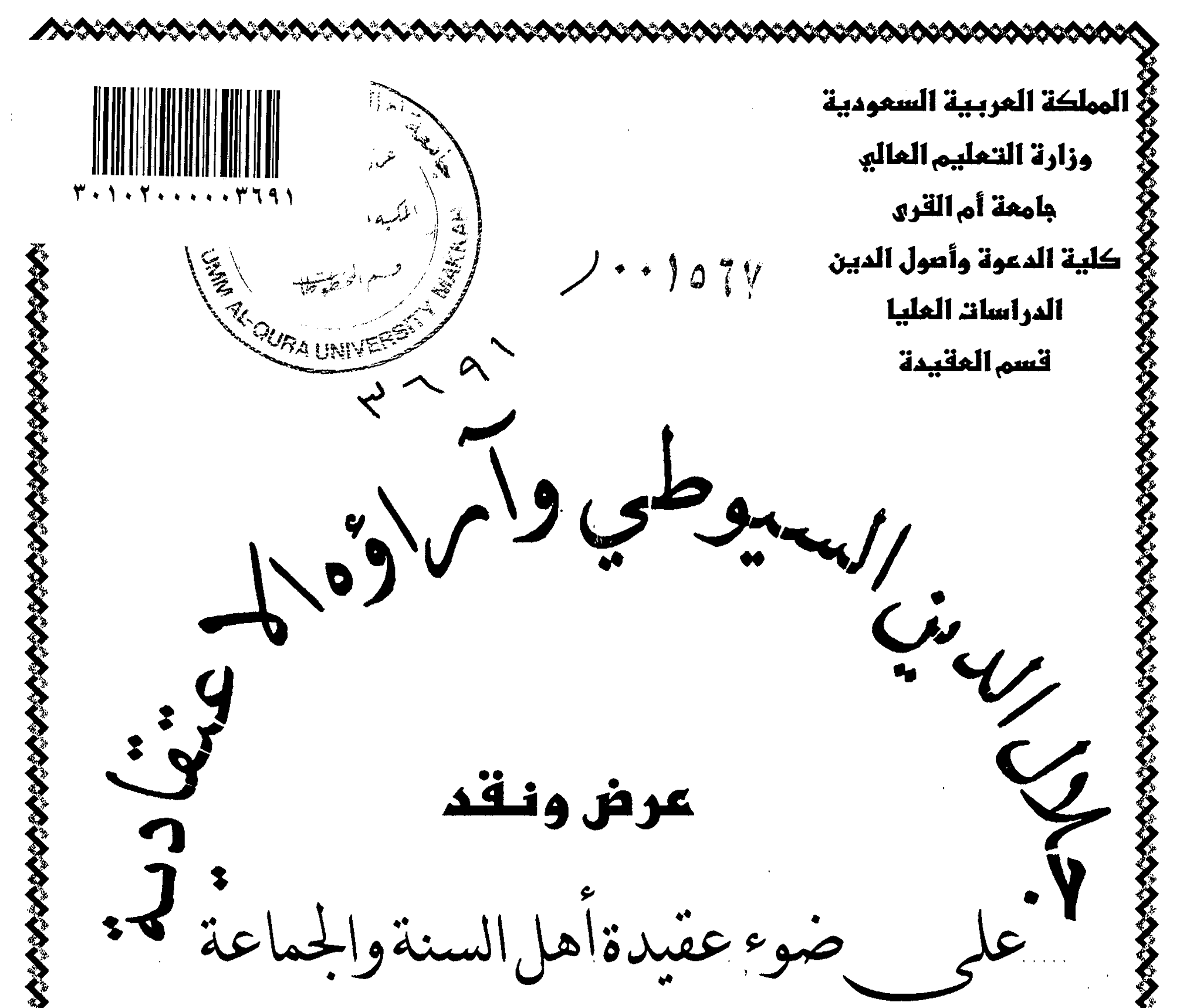
رئيس قسم العقيدة

الاسم : د/ عبد الله بن محمد القرني

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم العقيدة



جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية

عرض ونقد

على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب

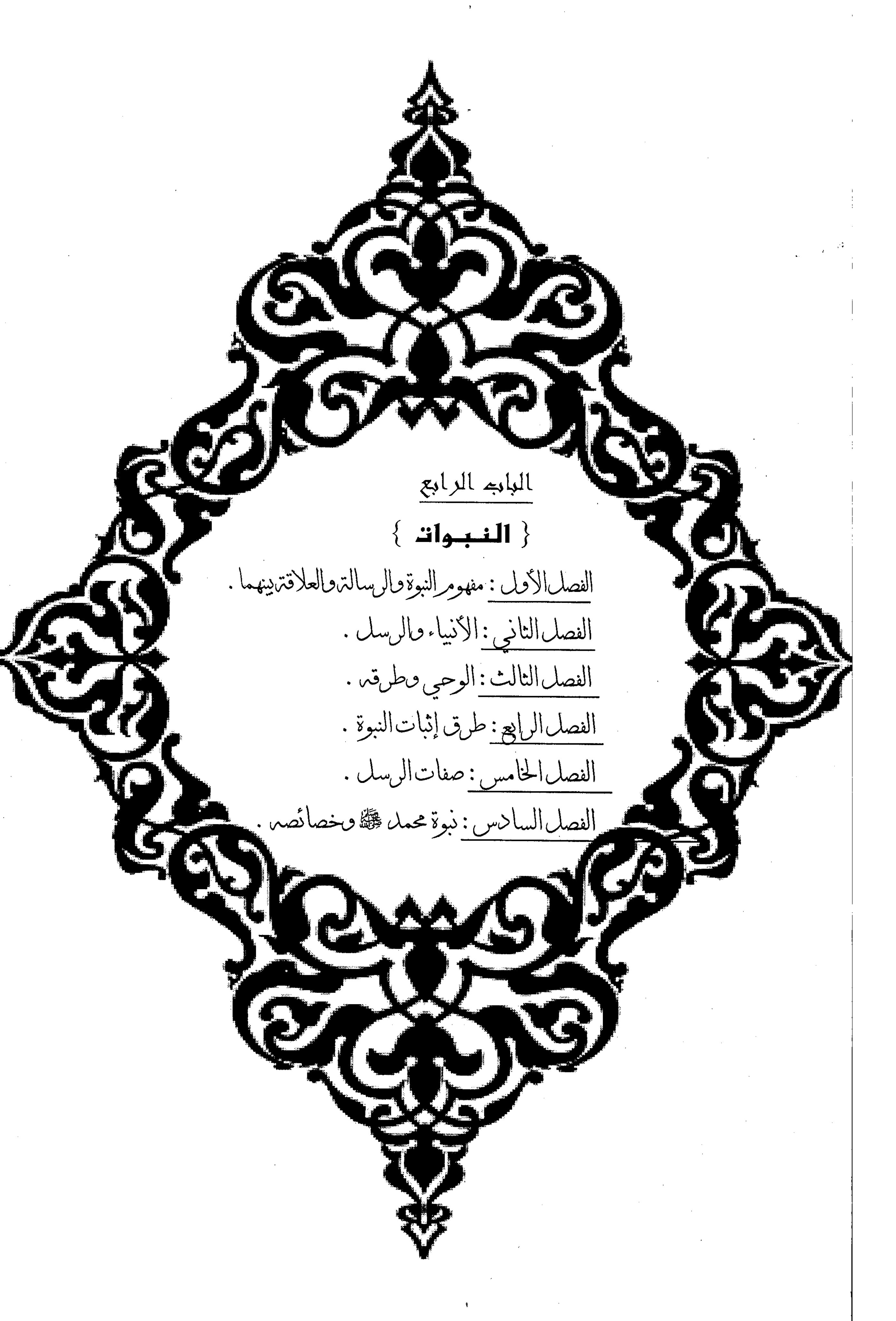
سعيد إبراهيم مرعي خليفة

إشراف الأستاذ الدكتور

محمود محمد مزروعة

الجزء الثاني

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م



الباب الرابع

{ النبوات }

الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما

المبحث الأول : النبوة والنبي في اللغة

بعد استقراء اللغة العربية واستنطاق معاجمها رأيت أن أصل لفظة " النبوة " أو " النبي " يرجع إلى ثلاثة معان :

المعنى الأول : أن النبي مشتق من النبأ الذي هو الخبر العظيم .

المعنى الثاني : أنه من النَّبْوة أو النباوة على معنى العلو والارتفاع والعلم الظاهر .

المعنى الثالث : أنه من النبئ الذي هو الطريق الواضح الذي ينهج بلا دليل وخرِّيت .

أما كونه من " النبأ " وهو الخبر ، فيقال : نبأ ، ونبَّأ ، وأنبأ ، قال صاحب القاموس : " النبأ ، محركة ، الخبر ... والنبئ المخبر عن الله تعالى "(١) . فهو فعيل : بمعنى فاعل .

ال فـي الصـحاح : " والنـبأ : الخـبر ، تقـول : نبأ ،ونبأ : أي أخبره، ومنه أخذ النبئ ، لأنه أنبأ عن الله تعالى ، وهو فعيل:بمعنى فاعل"(٢).

وكذلك قال صاحب النهاية : " النبئ : فعيل بمعنى فاعل للمبالغة ، من النبأ : الخبر ، لأنه أنبأ عن الله ، أي أخبر ... يقال : نبأ ، ونبَّأ ، وأنبأ "(٣)

وعـن ابن فارس : " أن نبأ : قياسه الإتيان من مكان إلى مكان ... ومن هذا القياس النبأ : الخبر ، لأنه يأتي من مكان إلى مكان ، والمنبئ : المخبر "(٤) .

القاضي عياض(٥) : " النبي يهمز ولا يهمز "(٦) إشارة إلى التسوية في معنى اللفظين .

إذاً فالنبي هنا مأخوذ من النبأ ، بمعنى الخبر الهام العظيم ، المفيد فائدة عظمى(٧) ، والأصل فيه الهمز(٨) ، لكنه قد يترك الهمز تخفيفاً ، وهو جائز ومستساغ لغة .

وأمـا المعـنى الثاني وهو كونه من النَّبوة أو النباوة ، بمعنى الارتفاع والعلو ، فقد قال ابن منظور : " ... وقيل

---

(١) مجد الدين الفيروزآبادي : القاموس المحيط (٣٩٣/٤) باب الهمزة فصل الميم والنون – دار المعرفة – بيروت ، بدون طبعة ولا تاريخ .

(٢) اسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح (٢٥٠٠/٦) الألف اللينة ، ت. أحمد عبدالغفور عطار – دار العلم للملايين – (ط٣-١٤٠٤هـ) .

(٣) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ، المعروف بابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٥) ت. طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية – بيروت .

(٤) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة (٣٨٥/٥) ط٢ بدون تاريخ – ت. عبدالسلام هارون .

(٥) ابن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي ، السبتي ، عالم المغرب ، ولي قضاء " سبتة " التي ولد فيها (٤٧٦هـ–١٠٨٣م) وتوفي بمراكش ، انظر : وفيات الاعيان (٣٩٢/١) ، قضاة الأندلس (١٠١) ، وقلائد العقيان (ص٢٢٢) ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (١٢٣/١) ، مفتاح السعادة (١٩/٢) وانظر : الاعلام (٩٩/٥) .

(٦) مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/٢) ط المكتبة العتيقة بتونس ، ودار التراث بالقاهرة – بدون طبعة ولا تاريخ .

(٧) انظر : الراغب الأصفهاني : المفردات (ص٤٨١) .

(٨) نفسه (ص٤٨٢) .

المعنى مشتق من النباوة وهي الشئ المرتفع "[١] وقال في القاموس : " والنباوة : ما ارتفع من الأرض ، كالنَّبْوة والنَّبْي ... "[٢] .

وأما المعنى الثالث للنبي وهو الطريق الواضح ، ففي اللسان : " النبي : الطريق الواضح " .

وفي القاموس : " والنبئ : الطريق الواضح ، والمكان المرتفع المحدود ب ... والنبيّ - كغنيّ - : الطريق " .

والنبي بهذا المعنى طريق واضح جلي إلى مرضاة الله تعالى ، وأن العرب تقول للطريق الواضح : النبئ .

خلاصة : ونخلص من هذا إلى أن النبي يجمع جميع المعاني المتقدمة ، فهو نبي : فعيل بمعنى مفعول أي منبأ من الله تعالى ، وهو فعيل بمعنى فاعل : أي منبئ للخلق بما أنبأه الله من الأنباء العظيمة ، والأخبار الخطيرة ، وهو الرفيع القدر والبرهان ، ذو الرتبة الشريفة ، والمكانة النبيهة عند مولاه ، الذي يهدي الخلق إلى أقوم الطرق ، وأفضل السبل ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

- كلام السيوطي في معنى النبوة :

والسيوطي لا يختلف كلامه في معنى النبي والنبوة عما نقلته واستخرجته من المعاجم اللغوية ، بل يتفق معها تماماً ، وإن كان قد اقتصر على معنين اثنين فقط ، فقال : " النبأ : خبر ، ومنه اشتق النبئ بالهمز ، وترك الهمز تخفيف "[٣] وهذا يدل على صحة اللفظين عنده ، المهموز ، وغير المهموز ، إلا أن مقصد التخفيف من النطق هو الذي يستدعى أحياناً ، أو عند بعض العلماء أو القراء ، ترك الهمز ، لكنه ينبه على أن ترك الهمز عند من يتركه يرجع إلى معنى النُّبوة التي هي الارتفاع ، قال السيوطي : " وقيل : إنه عند من ترك الهمز مشتق من النُّبوة وهي الارتفاع "[٤] .

وفي موضع آخر يؤكد على ما قرره فيقول : " نبئ : مشتق من الإنباء ، وهو الإخبار لقوله تعالى : (ذلك من أنباء الغيب ...)[٥] ، (نبئنا بتأويله)[٦] ، وقيل هي مشتقة من الرفعة والتفضيل لقوله تعالى : (وكان رسولاً نبياً)[٧] "[٨] . والسيوطي - كما قلت - لم يتعرض للمعنى الثالث في لفظة النبي ، وهو (الطريق الواضح) ، ولكنه يذهب إلى عدم جواز إطلاق اسم (نبي) أو (نبئ)على كل من أنبأ بنبأ ، أو أخبر بخبر، حتى ولو كان صادقاً في إخباره ، فاسم (نبي) لا يجوز اطلاقه على غير أنبياء الله تعالى ، يقول السيوطي : " لا يجوز استعمال هذا الإسم في غير الأنبياء ، وإن كان المخبر صادقاً " [٩] ومعنى هذا أن اسم (نبي) أصبح مصطلحاً مقصوراً على من ينبئون عن الله وحيه وأحكامه

---

(١) لسان العرب (١٦٣/١) .
(٢) الفروز آبادي : القاموس المحيط (٣٩٣/٤) ، وانظر منه (٢٩/١) .
(٣) معترك الأقران في اعجاز القرآن (٥٣٩/٢) .
(٤) السابق نفسه .
(٥) سورة آل عمران ، بعض الآية (٤٤) .
(٦) سورة يوسف الآية (٣٦) .
(٧) سورة مريم الآية (٥١) .
(٨) معترك الأقران (٥٣٤/٢) .
(٩) معترك الأقران (٥٣٤/٢) .

وشرائعه ، وهم أنبياء الله ورسله ، ولذا يقول : " وكل نبيئ : مخبر ، وليس كل مخبر نبئ "[١] .

المبحث الثاني : الرسالة والرسول في اللغة

الإرســال يأتي في اللغة بمعان متعددة ، إلا أنها متقاربة في معناها ، فيأتي الإرسال بمعنى التوجيه ، والتتابع ، والانبعاث على التؤدة ، ويأتي أيضاً بمعنى التسليط ، والتسخير ، والاطلاق أو التخلية وترك المنع ، ويأتي كذلك بما يقابل الامساك . ولكل معنى من هذه المعاني شواهد من اللغة أو من القرآن والسنة .

والرسول فعول ، وهي من صيغ المبالغة ، و اسم المفعول منه (مرسَل) بفتح السين من " أرسل " الرباعي ، واسم الفاعل (مرسِل) بكسر السين ، والرسول هو متحمل القول ، ، وهذا القول الذي يتحمله الرسول هو الرسالة .

وفي قوله تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده...)[٢] .

يقــول السيوطي : " الفتح في هذه الآية عبارة عن العطاء ، والإمساك عبارة عن المنع ، والإرسال الاطلاق بعد المنع ، والرحمة كل ما يمن الله به على عباده من خير الدنيا والآخرة "[٣] .

وهــذا الكـــلام مـــن السيوطي متفق تماماً مع قاله الراغب في مفرداته[٤] ، كما أن السيوطي صرح فيه كذلك بأن الإرسال : الإطلاق ، أي أن الاطلاق معنى من معانيه .

ومما تقدم يتضح جلياً أن الإرسال يرد في اللغة بمعان متعددة – كما ذكرت سابقاً – وهي في حقيقتها متقاربة .

ومن هنا نعلم أن الإرسال عام وخاص ، وأنه يكون بالخير والشر ، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة[٥] ، وأن الرسول من يبعث محملاً أو متحملاً قولاً أو أمراً أو فعلاً ليبلغه أو ينفذه .

والرســل أو الرسول في بعض آيات القرآن تعني الملائكة كما في قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم)[٦] أي جــبريل – عــليه الســلام – قالــه : ابن عباس ، والشعبي ، وميمون بن مهران ، والحسن ، وقتادة ، والربيع ابن أنس ، والضــحاك وغيــرهم[٧] ، وقوله تعالى : (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك)[٨] وقوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا لوطاً سئ بهم...)[٩] ، وقوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى...)[١٠] وغيرها من الآيات .

ولذا قال السيوطي في قوله تعالى: (قال ما خطبكم أيها المرسلون)[١١] أي ما شأنكم ؟ أو بأي شئ جئتم ؟ والخطاب مع

---

(١) السابق نفسه .

(٢) سورة فاطر الآية رقم (٢) .

(٣) معترك الأقران (٤١١/٢) .

(٤) انظر : (ص) .

(٥) انظر : نفسه .

(٦) سورة التكوير الآية (١٩) .

(٧) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٧٩،٨٠/٣٠) وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٦١/٨) .

(٨) سورة هود الآية (٨١) .

(٩) سورة هود الآية (٧٧) .

(١٠) سورة هود الآية (٦٩) .

(١١) سورة الحجر الآية (٥٧) .

الملائكة الذي نجاؤوا لإبراهيم – عليه السلام – بالبشرى "[١] فهذا من اطلاق لفظ الرسل أو المرسلين على الملائكة – كما ذكرت – .

ويقول السيوطي – أيضاً – : " وقد ذكرنا أن الرسالة والإرسال بمعنى واحد ، والرسول المتحمل للرسالة إلى الأمة "[٢] واستيفاءً لمعنى الإرسال فإن شيخ الاسلام ابن تيمية يفرق بين الإرسال الكوني ، والإرسال الشرعي الديني[٣] ، أو يسميه الإرسال العام والإرسال الخاص[٤] .

المبحث الثالث : النبي والرسول في الاصطلاح والعلاقة بينهما

وقع خلاف كبير بين العلماء في وضع الحد الاصطلاحي الذي يوضح معنى النبي والرسول ، إلا أنني أقول بداية : إن هذا الخلاف لا يترتب عليه ضلال المخالفين لأهل السنة في هذه المسألة ، أو تبديعهم أو تفسيقهم ، نظراً لأن النصوص الشرعية غير قاطعة الدلالة على المعنى المقصود ، لكن العلماء من أهل السنة وغيرهم قد بذلوا جهدهم واستفرغوا وسعهم في بيان المعنى الاصطلاحي لكل من النبي والرسول والنبوة والرسالة والعلاقة بينهما .

غيره أنه يمكن إرجاع ميع التعريفات الواردة في النبي والرسول إلى مذهبين رئيسيين :

أولهما : مذهب من لا يفرق بين الرسول والنبي ، ويرى أنهما مترادفان ، وهو قول القاضي عبدالجبار[٥] من المعتزلة ، وقد أثبته سابقاً في التعريف رقم (٢) ، وحكاه الرازي عن المعتزلة عامة[٦] وحكاه الملا علي القاري عن الكمال بن الهمام من الحنفية[٧] ، وهو ظاهر كلام أبي الحسن الماوردي من الشافعية[٨] ولأصحاب هذا الاتجاه حجج على قولهم ، فقالوا :

١- إن الذي يدل على أن الرسول والنبي بمعنى واحد هو اتفاق الكلمتين في المعنى " فهما يثبتان معاً ويزولان معاً في الاستعمال حتى لو أُثبت أحدهما و نُفي الآخر لتناقض الكلام ، وهذا هو أمارة اثبات كلتي اللفظتين المتفقتين في الفائدة "[٩] .

٢- وأما استدلال بعض من فرق بين اللفظتين بقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ...)[١٠] لمجرد الفصل بين الرسول والنبي ، فهو لا يدل على اختلاف الجنسين ، لأن الله تعالى فصل بين نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وبين غيره من الأنبياء ولم يدل ذلك على أن نبينا – صلى الله عليه وسلم – ليس من الأنبياء–عليهم السلام –.

٣- وقد فصل تعالى – أيضاً – بين الفاكهة وبين النخل والرمان ، ولم يدل على أن النخل والرمان ليسا من الفاكهة ،

---

(١) معترك الأقران (٣٤٢/٢) .

(٢) السابق نفسه (١٨٥/٢) .

(٣) انظر : الفرقان بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان (ص١٥١) – ط رئاسة الافتاء بالمملكة العربية السعودية تصحيح وتعليق محمود عبدالوهاب فايد .

(٤) انظر : النبوات (٢٥٧-٢٥٨) .

(٥) عبدلجبار بن أحمد الهمذاني ، شيخ المعتزلة في عصره ، ولي القضاء بالري وتوفي فيها (٤١٥هـ–١٠٢٥م) انظر : طبقات المعتزلة (١١٢) ولسان الميزان (٣٨٦/٣) .

(٦) انظر : الفخر الرازي : التفسير الكبير (٥٠/١٢) .

(٧) انظر : الملا علي القاري : شرح الفقه الأكبر (ص٩٤) .

(٨) انظر : أعلام النبوة (ص٢٣،١٩) وقد نقلته في التعريف رقم (٣) .

(٩) عبدالجبار بن أحمد : شرح الأصول الخمسة (ص٥٧٨) ت . د/عبدالكريم عثمان ط١٣٨٤/١هـ–١٩٦٥م وهبة – القاهرة .

(١٠) سورة الحج الآية (٥٢) .

فكذلك لا فرق بين الرسول والنبي[١] ، لأن الواو هي لمطلق الجمع بين اللفظتين .

٤- كما أن آية الحج المتقدمة[٢] ، دالة على أن النبي قد يكون مرسلاً ، بالإضافة إلى قوله تعالى : (وما أرسلنا في قرية من نبي)[٣] فالنبي مرسل ، والمرسل نبي[٤] .

٥- أن الله تعالى خاطب محمداً - صلى الله عليه وسلم - مرة بالنبي ، ومرة أخرى بالرسول ، فدل على أنه لا منافاة بين الأمرين[٥] .

٦- أنه تعالى نص على أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - هو رسول الله وخاتم النبيين فهو رسول نبي ونبي رسول وكذلك سائرهم .

٧- أن اشتقاق لفظ النبي إما من النبأ وهو الخبر ، أو من قولهم : نبا إذا ارتفع ، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة[٦]

هذه مجمل أدلة القوم المانعين من التفريق بين النبي والرسول .

ثانيهما : مذهب جمهور العلماء القائلين بوجود الفرق بين النبي والرسول وأجابوا عن أدلة أصحاب الرأي الأول بأجوبة حسنة فقالوا :

١- قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي...) الآية[٧] هي حجة عند الجمهور في التفريق بين النبي والرسول ، لأنه تعالى عطف النبي على الرسول بحرف الواو ، وهذا العطف يقتضي المغايرة لأنه لو لم يكن ثمة فرق بينهما لقال : وما أرسلنا من قبلك من نبي رسول ، أما وقد ما يز بين اللفظتين فقد دل على تمايز بين المعنيين ، فثبت الفرق .

٢- وكذلك قوله تعالى : (وكم أرسلنا من نبي في الأولين...)[٨] هي الأخرى دليل على التفريق لأنها تدل على أنه كان نبياً فأرسله الله تعالى وجعله رسولاً ، فبعد أن كان نبياً فقط أصبح نبياً رسولاً . وهو تأييد لصحة قولنا بالتفريق[٩] .

٣- وأما الفصل بين نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وبين غيره من الأنبياء فلا حجة فيه لأنه من باب عطف الخاص على العام ، فإذا قيل : " أنبياء الله " دخل فيهم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وإذا قيل : " نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - " فلا يتناول الكلام غيره من الأنبياء[١٠] .

٤- كذلك يقال في قوله تعالى : (فيهما فاكهة ونخل ورمان)[١١] هو من باب عطف الخاص على العام ، فلفظ الفاكهة عام

---

(١) انظر : عبدالجبار : شرح الأصول الخمسة (٥٧٨) .
(٢) هي قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ...) الحج (٥٢) .
(٣) سورة الأعراف الآية (٩٤) .
(٤) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٢/٥٠) .
(٥) نفسه السابق .
(٦) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٢/٥٠) .
(٧) سورة الحج الآية (٥٢) .
(٨) سورة الزخرف الآية (٦) .
(٩) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٢/٥٠) .
(١٠) السابق نفسه .
(١١) سورة الرحمن الآية (٦٨) .

يشمل النخل والرمان وغيرهما من أصناف الفاكهة الأخرى ، وإذا قيل " نخل ورمان " فلا يدخل في المعنى بقية أصناف الفاكهة ، فكذلك في آية الحج[١] .

٥- كما أن خطاب الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - مرة بالنبي ، وأخرى بالرسول لا يدل على عدم الفرق لأن نبينا محمداً - صلى الله عليه وسلم - كما هو معلوم نبي رسول ، فإن خاطبه بالنبي فهو حق ، ولا يلزم من ذلك أن يكون النبي رسولاً ، وإن كان محمد - صلى الله عليه وسلم - نبياً رسولاً .

وإن خاطبه بالرسول فهو حق أيضاً وقد تضمن خطابه بالنبوة ، فكأنه قال : " يا أيها النبي الرسول ، فإن كان محمد رسولاً ، فهو من باب أولى نبي ، والله تعالى يخاطبه في كل موضع بما يناسبه من مقام الخطاب "[٢] .

٦- وأما كون اشتقاق لفظ النبي إما من النبأ أو من نبا إذا ارتفع والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة ، فهو غير مسلم " لأن النبي المنبأ من الله قد جمع بمجرد ذلك جميع المعاني التي اشتق منها اسمه ، وقد حصلت له الرفعة وعلو الشأن وإن لم يحصل له الرسالة "[٣] .

٧- بالإضافة إلى ذلك الحديث الوارد في عدد الأنبياء وهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ، وعدد الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً[٤] ، فهذا الحديث يدل على الفرق بين الأنبياء والمرسلين وهو دليل يعضد رأي من قال بالتفريق .

ولكن هؤلاء القائلين بالفرق بين النبي والرسول لم يتفقوا على وجه الفرق بينهما ، والأكثرون على أن الرسول انسان حر ذكر أوحى الله إليه بالنبوة وأمره بإبلاغها إلى قوم معينين أو إلى الناس كافة ، والنبي مثله إلا أنه لم يؤمر بالتبليغ . وهو قول الأشاعرة[٥] ، وجمهور أهل السنة .

وكان ممن قال بهذا القول من أئمة أهل السنة الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[٦] (ت/٣١٠هـ) ، والامام شمس الدين ابن القيم[٧] (ت/٧٥١هـ) ، وأبو الفداء اسماعيل ابن كثير[١] (ت/٧٧٤هـ) ، وابن أبي العز الحنفي شارح

---

(١) انظر: سعيد إبراهيم مرعي خليفة: النبوة عند ابن تيمية ورده على المخالفين (ص٦٧) - ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى/١٤١٠هـ .

(٢) السابق نفسه (ص٦٩) .

(٣) السابق نفسه .

(٤) أخرجه أحمد في " المسند " (٥/١٧٨-١٧٩) وفي سنده ثلاثة ضعفاء ، وأخرجه ابن حبان رقم (٩٤) مطولاً ، وفي سنده هشام الغساني ، قال أبو حاتم وغيره ، كذاب ، وأخرجه أحمد (٥/٢٦٦،٢٦٥) من حديث أبي أمامة ، وفي سنده ثلاثة ضعفاء أيضاً .قال العلامة الألوسي في روح المعاني : " وزعم ابن الجوزي أنه موضوع ، وليس كذلك ، نعم قيل في سنده ضعف جبر بالمتابعة " انظر : روح المعاني (١٧/١٧٢) دار الفكر ١٣٩٨هـ .وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٦٢) من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله : أ نبي كان آدم ؟ قال : " نعم ، معلَّم ومكلم " قال : كم بينه وبين نوح ؟ قال : " عشرة قرون " قال : يا رسول الله كم كانت الرسل ؟؟ قال : " ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً " . وسنده صحيح على شرط مسلم كما قال الحاكم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في تحقيقه مشكاة المصابيح (٣/١٢٢) .

(٥) انظر في ذلك : أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية (ص٢١٠-٢١٢) ، والملا علي القاري : شرح الفقه الأكبر (ص٩٤) ، وحاشية الدسوقي على أم البراهين للشيخ محمد الدسوقي (ص١٧٣) ط دار الفكر - بيروت بدون طبعة ولا تاريخ ، وانظر كذلك : ابو عبدالله السنوسي : شرح السنوسية الكبرى ، المسمى " عمدة أهل التوفيق والتسديد " (ص٣٥٠) ت . د/عبدالفتاح عبدالله بركة ط١/ ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م ، - دار القلم - الكويت .
وانظر كذلك: أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي : المنهاج في شعب الايمان (١/٢٣٩) - دار الفكر ط١/١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .

(٦) انظر : جامع البيان (١٧/١٨٩) ط٣/١٣٨٨هـ .

(٧) انظر : زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٤٣) ت. شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة (ط٣/ ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) ، وكذلك : طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٣٤٩) ط١/ ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .

الطحاوية[٢] (ت/٧٩١هـ) ، والعلامة محمد بن أحمد السفاريني[٣] (ت/١١٨٨هـ) .

وذهب بعض المعتزلة مذهب التفريق بين النبي والرسول ، حكاه سعد الدين التفتازاني[٤] ، ورأيته في كلام الزمخشري وهو أيضاً من المعتزلة[٥].

لكن وجه الفرق الذي ذكره هؤلاء يرد عليه بعض الاعتراضات منها :

١- أن قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي...)[٦] تفيد أن النبي مرسَل من الله ، فالرسول مرسَل ، والنبي أيضاً مرسَل ، والمرسَل هو من يحمل رسالة من مرسِل إلى مُرسَلٍ إليه ولا يحصل الإرسال إلا بالتبليغ فثبت أن النبي يبلغ ما أرسله الله به إلى الناس ، وتعريفه بأنه لا يؤمر بالتبليغ يناقض مدلول هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي ذكرت قبل ذلك منها قوله تعالى : (وكم أرسلنا من نبي في الأولين)[٧] مما يدل على أن النبي مرسل برسالة إلى قومه ، وهذا الاعتراض يتوجه أيضاً إلى ما نقله السيوطي عن مجاهد ، قال : " النبي وحده ، الذي يكلم ، وينزل عليه ، ولا يرسل "[٨] وقد اتضح مما ذكرته أن النبي يرسل ، كما قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي...)[٩] فذكر إرسالاً يعم النوعين[١٠] .

٢- أن النبوة من معانيها الرحمة كما قال تعالى : (أهم يقسمون رحمة ربك ...)[١١] ، قال الشوكاني : " يعني : النبوة "[١٢] ، وقال تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا...) الآية[١٣] . قال الشوكاني : " الرحمة النبوة "[١٤] ، وقال – أيضاً – : " أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : (آتيناه رحمة من عندنا...) قال : " أعطيناه الهدى والنبوة "[١٥] وهذه الرحمة قد وصفها الله تعالى بأنها قد وسعت كل شئ كما قال عز وجل : (ورحمتي وسعت كل شئ)[١٦] وقال عن الملائكة : (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلماً)[١٧] .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم (٤٢٣/٦) في تفسير الآية (٤٠) من سورة الأحزاب (وخاتم النبيين) .
(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص١٦٧) ط/٦ ١٤٠٠هـ- المكتب الاسلامي - بيروت ت. الالباني .
(٣) انظر : لوامع الأنوار البهية (٤٩/١) دار الخافقين - دمشق .
(٤) انظر : شرح المقاصد (٨٧٣/٢) .
(٥) انظر : الكشاف (٣٧/٣) - دار المعرفة - بيروت .
(٦) سورة الحج الآية (٥٢) .
(٧) سورة الزخرف الآية (٦) .
(٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦٥/٦) . دار الفكر ط١/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م - بيروت لبنان .
(٩) سورة الحج الآية (٥٢) .
(١٠) انظر : ابن تيمية : النبوات (ص٢٥٥) دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ، بيروت - لبنان .
(١١) سورة الزخرف الآية (٣٢) .
(١٢) محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير (٥٥٤/٤) . وانظر : تفسير الجلالين (ص٥٩٨) .
(١٣) سورة الكهف الآية (٦٥) .
(١٤) فتح القدير (٢٩٩/٣) ، وانظر : الشنقيطي : أضواء البيان (١٥٨/٤) .
(١٥) نفس السابقين .
(١٦) سورة الاعراف الآية (١٥٦) .
(١٧) سورة غافر الآية (٧) .

وفي ترك البلاغ من قبل النبي والانذار كتمان لرحمة الله وتضييق لها ، وتحجير لواسعها ، وجحد لنعمة الله التي أمر نبيه أن يحدث بها " كما في قوله تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث)[1] ، وأعظم رحمة وأكبر نعمة هي رحمة الهداية ، ولـم يثـبت بقول صريح ، في نص صحيح أن الله اختص نبياً من الأنبياء وأوحى إليه وحياً ، وقال له : هذا لك خاصة لا يشركك فيه الناس . مما يدل على أن النبي يدعو ويبلغ .

٣- أنــه قد وردت بعض النصوص الشرعية التي تبين أن الأنبياء كانوا يقاتلون في سبيل الله ، والقتال من أعظم واجبات الدعوة والبلاغ ، إذ هو حماية للحق ، ودحر للباطل المعوق لانتشار الخير والعدل بين الناس قال تعالى : (ألم تر إلى الملأ مــن بني إسرائيل إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله...) الآية[2] ، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " غــزا نــبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع أمرأة وهو يريد أن يبني بها ، ولما يبن بها ، ولا آخــر قــد بنى بنياناً ولم يرفع سقوفها ، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو منتظر ولادها ، فغزا ، فأدنى للقرية حين صــلاة العصــر ، أو قريباً من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علينا ، فحبست حتى فتح الله عليهم... " الحديث[3] وهذا النبي هو يوشع بن نون – عليه السلام – وهو ليس برسول باتفاق ، وقد بلغ وحي الله وغزا في سبيله[4].

٤- أن اتــباع الأنــبياء من العلماء والأئمة ، مطالبون بالدعوة والتبليغ والجهاد ، وهم ليسوا بأنبياء ، فكيف بالأنبياء ، وهم أرفــع وأفضل ، وقد اختصهم الله تعالى بالوحي ، قال تعالى : (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً...)[5] ، وقــال تعــالى : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)[6] فإذا كانت هذه حال العلماء والفقهاء الذين ورثوا علم الأنبياء ، وهم متوعدون إذا كتموا علماً يهدي الناس إلى طريق الحق والهدى ، فكيف بالأنبياء وهم المعروفون بشدة شفقتهم على أممهم ورحمتهم بهم ، ومحبة الخير والصلاح لهم

فهــذه أهــم الاعتراضات التي وجهت لهذا الراي ، ولذلك لجأ بعض العلماء إلى تعريفات أخرى فقال بعضهم : " الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ، والنبي من لم يوح إليه بشرع جديد ، وإن أمر بالبلاغ والانذار "[7] وهذا الرأي يتمشى مع معنى الآية الكريمة التي في سورة الحج في كون الإرسال يعم الرسول والنبي ، ولكنه فرق بينهما بكون الرسول موحى

---

(١) سورة الضحى الآية (١١) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٦) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب فرض الخمس (٥٧) باب (٨) ح رقم (٣١٢٣) فتح الباري (٦/٢٢٠) .
ورواه أيضاً في كتاب النكاح من "صحيحه " باب (٥٨) ح رقم (٥١٥٧) فتح الباري (٩/٢٢٣) .

(٤) قــال الحافظ ابن حجر : " وهذا النبي هو يوشع بن نون ، كما رواه الحاكم من طريق كعب الأحبار ، وبين تسمية القرية كما سيأتي ، وقد ورد مــن طــريق مرفوعة صحيحة ، أخرجها أحمد من طريق هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس " . الفتح (٦/٢٢١) .

(٥) سورة فصلت الآية (٣٣) .

(٦) سورة البقرة الآية (١٥٩) .

(٧) انظر : القاضي عياض : الشفا (١/٢٥١) ، والألوسي : روح المعاني (٧١/١٧٣) ، والرازي : التفسير الكبير (١٢/٥٠) ، وهذا القول هو الذي اختاره د. عمر سليمان الأشقر في كتابه " الرسل والرسالات " (ص٥) ، مكتبة الفلاح – الكويت ط٣/ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

إليــه بشرع جديد وهو المأخذ على هذا التعريف ، لأن يوسف – عليه السلام – كان رسولاً وكان على ملة إبراهيم – عليه السلام – ولم يوح إليه بشرع جديد ، كما أن داود وسليمان – عليهما السلام – كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة[١] .

لــذا ذهــب البعض إلى أن الرسول من يأتيه جبريل بالوحي من عند الله لإنذار الخلق ، وأما من أوحي إليه مناماً فهو نبي وليس برسول .

قــول السيوطي : " كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً ، فالرسول الذي يأتيه جبريل بالوحي من عند الله لإنذار الخلق ، وأما من أوحي إليه في المنام فليس برسول "[٢] وهذا القول موافق لقول الرازي الذي ذكره في تفسيره حيث قال : " إن مــن جاءه الملك ظاهراً وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول ، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولاً أو أخبره أحــد مــن الرسل بأنه رسول الله ، فهو النبي الذي لا يكون رسولاً وهذا هو الأولى "[٣] وهو كلام الألوسي – أيضاً – في روح المعاني[٤] . وهذا القول أيضاً لا يسلم من اعتراض عليه ، فيقال <u>أولاً :</u> إذا كان الرسول هو من يأتيه الملك ظاهراً ويأمــره بالــبلاغ فهو رسول ، وإن جاءه مناماً وأمره بالبلاغ فماذا يكون ؟؟ أيكون رسولاً لأنه أمره بالتبليغ ؟ فهذا خلاف ظاهــر كلام السيوطي والرازي ، أم يكون نبياً فقط لأن الوحي إليه كان مناماً ؟ وعلى هذا فتكون رؤيا الأنبياء غير حق ، لأن الواقــع خلاف الرؤيا ، ومن المقرر المتفق عليه بين العلماء أن رؤيا الأنبياء حق ووحي ، فما يرونه في المنام يطابق الحقيقة ، وعلى كلام السيوطي والرازي لا تتحقق هذه المطابقة .

<u>ثانيــاً :</u> كــلام الرازي يلزم منه كذب الأنبياء أو بعضهم ، لأنه قال : إذا " أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله فهو النبي الذي لا يكون رسولاً " فإخبار الرسول لا يكون مطابقاً لواقع الأمر ، وهو نوع من الكذب وهذا محال .

وبناء على هذا يتضح أن كلام السيوطي والرازي من قبله غير دقيق لما ورد عليهما من الاعتراض .

ولابن تيمية رأي هو أقرب إلى الصواب أحببت أن أعرج عليه لأهميته .

يــرى ابن تيمية أن الرسول هو من يبعث إلى مخالفين مكذبين ، يدعوهم إلى الإسلام ، والنبي هو من يرسل إلى موافقيــن له في أصل الملة التي يدعو إليها ، ولكنهم لبعد العهد بهم ، وطول الأمد عليهم ينحرفون عن بعض التعاليم التي أمــروا بهــا ، فكل من الرسول والنبي مرسل من الله ، وكل منهما يدعو ويبلغ ، ويبشر وينذر ، وكل منهما مُنَبَّأً من الله ، ومُنبئ بما أنبأه الله تعالى . إلا أن النبي يدعو الموافقين ويقيم فيهم حكم الله الذي يعرفونه ويؤمنون به ، والرسول يفعل ذلك أيضاً ويزيد عليه في أنه يدعو المخالفين كذلك قال ابن تيمية : " النبي : هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبئ بما أنبأ الله به ، فإن أرســل مــع ذلــك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرســل هو إلى أحد[٥] يبلغه عن الله رسالة ، فهو نبي ، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته...)[٦] وقوله : (من رسول ولا نبي)[٧] فذكر إرسالاً يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول

---

(١) انظر : ابن تيمية النبوات (ص١٧٣) .
(٢) معترك الأقران (٢/١٨٥) .
(٣) التفسير الكبير (٥٠/١٢) .
(٤) انظر : (١٧٢/١٧) .
(٥) يعني : لم يرسل إلى أحد من المخالفين .
(٦) سورة الحج الآية (٥٢) .

، فــإن هــذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف أمر الله "[١] فمن أرسل إلى مخالفين فهو رسول ، كرســول الله نوح – عليه السلام – ، ومن أرسل إلى موافقين مؤمنين يذكرهم فهو نبي وليس برسول ، كشيث وإدريس – عــليهما الســلام – وقبلهما آدم – عليه السلام – فهؤلاء كانوا قبل نوح ، ونوح – عليه السلام – هو أول رسول بعث إلى أهل الأرض[٢] ، ثبت ذلك في الصحيح[٣] ، " قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ، فأولئك الأنــبياء يــأتيهم وحــي من الله بما يفعلون ، ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم ، كما يكون أهل الشريعة الواحدة ، يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول ، وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة ، وقد يوحى إلى أحدهم وحــي خاص في قصة معينة ، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن كما فهم الله ســليمان حكــم القضــية الــتي حكم فيها هو و داود[٤] ، فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره ، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله من الخبر والأمر والنهي ، فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك لــه[٥] ، ولا بد أن يكذب الرسل قوم ... فإن الرسل ترسل إلى مخالفين فيكذبهم بعضهم ... فقوله : (وما أرسلنا من قبلك مــن رســول ولا نــبي...)[٦] دليل على أن النبي مرسل ، ولا يسمى رسولاً عند الاطلاق ، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعــرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم ، ولهذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: " العلماء ورثة الأنبياء "[٧] ، وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة "[٨] .

وبهذا يتضح أن الصحيح هو التفريق بين النبي والرسول ، وأن أقرب الأقوال إلى الصواب هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية لقوة أدلته وسلامته من الاعتراض .

أما قول السيوطي فهو يصح في التفريق بين النبي والرسول ، ولكنه لا يسلم من الاعتراض عليه في وجه التفريق بينهما – كما بينت ذلك عند ما نقلت كلام الرازي والسيوطي وما اعترض به عليهما .

---

(١) النبوات (ص٢٥٥) .

(٢) انظر : النبوات (ص٢٥٥) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٣) ح رقم (٣٣٤٠) انظر : الفتح (٦/٣٧١) .
ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨٤) ح رقم (٣٢٧-١٩٤) انظر : صحيح مسلم (١/١٨٤) .

(٤) يشير إلى قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعــلماً ...) الآيــة (٧٩) ســورة الأنبياء ، روى ابن جرير بسنده عن ابن مسعود قال : كرم قد أنبتت عنا قيده فأفسدته (يعني الغنم) ، قال فقضـــى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : (ففهمناها سليمان) . جامع البيان (١٧/٥١) وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٣٤٩) .

(٥) جواب الشرط محذوف ، ولعل المصنف – رحمه الله – قد تركه لأنه مفهوم من السياق، وتقديره : فهم الرسل ، أو لعله سقط سهواً من الناسخ .

(٦) سورة الحج الآية (٥٢) .

(٧) الــبخاري فــي " صحيحه " كتاب العلم (٣) باب (١٠) الفتح (١/١٥٩-١٦٠) وقال ابن حجر : " طرف من حديث أخرجه أبو داود والترمذي ، وابــن حــبان ، والحــاكم مصححاً من حديث أبي البرداء ، وحسنه حمزة الكناني ، وضعفه عندهم سنده لكن له شواهد يتقوى بها ، ولم يفصح المصنف (يعني : البخاري) بكونه حديثاً ، فلهذا لا يعد في تعاليقه لكن ايراده له في الترجمة يشعر بأن له أصلاً " (الفتح ١/١٦٠) ، وقد حسنه العلامة المحقق ابن القيم في " مفتاح دار السعادة " (١/٦٣) في الوجه السابع والأربعين .

(٨) النبوات (ص٢٥٦،٢٥٧) .

الفصل الثاني : الأنبياء والرسل

المبحث الأول : وجوب الإيمان بهم جميعاً :

الإيمـــان بالأنبياء والرسل أصل من أصول الإيمان ، قال تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبـــراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحـــن له مســـلمون)[١] وقـــال تعالى : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)[٢] .

قـــال الســـيوطي عند تفسيره الآية (٢٨٥) من سورة البقرة : " (آمن) صدق (الرسول) محمد – صلى الله عليه وســـلم – (بما أنزل إليه من ربه) من القرآن (والمؤمنون) عطف عليه ، (كل) تنوين عوض من المضاف إليه (آمن بالله وملائكته وكتبه) بالجمع والإفراد[٣] (ورسله) ويقولون : (لا نفرق بين أحد من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كمـــا فعـــل اليهود والنصارى "[٤] فهنا يبين السيوطي أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه المؤمنين به قد آمنوا بالرســـل جميعاً من غير تفريق بينهم ، بأن يؤمنوا ببعض رسل الله دون البعض الآخر ، وهكذا المؤمنون من بعدهم ، ولم يفعلوا ما فعله اليهود والنصارى فإن اليهود كفروا بعيسى ومحمد – عليهما السلام – والنصارى كفروا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ولقد كان هذا هو سبب غضب الله عليهم ولعنهم والحكم عليهم بالكفر والضلال[٥] .

قـــال ابن كثير : " فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، ويصدقون بجميـــع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرقون بين أحد منهم ، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارون ، راشدون مهديون ، هادون إلى سبل الخير ، وإن كان بعضهم ينســـخ شريعة بعض بإذن الله ، حتى نُسخ الجيمع بشرع محمد – صلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين "[٦] .

ويـــزيد الســـيوطي الأمر تأكيداً لهذا المعنى ، وايضاحاً له ، فيجعل الكفر بالرسل أو بواحد منهم ضلالاً بعيداً عن الحـــق ، فيقـــول في قوله تعالى : " يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا) داوموا على الإيمان (بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رســـوله) محمـــد – صلى الله عليه وسلم – وهو القرآن (والكتاب الذي أنزل من قبل) على الرسل ، بمعنى الكتب ...

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٣٦) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية (٨٤) .
(٣) قراءتان (كتبه) أو (كتابه) .
(٤) تفسير الجلالين (ص٥٧) .
(٥) الحقيقة أن النصارى كفروا بعيسى – كذلك – لأنهم لم يؤمنوا به رسولاً كما أرسله الله تعالى إليهم ، بل كفروا به رسولاً وجعلوه شريكاً لله تعالى ، وابنا له ، فهما كفران لا كفر واحد .
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥٠٨/١) .

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً)[١] عن الحق "[٢] .

" (إن الذيــن آمنوا) بموسى وهم اليهود (ثم كفروا) بعبادتهم العجل (ثم آمنوا) بعده (ثم كفروا) بعيسى (ثم ازدادوا كفراً) بمحمد (لم يكن الله ليغفر لهم) ما أقاموا عليه (ولا ليهديهم سبيلاً)[٣] طريقاً إلى الحق "[٤] .

وبمعنى هذا أو قريباً منه قال الإمام ابن جرير : " يعني بذلك جل ثناؤه (يا أيها الذين آمنوا) بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل ، وصدقوا بما جاءوهم به من عند الله (آمِنوا بالله ورسوله) يقول : صدقوا بالله ، وبمحمد رسوله ، أنه لله رسول ، مرسل إليكم ، وإلى سائر الأمم قَبلَكُم (والكتاب الذي نزل على رسوله) يقول : وصدقوا بما جاءكم به محمد من الكــتاب الــذي نزله الله عليه ، وذلك القرآن (والكتاب الذي أنزل من قبل) يقول : وآمِنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكــتاب الذي نزله على محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو التوراة والانجيل "[٥] ثم قال : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمــنوا ثــم كفروا...) الآية[٦] " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال بعضهم تأويله : (إن الذين آمنوا) بموسى (ثم كفــروا)[٧] به (ثم آمنوا) يعني النصارى بعيسى (ثم كفروا به[٨] (ثم ازدادوا كفراً) بمحمد (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) "[٩] .

أمــا ابن كثير فلم يخصص اليهود بتفسير قوله تعالى : (إن الذين آمنوا ثم كفروا...) الآية ، بل جعلها عامة في اليهود وغيرهم ، وهو الأولى ، لأن لفظ الآية عام ، يتناول جميع من كانت هذه صفته ، إلا أنه جعل هذه الصفة من صفات المنافقين[١٠] .

وفــي موضــع آخــر يقول السيوطي في تفسير سورة هود : " (وتلك عاد) إشارة إلى آثارهم ، أي فسيحوا في الأرض وانظروا إليها ، ثم وصف أحوالهم فقال : (جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله)[١١] جمع ، لأن من عصى رسولاً عصى جميع الرسل ، لاشتراكهم في أصل ما جاءوا به وهو التوحيد "[١٢] .

وقال السيوطي أيضاً : " (عصوا رسله)[٢] في جمع الرسل هنا وجهان :

أحدهما : أن من عصى رسولاً واحداً لزمه عصيان الجميع ، فإنهم متفقون على الايمان بالله تعالى وعلى توحيده .

---

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .
(٢) تفسير الجلالين (ص١١٦) .
(٣) سورة النساء الآية (١٣٦) .
(٤) تفسير الجلالين (ص١١٦-١١٧) .
(٥) جامع البيان (٣٢٦/٥) .
(٦) سورة النساء الآية (١٣٧) .
(٧) يعني بعبادتهم العجل ثم بتحريفهم التوراة – كما تقدم – .
(٨) يعني كفروا به نبياً ورسولاً وجعلوه شريكاً لله – سبحانه – وابنا له .
(٩) جامع البيان (٣٢٧/٥) .
(١٠) تفسير القرآن العظيم (٣٨٦/٢) .
(١١) سورة هود الآية (٥٩) .
(١٢) تفسير الجلالين (ص٢٧٠) .

الثاني : أن يراد الجنس ... وانظر كيف شنع كفرهم ، وهول على فعلهم بحرف التنبيه وبتكرار أسمائهم "[١] .

وأكد على هذا المعنى ابن كثير فقال : " (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم)[٢] كفروا بها ، وعصوا رسل الله ، وذلك أنه من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به ، فعاد كفروا بهود ، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل "[٢] .

إذاً فالايمان بجميع الأنبياء والمرسلين واجب ، كما أن الكفر برسول واحد يعتبر كفراً بجميعهم ، لذلك قال تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين)[٣] وقال : (كذبت عاد المرسلين)[٤] ، وقال : (كذبت ثمود المرسلين)[٥] وقال : (كذبت قوم لوط المرسلين)[٦] ومن المعروف أن كل أمة كذبت رسولها فقط ، ولكن هذا محمول على المعنى السابق من أن التكذيب برسول واحد يعد تكذيباً بالرسل كلهم ، إذ أنهم جميعاً حملة رسالة واحدة ، ودعاة دين واحد ، يصدقهم ربهم ، ويصدق بعضهم بعضاً ، ويبشر السابق منهم باللاحق ، ويصدق المتأخر منهم بالمتقدم .

المبحث الثاني

٢- لب دعوتهم - عليهم السلام -:

لب دعوات الرسل والأنبياء – عليهم السلام – وجوهر رسالاتهم ، هو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وترك ما يعبد من دونه ، قال تعالى عن نوح – عليه السلام – : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[٧] قال السيوطي : " (إني أخاف عليكم) إن عبدتم غيره (عذاب يوم عظيم) "[٨] وقال أيضاً في قوله تعالى : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله)[٩] وحده "[١٠] .

إن عبادة الله وتوحيده هو المقصود الأعظم لرسالات الأنبياء والمرسلين ، جاءوا بها من عند الله ، وبأمر من الله ، ليعبدوا الناس لربهم وخالقهم – جل وعلا – يستوي في ذلك الكبير والصغير ، والشريف والوضيع ، والمالك والمملوك ، حتى الأنبياء أنفسهم أول العابدين ، وفي مقدمة الموحدين ، قال تعالى : (لن يستنكف) أي يتكبر ويأنف (المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) عند الله ، لا يستنكفون أن يكونوا عبيداً ، وهذا من أحسن الاستطراد ، ذكر للرد على من زعم أنهم آلهة أو بنات الله ، كما رد بما قبله على النصارى الزاعمين ذلك المقصود خطابهم (ومن يستنكف عن عبادته

---

(١) معترك الأقران (٦٠٠/٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٦٣/٤) ، وانظر : الفخر الرازي : التفسير الكبير (١٦/١٢) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٣٧/٩) ، والشوكاني : فتح القدير (٥٠٦/٢) .

(٣) سورة الشعراء الآية (١٠٥) .

(٤) سورة الشعراء الآية (١٢٣) .

(٥) سورة الشعراء الآية (١٤١)

(٦) سورة الشعراء الآية (١٦٠)

(٧) سورة الاعراف الآية (٥٩) .

(٨) تفسير الجلالين (ص١٨٧) .

(٩) سورة الاعراف الآية (٦٥) .

(١٠) تفسير الجلالين (ص١٨٧) .

ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً)[١] ثم قال تعالى : (وأما الذين استنكفوا واستكبروا)[٢] عن عبادته[٣] (فيعذبهم عذاباً أليماً)[٢]

وبمـــثل ما قال السيوطي قال الامام بن جرير الطبري في قوله تعالى : (لن يستنكف المسيح) الآية ، " لن يأنف ولـــن يســـتكبر المســـيح أن يكـــون عبداً لله يعني : من أن يكون عبداً لله[٤]... ولن يستنكف أيضاً من الاقرار لله بالعبودية والاذعـــان له بذلـــك رســـله المقربون ، الذين قربهم الله ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه[٥]... وأما الذين تعظموا عن الاقـــرار لله بالعـــبودة ، والاذعـــان له بالطاعة ، واستكبروا عن التذلل لألوهته وعبادته ، وتسليم الربوبية والوحدانية له (فيعذبهم عذاباً أليما)[٦] يعني عذاباً موجعاً "[٧] .

فالمسيح وجميع الأنبياء – عليهم السلام – داخلون في العبودية لله ، بل هم أول المسارعين إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فهذا أعظم ما أرسلوا به ، ودعوا إليه ، فقد قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنـــا فاعـــبدون)[٨] وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٩] وفي تفسير هذه الآية يقول السيوطي : (أن اعبدوا الله) " وحدوه "[١٠] (واجتنبوا الطاغوت) قال : " الأوثان أن تعبدوها "[١١] .

وبمـــثل هذا فسرها ابن جرير إلا أنه فسر الطاغوت بالشيطان ، والسيوطي فسرها بالأوثان ، وعبادة الأوثان إنما يدعو إليها الشيطان وأعوانه وأتباعه (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)[١٢] قال ابن جرير " يقول تعالى ذكره : ولقـــد بعثـــنا أيهـــا الناس في كل أمة سلفت قبلكم رسولاً ، كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأفردوا له الطاعة ، وأخلصوا له العبادة ... وابعدوا من الشيطان ، واحذروا أن يغويكم ، ويصدكم عن سبيل الله ، فتضلوا "[١٣] .

يؤكـــد الســـيوطي عـــلى تقرير هذا التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، فيقول : في تفسير قوله تعالى : (وإلى عاد أخـــاهم هـــوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم)[١٤] في عبادتكم الأوثان[١٥] (إلا مفترون)[٥] كاذبون على الله "[٦] .

وهكـــذا كـــان كل رسول يأمر قومه بعبادة الله وحده ، واجتناب كل ما سواه من المعبودات من أوثان ، وهوى ،

---

(١) سورة النساء الآية (١٧٢) وانظر معها : تفسير الجلالين (ص١٢٢-١٢٣) .
(٢) سورة النساء الآية (١٧٣) .
(٣) تفسير الجلالين (ص١٢٣) .
(٤) جامع البيان (٣٧/٦) .
(٥) نفسه (٣٨/٦) .
(٦) سورة النساء الآية (١٧٣) .
(٧) جامع البيان (٣٨،٣٩/٦) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٣٣/٢) ، والشوكاني : فتح القدير (٥٤٢/١) .
(٨) سورة الانبياء الآية (٢٥) .
(٩) سورة النحل الآية (٣٦) .
(١٠) الجلالين (ص٣٢٢) وانظر كذلك (ص٢٧٠) ، (ص٢٧٤) .
(١١) نفسه (ص٣٢٢) .
(١٢) سورة فاطر الآية (٦) .
(١٣) جامع البيان (١٠٣/٦) وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٩٩/٤) .
(١٤) سورة هود الآية (٥٠) .
(١٥) تفسير الجلالين (٢٦٩) .

وشهوة وسلطان .

فمـــا سوى الله تعالى ليس بإله ، وإن إلهية ما سواه أبطل الباطل ، وإثباتها أظلم الظلم ، فلا يستحق العبادة إلا هو سبحانه ، كما لا تصلح الإلهية لغيره ، فكل الذين ألهوا وعبدوا غير الله ، هم ضالون مشركون ، ليس لهم في الآخرة من نصيب .

ولا ريــب أن عبادة الله وتوحيده أساسه قول : لا إله إلا الله ، فهي كلمة التوحيد ، الدالة عليه ، وهي أول واجب على العبد ، وهي أول ما يدخل به الاسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا قال السيوطي : " جميع الرسل جاءت بهذه الكلمة المشــرفة دون ســائر الطاعــات ، وأول مــن شهد بها الله وملائكته ثم الرسل ، قال تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكــة...)(١) ثم أمرك بها في قوله (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)(٢) ولا يبقى في الجنة غيرها ، والقرآن ، والحمد لله ، والحب لله ، فعليك أيها الأخ بحفظها ، ولا تدنسها بالمعاصي ، وإن قُدِّرت عليك فامحها بتوبة ، كالثوب تغسله كلما تدنس ، وإن لم تتب وتوسخ فيوم زينة المحشر ما تلبس ؟ وحرص عليها من أحببته أو تعلق بك "(٣) .

قــلت : قــد ورد في الحديث أيضاً أن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس(٤) ، وهذا أيضاً مما يبقى في الجنة ، وهو تسبيح الله تعالى وتحميده .

والســيوطي عــند بيــان معــنى كلمة (لا إله إلا الله) وذلك في تفسير قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم...)(٥) يورد بعض الاسئلة والمناقشات التي يتبين من خلالها معنى هذه الكلمة العظيمة ، فقال : " فإن قــلت : لأي شــئ ذكــر الشــهادة على نفسه ، مع أن الشهادة من النفس لا تقبل ؟ فالجواب : أن الله لما بعث نبيه محمداً بالرســالة ، وأمرهم بتوحيد الله ، فقال : قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، فقالوا : من يشهد أنه رسول الله ؟ قال لهم : أي شئ أكبر شهادة ، فقالوا : الله أكبر شهادة ، فأنزل الله الآية "(٦) .

بيــد أنــني لم أجد في مصنفات أسباب النزول هذا الذي ذكره السيوطي هنا ، لكنه ذكر في " أسباب النزول " من تصنيفه عن ابن عباس قال : جاء النحام بن زيد(٧) ، وقروم بن كعب(٨) ، وبحري بن عمر(٩) ، فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره ، فقال : لا إله إلا الله ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو ، فأنزل الله في قولهم : (قل أي شئ أكبر شهادة...) الآية "(١٠) .

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٨) .
(٢) سورة آل عمران الآية (٦٤) .
(٣) معترك الاقران (٤٨٦/٢) .
(٤) ورد في صحيح مسلم (٢١٨٠/٤) ح رقم (٢٨٣٥) .
(٥) سورة آل عمران بعض الآية (١٨) .
(٦) معترك الأقران (٤٨٦/٢) .
(٧) الدر المنثور (٢٥٦/٣) قروم ، وكذلك عند ابن جرير (١٤٦/٧) .
(٨) السابق نفسه .
(٩) الدر المنثور (٢٥٦/٣) بحري بن عمرو ، وعند ابن جرير بن عمير (١٤٦/٧) .
(١٠) أســباب النزول في حاشية تفسير الجلالين (ص٢٦٥،٢٦٤) ، والدر المنثور (٢٥٦/٣) وتابعه الشوكاني (١٠٦/٢) ، وهو عند ابن جرير (١٤٦/٧) ، كما قال السيوطي .

وروى في الدر المنثور أيضاً عن مجاهد في قوله : (قل أي شئ أكبر شهادة) قال : " أمر محمد – صلى الله عليه وسلم – أن يسال قريشاً : أي شئ أكبر شهادة ؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول في قوله تعالى : الله شهيد بيني وبينكم "(١) .

فقوله : (الله شهيد بيني وبينكم) (٢) إخبار من الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأمر من الله ، وليس من كلام قريش .

ثم قال السيوطي : " ومعناها شهد شهادةً فرضيها وأمر الخلق بها بعد شهادته لنفسه في أزله ... فإن قلت : لم ذكر النفي قبل الاثبات ؟ والجواب : لإكمال المدحة ، لأن قول الرجل : لا عالم في البلد إلا فلان ، أمدح من قولك : فلان عالم في البلد ، وأيضاً فالنجاة من النار أولى من دخول الجنة ، فأمر الله أولاً بما ينجي من النار ، وهي البراءة من عبادة الأصنام(٣) ثم بالتوحيد الذي يدخل الجنة .

وأيضاً فنفى الإلهية عن الأصنام(٤) إثبات الألوهية لله ، وليس في إثبات الإلهية لله نفي الإلهية عن الأصنام ، لأن العاقل لا يكون بغير التولي إلى معبود ، فإذا نفي الإلهية عن الاصنام ثبت توليه إلى الله ، وإذا أثبت الإلهية لله فليس يتبرأ عن الأصنام ، لأنه ربما يكون لواحد معبودان ، فما أشرف هذه الكلمة المشرفة إن وفقت إليها وأماتك الله عليها "(٥) .

المبحث الثالث : عددهم

تعرض السيوطي لتعداد الأنبياء والمرسلين في " الحاوي " فقال : " مسألة – كم عدد الأنبياء والرسل ؟ الجواب : روى الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة الباهلي " أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟ قال : " نعم " ، قال : كم بينه وبين نوح ؟ قال : " عشرة قرون " ، قال : كم بين نوح وإبراهيم ؟ قال : " عشرة قرون " ، قال : يا رسول الله كم كانت الرسل ؟ قال : " ثلاثمائة وخمسة عشر " ورجاله رجال الصحيح(٦) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم عن أبي ذر قال : " قلت : يا رسول الله ، كم الأنبياء ؟ قال : " مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً " قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير "(٧) ، وقال في " الجلالين " : " روى أنه تعالى بعث ثمانية آلاف نبي ، أربعة آلاف من اسرائيل(٨) ، وأربعة آلاف من سائر الناس ، قاله الشيخ(٩) في سورة غافر "(١٠) .

ذكر هذه الرواية بسندها الحافظ ابن كثير فقال : " عن أنس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "

---

(١) الدر المنثور (٣/٢٥٦) ، وانظر ابن جرير (٧/١٦٢) .
(٢) سورة الأنعام الآية (١٩) .
(٣) الأولى أن يقال : عبادة غير الله ، لأنه أعم من أن تكون العبادة للأصنام أو لغيرها من المعبودات المتعددة .
(٤) الأولى أن يقال : نفي الإلهية عن غير الله – كسابقه – .
(٥) معترك الأقران (٢/٤٨٧،٤٨٦) .
(٦) تفسير ابن كثير (٢/٤٢٣) وقال : معان بن رفاع السلامي ضعيف ، وعلي بن يزيد ضعيف ، والقاسم أبو عبدالرحمن ضعيف أيضاً .
(٧) مشكاة المصابيح (٣/١٢٢) ، الحاوي (٢/١٣٨) وقال الألباني : إسناده صحيح .
(٨) هكذا " من اسرائيل " ولعلها " من بني إسرائيل " كما هو واضح من كلام شيخه المحلي في تفسير سورة غافر – الجلالين (ص٥٧٧) .
وعند ابن كثير : " إلى بني إسرائيل " بدلاً من "من" انظر التفسير (٣/٤٢٣) .
(٩) يقصد شيخه جلال الدين المحلي .
(١٠) (ص١٢١) وانظر تفسير سورة غافر (ص٥٧٧) .

بعث الله ثمانية آلاف نبي ، أربعة آلاف إلى بني إسرائيل ، وأربعة آلاف إلى سائر الناس "[١] وذكرها السيوطي في " الدر المنثور " من حديث أنس أيضاً ، وعزاها للحاكم وضعفها[٢] .

قال السفاريني : " وتقدم أن جميع الأنبياء – عليهم السلام – من لدن آدم إلى خاتمهم نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، وأن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر "[٣] .

ويبدو أن السفاريني قد صح لديه حديث أبي ذر عند ابن حبان في صحيحه .

يرى التفتازاني أنه من الأولى ألا يذكر فيهم عدد معين ، قال : لأنه : " لا يؤمن في ذكر العدد أن يدخل فيهم من ليس منهم إن ذكر عدد أكثر من عددهم ، أو يخرج منهم من هو فيهم إن ذكر عدد أقل من عددهم "[٤] .

وذكر التفتازاني علة أخرى تمنع من تحديد عدد الأنبياء وهي أن الأحاديث الواردة في عددهم هي من قبيل الآحاد ، قال : " إن خبر الواحد على تقدير اشتماله على جميع الشرائط المذكورة في أصول الفقه ، لا يفيد إلا الظن ، ولا عبرة بالظن في باب الاعتقادات خصوصاً إذا اشتمل على اختلاف رواية ، وكان القول بموجبه مما يفضي إلى مخالفة ظاهر الكتاب ، وهو أن بعض الأنبياء لم يذكر للنبي – عليه السلام – ويحتمل مخالفة الواقع ، وهو عد النبي – عليه السلام – من غير الأنبياء ، وغير النبي من الأنبياء ، بناءً على أن اسم العدد خاص في مدلوله لا يحتمل الزيادة ولا النقصان "[٥] .

والمحذور الذي أورده التفتازاني من احتمال دخول من هو غير نبي في الأنبياء وعكسه ، فهو إنما يقع لو أن من ذكر العدد ذكره من غير اعتماد على نص ، أما إن ورد النص عن المعصوم ، فلا محذور ، وكذلك رده حديث العدد بأنه آحاد ، إنما هو جار على مذهبه الأشعري في عدم احتجاجهم بخبر الواحد في العقائد ، وهو مردود ، والصحيح ما عليه أهل السنة والجماعة من الاحتجاج بأخبار الآحاد في العقائد والأحكام على حد سواء إذا صح سنده ولم يكن به شذوذ ولا علة قادحة ، وهنا قد ثبت نص حديث أبي ذر – رضي الله عنه – وصح ، فوجب الاحتجاج به ، مع عدم الالتفات إلى ما ذكره التفتازاني ، وأما كون الحديث يخالف ظاهر الكتاب ، فإنني أقول لا مخالفة هنا ، لأن قول الله تعالى : (...ومنهم من لم نقصص عليك) [٦] أي في القرآن كمن ذكرنا أسماءهم صريحة فيه وهم الخمسة والعشرون نبياً :

١- آدم ، ٢- إدريس ، ٣- نوح ، ٤- هود ، ٥- صالح ،٦- وإبراهيم، ٧- لوط ، ٨- إسماعيل ، ٩- إسحاق ، ١٠- يعقوب ، ١١- يوسف ، ١٢- أيوب ، ١٣- شعيب ، ١٤- موسى ، ١٥- هارون ، ١٦- يونس، ١٧- داود ، ١٨- سليمان ، ١٩- إلياس ، ٢٠- اليسع ، ٢١- زكريا ، ٢٢- يحيى ، ٢٣- عيسى ، ٢٤- ذو الكفل عند كثير من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٢٣) وقال ابن كثير : " وهذا أيضاً اسناد ضعيف فيه الربذي ضعيف، وشيخه الرقاشي أضعف منه " وقال في المجمع (٨/٢١٠) عن الربذي "ضعيف جدا".

(٢) (٢/٧٤٦) ، وانظر : معترك الأقران (٢/٤٢٦) .

(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/٢٦٣) .

(٤) شرح العقائد النسفية (ص٨٨-٨٩) ، وانظر نحوه في " تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد " للبيجوري (ص٧٥) .

(٥) نفسه (ص٨٩) .

(٦) سورة غافر ، بعض الآية (٧٨) .

المفسرين ، ٢٥- سيدهم وخاتمهم محمد - صلى الله عليه وسلم - وعليهم أجمعين[١].

فهـو سبحانه يخبر أنه لم يذكر بقية الأنبياء في القرآن بأسمائهم ، ويكون قد ذكرهم لنبيه بوحي في غير القرآن ، أو أنـه تعـالى أخبره بعددهم جملة - كما هو مقتضى الحديث - دون أن يبين له تفصيل أعيانهم وأسمائهم وعلى هذا فلا مصادمة بين القرآن والحديث ، ومالم يذكر في القرآن لا يعارضه كونه ذكر في السنة وعليه فلا اشكال .

ويجـدر التنـبيه على أن ابن تيمية أشار إلى أن الامام أحمد لم يثبت عنده حديث أبي ذر الذي يذكر عدد الأنبياء والرسـل قال بعد كلام نقله عن الامام أحمد : " وهذا الذي ذكره أحمد ، وذكره محمد بن نصر المروزي ، وغيرهما يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل ، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم "[٢] .

وكذلـك ذهب صاحب شرح الطحاوية إلى أنه لم يرد في عدة الأنبياء نص ، فقال : " وأما الأنبياء والمرسلون ، فعلينا الايمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله ، والايمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم ، فعلينا الايمان بهم جملة ، لأنه لم يأت في عددهم نص "[٣] .

ويـبدو أن الشارح - رحمه الله - لم يقف على نص حديث أبي ذر - رضي الله عنه - المتقدم ، أو لعله رأى ما رآه ابـن الجوزي من أن الحديث موضوع فلم يأخذ به ، لأنه لم يثبت عنده كما قد نقلت آنفاً عن الامام أحمد مما قاله ابن تيمية لكن الصواب أن الحديث صحيح وثابت كما نقلت ذلك عن أئمة الحديث المعتد برأيهم .

المبحث الرابع

٤- المفاضلة بينهم:

قال السيوطي في تفسير قوله تعالى : (وربك أعلم بمن في السماوات والأرض)[٤] " فيخصهم بما شاء على قدر أحوالهـم "[٥] (ولقد فضلنا بعض النبين على بعض)[١] " بتخصيص كلاً منهم بفضيلة كموسى بالكلام ، وابراهيم بالخلة ، ومحمـد بالاسـراء "[٢] فهذا خبر من الله تعالى بتفضيله بعض الأنبياء على البعض الآخر ، وقال ابن جرير تفسيراً للآية " وربـك يـا محمد أعلم بمن في السموات والأرض وما يصلحهم ، فإنه خالقهم ورازقهم ومدبرهم... فإن ذلك من فعلي بهم لتفضـيلي بعض النبين على بعض ، بإرسال بعضهم إلى بعض الخلق ، وبعضهم إلى الجميع ، ورفعي بعضهم على بعض درجـات "[٦] ثم روى عن قتادة : " اتخذ الله ابراهيم خليلاً ، وكلم الله موسى تكليما ، وجعل الله عيسى كمثل آدم خلقه من تـراب ثم قال له كن فيكون ، وهو عبدالله ورسوله ، من كلمة الله وروحه ، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وآتى داوود زبـوراً ، كـنا نحدث دعاءً عُلّمَه داود ، تحميد وتمجيد ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ،

---

(١) ابن كثير (٢/٤٢٢) .
(٢) مجموع الفتاوي (٧/٤٠٩) ، وانظر السفاريني : لوامع الأنوار (٢/٢٦٤) .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣٤٩) .
(٤) سورة الاسراء الآية (٥٥) .
(٥) تفسير الجلالين (ص٣٤٣) .
(٦) جامع البيان (١٥/١٠٣) والسيوطي : الدر المنثور (٢/٣) ، (٥/٣٠٣،٣٠٢) .

وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر "[١] .

ويـــبدو الاتفاق واضحاً بين كلام كل من السيوطي وابن جرير ٠ و قال السيوطي في تفسير قوله تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)[٢] قال : " بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره "[٣] . فهذا تفضيل تخصيص كل نبي بما ليس لغيره من الأنبياء ، أما تفضيل الرتب والمنازل والدرجات فقد : " أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم "[٤] قال تعالى : (ورفع بعضهم درجات)[٥] .

قال ابن كثير : " ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء "[٦] كما حكى السيوطي الاجماع على تفضيل أولي العزم من الرسل فقال : " إن الله فضل بعض الأنبياء والرسل على بعض ، من غير تعيين الفاضل على المفضول ، لكن الاجمـــاع عـــلى تفضـــيل أولي العزم منهم ، واختلف فيالتفضيل بينهم فقيل : آدم ، لأنه أبو البشر ، وقيل : نوح لأنه أول رســـول بعـــث فـــي الأرض ، وقيل : ابراهيم لأنه خليل الله ، وقيل : موسى لأنه كليم الله ، وقيل عيسى لأنه روح الله ، والاجماع على أن نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - سيدهم وإمامهم ... "[٧] .

وقـــد أمـــر الله تعالى رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بأن يصبر كما صبر أولوا العزم الذين تقدموه فهو واحد منهم ، قال تعالى : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل)[٨] وقد ذكرهم الله تعالى في قوله : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم...)[٩] وذكرهم - جل وعلا - في موضع آخر فقال : (شرع لكم من الدين ما وحي به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[١٠] .

ولقـــد أورد السيوطي أقوالاً في بيان من هم أولوا العزم فقال : " وقيل أولوا العزم الثمانية عشر المذكورون في الأنعام "[١١] وهو قوله تعالى : (تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا لـــه اســـحاق ويعقـــوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجـــزي المحســـنين وزكـــريا ويحي وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على

---

(١) المصدران السابقان .
(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .
(٣) تفسير الجلالين (٤٩) .
(٤) عمر سليمان الاشقر : الرسل والرسالات (ص٢١٧) .
(٥) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .
(٦) تفسير ابن كثير (٥/٨٥) .
(٧) معترك الأقران (٣/٢٦) .
(٨) سورة الأحقاف الآية (٣٥) .
(٩) سورة الأحزاب الآية (٧) .
(١٠) سورة الشورى الآية (١٣) .
(١١) معترك الأقران (٣/١٠٠) .

العالمين)[١] ودليل هذا القول أن الله تعالى قال بعد هذه الآيات آمراً نبيه – صلى الله عليه وسلم – : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده...)[٢] .

" وقيل : كل من لقي من أمته شدة ، وقيل : الرسل كلهم أولو عزم ، فـ " من الرسل " على هذا لبيان الجنس ، وعلى الأقول المتقدمة للتبعيض "[٣] وهذه الأقوال التي ذكرها السيوطي لا يخفى بعدها ، ذلك لأنه يكاد يكون شبه اتفاق بين العلماء على أن أولي العزم هم الخمسة المذكورون في آية الأحزاب[٤] وآية الشورى[٥] قال ابن كثير : " ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن ، في سورة الأحزاب[٦]... وفي الشورى[٧]... ولا خلاف أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – أفضلهم ، ثم من بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور "[٨] وقال ابن عثيمين : " ...وأن أفضلهم محمد ثم إبراهيم ثم موسى ثم نوح وعيسى ابن مريم " وبغض النظر عن ترتيب الأفضلية بين هؤلاء الخمسة محمد ، ونوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، – عليهم جميعاً الصلاة والسلام[٩] – فإنه من المتفق عليه أنهم أفضل الرسل ، والرسل أفضل من الأنبياء ، والأنبياء أفضل من سائر الخلق وبجانب آيات التفضيل هذه وردت أحاديث أيضاً تفضل بعض النبيين على بعض كما في حديث أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع "[١٠] وفي أول حديث الشفاعة : " أنا سيد الناس يوم القيامة "[١١] وورد أيضاً قوله – صلى الله عليه وسلم – " إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة : واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم "[١٢] فهذه بالقطع تفيد تفضيله – صلى الله عليه وسلم – على سائر الأنبياء والمرسلين ومن باب أولى على سائر الناس ، هذا في الوقت الذي وردت أحاديث في النهي عن المفاضلة بين الأنبياء ، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم : " لا تخيروني على موسى... " الحديث[١٣] ، وقوله – صلى الله عليه وسلم–: " لا تفضلوا بين أنبياء الله "[١٤] وقوله – عليه الصلاة والسلام –:

---

(١) سورة الأنعام الآيات (٨٣–٨٦) .
(٢) سورة الأنعام الآية (٩٠) .
(٣) معترك الأقران (٣/١٠٠) .
(٤) آية رقم (٧) .
(٥) آية رقم (١٣) .
(٦) آية رقم (٧) .
(٧) آية رقم (١٣) .
(٨) تفسير القرآن العظيم (٥/٨٥) .
(٩) روى ذلك الترتيب ابن جرير : جامع البيان (٢٦/٣٧) عن عطاء الخراساني ، وانظر : ابن كثير (٧/٢٨٨) .
(١٠) الطحاوية (١٦٩) . رواه مسلم في صحيحه (٧/٥٩) وأبو داود (٣/٤٦٧) ، وابن سعد في الطبقات (١/٢٠) وأحمد (٢/٥٤٠) .
(١١) صحيح البخاري (٢/٣٣٤) ، (٣/٢٧٢) ، صحيح مسلم (١/١٢٧) ، وأحمد (٢/٤٣٥) .
(١٢) نفسه السابق . صحيح مسلم (٧/٥٨) ، والترمذي (٢/٢٨١) وقال :" حديث حسن صحيح".
(١٣) صحيح البخاري ح رقم (٢٤١١) ، (٣٤٠٨) ، صحيح مسلم ح رقم (٢٣٧٣) (٤/١٨٤٤) .
(١٤) صحيح البخاري ح رقم (٢٤١٢) ، (٣٤١٤) ، صحيح مسلم (٤/١٨٤٥،١٨٤٣) ح رقم (١٦٣) .

" لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " وقوله : " ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى "[١] .

وقد أشكل على البعض هذا التعارض الظاهر بين نصوص التفضيل وبين النصوص التي تنهي عن التفضيل – كما تقدم –

ولكـــن العـــلماء جمعوا بين هذه النصوص على ما هو مقرر ، من أن ظواهر النصوص إذا تعارضت بحث في معـــرفة المتقدم والمتأخر ، فيكون السابق منسوخاً باللاحق ، وإلا جمع بينها على ما هو معلوم بين العلماء . وقد قالوا في الجمع بين هذه النصوص أجوبة منها :

أولاً : أن هـــذا النهي كان قد حصل منه – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يعلمه الله بالتفضيل[٢] ، وقبل أن يوحي إليه بأنه سيد ولد آدم[٣] ، وإن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل[٤] .

ثانياً : ما قاله السيوطي : " أنه قال ذلك على وجه التواضع والانبساط والتنبيه للمخاطب على ألا يتعرض لأنبياء الله ورسله بالغيبة "[٥] .

ثالـــثاً : ما قاله الإمام ابن حجر أنه إنما : " خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة "[٦] .

رابعاً : أنه نهى عن التفضيل بمجرد الآراء والعصبية ، ذلك لأن التفضيل إذا كان على قانون الهوى والتشهي كان مذموماً ، وهـــو كذلـــك إن جرى على وجه الحمية والعصبية – أيضاً – بل الجهاد نفسه وهو ذروة سنام الإسلام ، إن حصل من المقاتل حمية وعصبية كان كذلك مذموماً ، فإن الله قد حرم الفخر "[٧] .

خامساً : لا تفضلوا ، لأن مقام التفضيل ليس إليكم ، وإنما هو إلى الله – عز وجل – وعليكم الانقياد ، والرضى والتسليم له ، والإيمان به[٨] ، ذكر هذا ابن كثير ، وقال به الشوكاني ونصره وضعف ما سواه ، وغلب جانب النهي عن التفضيل ، وذهـــب إلى أنه لو فرض أنه لم يرد إلا القرآن الكريم بإخبارنا بأن الله تعالى فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن لنا فيه دليل على جواز التفضيل بين الأنبياء ، ذلك لأن " المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عليه منها خافية، وليســـت بمعـــلومة عـــند البشـــر ، فقد يجهل أتباع نبي من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصياته ، فضلاً عن مزايا غيره ، والتفضـــيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً وهذا مفضولاً ، لا قبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلها ، فإن ذلك تفضيل بالجهل ، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له وهو ممنوع "[٩] .

---

(١) صـــحيح البخاري ح رقم (٣٣٩٥ ، ٣٤١٣ ، ٣٤١٦ ، ٤٦٣٠، ٧٥٣٩) ، (٣٤١٥) ، (٤٦٠٤) ، (٤٦٣١) ، (٤٨٠٥) ، مسلم (٤/ ١٨٤٣) ، ح رقم (٢٣٧٣) .

(٢) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٥٢/٦) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/١) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٧١/٣) .

(٣) انظر : السيوطي : معترك الأقران (٢٦/٣) ، ابن كثير تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/١) ، القرطبي : الجامع (١٧١/٣) .

(٤) انظر : القرطبي : الجامع (١٧١/٣) .

(٥) معترك الأقران (٢٦/٣) ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٥٢/٦) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/١) .

(٦) فتح الباري (٤٥٢/٦) .

(٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص١٧٠-١٧١) .

(٨) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/١) .

(٩) فتح القدير (٢٦٩/١) .

إذاً فورود القرآن الكريم بالتفضيل لا يستلزم جواز التفضيل للبشر، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك ؟ .

لكـن قـد يقـال تعقيباً على كلام الشوكاني : إن القائل بالتفضيل إجمالاً ، لم يقل محذوراً ، لأنه قائل بمقتضى القرآن، ومن قال بمقتضى كتاب الله قائل بالحق لا بالباطل ، لأن من المتفق عليه أن من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، وعليه فلا يمنع من قال : إن الله قد فضل بعض رسله على بعض ، هكذا بإطلاق ، لأنه ناطق بما نطق به الكتاب العزيز

سادسـاً : أن الـنهي عـن التفضيل في مثل الحال التي حصلت بين اليهودي وبين المسلم الأنصاري من الخصام ، فقال اليهـودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه ذلك اليهودي ، وقال : أي خبيث ، على محمد – صلى الله عليه وسلم – ؟؟

فقـال رسـول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشـق عـنه الأرض ، فـإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري ، أكان فيمن صَعِقَ ، أم حوسب بصعقته الأولى "[١] فقـالوا : إنما ورد النهي عن المفاضلة بين الأنبياء في مثل هذه الحال من التخاصم والتشاحن والتشاجر لأنها قد تؤدي إلى تنقص أحد من الأنبياء .

سـابعاً : مـا ذكره القرطبي واستحسنه فقال : " إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة ، لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف ، والمعجزات المتباينات ، وأما النبوة في نفسـها فلا تتفاضل ، وإنما تتفاضل بأمور أخر زائدة عليها ، ولذلك منهم رسل أولوا عزم ، ومنهم من اتخذ خليلاً . ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات "[٢] ثم قال القرطبي : " وهذا قول حسن ، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل ، وأعطي من الوسائل ... ومعلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل ، فإن من أرسل فضل على غيره بالرسالة ، واستووا في النبوة ، إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم "[٣] ثم نقل القرطبي عن ابن عطية قوله : " إن القرآن يقتضي التفضيل وذلك في الجملة دون تعيين أحد مفضول "[٤]

ثامناً : ماذهب إلأيه شارح الطحاوية من أن النهي عن التفضيل إنما هو نهي عن التفضيل الخاص حيث قال : " إن قوله – صـلى الله عـليه وسـلم – : " لا تفضلوني على موسى "[٥] ، وقوله : " لا تفضلوا بين الأنبياء "[٦] نهى عن التفضيل الخاص ، أي لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه ، بخلاف قوله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر "[٧] فإنه تفضيل عام فلا يمـنع منه ، وهذا كما لو قيل : فلان أفضل أهل البلد ، لا ينصب على أفرادهم ، بخلاف ما لو قيل لأحدهم : فلان أفضل

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الخصومات (٤٤) باب (١) ح رقم (٢٤١٢) فتح الباري (٥/٧٠) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/١٧٢،١٧١) .
(٣) نفسه (٣/١٧٢) .
(٤) نفسه .
(٥) شرح الطحاوية .
(٦) شرح العقيدة الطحاوية (١٦٩-١٧٠) .
(٧) شرح العقيدة الطحاوية (١٧٠-١٧١) .

منك "[١] قال : " ثم رأيت الطحاوي - رحمه الله - قد أجاب بهذا الجواب في شرح معاني الآثار "[٢] .

وعليه فلا يجوز إثبات التفضيل إلا على وجه العموم ، وبدون تحديد مفضول بعينه .

تاسعاً : قال الإمام ابن حجر : " إنما نهى عن ذلك (التفضيل) من يقوله برأيه ، لا من يقوله بدليل ،

عاشراً : من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول

حادي عشر : يؤدي إلى الخصومة والتنازع

ثاني عشر : المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة "[٣]

ثالث عشر : وقال أيضاً عن بعض أهل العلم : " الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب ، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة ، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر ، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان ، فلا يدخل في النهي "[٤] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص١٧١-١٧٢) .
(٢) نفسه .
(٣) فتح الباري (٦/٤٤٦) .
(٤) نفسه .

الفصل الثالث : الوحي وطرقه

المبحث الأول : الـــوحـــي :

١- الوحي في اللغة :

أصـــل الوحي : الإشارة السريعة[١] الخفية[٢] ، " ولتضمن السرعة قيل أمرٌ وَحْيٌ ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض "[٣] وفي الرمز والتعريض معنى الخفاء .

وأوحيـــت إليه إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، ويقال : " وحيت إليه الكلام وأوحيت "[٤] وذلك بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة[٥] ، " قال علقمة : قرأت القرآن في سنتين "[٦] فقال الحارث الأعور : " القرآن هيـــن ، الوحي أشد منه ، أراد بالقرآن القراءة، وبالوحي الكتابة والخط ، يقال : وحيت الكتاب وحياً "[٧] لأن اصل مادتها (وحـــي) الثلاثي ، والوارد في القرآن الكريم الفعل الرباعي (أوحى) كما في قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل...)[٨] وقوله تعالى : (بأن ربك أوحى لها)[٩] .

فاللغة الظاهرة في القرآن بالألف (أوحى) وأما في غير القرآن العظيم فوحيت إلى فلان مشهورة أنشد العجاج :

" وحي لها القرار فاستقرتِ "[١٠]

ويطـــلق الوحـــي في اللغة على معان متعددة : فيأتي بمعنى الإلهام الحاصل للإنسان قال أبو اسحاق : " ...ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً "[١١] ومن ذلك قوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي...)[١٢] وقوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه...)[١٣] فهذا إلهام# أو اعلام في خفاء قال أبو اسحاق وأصل الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء ويأتي بمعنى الإلهام الحاصل للحيوان ، ومنه قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل...)[١٤] ، وسماه الراغب بالتسخير[١٥] ، فأوحي إلى النحل أي سخره سبحانه .

ويأتي بمعنى الأمر ، كما في قوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين...)[٢] على قول ، وكذا في قوله تعالى : (بأن ربك أوحى لها)[١٦] أي أمرها[١٧] .

---

(١) انظر : الراغب الأصفهاني : المفردات (ص٥١٥) .
(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب (٣٧٩/١٥) .
(٣) الراغب : المفردات (ص٥١٥) .
(٤) ابن منظور : اللسان (٣٧٩/١٥) .
(٥) الراغب : المفردات (ص٥١٥) .
(٦) اللسان (٣٨٠/١٥) .
(٧) السابق نفسه .
(٨) سورة النحل الآية (١٦٨) .
(٩) سورة الزلزلة الآية (٥) .
(١٠) ابن منظور : لسان العرب (٣٨١/١٥) وانظر : ابن فارس : معجم مقاييس اللغة (١٣/٦)، والجوهري : الصحاح (٢٠/٥-٢٥) .
(١١) لسان العرب (٣٨١/١٥) .
(١٢) سورة المائدة الآية (١١) . # اظر المفردات (٥١٥) .
(١٣) سورة القصص الآية (٧) .
(١٤) سورة النحل الآية (١٦٨) وانظر اللسان (٣٨٠/١٥) .
(١٥) انظر المفردات (٥١٥) .
(١٦) سورة الزلزلة الآية (٥) .
(١٧) اللسان (٣٨٠/١٥) .

أو هــو تسـخير عـلـى قـول الراغب[١] ومنه قوله تعالى : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق ، واضربوا منهم كل بنان)[٢] فهذا أمر أيضاً .

ويأتي كذلك بمعنى أن تكلمه بكلام تخفيه عن غيره قال أبو ذوؤيب :

فقال لها ، وقد أوحت إليه : ألا لله أمـك مـا تعـيـف

وقريب منه قوله تعالى : (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)[٣] يعني يسر بعضهم إلى بعض[٤] .

ويأتي – أيضاً – بمعنى الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيماء ، قال تعالى : (فأوحي إليهم أن سبحوا بكرة وعشـيا)[٥] ، والمعروف أن زكريا – عليه السلام – أشار إليهم إشارة وحية سريعة ولم يتكلم[٦] ، قال الفراء : (فأوحي إليهم) أي : " أشار إليهم "[٧] ويأتي الوحي بمعنى الرسالة والبعث ، قال ابن الأعرابي : " وأوحى الرجل إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة "[٨] .

ويأتي – كذلك – بمعنى الإيماء بالجوارح ، قال الشاعر :

نظـرت إليهـا نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أني أحبها فأثر ذاك الوحي في وجناتها[٩]

وقـد عـبر القرآن الكريم بالوحي عن وسواس الشيطان ، وتزيينه خواطر الشر للإنسان[١٠] ، قال تعالى : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم...)[١١] .

ويتضح مما سبق أن كل ما دللت به من كلام ، أو كتابة أو رسالة أو إشارة فهو وحي[١٢] .

وقـد ذكـر ابن منظور معاني أخر للوحي كأن يأتي الوحي بمعنى النار ، وبمعنى الملِك (بكسر اللام) وبمعنى السيد وغيرها[١٣] وهي بعيدة عن مقصود البحث .

٢- الوحي في الاصطلاح :

نقـل الآجري بسنده عن ابن شهاب الزهري[١٤] تعريف الوحي فقال : " الوحي : ما يوحي الله عز وجل إلى النبي من أنبيائه ، فيثبت الله – عز وجل – ما أراد من وحيه في قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – يتكلم به النبي – صلى الله عليه وسلم – ويبينه ، وهو كلام الله عز وجل ووحيه "[١٥] .

---

(١) المفردات (ص٥١٦) .

(٢) سورة الأنفال الآية (١٢) .

(٣) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(٤) اللسان (٣٨٠/١٥) ، وابن فارس : المعجم (٩٣/٦) .

(٥) سورة مريم الآية (١١) .

(٦) انظـر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، وانظر : د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن (ص٢٤) ط١٠/١٩٧٧م . دار العلم للملايين – بيروت ، المفردات (ص٥١٥) .

(٧) اللسان (٣٨٠/١٥) .

(٨) نفس المصدر ، وانظر : ابن فارس : المعجم (٦٣/٦) .

(٩) انظـر : محمـد رشيد رضا : الوحي المحمدي (ص٤٣) ط١٣٩٩/٩هـ–١٩٧٩م – المكتب الاسلامي ، د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن (ص٢٤) .

(١٠) انظر : المفردات (ص٥١٥) .

(١١) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(١٢) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٩/١) .

(١٣) انظر : اللسان (٣٨٢/١٥،٣٨١) .

(١٤) أبـو بكر محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زهرة بن كلاب ، القرشي ، المدني ولد سنة (٥٠هـ) توفي سنة (١٢٤ هـ) . انظر : طبقات ابن سعد قسم (٢) (١٣٥/٢) ، وجامع بيان العلم وفضله (٧٣/١–٧٦) ، حلية الأولياء (٣٦٩/٣) .

(١٥) الآجري : الشريعة (١٤٦٣/٣) رقم (٩٨٤) بإسناد حسن . وانظر : د. محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص٤٨) .

ونقله ابن تيمية بنصه أيضاً عن ابن شهاب[١] . ونقله السيوطي كذلك عند تعريفه الوحي "[٢].

وزاد عليه قال : " ... ومنه مالايتكلم به ، ولايكتبه لأحد ، ولكنه يحدث به الناس حديثاً ، ويبين لهم أن الله أمره يبينه للناس ، ويبلغهم إياه " [٣] .

وهذا يتناول الوحي المتلو ، المتعبد بتلاوته ، وهوا لقرآن العظيم ، ويتناول كذلك الوحي غير المتلو ، وهو الحديث القدسي ، والحديث النبوي .

وقال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي ﴾ [٤].

وقال رسول الله ﷺ :" اكتب فوالذي نفسي بيده ماخرج مني إلا الحق) "[٥] .

ولذلك عرفه الإمام ابن حجر تعريفاً شاملاً في كلمتين فقال :" هو : الإعلام بالشرع " . [٦]

والشرح هو كل ماأنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ وهو ينتظم الاعتقاد ، والأحكام العملية ، والأخلاق [٧] .

وعلى ذلك فهو ليس مطلق إعلام ، إنما هو إعلام خاص وهو الذي يكون من الله تعالى إلى أنبيائه ورسله ، ومن **هنا كان الوحي في الاصطلاح أخص منه في اللغة من وجهين:**

<u>الأول :</u> المصدر فمصدره هو الله تعالى .

<u>الثاني :</u> الأشخاص الموحي إليهم وهم الأنبياء والمرسلون . [٨]

<u>المبحث الثاني : طرقه :</u>

للوحي طرق متعددة ، وأضرُب حسبما دل عليه قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم)[٩] .

فقد جمعت هذه الآية الكريمة طرق الوحي في ثلاثة رئيسية ، وللعلماء فيها تقسيمات فمنهم من يقسمها إلى أربع[١٠] ، ومنهم من يجعلها خمساً[١١] ، ومنهم من عدها ستة وأربعين نوعاً[١٢] . على حسب نظرة كل منهم لطريقة التقسيم وكله اجتهاد في تفسير الآية . وقد دلت هذه الآية على أن الطرق :

١- إما (وحياً) . ٢- (أو من وراء حجاب) .

٣- أو إرسال رسول من الملائكة .

- وقوله : (إلا وحياً) يتناول : الالهام ، والرؤيا الصادقة ، والوحي المنامي الذي يحصل مباشرة من الله تعالى لنبيه في المنام[١٣] ، بدون وساطة الملك .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٣٩٧/١٢) .

(٢) انظر : الاتقان في علوم القرآن (٤٤/١) ، والدر المنثور (٣٦٣/٧) .

(٣) الاتقان (٤٤/١) .

(٤) سورة النجم ، الآيتان (٣ ، ٤) .

(٥) أبو داود في " سننه " (٦٠/٤) رقم (٣٦٤٦) ، وأحمد في المسند (١٦٢/٢ ، ١٩٢) ، والدارمي في " سننه " المقدمة ، باب (٤٣) رقم (٤٩٠) وصححه الالباني ، انظر صحيح الجامع (٣٨٥/١) رقم (١٢٠٧) .

(٦) فتح الباري (٢٩/١) .

(٧) انظر : عثمان جمعة ضميرية : الإسلام وعلاقته بالشرائع الاخرى (ص٣٥) ، التوحيد مفتاح دعوة الرسل (ص٢٥) . المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص ١١٧) .

(٨) انظر : عبد الله عبدالحي أبو بكر : الوحي في الإسلام ، وابطال الشبهات حوله ـ ماجستير ـ أم القرى ١٤٠٥هـ ـ ١٤٠٦هـ (ص٨٤)

(٩) سورة الشورى الآية (٥١) .

(١٠) انظر : سعيد خليفة : النبوة عند ابن تيمية (١١٧-١٣١) .

(١١) انظر : السيوطي : الاتقان (٤٤/١) .

(١٢) انظر: أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي: المنهاج في شعب الإيمان (٢٣٩/١-٢٥٥) وابن حجر : فتح الباري (٢٠/١) . ذكره عن الحليمي .

(١٣) انظر : ابن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير (٢٩٧/٧) .

- والذي من وراء حجاب يتضمن كلام الله تعالى للنبي بدون أن يرى شيئاً ، فهو يسمع الصوت فقط كما حصل لموسى - عليه السلام - عندما ناداه ربه بالواد المقدس طوى وكما وقع لنبينا - صلى الله عليه وسلم - ليلة الاسراء وهو معروف .

- والـذي يحصـل بإرسال الرسول الملائكي ، فهو أن يرسل الله جبريل المكلف بالوحي إلى الأنبياء فيبلغ كلام الله تعالى إليهـم ، وقـد يأتي الملك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - مناماً ، وقد يأتيه يقظة في صورته الحقيقية الملائكية أو في صورة بشرية أو يأتيه في مثل صلصلة الجرس.

فهذه الأقسام الرئيسية وما تضمنتها من الأقسام الفرعية ، وقد سماها السيوطي " كيفيات الوحي " وقسمها إلى خمس :

__الأولى :__ " أن يأتيـه الملك في مثل صلصلة الجرس كما في الصحيح "[١] فعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن الحـارث بـن هشام[٢] - رضي الله عنه - سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحـي ؟ فقـال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال... "[٣] واستشهد السيوطي بدليل آخر على هذه الكيفية فقال : " وفي مسند أحمد عن عبدالله بن عمر : سـألت النـبي - صلى الله عليه وسلم - : هل تحس بالوحي ؟ فقال : أسمع صلاصل ، ثم اسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض "[٤] .

والصلصـلة المذكورة صوت الملك بالوحي ، قال الخطابي : " يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد ، وقيل : بل هو صوت حفيف أو خفق أجنحة الملك ، والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يـبقى فيـه مكـان لغيره "[٥] قال السيوطي : " وفي الصحيح أن هذه الحالة اشد حالات الوحي عليه "[٦] وقد مضى التصريح بذلك في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، إذ قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " وهو أشده علي " ويفهـم من هذه العبارة أن الوحي كله شديد ، ولكن هذه الصفة أشدها ، وهو واضح ، لأن الفهم من كلام مثل الصلصلة أشـكل مـن الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود ، قال ابن حجر : " والحكمة فيه أن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع ، وهي هنا : إما بإتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية ، وهو النوع الأول ، وإما بإتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني ، والأول أشد بلا شك "[٧] .

وعلل السيوطي شدة الوحي في هذه الكيفية بكون الوحي يتضمن آية وعيد أو آية تهديد فقال : " إنه كان إنما ينزل هكـذا (أي شديداً) إذا نزلت آية وعيد أو تهديد "[٨] وهذا الكلام فيه نظر - كما قال ابن حجر - لأن الحديث لم يبين هذه العـلة ، ولأن هـذه الشـدة لا تختص بالقرآن ، فقد حصلت هذه الشدة حالة الوحي بالسنة الشريفة[٩] ، ولكن الأقرب إلى الصواب أن فائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات له[١٠] - صلى الله عليه وسلم - ، والله أعلم

__الـثانية :__ " أن ينفث في روعه الكلام نفثاً ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : " إن روح القدس نفث في روعي "[١١] ...

---

(١) الاتقان (٤٤/١) ، ومعترك الأقران (٢٦٥/٢) .

(٢) الحـارث بن هشام المخزومي ، أخو أبي جهل شقيقه ، أسلم يوم الفتح ، وكان من فضلاء الصحابة واستشهد في فتوح الشام ، انظر ابن حجر : فتح الباري (٩٨/١) .

(٣) الـبخاري في " صحيحه " كتاب بدء الوحي (١) باب (٢) ح رقم (٢) الفتح (١٨/١) ، ورواه أيضاً في كتاب بدء الخلق (٥٩) باب (٦) ح رقم (٣٢١٥) الفتح (٣٠٤/٦) .

ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢٣) ح رقم (٨٧-٢٣٣٣) صحيح مسلم (١٨١٦/٤) .

(٤) الاتقان (٤٤/١) ومعترك الأقـران (٢٦٥/٢)، وانظر : مسند الإمام أحمد (١٥٨،١٦٣،٢٥٧/٦)

(٥) ابن حجر : فتح الباري (٢٠/١) ، والاتقان (٤٤/١) .

(٦) الاتقان (٤٤/١) ومعترك الأقران (٢٦٥/٢) ، وانظر حديث الحارث بن هشام المتقدم .

(٧) فتح الباري (٢٠/١) .

(٨) الأتقان (٤٤/١) ، ومعترك الأقران (٢٦٦/٢) ، ونقله ابن حجر في الفتح (٢٠/١) ولم ينسبه لأحد .

(٩) انظر : الفتح (٢٠/١) .

(١٠) نفسه .

(١١) حديث صحيح بشواهده ، انظر تحقيق الأرنؤوط " زاد المعاد " (٧٧،٧٨/١) .

وهذا قد يرجع إلى الحالة الأولى[١] ، أو التي بعدها بأن يأتيه في إحدى الكيفيتين وينفث في روعه "[٢] .

وهــذه الكيفيــة – كمــا قال السيوطي – قد ترجع إلى الحالة الأولى . **فالأولى :** أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس ، فينفث في روعه أثناء هذه الصلصلة .

والثانية : أن يأتيه الملك فينفث في روعه دون صلصلة – والله أعلم – والنفث : هو القذف والالقاء ، فقد وردت رواية الحاكم عن ابن مسعود : " إن جبريل – عليه السلام – ألقى في روعي "[٣] والرُوع : بضم الراء : القلب والخلد والخاطر[٤] .

<u>الثالـثة :</u> " أن يأتيه في صورة الرجل فيكلمه ، كما في الصحيح : " وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول "[٥] زاد أبو عوانة في صحيحه : وهو أهونه علي "[٦] .

<u>الـرابعة :</u> " أن يأتيه الملك في النوم ، وعـد قوم من ذلك سورة الكوثر "[٧] فقد روى مسلم عن أنس – رضي الله عنه – قـال : " بيــنما رســول الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع راسه متبسماً فقلنا ما أضــحكك يــا رسول الله ؟ فقال : " أنزل عليّ آنفاً سورة " فقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر) " الحديث[٨] .

واعترض الرافعي[٩] على كون الوحي بسورة الكوثر كان مناماً ، وفضل أن يقال : إن القرآن كله نزل في اليقظة ، ومال إليه السيوطي في الاتقان حيث قال : " قال الامام الرافعي في " أماليه " : فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت فــي تــلك الإغفــاءة ، وقالوا : من الوحي ما كان يأتيه في النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحي ، قال : وهذا صحيح[١٠] ، لكن الأشبه أن يقال : إن القرآن كله نزل في اليقظة ، وكأنه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة في اليقظة أو عرض عليه الكوثــر الذي وردت فيه السورة ، فقرأها عليهم وفسرها لهم ، قال : وورد في بعض الروايات أنه أغمى عليه ، وقد يحمل ذلــك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ، ويقال لها : برحاء الوحي أ.هــ ، قلت (أي : السيوطي) : الذي قالــه الرافعي في غاية الاتجاه وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه ، والتأويل الأخير أصح من الأول ، لأن قوله : أنزل علي آنفاً يدفع كونها نزلت قبل ذلك ، بل نقول نزلت تلك الحالة ليس الاغفاء اغفاء نوم ، بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي ، فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا "[١١] .

وما قاله الرافعي واستحسنه السيوطي هو الحق الذي ينبغي أن يصار إليه

الخامسة : أن يكلمه الله إما في اليقظة كما في ليلة الإسراء ، أو في النوم كما في حديث معاذ : " أتاني ربي فقال : فيــم يختصم الملأ الأعلى... " الحديث[١٢] ، وليس في القرآن من هذا النوع شئ فيما أعلم – نعم يمكن أن يعد منه آخر ســورة البقرة ... وبعض سورة الضحى ، وألم نشرح "[١٣] ولم أجد في كلام السيوطي ما استدل به على أن آخر سورة البقرة

---

(١) التي ذكرت أنه يأتيه في مثل صلصلة الجرس .

(٢) الإتقان (٤٤/١) ومعترك الأقران (٢٦٦/٢) .

(٣) الحاكم : المستدرك على الصحيحين (٤/٢) .

(٤) انظــر : الــنووي : شــرح صحيح مسلم (١٥٥/١٧) ط٢/ ١٣٩٢هــ-١٩٧٢م ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ، وانظر ترتيب القاموس المحيط (٤١٣/٢) ، واللسان (١٣٧/٨) .

(٥) هو بقية الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة عن الحارث بن هشام – رضي الله عنهما – سبق تخريجه .

(٦) الاتقان (٤٤/١) وذكر زيادة أبي عوانة ابنُ حجر في فتح الباري (٢١/١) ، وانظر : معترك الأقران (٢٦٦/٢) .

(٧) الاتقان (٤٤/١) ، ومعترك الأقران (٢٦٦/٢) .

(٨) رواه مسلم في " صحيحه " (٣٠٠/١) كتاب الصلاة (٤) باب (١٤) ح رقم (٥٣-٤٠٠) .

(٩) هــو : عــبدالكريم بن محمد بن عبدالكريم ، أبو القاسم ، الرافعي ، القزويني . انظر : فوات الوفيات (٣/٢) مفتاح السعادة (٤٤٣/١) ، طبقات الشافعية (١١٩/٥) ، وكشف الظنون (٢٠٥) والاعلام (٥٥/٤) .

(١٠) أي كون رؤيا الأنبياء وحياً ، فقد ورد هذا في صحيح البخاري عن عبيد بن عمير انظر فتح الباري (١٦٨/٤) .

(١١) الاتقان (٢٣/١) ، ومعترك الأقران (/٢٦٦) .

(١٢) سبق تخريجه في فصل توحيد الأسماء والصفات في (صفة الصورة) .

(١٣) الاتقان (٤٥/١) ، ومعترك الأقران (٢٦٧/٢) .

مـــن ذلك ولكن استدل على كون بعض سورة الضحى وألم نشرح قد أوحيت في النوم فقال : " فقد أخرج ابن أبي حاتم من حديـــث عـــدي بن ثابت قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت أي ربِ : اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً فقال يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك فلا أُذكر إلا ذُكِرت معي "[١] وهذا ليس فيه دليل على أن الوحي كان مناماً .

قـــال السيوطي : " وقد اجتمع أنواع الوحي في قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب...) الآية[٢] ، وكلها اجتمعت في نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – .

---

(١) الدر المنثور (٥٤٤/٨) ، الاتقان (٤٥/١) ، ابن جرير (٣٠/١٥٠-١٥١) .

(٢) سورة الشورى الآية (٥١) .

الفصل الرابع : طرق إثبات النبوة

المبحث الأول : أهل السنة يثبتون النبوة بطرق كثيرة

يرى أهل السنة والجماعة أن طرق التثبت من صحة النبوة ، ومعرفة صدق مدعيها ، كثيرة ومتعددة، ولا يقتصر على طريق واحدة . " إن طرق العلم بالرسالة كثيرة جداً ومتنوعة ، ونحن ... إذا علمنا بالتواتر أحوال الأنبياء ، وأوليائهم ، وأعدائهم ، علمنا علماً يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة "[١] وقد ذكر الحليمي عن بعض أهل العلم أن أعــلام نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – تبلغ ألــفــاً[٢] . فإن " كل شخصين ادعيا أمراً من الأمور أحدهما صادق في دعــواه والآخــر كــاذب فلا بد أن يبين صدق هذا ، وكذب هذا من وجوه كثيرة إذ الصدق مستلزم للبر ، والكذب مستلزم للفجور "[٣] .

من هذه الطرق على سبيل المثال لا الحصر :

– الــنظر في أحوال الأنبياء وما حصل لهم من بدايات الوحي وأوائل النبوة ، كما استدل بذلك ورقة بن نوفل ، حينما سمع مــن النــبي – صلى الله عليه وسلم – ما حصل له في غار حراء ، وكما استدلت به السيدة الجليلة أم المؤمنين خديجة – رضي الله عنها – وكذلك هرقل ، على صدق نبوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى استبان لهم بهذا المسلك أن الذي أنزل عليه هو وحي من الله تعالى كالذي حصل لموسى – عليه السلام –[٤] .

– ومــنها : النظر فيما يظهر من أحوال صفاتهم وأخلاقهم وشمائلهم سواء كانت قبل البعثة أم بعدها وكلها تدل على عظيم صــدقهم وكمــال عقولهــم ، وصفاء سلوكهم ، حتى كانت أخلاقهم مضرب المثل في العلم والحلم والرفق والأناة ، مع ما امتازوا به وفاقوا البشر فيه من المدارك العقلية والمواهب الروحية ، التي تعتبر دلائل واضحة على صدق نبوتهم .

– ومنها : أن يكونوا من أشرف الناس نسباً ، ورفعة ، وأن يكونوا ذوي مكانة في أقوامهم[٥] .

– ومنها : الآيات المعجزة ، والبراهين الواضحة التي وقعت مصدقة لهم ، مؤيدة لدعواهم .

– ومنها : تبشير الكتب السابقة بمجيئهم واخبارهم عن أوصافهم ونعوتهم .

– ومنها : شهادات الخصوم والأعداء بصدقهم والاعتراف بفضلهم .

وغيرها كثير لمن أمعن النظر في دلائل صدق الأنبياء ، وصحة دعواهم[٦] .

قــال ابن تيمية : " وسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله ، وشريعته من آياتــه ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولــد إلى أن بعــث ، ومن حين بعث إلى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده ، وأصله وفصله ، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نســباً ... وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ، ومكارم الأخلاق ، وترك الفواحش والظلم ، وكل وصف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممن آمن به ، وكفر بعد النبوة ، لا يعرف بشئ يعاب به ، لا في أقواله ، ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ، ولا جُرب عليه كذبةٌ قط ، ولا ظلمٌ ولا فاحشةٌ ، وكان خلقه وصــورته من أكمل الصور وأتمها ، وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أمياً من قوم أميين ، لا يعرف لا هو ولا هــم ما يعرفه أهل الكتاب من التوراة والانجيل ولم يقرأ شيئاً من علوم الناس ، ولا جالس أهلها ، ولم يدع نبوة إلى أن اكمل الله له أربعين سنة ، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها ، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر لم

---

(١) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية (ص١٠٤) .

(٢) انظر : المنهاج في شعب الايمان (١/٢٦٣) .

(٣) ابن تيمية : شرح الأصفهانية (ص٨٩) .

(٤) انظر : سعيد خليفة : النبوة عند ابن تيمية (ص٢١١) .

(٥) انظر : ابن خلدون : المقدمة (١/٤٠١) ت. د. علي عبدالواحد وافي .

(٦) للتوسع في هذه الطرق انظر : سعيد خليفة : النبوة عند ابن تيمية (ص٢١٠-٢٩٢) .

يكن في بلده وقومه من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ، ولا في عصر من الأعصار من أتى بمثل ما أتى به ، ولا من ظهر كظهوره ، ولامن أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ، ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ، ولا من ظهر دين على الأديان كلها بالعلم والحجة ، وباليد والقوة كظهوره "[١] .

المبحث الثاني : طرق اثبات النبوة عند السيوطي

وأما السيوطي فقد ذكر من طرق إثبات النبوة ثلاثة أنواع :

١- أخبار الكتب السابقة . ٢- شهادة الخصوم . ٣- المعجزات .

أولاً - أخبار الكتب السابقة :

ألمح إليه السيوطي إلماحة سريعة في معترك الأقران عندما تكلم عن قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) الآية[٢] ، قال : " أي كلفوا العمل بها ، والقيام بأوامرها ونواهيها ، فلما لم يطيقوا أمرها ، ولم يعملوا بها ، شبههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار على ظهره ، ولا يدري ما فيها ، وهم أيضاً حملوا التوراة ولم يحملوها ، لأنها تنطق بنبوءة نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - فمن قرأها ولم يؤمن به فقد خالف التوراة "[٣] وقرر ذلك - أيضاً - الايجي " في المواقف " حيث قال : " المسلك الثالث (في إثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -) : اخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته - عليه السلام - في التوراة والانجيل "[٤] .

وكذلك أبو بكر البيهقي في " الاعتقاد والهداية " فقال : " فمن دلائل نبوته التي استدل بها أهل الكتاب على صحة نبوته ، ما وجدوا في التوراة والانجيل وسائر كتب الله المنزلة من ذكره ونعته وخروجه بأرض العرب ، وإن كان كثير منهم قد حرفوها عن مواضعها "[٥] .

وقال ابن تيمية : " وأيضاً فقد علم أن العالم ما زال فيه نبوة من آدم - عليه السلام - إلى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فالنبي الثاني يعلم صدقه بأمور منها اخبار النبي الأول به كما بشر بنبينا محمد - عليه أفضل الصلاة ، وأكمل السلام - الأنبياء قبله ، وكذلك بشر بالمسيح الأنبياء قبله "[٦] .

وهذا الأمر يكاد يكون مجمعاً عليه بين علماء المسلمين ، ولكنني لم أر السيوطي أورد نصوصاً من التوراة تنطق بنبوة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولكنني أنقل شيئاً مما اتفق العلماء على نقله .

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص - رض الله عنهما - قلت : أخبرني عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في التوراة ، قال : " أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً[٧] للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب[٨] في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة[٩] ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء[١٠] ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويُفتَح بها أعينٌ عميٌ ، وآذانٌ صم ، وقلوبٌ غلف "[١١] قال البخاري : "

---

(١) ابن تيمية : دقائق التفسير (١٥٩/١) ت. الجليند ط٢/١٤٠٤هـ .

(٢) سورة الجمعة الآية (٥) .

(٣) معترك الأقران (٤٥٠/٢) .

(٤) (ص٣٥٧) .

(٥) (ص١٦٩) ت. كمال يوسف الحوت .

(٦) شرح العقيدة الأصفهانية (ص١) .

(٧) الحِرز بكسر الحاء : الحافظ ، وأصل الحرز الموضع الحصين ، ابن حجر : الفتح (٣٤٣/٤) .

(٨) السخب : رفع الصوت بالخصام ، ويقال : الصخب ، ابن حجر : الفتح (٣٤٣/٤) .

(٩) قال ابن حجر : " زاد في رواية كعب : مولده بمكة ومهاجره طيبة وملكه بالشام " انظر الفتح (٥٨٦/٨) .

(١٠) أي ملة العرب ، ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام ، والمراد بإقامتها أن يخرج أهلها من الكفر إلى الايمان . ابن حجر : الفتح (٣٤٣/٤) .

(١١) البخاري في " صحيحه " كتاب البيوع (٣٤) باب (٥٠) ح رقم (٢١٢٥) الفتح (٣٤٢/٤) .

تابعه عبدالعزيز بن أبي سلمة عن هلال[١] عن عطاء[٢] عن ابن سلام[٣] "[٤] .

قال ابن حجر : " ومما جاء عنه (أي عبدالله بن سلام) في ذلك مجملاً ، ما أخرجه الترمذي من طريق محمد بن يوسف بن عبدالله بن سلام عن أبيه عن جده قال : " مكتوب في التوراة صفة محمد – صلى الله عليه وسلم – وعيسى بن مريم يدفن معه "[٥] .

وما رواه البخاري ، قد رواه أيضاً ابن جرير الطبري وفي آخره قال : " قال عطاء (ابن يسار) : ثم لقيت كعباً (أي كعب الأحبار) فسالته عن ذلك فما اختلفا حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته : قال : قلوباً غلوفياً ، وآذاناً صمومياً ، وأعيناً عمومياً "[٦] .

وروى الامام احمد بسنده عن أبي صخر العقيلي قال : حدثني رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – فلما فرغت من بيعتي قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها ، يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟؟ فقال براسه هكذا ، أي : لا ، فقال : ابنه : إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني اشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : اقيموا اليهودي عن أخيكم ، ثم وَلِي كفنه والصلاة عليه "[٧] وروى الحاكم بسنده عن هشام بن العاص الأموي قال : بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الاسلام ، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة – يعني غوطة دمشق – فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغساني... " الحديث ، وفيه : أن جبلة هذا أرسلهم مع رسول له إلى الملك الأعظم (هرقل) فلما دخلوا عليه قالوا : (لا إله إلا الله والله أكبر) ثم تقابلوا معه فسألهم ثم صرفهم عن مجلسه حتى كان الليل فأرسل إليهم ثم دعا بشئ كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيتاً فاستخرج حريرة سوداء فنشرها ، فإذا فيها صورة حمراء ، وإذا فيها رجل ضخم العينين ، عظيم الأليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، وإذا ليست له لحية ، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا آدم – عليه السلام – وإذ هو اكثر الناس شعراً ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة نوح – عليه السلام – ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة إبراهيم – عليه السلام –، ثم فتح باباً آخر ، فإذا فيه صورة بيضاء وإذا والله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : وبكينا ، قال : والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس ، وقال والله إنه لهو ؟ قلنا : نعم ، إنه لهو ، كأنك تنظر إليه فأمسك ساعة ينظر إليها ، ثم قال : أما إنه كان آخر البيوت ، ولكني عجَّلته لكم لأنظر ما عندكم... "[٨] الحديث ، وفيه : كلما فتح باباً أخرج صورة نبي من الأنبياء كما تقدم .

فهذه من النبوءات التي نقلت عن طريق علماء المسلمين ، أما التوراة التي بين أيدي اليهود الآن فقد ورد فيها ما يدل على صفة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وهي بشارات كثيرة منها :

---

(١) هو هلال بن علي ، ويقال له : هلال ابن أبي هلال . الفتح (٣٤٣/٤) .

(٢) هو عطاء بن يسار ، انظر سند الحديث السابق في صحيح البخاري . ح رقم (٢١٢٥) .

(٣) هو : عبدالله بن سلام ، وكان من علماء أهل الكتاب – فأسلم وحسن اسلامه ، فهو صحابي جليل .

(٤) البخاري في " صحيحه " انظر الفتح (٣٤٣/٤) ، (٥٨٥/٨) .

(٥) فتح الباري (٣٤٣/٤) .

(٦) جامع البيان في تأويل آي القرآن (٨٣/٩) .

ورواه البيهقي كذلك في " الاعتقاد " (ص/١٦٩) . وابن كثير في " تفسيره " (٤٨٤/٣) .

(٧) مسند أحمد (٤١١/٥) وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٨١/٣) ، وقال ابن كثير : " هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح من حديث أنس " . انظر التفسير (٤٨١/٣) .

(٨) ابن كثير : تفسر القرآن العظيم (٤٨١/٣-٤٨٤) ، ثم قال ابن كثير : " هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي – رحمه الله – في كتاب دلائل النبوة ، عن الحاكم إجازه ، فذكره واسناده لا بأس به " .

١- " و أما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره واكثره كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيساً يلد ، واجعله أمة كبيرة "[١] .
والترجمة الصحيحة للنص العبراني هكذا : " وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا اباركه وأثمره واكثره بمأذمأذ " .
ومعناه الصريح باللفظ العربي : " واكثره بمحمد "[٢] .
٢- وورد فيها أيضاً أن اسماعيل - عليه السلام - كانت سكناه بلاد الحجاز :
" وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر "[٣] لأن حويلة من أولاد يقطان ، وأولاد يقطان بجهة اليمن ، والحجاز بين اليمن وأشور التي أمام مصر[٤] .
وفي كتاب " تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب " قال مؤلفه[٥] : " إن جبال فاران هي مكة وأرض الحجاز لأن فاران اسم رجل من ملوك العمالقة الذين اقتسموا الأرض ، فكان الحجاز لفاران فتسمى القطر باسمه "[٦] .
ونص التوراة يقول : " وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله ، بني اسرائيل قبل موته ، فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من ساعير ، وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم "[٧] وبتفسير هنا النص نجد أن سيناء تشير إلى المكان الذي كان فيه موسى[٨] ، وأما ساعير ، فهي أرض فلسطين التي سكنها عيسو أخو يعقوب أي أخو اسرائيل[٩] أما أرض فاران فقد ورد نص يبين موضعها :
" سمع الله صوت الغلام[١٠] ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : ما لك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية ، وكان ينمو رامي قوس وسكن في برية فاران... "[١١] .
والنص العبراني هكذا : " يا هاجر قومي سى هاعر وهاجر يقي اث نادح يولى لفي دل اتمى مايو " وترجمته الحقيقية : قومي احملي هذا الطفل واحتفظي به فإن منه محمداً ، وذريته كنجوم السماء[١٢] .
إذاً فقول موسى - عليه السلام - : " وتلألأ من جبل فاران " إنما هو تحديد لموضع ظهور النبي الخاتم محمد - صلى الله عليه وسلم -[١٣].
٣- وورد في التوراة أيضاً : " الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران سلاه ، جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور له من يده وشعاع ، وهناك استتار قدرته ، قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى ، وقف وقاس الأرض ، نظر فرجف الأمم ، ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم "[١٤] .

---

(١) سفر التكوين ، الاصحاح (١٧) ، عدد (٢٠) .
(٢) محمد عزت اسماعيل الطهطاوي : محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل والقرآن (ص١٥) مطبعة التقدم - القاهرة .
(٣) تكوين اصحاح (٢٥) عدد (١٨) . .
(٤) محمد عزت اسماعيل الطهطاوي : محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل والقرآن (ص١٦) .
(٥) هو الشيخ عبدالله الترجمان ، كان نصرانياً ثم أسلم . انظر : المصدر السابق (ص١٧) .
(٦) نقلاً عن كتاب : محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل والقرآن (ص١٧) .
(٧) سفر التثنية ، الاصحاح (٣٣) عدد (١،٢) .
(٨) سفر الخروج (٢٤ : ١٦-١٨) .
(٩) سفر التكوين (٣٦ :٨) ، وانظر : مناظرة بين الاسلام والنصرانية من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد (ص٢٢١) . ط٢/١٤١٢هـ - مكتبة ابن خزيمة - الرياض .
(١٠) أي إسماعيل - عليه السلام - .
(١١) سفر التكوين ، الصحاح (٢١) عدد (١٧-١٩) .
(١٢) محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل (ص١٩) .
(١٣) انظر : مناظرة بين الاسلام والنصرانية (ص٢٢٤) الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، ابن تيمية : الجواب الصحيح (٣/٣٠٠-٣٠٢) .
(١٤) سفر حبقوق - اصحاح (٣) عدد (٣،٤) . وانظر : المناظرة (٢٢٥) .

والترجمة الصحيحة للنص العبري : " الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران سلاه جلاله غطى السموات ، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وملك بيمينه رقاب الأمم... "[١] .

أما النسخة المطبوعة في لندن قديماً سنة ١٨٤٨م ، والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤م فالنص فيها هكذا " القـدوس من جبل فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ، وامتلأت الأرض من حمده "[٢] إلى أن قال : " زجرك في الأنهار واحتدام صوتك في البحار يا محمد ادنو لقد رأتك الجبال فارتاعت "[٢] .

فإنه سمي في هذا النص محمداً – صلى الله عليه وسلم – مرتين ، باسمه الصريح ، ووصفه بمقاتله أهل الأرض ، وأنه من جبل فاران ، كما وصفه بالجهاد براً وبحراً حتى خضعت له الأمم[٣] . والبشارات بنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – كثيرة اكتفيت منها بما سبق وهو دال على المطلوب إن شاء الله .

ثانياً – شهادة الخصوم :

نبه عليها السوطي عند كلامه على قوله تعالى : (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ...) الآية[٤] .

قال : (سببها اجتماع نصارى نجران مع يهود المدينة فذمت كل طائفة الأخرى ، وهذا أيضاً منهم موجود في هذا الزمان ، فإن كل طائفة منهم مقرة بأن الاسلام خير من دين الفريق الآخر "[٥] .

ومـا ذكره السيوطي في سبب نزول الآية رواه ابن جرير عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال رافع بـن حريملة : ما أنتم على شئ وكفر بعيسى بن مريم وبالإنجيل ، فقال رجل من أهل نجران من النصارى : ما أنت على شئ وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما : (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ ، وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) إلى قوله: (فيما كانوا يختلفون) "[٦].

إن خصـوم الرسـول – صـلى الله عليه وسلم – وأعداءه قد شهدوا بصدقه وأمانته ، حتى إنهم كانوا ليسمونه " الصـادق الأميـن ، لقد وقف النضر بن الحارث أمام سادة قريش حينما وقفوا ضد دعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – وكذبـوه فقـال لهم : " يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعُقَدهم[٧] ، وقلتم كاهن لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسـمعنا سـجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه ، وقلتم مجـنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا في شـأنكم ، فإنـه والله لقد نزل بكم أمر عظيم "[٨] هذا على الرغم من أن النضر بن الحارث هذا كان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وينصب له العداوة[٩] .

قال ابن تيمية : " وقد ذكرنا أن قومه المعادين له غاية العداوة مازالوا معترفين بصدقه – صلى الله عليه وسلم –

---

(١) محمد نبي الاسلام (ص٣٩) .

(٢) نفسه .

(٣) انظر : نفسه .

(٤) سورة البقرة الآية (١١٣) .

(٥) معترك الأقران (١٣٨/٣) .

(٦) جامع البيان (٤٩٥/١) ، وابن كثير (٢٢٣/١) .

(٧) العقد ، بفتح وسكون ، أو بضم ففتح جمع عُقْدة ، وهي التي يعقدها الساحر في الخيط ينفخ فيها بشئ يقوله بلا ريق أو معه .

(٨) سيرة ابن هشام (٢٩٩/١-٣٠٠) ، وانظر : ابن تيمية : الجواب الصحيح (٤٩/٤) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (٣٠٠/١) ، والجواب الصحيح (٥٠/٤) .

وأنهم لم يجربوا عليه كذباً ، بل ومعترفين بأن ما يقوله ليس بشعر ولا كهانة ، وأنه ليس بساحر "(١) .

روى ابن اسحاق أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كان الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد(٢)؟ فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك ، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعتُ ، تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذينا(٣) على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه قال : فقام عنه الأخنس وتركه "(٤) .

وشهادة أخرى من أبي سفيان عندما سافر إلى الشام ودعاه هرقل ملك الروم وسأله عن أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان فيما سأله أن قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، وذكر باقي الحديث(٥) .

ومن هذه الشهادات أيضاً ما رواه أنس قال : " جاء عبدالله بن سلام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مقدمه المدينة ، فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أمه تارة ، وإلى أبيه تارة ؟ قال : " أخبرني جبريل آنفاً " قال عبدالله : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، " أما أول أشراط الساعة ، فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه " فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ، فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أي رجل عبدالله فيكم " ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا ، قال : " أرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ " قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقصوه ، قال : فهذا ما كنت أخاف وأحذره "(٦) .

وعن ثوبان قال : كنت قائماً عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ قال : قلت : ألا تقول ، يا رسول الله ؟ قال : إنما سميته

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤١/٤) .

(٢) – صلى الله عليه وسلم – .

(٣) " الجاذي كالجاثي وقال ثعلب : الجذوّ على أطراف الأصابع ، والجثوّ على الرُكَب ، وقال ابن الاعرابي : الجاذي على قدميه ، والجاثي على ركبتيه ، وأما الفراء فجعلهما واحداً " لسان العرب (١٣٦،١٣٧/١٤) مادة (جذا) .

(٤) سيرة ابن هشام (٣١٥،٣١٦/١) .

(٥) جزء من حديث طويل في صحيح البخاري ح رقم (٧) الفتح (٣١/١) ، ورقم (٢٩٤١) الفتح (١٠٩/٦) ، ورقم (٤٥٥٣) الفتح (٢١٤/٨) ، وصحيح مسلم (١٣٩٣/٣) ح رقم (١٧٧٣) ، وأحمد في " المسند " (٢٦٢،٢٦٣/١) .

(٦) صحيح البخاري ح رقم (٣٣٢٩) الفتح (٣٦٢/٦) ، ورقم (٣٩١١) الفتح (٢٤٩/٧) ، ورقم (٤٤٨٠) الفتح (١٦٥/٨) ، ورقم (٣٩٣٨) الفتح (٧/ ٢٧٢) ، وروى بعضه تعليقاً – انظر الفتح (٤١٥/١١) . ورواه مسلم في صحيحه (٢٥٢/١) رقم (٣١٥) ، ورواه أحمد في " المسند " (٣/ ١٠٨،١٨٩،٢١٧) .

باســمه الــذي ســماه به أهله ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: " إن اسمي الذي سماني به أهلي محمد " ، فقال اليهــودي : جئت اسألك ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : " ينفعك شئ إن حدثتك " ؟ قال : أسمع بأذني ، فنكت بعود معه ، فقال : " سل " فقال اليهودي : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله – صلى الله عــليه وســلم – : " في الظلمة دون الجسر " ، قال : فمن أول الناس اجازة ؟ قال : " فقراء المهاجرين " فقال اليهودي فيما تحفتهم حين يدخلون ؟ قال : " زيادة كبد نون " ، قال : وما غذاؤهم على أثره ؟ قال : ينخر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها " قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : " من عين فيها تسمى سلسبيلاً " ، قال : صدقت ، قال : وجئت اسألك عن شئ لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان ، قال : " ينفعك إن حدثتك " ؟ قال : أسمع بأذني ، قال : جئت اسألك عن الولد ، قال : " ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مَنيُّ الرجل مَنيَّ المرأة ، أذكراً بإذن الله ، وإذا علا مني المرأة مني الرجل ، آنثا بإذن الله " فقال اليهودي : صدقت ، وإنك لنبي ، ثم انصرف ، فقال النبي – صــلى الله عــليه وسلم – سألني هذا عن الذي سألني عنه وما أعلم شيئاً منه ، حتى أتاني الله به "[١] وإذا كنت قد أثبت شيئاً مما ورد عن الأقدمين من شهادات واعترافات بصدق الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – فلا مانع أيضاً أن أدون هنا بعض ما قاله خصوم الإسلام ، وخصوم محمد – عليه الصلاة والسلام – في العصر الحديث ، والذي يؤكد على صحة الإســلام واســتقامة تعاليمه ، وأنه بالقطع دين من عند الله العلي الأعلى جل وعلا وتقدس ، وذلك لكي اكمل ما ألمح إليه السيوطي في قوله : " وهذا أيضاً منهم موجود في هذا الزمان ، فإن كل طائفة منهم مقرة بأن الإسلام خير من دين الفريق الآخــر "[٢] ولا ريب أن السيوطي كان يتحدث عن زمانه هو الذي عاش فيه ، وبالقطع قد سمع أو اطلع على ما كُتب في هذا الشأن مما يشهد شهادة قاطعة على أن الاسلام دين الله الحق الذي ارتضاه للبرية في آخر الزمان .

أمــا وإنــه قــد أقر خصوم الإسلام في زماننا هذا – وهو القرن الخامس عشر الهجري – بحقية الاسلام وصدق رسوله ، فهي شهادات أشد دلالة ، وأعمق أثراً نظراً لبعدها الكبير عن زمان ظهور النبي – صلى الله عليه وسلم – وإنمــا انــتزعوا هذه الدلالات والآيات الشاهدة بالصدق والحق من نصوص القرآن الكريم ، والسنة الشريفة التي أخبر بها القرآن في قوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد)[٣] .

قال د. موريس بوكاي[٤] : " لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم ، وذلك دون أي فكر مسبق ، و بموضوعية تامة ، باحــثاً عن درجة إتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتي كانت وجيزة ، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي اســتطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على آية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث "[٥] .

وقــال أيضاً : " كيف يمكن لإنسان كان في بداية أمره أمياً[٦]،... أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في

---

(١) رواه مسلم في " صحيحه " (٢٥٢/١) رقم (٣١٥) . وانظر : الجواب الصحيح (٥٩/٤-٦٠) .

(٢) معترك الأقران (١٣٨/٣) .

(٣) سورة فصلت الآية (٥٣) .

(٤) د. موريس بوكاي (Maurice Bucaille) الطبيب والعالم الفرنسي ، كان كتابه : " القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم " من أكثر المؤلفات الــتي عــالجت موضوعاً كهذا ، أصالة واستيعاباً وعمقاً ، ويبدو أن عمله في هذا الكتاب القيم منحه قناعات مطلقة بصدق كتاب الله ، وبالتالي صــدق الدين الذي جاء به ، دعا أكثر من مرة لحضور ملتقى الفكر الاسلامي الذي ينعقد في الجزائر صيف كل عام ، وهناك أتيح له أن يطلع أكثر على الاسلام فكراً وحياةً . نقلت هذا من كتاب للدكتور عماد الدين خليل بعنوان : " قالوا عن الاسلام " من منشورات الندوة العالمية للشباب الاسلامي بالرياض – ط١٤١٢/١هــ-١٩٩٢م – المملكة العربية السعودية .

(٥) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم (ص١٣) ، وانظر : عماد الدين خليل : قالوا عن الاسلام (ص٥٦) .

(٦) كــان رســول الله – صلى الله عليه وسلم – في بدايةِ أمره أمياً ، وظل بقية حياته كلها أمياً – بمعنى أنه لا يقرأ ولا يكتب – حتى آخر يوم من أيامه ، رغم ما أكرمه الله تعالى به من علم إلهي فاق به علوم الأولين والآخرين .

مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها ، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة "[١] .

وقالت الباحثة ستشيجفسكا[٢] : " إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقي الجامعات ، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة "[٣] .

إن هذه الباحثة قد لحظت من القرآن جانبه التشريعي الدقيق ، الذي يملأ جوانح النفس إعظاماً لصاحب هذا التشريع العادل المحكم ، كما لحظ " بوكاي " - من قبل - دقة آيات الذكر الحكيم في تقرير النظريات العلمية التي توصل إليها مؤخراً العلم الحديث في بحثه الدءوب .

إن الانسان ليدهش وهو يطالع كتاب الله العزيز ويتأمل آياته البينات ، وكذلك السنة النبوية الصحيحة التي تشع سطورهما بالنور والضياء ، ولا تزال تكشف لكل باحث مستنير ، متحرر الفكر والضمير من مخلفات الوثنيات القديمة والحديثة ، عن الحقائق العلمية الدقيقة التي أخبر عنها الوحي (القرآن والسنة) وهما المعجزة الخالدة الكبرى لهذا النبي الأمي الكريم الأمين محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد)[٤] .

٣- المعجزات :

جمع " مُعْجِزَة " وهي اسم فاعل من " أَعْجَزَ " ، قال الليث : " أعجزني فلان ، إذا عجزتُ عن طلبه وإدراكه "[٥] .

ومصدره : " العَجْز " الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشئ من عمل أو رأي أو تدبير[٦] .

والتعجيز : التثبيط ، ومُعْجِزَة النبي - صلى الله عليه وسلم - ما أَعْجَزَ به الخصم عند التحدي ، والهاء للمبالغة[٧]

هذا هو معنى " المعجزة " في اللغة ، أما حدها في الاصطلاح فقد وردت عن العلماء عدة تعريفات ، أجمعها ما ذكره الشريف الجرجاني ، قال : " هي : أمر خارق للعادة ، داعية للخير والسعادة مقرونة بدعوى النبوة ، قصد به إظهار صدق من أدعى أنه رسول من الله "[٨] .

وقريب منه ما ذكره التفتازاني ، قال : " هي : أمر يظهر بخلاف العادة على يدي مدعي النبوة عند تحدي المنكرين ، على وجه يعجز المنكرين عن الاتيان بمثله "[٩] .

ولم يبعد من هذين التعريفين تعريف السيوطي للمعجزة ، وقد عرفها في موضعين فقال : " حد المعجزة : فعل ناقض للعادة في زمان التكليف ظهر على يد متحد بالنبوة "[١٠] .

وقال في الموضع الثاني : " والمعجزة المؤيد بها الرسل : أمر خارق للعادة ، بأن يظهر على خلافها ، كإحياء

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم (ص١٥٠) .

(٢) هي : يوجيتا غيانة ستشجفسكا ، باحثة بولونية معاصرة ، درست الاسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين متخصصين زهاء خمس سنوات (١٩٦١م-١٩٦٥م) تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك ، وكانت قد أنهت دراستها العليا في كلية الحقوق ، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا . عن : د.عماد الدين خليل : قالوا عن الاسلام (ص٦٨) .

(٣) د. عماد الدين خليل : قالوا عن الاسلام (ص٦٨) نقلاً عن " تاريخ الدولة الاسلامية وتشريعها (ص١٧) للباحثة يوجينا غيانة ستشيجفسكا .

(٤) سورة سبا الآية (٦) .

(٥) لسان العرب (٣٧٠/٥) مادة " عجز " .

(٦) الفيروز آبادي : بصائر ذوي التمييز (٦٥/١) .

(٧) الطاهر الزاوي : ترتيب القاموس المحيط (١٦١/٣) .

(٨) التعريفات (ص٢١٩) .

(٩) شرح العقائد النسفية (ص٨٦) .

(١٠) الكنز المدفون والفلك المشحون (ص٩٥) .

ميت ، وإعدام جبل ، وانفجار الماء من بين الأصابع ، وأن تظهر على وفق التحدي ، أي الدعوى للرسالة "[١] .

وقد اعتبر السيوطي في هذا التعريف قيوداً يتضح بها حقيقة المعجزة ، وسماها بعضهم شروطاً وهي :

١- أن تكـــون فعـــلاً لله تعالى[٢] ، أو قولاً ، أو تركاً[٣] ، فالفعل - كما قال السيوطي - " كإحياء الميت ، وإعدام الجبل ، وانفجار الماء من بين الأصابع "[٤] .

والقول كالقرآن ، والترك كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم - عليه السلام -[٥] .

فالمعجـــزة إذاً مـــن مقـــدورات الرب سبحانه وتعالى لا من مقدورات المخلوقين ، فإن كانت من جنس مقدورات المخلوقين كحمل جبل ، فلا بد أن تكون خارقة[٦] ، ولذلك قال الايجي : " أن يكون فعلاً لله أو ما يقوم مقامه "[٧] .

٢- أن تكـــون خارقـــة للعادة[٨] ، وهي ما اعتاده الناس واستمروا عليه مرة بعد أخرى ، قال السيوطي : " بأن يظهر على خلافها "[٩] أي هذا الأمر الناقض للعادة ، يظهر على خلافها ، وهو معنى كونه خارقاً ، إذ لا يكون خارقاً ولا ناقضاً إلا إذا كان على خلافها .

قال السيوطي : " فخرج غير الخارق كطلوع الشمس كل يوم "[١٠] إذ لا إعجاز في ذلك ، لأنه سنة كونية مطردة خـــلق الله الكون عليها ، لا يشذ عنها ، تحدث كل يوم ، والأنبياء وغيرهم بإزائها سواء ، وسواء وجدت دعوى النبوة أو لم توجد ، فلا يجوز أن تكون دليلاً على النبوة ، ذلك لأن آية النبوة ودليلها يجب أن يكون مختصاً بمن هو له ، وهو النبي ، لا يستوي فيه النبي وغيره ، وإذا لم يكن كذلك لا يتم كونه دليلاً للنبوة وآية لها .

٣- أن يحصل الأمر الخارق للعادة على يد مدعي النبوة أو الرسالة ، وفي ذلك يقول السيوطي : " فخرج غير الخارق ... والخـــارق من غير تحد "[١١] لأنه لو ظهر الخارق على يد أحد من الناس لكنه لم يدع نبوة ولا رسالة ، فلا يجوز أن يحكم بأنها معجزة دالة على نبوته ، ذلك لأن العلم بالنبوة متوقف على الخبر بها ، وهذا الخبر لا سبيل إلى العلم به إلا من جانب النـــبي نفســـه ، أمـــا وأنه لم يدع ذلك لنفسه ، فإنه لا يثبت له ذلك بمجرد ظهور الخارق عليه . إذاً لابد أن يكون الخارق مقروناً بدعوى النبوة ، كأن يقول : إني نبي ، أو إني رسول الله إليكم .

وإنـــي إنمـــا قـــلت : إنه لا يثبت حصول النبوة بمجرد ظهور الخارق من غير ادعاء لها ، لأن الأفعال الخارقة حاصلة لغير الأنبياء ، وهم ليسوا بأنبياء قطعاً ، فلا يمكن أن تكون دليلاً على نبوتهم ، فتخرج بهذا الشرط أو القيد الكرامة الحاصلة للصالحين وغيرها[١٢] .

٤- أن تـــتعذر معارضته[١٣] ، وهو معنى التحدي الذي ليس في مقدور قوم النبي أن يأتون بمثله معارضين به معجزاته ،

---

(١) علم التوحيد - مخطوط - لوحة رقم (٦) .

(٢) نفسه (لوحة ٥) ، وانظر : إمام الحرمين الجويني : الارشاد (ص٣٠٨) ، والإيجي : المواقف (ص٣٣٩) ، والبيجوري : تحفة المريد (ص٨٢) ، وذكره عنهم ابن تيمية في النبوات (ص١٤٠،٢٨) .

(٣) انظر : البيجوري : تحفة المريد (ص٨٣) ، والايجي : المواقف (ص٣٤١) .

(٤) علم التوحيد - لوحة رقم (٦) .

(٥) انظر : الارشاد (ص٣٠٨) .

(٦) انظر : ابن تيمية : النبوات (ص١٤٠،٢٨) ، والايجي : المواقف (ص٣٣٩) .

(٧) المواقف (ص٣٣٩) .

(٨) انظر : الكنز المدفون (ص٩٥) ، علم التوحيد لوحة (٦) ، أبو المظفر الاسفراييني : التبصير في الدين (ص١٦٩) .

(٩) علم التوحيد ، لوحة رقم (٦) .

(١٠) نفسه ، وانظر كذلك : البيجوري : تحفة المريد (ص٨٣) ، والجرجاني : التعريفات (ص١٤٦) .

(١١) علم التوحيد ، لوحة رقم (٦) ، وانظر : الكنز المدفون (ص٩٥) والتبصير في الدين (ص١٦٩) .

(١٢) انظر : السيوطي : علم التوحيد ، لوحة رقم (٦) ، وانظر : الايجي : المواقف (ص٣٣٩) .

(١٣) انظـــر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٢/٢٩٠) ، والايجي : المواقف (٣٣٩) ، والبيجوري : تحفة المريد (ص٨٣) والجويني : الارشاد (ص٣٠٧-٣٠٨) ، مغفـــور عـــثمان : النـــبوة والرســـالة في الاسلام (ص١٠٩) ، سعيد خليفة : النبوة عند ابن تيمية (ص٣١٧) ، أبو المظفر الاسفراييني : التبصير في الدين (ص١٦٩) .

فإن كان الخارق مما يقدر قومه على فعل مثله ، فلا يكون معجزة له ، إذ يستوي في ذلك النبي وغيره فلا تثبت دعواه ، أو أنـــه يلزم منه افحام الأنبياء وانقطاع حجتهم ، ولذلك كان انقلاب عصا موسى حية عظيمة ، معجزة لم يقدر سحرة فرعون على معارضتها بمثلها(٢) .

٥- أن لا يكون الفعل الخارق مكذباً له ، قال السيوطي : " كأن يدعي نطق طفل بتصديقه ، فينطق بتكذيبه "(١) وهذا واضح لأن الفعـل الخـارق ، الصـادر من صاحبه ليكون آية على صدقه ، لو تحقق ولكن على وجه يكذبه ، لم يكن دليلاً ولا بـرهاناً عـلى صـدقه ، بل انقلب إلى العكس بحيث يكون بالدلالة على الكذب أولى من الدلالة على الصدق ، ولو قال : معجزتي أن ينطق هذا الضب ، فنطق بتكذيبه قائلاً : إنه كاذب ، لم يعلم به صدقه ، بل ازداد اعتقاد كذبه(٢) .

الفصل الخامس : صفات الرسل

- ديبـاجـة :

اكرم الله تعالى رسله وأنبياءه بصفات كريمة تؤهلهم لأداء مهمتهم الخطيرة ، وتمكنهم من تبليغ رسالاتهم الشاقة ، فقد أرسلهم الله جل وعلا مصابيح الظلم ، وهداة الأمم ، اختارهم لتبليغ دينه ، وصنعهم على عينه .

وقـد تضمن الوحي إلى الانبياء – عليهم الصلاة والسلام – وصف الله تبارك وتعالى لهذه الكوكبة من المصطفين الأخيار بصفات عديدة ، تدل على رفعة الموصوفين بها عند الله جل وعلا ، وشرف مكانتهم ، وعلوم منزلتهم ، وقربهم من الله سبحانه ، وحبهم له عز وجل ، وحب المولى تعالى وتقدس لهم ، الأمر الذي يقتضي أن الله اصطنعهم لنفسه الكريمة ، وكملهم بالعلم والحلم والأمانة ، وأدبهم بالأدب الرباني ، وزكاهم بالخلق الايماني .

فكـانوا عـلى ذلك مولودين على فطرة الله التامة التي لا تتبدل ولا تتغير ، بل تنمو وتزكو وتطهر ، وتظهر من الصغر إلى الكهولة والشيخوخة والكبر .

ومـن المقطـوع به أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – قد عُرفوا بين أقوامهم بقوة الايمان ، وكمال الأمانة ، وغايـة الصـدق والديانة ، والقوة في تبليغ أمر الله وشرعه ، مع العقل التام والفطنة النادرة حتى صار من المستحيل عند الـناس فـي حقهـم الكذب أو الكفر والخيانة ، أو الجحود والكتمان ، أو الغفلة والبلادة ، مع كثرتهم ، واستقرار بشريتهم وجواز الأعراض والأمراض عليهم بما لا يعد منفراً منهم ولا مقعداً لهم عن أداء مهمتهم(٣) .

تلك أهم صفات الأنبياء الضرورية عقلاً وشرعاً في أداء الوحي وتلقيه ، والقوة في العمل به ، والدعوة إليه ، فَبِها وأمثالها تميزوا عن غيرهم وإن شابهوا بني آدم في البشرية ، والصورة الخِلْقِيَّة(٤) .

وسـأتناول الآن بشـئ من التفصيل ما ذكره الجلال السيوطي من صفات هؤلاء الرسل والانبياء الكرام – عليهم الصلاة والسلام – :

---

(١) السيوطي : علم التوحيد – لوحة رقم (٦) .

(٢) انظر : الايجي : المواقف (ص٣٣٩) ، الجويني : الارشاد (ص٣١٥) ، والبيجوري : تحفة المريد (ص٨٣) .

(٣) انظر : الشهرستاني : نهاية الاقدام (ص٤٦٢-٤٦٤) .

(٤) انظـر : محمـد الـداه أحمد : النبوة والرسالة بين الامام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية (ص١٦٥) ، بحث مقدم لدرجة الدكتوراة ، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤١٨هـ.

المبحث الأول : أنهم بشر

إن أنبياء الله ورسله بشر آدميون ، من بني آدم ، أبوهم آدم ، وأمهم حواء ، تعتريهم عوارض البشرية ، وما يعتري سائر أفراد الناس ، فيما لا علاقة له بتبليغ الرسالة وبيان الأحكام ، فهم يأكلون ويشربون كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق)(١) وقال تعالى : (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام)(٢) وقال تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي)(٣) وقال تعالى عن فرعون وملئه عندما أرسل الله لهم موسى وأخاه هارون فكذبوهما وقالوا : (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون)(٤) والآيات في إثبات بشرية الرسل كثيرة ما بين إخبار من الله تعالى ، إلى اعتراف من الرسل أنفسهم كما في قوله تعالى عنهم : (إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء)(٥) إلى اعتراف المكذبين للرسل ببشريتهم ووصفهم بهذا الوصف ظناً منهم أن كونهم بشراً يغض من قدرهم ، أو ينقص من كفاءتهم لتحمل الرسالة من الله ، أو يحط من مكانتهم ومنزلتهم عند الله ، وهذا ظن سئ ، وعناد للخالق تعالى ، ومحادة لرسله .

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم) قال: " قل لهؤلاء المشركين يا محمد إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم "(٦) .

وقال التفتازاني : " وقد أرسل الله رسلاً من البشر إلى البشر مبشرين لأهل الايمان والطاعة بالجنة والثواب ، ومنذرين لأهل الكفر والعصيان بالنار والعقاب "(٧) .

وعلى هذا أكد السيوطي ، وقرر أن الرسل من جملة البشر فقد قال عند قوله تعالى : (قالت رسلهم : أفي الله شك)(٨) قال : " أضاف الرسل إليهم ، ولم يقل رسلنا تنبيهاً على أن الرسل منهم بحيث يعلمون حالهم وأنهم لم يعهدوا منهم كذباً ، ولا علموا أنهم خالطوا سحرة ، فدل على أن ما جاءوهم به حق "(٩) فقوله " تنبيهاً على أن الرسل منهم " أي من هؤلاء البشر الذين بعثوا فيهم ، وأرسلوا إليهم ، فهم بشر منهم مثلهم .

وقال السيوطي في موضع آخر عند قوله تعالى : (يتلو عليهم آياته ويزكيهم...)(١٠) قال : " منَّ الله على عباده ببعث رسول منهم وإليهم ، يعلمهم بيان الشرائع والفهم ، ويزكيهم ويطهرهم ، ونسب التعليم إليه ، لأنه يعلم ما في الكتب

---

(١) سورة الفرقان الآية (٢٠) .
(٢) سورة المائدة ، بعض الآية (٧٥) .
(٣) سورة الكهف ، بعض الآية (١١٠) .
(٤) سورة المؤمنون ، بعض الآية (٤٧) .
(٥) سورة إبراهيم – عليه السلام – ، بعض الآية (١١) .
(٦) جامع البيان (٣٩/١٦) .
(٧) شرح العقائد النسفية (ص٨٥) .
(٨) سورة ابراهيم ، بعض الآية (١٠) .
(٩) معترك الأقران (١٥٧/٣) .
(١٠) سورة الجمعة ، بعض الآية (٢) .

وطرق النظر بما يلقي جبريل إليه "[١] .

وفي محاورة قوم نوح له – عليه السلام – وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة الأوثان قالوا له ما حكاه الله عنهم : (ما هذا إلا بشر مثلكم)[٢] قال السيوطي : " هذا الكلام من قوم نوح لما قال لهم : إني رسول الله إليكم – استبعدوا أن تكون النبوة لبشر ، وأثبتوا الربوبية لحجر "[٣] وهذا تقرير منه بأن نوحاً وسائر الأنبياء بشر كسائر البشر وهكذا هم أهل الضلال والعناد ، يرتكبون الحماقات ويعتقدون المتناقضات .

يقول في ذلك ابن جرير : " فقالت جماعة أشراف قوم نوح ، الذين جحدوا توحيد الله ، وكذبوه لقومهم : ما نوح أيها القوم إلا بشر مثلكم ، إنما هو إنسان مثلكم ، وكبعضكم (يريد أن يتفضل عليكم)[٤] يقول : يريد أن يصير له الفضل عليكم ، فيكون متبوعاً وأنتم له تبع "[٥] ، وقال الشوكاني : " (ما هذا إلا بشر مثلكم) أي من جنسكم في البشرية ، لا فرق بينكم وبينه " ومع هذه الآيات فقد ورد من الأحاديث النبوية ما يؤكد حقيقة بشرية الأنبياء والمرسلين فقد قال – صلى الله عليه وسلم – : " ...لكني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء " وقد أثر في بدنه السم الذي دسته اليهودية له – صلى الله عليه وسلم – في طعامه ، وكذلك أثر في بدنه السحر ، وكان الأنبياء يقتلون كما فعل بنو اسرائيل – عليهم لعائن الله – بأنبيائهم ، وقد قال تعالى : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم...)[٦] .

وكان الأنبياء – صلوات الله عليهم يمرضون ويوعكون ، ويتألمون ، وكان يصيبهم الحر والبرد ، والجوع والعطش ، والغضب والتعب ، ونحو ذلك مما يعرض للأبدان البشرية ، دون أن يؤثر على عقولهم فيما يتعلق بإبلاغ دين الله ، ودون أن يلحقهم نقص أو عيب أو ذم بسببه [٧] .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما قال : لما بعث الله محمداً رسولاً ، انكرت العرب ذلك ، أو من انكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، قال : فأنزل الله (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم؟)[٨] وقال : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، بالبينات والزبر)[٢] فاسألوا أهل الذكر : يعني أهل الكتب الماضية : أبشراً كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة انكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد رسولاً ، قال : ثم قال : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ، أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم)[٩] فالغرض " أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد – صلى الله

---

(١) معترك الأقران (٤٣٠/٣) .
(٢) سورة المؤمنون ، بعض الآية (٢٤) .
(٣) معترك الأقران (٣٧٧/٢) .
(٤) سورة المؤمنون ، بعض الآية (٢٤) .
(٥) جامع البيان (١٦/١٨) .
(٦) سورة آل عمران الآية (١٤٤) .
(٧) انظر : الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (٦٩-٧٠) ، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد (ص٧٧) .
(٨) سورة يونس ، بعض الآية (٢) .
(٩) جامع البيان (١٠٩/١٤) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن (٤٩٢/٤) .

عليه وسلم – كانوا بشراً كما هو بشر "[١] ثم ساق ابن كثير الآيات التي تصرح ببشرية الرسل[٢] – عليهم السلام – .

قـال الشيخ ابن عثيمين : " ونؤمن بأن جميع الرسل بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية شئ ، قال الله تعالى عن نوح وهو أولهم: (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك)[٣] وأمر الله تعالى محمداً وهـو آخرهم أن يقول : (لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك)[٤] وأن يقول : (لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله)[٥]... "[٦] .

فرسل الله تعالى وأنبياؤه – عليهم السلام – بشر ، وعلى ذلك إجماع علماء الأمة لا يشذ من ذلك إلا زنديق معاند أو جاهل ضال .

ومما يتفرع على هذا الموضوع مسألة :

نبوة الجـــن :

فهل كان في الجن رسل أو أنبياء منهم أرسلهم الله إليهم كما أرسل إلى الانس رسلاً وأنبياء منهم ؟

– ذهـب فريق من العلماء إلى أن الله أرسل إليهم رسلاً ، كما أرسل إلى الانس منهم رسلاً ، وهذا الرأي رواه ابن جرير عـن الضحاك بن مزاحم[٧] ، وحكاه القرطبي عن مقاتل[٨] ، ونقله السيوطي عن ابن حزم[٩] ، وقال ابن الجوزي : " وهو ظاهر الكلام "[١٠] ، أي ظاهر القرآن ، وكذلك قال السبكي : " ظاهر القرآن مع ما قاله الضحاك "[١١] .

قال ابن جرير : " واختلف أهل التأويل في الجن ، هل أرسل إليهم رسل كما أرسل إلى الانس منهم رسل "[١٢] ثم روى عـن الضحاك أنه سئل عن الجن : هل كان منهم نبي قبل أن يبعث النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : ألم تسمع إلى قـول الله (يـا معشـر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي...)[١٣] يعني بذلك رسلاً من الانس ، ورسلاً من الجن ، فقالوا : بلى "[١٤] أما القرطبي فقد نسب هذا القول إلى مقاتل مع الضحاك فقال : " وقال مقاتل والضحاك : أرسل الله رسلاً من الجن ، كما أرسل من الانس "[١٥] لكن ابن كثير لا يوافق على ما قاله الضحاك ، ويعتبر الآية غير

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٩٢/٤) .
(٢) انظر السابق ، وانظر كذلك : الرازي : التفسير الكبير (٣٦/٢٠-٣٧) .
(٣) سورة هود الآية (٣١) .
(٤) سورة الأنعام الآية (٥٠) .
(٥) سورة الأعراف الآية (١٨٨) .
(٦) عقيدة أهل السنة والجماعة (٥٢-٥٣) .
(٧) انظر : جامع البيان (٣٦/٨) ، السيوطي : الاشباه والنظائر (ص٢٦٠) .
(٨) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٧) .
(٩) انظر : لقط المرجان في أحكام الجان (ص٤٢) ، وكذلك في الأشباه والنظائر (ص٢٦٠) .
(١٠) زاد المسير ، وانظر : السفاريني : لوامع الانوار (٢٢٣/٢) .
(١١) انظر : لقط المرجان (ص٤٣) .
(١٢) جامع البيان (٣٦/٨) .
(١٣) سورة الانعام الآية (١٣٠) .
(١٤) جامع البيان (٣٦/٨) ، الدر المنثور (٣٥٩/٨) .
(١٥) الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٧) .

صريحة فيما ذهب إليه ، فيقول : " وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلاً واحتج بهذه الآية الكـــريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر ، لأنها محتملة وليست بصريحة "(١) ولكن الرازي احتج لهذا القول بوجه آخر وهـــو قولـــه تعـــالى : (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً)(٢) فقال : " قال المفسرون : السبب فيه أن استئناس الانسان يعني بالانسان اكمل من استئناسه بالملك ، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الإنس من الإنس ليكمل هذا الاستئناس ، إذا ثبت هذا المعنى ، فهذا السبب حاصل في الجن ، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن "(٣) .

وقضية الاستئناس بين أفراد الجنس الواحد لا تنكر ، ولكنها غير مسلمة تماماً في موضوع نبوة الجن وارسالهم ، لأنهـــا لو صحت كدليل تام على ذلك لما أرسل نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إليهم ، ولكن من المعلوم المؤكد أنه - صـــلى الله عليه وسلم - مرسل إلى الثقلين جميعاً الإنس والجن ، وهذا لا خلاف فيه(٤) ، فكيف تعتبر قضية الاستئناس قبل ارسال نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إليهم ، ولا تعتبر بعد ارساله ؟؟ .

كما أنه يمكن أن يقال : بأن صعوبة تلقي البشر عن الملائكة أمر ثابت ، فقد نقل إلينا نقلاً صحيحاً أن نبينا محمداً - صـــلى الله عـــليه وســـلم - كان يعاني من الوحي شدة(٥) ومشقة ، ولكنه لم ينقل إلينا أن الجن تحصل لهم هذه المشقة والمعاناة إذا تلقوا عن الإنس ، وعليه فلا ضرورة للجوء إلى موضوع هذا الاستئناس الذي عضد به الرازي رأي الضحاك ومن وافقه .

وأما ابن حزم فقد استدل بدليل آخر وهو قوله - صلى الله عليه وسلم - : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لـــي الغـــنائم ولـــم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة "(٦) والشاهد منه قوله - صلى الله عليه وسلم - " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة " ووجه استدلاله أنه إذا كان النبي بشراً ، وجب أن يبعث إلى قومه من البشر لا إلى الجن ، لأنهم ليسوا من قومه قطعاً ، فلا يكون نبياً إليهم ، ووجب أيضاً أن يبعث من الجن جني إلى قومه الجن ، لا إلى الإنس لأنهم ليسوا من قومه قطعاً ، وهذا مقتضى الحديث .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٣٢/٣) .
(٢) سورة الأنعام الآية (٩) .
(٣) التفسير الكبير (٢٠٥/١٣) .
(٤) انظر : السيوطي : لقط المرجان (ص٤٤) فقد قال : " لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في أن الله تعالى أرسل محمداً إلى الإنس والجن " .
(٥) تكلمت عن ذلك بشئ من التفصيل في الفصل الثالث من الباب الثاني وهو الذي بعنوان : الوحي وطرقه ، فانظره هناك .
(٦) متفق عليه :
- صحيح البخاري : كتاب التيمم (٧) باب (١) ح رقم (٣٣٥) فتح الباري (٤٣٥/١-٤٣٦) .
وأيضاً كتاب الصلاة (٨) باب (٥٦) ح رقم (٤٣٨) فتح (٥٣٣/١) .
" كتاب فرض الخمس (٥٧) باب (٨) ح رقم (٣١٢٢) ، فتح (٢٢٠/٦) .
- وصحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) ح رقم (٣) ، (٣٧٠/١) .
- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي (٢٠٩/١-٢١١) كتاب الغسل والتيمم (٢٦) باب التيمم بالصعيد .
- سنن الدارمي (٢٦٣/١) كتاب الصلاة باب (١١١) ح رقم (١٣٩٦) ، (١٤٤٢/٢) كتاب السير باب (٢٩) ح رقم (٢٤٧٠) .

لكــن هذا الاستدلال أيضاً ليس بشئ ، لأن الجن تتبع للأنس ، وهم في الصلاح والفساد مراتب وطوائف كما أن الانــس مــراتب وطوائــف " فمــنهم الكامل في الاستقامة والطيبة وعمل الخير ، ومنهم من هو دون ذلك ومنهم البله المفضــلون ومنهم الكفرة وهم الكثرة الكاثرة ، يقول الله سبحانه في حكايته عن الجن الذي استمعوا إلى القرآن : (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً)(١) أي منهم الكاملون في الصلاح ، ومنهم أقل صلاحاً، فهم مذاهب مختلفة كما هــو حال البشر "(٢) يقول ابن جرير " (وأنا منا الصالحون)(٣) وهم المسلمون العاملون بطاعة الله ، (ومنا دون ذلك)(١) يقــول : ومــنا دون الصــالحين (كــنا طرائق قدداً)(١) يقول : وأنا كنا أهواء مختلفة ، وفرقاً شتى ، منا المؤمن والكافر والطــرائق جمع طريقة ، وهي طريقة الرجل ومذهبه ، والقدد جمع قدة ، وهي الضروب والأجناس المختلفة "(٤) وقال ابن كــثير :" (كــنا طرائق قدداً)(١) أي : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة "(٥) ثم نقل عن أحمد بن سليمان النّجاد " من أماليــه " بســنده إلى الأعمش قال : " تروح إلينا جنى ، فقلت له ، ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال فأتيناهم به فجعــلت أرى الــلقم ترفع ولا أرى أحداً فقلت فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، قلت فما الرافضة فيكم ؟ قال : شرنا "(٦).

وهكــذا قال القرطبي ونقل مثله عن جمع من المفسرين ففي تفسيره لقوله تعالى : (كنا طرائق قدداً)(١) نقل عن السدى قال : " فرقاً شتى "(٧) وعن الضحاك قال : " أدياناً مختلفة "(٨) ، وعن قتادة قال : " أهواءً متباينة "(٩) ثم نقل أيضــاً عــن السدى قال : " في الجن مثلكم قدرية ، ومرجئة ، وخوارج ، ورافضة ، وشيعة ، وسنية "(١٠) فهذا كله يثبت تــبعية الجن للانس ، فهم تابعون لهم يأخذون عنهم ويتعلمون منهم ، ولا يضيرهم هذا التعلم والتلقي من الإنس ، كما أنه لا يشق عليهم ولا يستوحشون منه ، لذلك لم يكن من الضروري أن يكون أنبياؤهم منهم ، وعليه فكل نبي يبعث في قومه من الإنس ويتبعه معهم قوم من الجن ، ولا يمنع ذلك مانع عقلي أو شرعي .

- وأما الفريق الثاني من العلماء وهم الأكثر(١١) ، وقولهم الأشهر(١٢) ، فذهبوا إلى أنه لم يكن من الجن رسول ولا نبي البتة قــال القرطبي : " وهو الصحيح "(١٣) ، ونقل الرازي ادعاء الاجماع ، ولكنه بعيد كما قال الرازي نفسه، قال : " لأنه

---

(١) سورة الجن الآية (١١) .
(٢) د. عمر سليمان الاشقر : عالم الجن والشياطين (ص٤٨) .
(٣) سورة الجن الآية (١١) .
(٤) جامع البيان (٢٩/١١١-١١٢) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٦٨) .
(٦) نفسه (٨/٢٦٨-٢٦٩) ، والسيوطي : لقط المرجان (ص٣٣) .
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٩/١١) والدر المنثور عن ابن عباس (٨/٣٠٤) .
(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٩/١١) .
(٩) نفسه ، وانظر ابن جرير : الجامع لأحكام القرآن (١٩/١١٢) .
(١٠) الجامع لأحكام القرآن (١٩/١١) ، الدر المنثور (٨/٣٠٤) .
(١١) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٣/٢٠٥) .
(١٢) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٤/٢٣٤) .
(١٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/٥٧) .

كيف ينعقد الاجماع مع حصول الاختلاف "[١] وقد مضى معنا في القول الأول جمع من العلماء قالوا بخلاف هذا القول الثاني وعليه فلا اجماع .

قال السيوطي : " جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولا نبي ، كذا روي عن ابن عباس ومجاهد ، والكلبي ، وأبي عبيد "[٢] ورواه أيضاً ابن جرير عن ابن جريج[٣] ، وهو المروي عن القاضي أبي يعلي وابن عقيل[٤] ، وانتصر له ابن كثير بشدة وحشد له الأدلة الكثيرة ، ولكن معظمها عمومات . قال أصحاب هذا القول : لم يرد دليل صريح عن المعصوم يدل على ما قال به أصحاب الرأي الأول من ارسال رسل أو أنبياء من الجن ، بل الدليل على خلافه فقد قال الله تعالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)[٥] وانعقد الاجماع على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة ، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء القوم فقط[٦] .

وقال تعالى أيضاً عن إبراهيم – عليه السلام – : (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب)[٧] فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته ، ولم يقل أحد من الناس : إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته ، وقد قال تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق)[٨] وقال : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى)[٩] ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب[١٠] ولهذا قال تعالى اخباراً عنهم : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن)[١١] .

وأجابوا عن دليل الرأي الأول وهو قوله تعالى : (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم)[١٢] فقالوا : قوله تعالى : (منكم) أي من أحد الفريقين وهو الإنس خاصة ، فأما الجن فلم يرسل منهم إليهم رسول ولم يكن له تعالى من الجن قط رسول مرسل ، ويدل على هذا التفسير وجوه منها :

<u>أولاً :</u> قوله تعالى : (منكم) أي من الإنس ، وهو تغليب للإنس على الجن كما يغلب المذكر على المؤنث[١٣] في كثير من الآيات .

<u>ثانياً :</u> أن قوله تعالى : (منكم) أي : في الخلق والتكليف والمخاطبة ، ولما كان الجن ممن يخاطب ويعقل قال : (منكم)

---

(١) التفسير الكبير (١٣/٢٠٥) .
(٢) لقط المرجان (ص٤١) ، وانظر : الاشباه والنظائر (ص٢٦٠) .
(٣) انظر : جامع البيان (٨/٣٦) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣/٣٣٢) .
(٤) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٢/٢٢٣) نقلاً عن الفروع لابن مفلح .
(٥) سورة آل عمران الآية (٣٣) .
(٦) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٣/٢٠٥) .
(٧) سورة العنكبوت الآية (٢٧) .
(٨) سورة الفرقان الآية (٢٠) .
(٩) سورة يوسف الآية (١٠٩) .
(١٠) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣/٣٣٢-٣٣٣) .
(١١) سورة الأحقاف الآية (٢٩) .
(١٢) سورة الأنعام الآية (١٣٠) .
(١٣) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٧/٥٧) .

وإن كانت الرسل من الإنس[١] .

ثالثاً : قوله تعالى : (ومن كل تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حلية تلبسونها)[٢] ولا يخرج من الأنهار حلية[٣] ، فقوله (لحماً طرياً) أي : " منهما جميعاً "[٤] وقوله تعالى : (حلية) أي : " اللؤلؤ من الأجاج "[٥] فأخرج الكلام عن البحرين والمقصود واحد منهما وهذا سائغ في اللغة كنظائره التي سبقت ، وكما سيأتي .

رابعاً : قوله تعالى : (الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً...)[٦] وإنما القمر في واحدة منهن وهي السماء الدنيا ، وليس فيهن كلهن[٧] . كما يقال : جاءني بنو تميم ، والمراد بعضهم ، أو يقال : الأمير في العراق ، ومعلوم أنه يستحيل أن يملأ الأمير حيز العراق كله ، وإنما هو جزء ضئيل منه[٨] .

خامساً : أن الخطاب في قوله تعالى : (منكم) إنما توجه للثقلين الإنس والجن جميعاً في عرصة القيامة ، فجعل تعالى الرسل في مخرج اللفظ من الجميع ، وإن كان الرسل من الإنس دون الجن قال أبو عبدالله القرطبي : " وقيل : إنما صير الرسل في مخرج اللفظ من الجميع لأن الثقلين قد ضمتها عرصة القيامة ، والحساب عليهم دون الخلق ، فلما صاروا في تلك العرصة في حساب واحد في شأن الثواب والعقاب على العبودية ولأن الجن أصلهم من مارج من نار ، وأصلنا من تراب وخلقهم غير خلقنا ، فمنهم مؤمن ومنهم كافر ، وعدونا ابليس عدو لهم ، يعادي مؤمنهم ، ويوالي كافرهم ، وفيهم أهواء ، شيعة وقدرية ومرجئة يتلون كتابنا "[٩] أي : لما صاروا في تلك العرصة ، وفي حساب واحد في شأن الثواب والعقاب على العبودية خرج اللفظ جامعاً لهم ، كما يجمع رب الأسرة أسرته كبيراً وصغيراً ، ويوبخهم قائلاً : ألم أحذركم وأنهكم عن عصياني ؟ وإنما أراد الكبار العاقلين المكلفين ، دون صغارهم ورضعهم ، وأخرج اللفظ للجميع باعتبارهم أهل دار واحدة ، أو كما في قول القائل لجماعة أدؤر[١٠] ، إن في هذه الدور لشراً ، وإن كان الشر في واحدة منهن ، فيخرج الخبر عن جميعهن والمراد به الخبر عن بعضهن ، وكما يقال – أيضاً – : أكلت خبزاً ولبناً : إذا اختلطا ، ولو قيل : أكلت لبناً ، كان الكلام خطأ ، لأن اللبن يشرب ولا يؤكل[١١] .

ولذلك قال السيوطي : (منكم) " أي من مجموعكم أي بعضكم الصادق بالإنس "[١٢] .

---

(١) انظر : نفسه .
(٢) سورة فاطر الآية (١٢) .
(٣) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٣٦/٨) .
(٤) الدر المنثور (١٤/٧) عن قتادة ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥٢٦/٦) .
(٥) الدر المنثور (١٤/٧) ، وانظر : الجلالين (ص٥٢٧) .
(٦) سورة نوح الآية (١٥-١٦) .
(٧) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٣٤/٤) ، والقرطبي : الجامع (١٩٧/١٨) والجلالين (٧٠٥) والرازي : التفسير الكبير (١٤٠/٣٠) .
(٨) انظر : الشوكاني : فتح القدير (٢٩٨/٥) ، الرازي : التفسير الكبير (١٤٠/٣٠) .
(٩) الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٧) .
(١٠) جمع دار .
(١١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٣٦/٨) .
(١٢) تفسير الجلالين (ص١٧٠) .

ونبه ابن تيمية على هذا الخطاب المشترك بين الإنس والجن والمقصود به اثبات نبوة الإنس فقط فقال : " والقرآن خطاب للثقلين ، والرسول منهم جميعاً كما قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم)[١] فجعل الرسل التي أرسلها من النوعين مع أنهم من الإنس "[٢] وهذا يعتبر ترجيحاً من ابن تيمية لكون الرسل من الإنس دون الجن ، ثم قال : " فإن الإنس والجن مشتركون[٣] في كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين ، فإنهم يأكلون ويشربون وينكحون وينسلون ، ويغتذون وينمون بالأكل والشرب ، وهذه الأمور مشتركة بينهم ، وهم يتميزون بها عن الملائكة ، فإن الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح ولا تنسل ، فصار الرسول من أنفس الثقلين باعتبار القدر المشترك بينهم الذي تميزوا به عن الملائكة حتى كان الرسول مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة "[٤] .

<u>سادساً :</u> أن الله كان يلقي الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل فيحفظوه ويفقهوه ، ثم يأتون قومهم من الجن فيخبرونهم بما سمعوا وينذرونهم به[٥] ، ودليله قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين)[٦] فأولئك الجن كانوا رسل الرسل[٧] ، فأطلق عليهم رسلاً بهذا المعنى ، وهم النُذُر كما سماهم بعض المفسرين ، قال السيوطي في قوله تعالى : (ألم يأتكم رسل منكم)[٨] " أي من مجموعكم... أو رسل الجن نُذُرهم الذين يستمعون كلام الرسل فيبلغون قومهم "[٩] فالرسل من الإنس ، والنذر من الجن ، وهؤلاء النذر هم رسل الرسل . قال السيوطي : " تأولوه على أنهم رسل عن الرسل ، سمعوا كلامهم فأنذروا قومهم ، لا عن الله "[١٠] وقال ابن جرير : " قال ابن عباس : " هم الجن الذين لقوا قومهم ، وهم رسل إلى قومهم ، فعلى قول ابن عباس هذا إن من الجن رسلاً للإنس إلى قومهم "[١١] وقال مجاهد : " الرسل من الإنس والنذر من الجن ثم قرأ : (إلى قومهم منذرين)[١٢] "[١٣] قال ابن جرير : " فتأويل الآية على هذا ... ألم يأتكم أيها الجن والإنس رسل منكم ؟ فأما رسل الإنس فرسل من الله إليهم ، وأما رسل الجن فرسل رسل الله من بني آدم وهم الذين إذ سمعوا القرآن ولو إلى قومهم منذرين "[١٤] .

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٣٠) .
(٢) مجموع الفتاوي (١٦/١٩٢) .
(٣) في مجموع الفتاوي : " مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين " ولعله خطأ والصواب ما أثبته حتى يستقيم الكلام ، فهم مشتركون في كونهم أحياء ناطقين .
(٤) مجموع الفتاوي (١٦/١٩٢) .
(٥) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٣/٢٠٥) .
(٦) سورة الأحقاف الآية (٢٩) .
(٧) انظر : السيوطي : الدر المنثور (٨/٣٥٩) عن ابن جريج .
(٨) سورة الأنعام الآية (١٣٠) .
(٩) الجلالين (ص١٧٠) ، وانظر : ابن جرير : جامع البيان (٨/٣٦) وابن تيمية : مجموع الفتاوي (٤/٢٣٤) .
(١٠) الاشباه والنظائر (ص٢٦٠) .
(١١) جامع البيان (٨/٣٦) .
(١٢) سورة الأحقاف الآية (٢٩) .
(١٣) القرطبي : الجامع (٧/٥٧) ، والسيوطي : الدر المنثور (٨/٣٥٩) ، ولقط المرجان (ص٤١) ، وذكره ابن كثير عن ابن عباس في تفسيره (٣/٣٣٢) .
(١٤) جامع البيان (٨/٣٦) ، وانظر : لقط المرجان (ص٤٢) .

وبعد أن وضحت الرأيين كلاً بأدلته وناقشتها ، تبين لي أن الراجح منهما هو القول الثاني وهو قول من قال : إن الرسل والأنبياء جميعهم من الإنس ، ولم يرسل الله تعالى رسلاً ولا أنبياء من الجن ، وإنما الجن كان منهم نذر تلقوا علوم الأنبياء منهم فحفظوها وفقهوها ثم ذهبوا إلى أقوامهم منذرين ، وهؤلاء قد يطلق عليهم رسل باعتبار أنهم رسل مبتعثين من قبل الرسل البشريين فهم رسل رسل أو هم النذر لاغير ، وإنما رجحت هذا القول لقوة أدلته ، وتنوعها ، وجريانها على مقتضى اللسان العربي ، وهو قول جمهور أهل العلم .

المبحث الثاني : أنهم رجال

والأصل في هذا هو قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم...)[(١)] قال الرازي : " دلت الآية على أنه تعالى ما أرسل أحداً من النساء "[(٢)] وهذا هو قول السيوطي بعد ما ذكر هذه الآية الكريمة قال : " يدل على تخصيص الرسالة بالرجال "[(٣)] وقال في موضع آخر : " فيه إشارة إلى أنه لم يبعث رسولاً من النساء ، واختلف في مريم والصحيح أنها صديقة "[(٤)] والواقع أن الخلاف ليس في مريم وحدها - كما سيأتي - .

أما هذه الآية الكريمة التي استدل بها السيوطي والرازي على تخصيص الرسالة بالرجال فهي صيغة حصر ، أثبت الرسالة فيها للرجال الموحي إليهم ، وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم ، فلا تكون أنثى نبية[(٥)] ، وهو استدلال قوي ، وعليه جمهور العلماء ، بل نقل الكرماني الاجماع عليه[(٦)] ، وحكى الاجماع عليه أيضاً القاضي أبو بكر ، والقاضي أبو يعلي وأبو المعالي[(٧)] لكن حكاية الاجماع فيها نظر ، لأنه قد نقل عن أبي الحسن الأشعري أن من النساء من نبئ[(٨)] وهو صريح رأي ابن حزم الذي قواه ونصره بأدلة سأناقشها قريباً ، وقد حصرهن ابن حزم في ست وهن : حواء أم البشر ، وسارة أم اسحاق ، وهاجر أم اسماعيل ، وأم موسى[(٩)] ، وآسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران أم عيسى[(١٠)] - عليهم جميعاً السلام - والأصل الذي بنى عليه أبو الحسن الاشعري قوله - كما نقل عنه - أن من جاءه الملك عن الله بحكم من أمر أو نهي أو باعلام مما سيأتي فهو نبي ، وقد ثبت مجئ الملك لهؤلاء بأمور شتى من ذلك من عند الله - عز وجل - ووقع التصريح بالايحاء لبعضهن في القرآن[(١١)] كما في قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه...) الآية[(١٢)]

---

(١) سورة النحل ، الآية (٤٣) .

(٢) التفسير الكبير (٣٦/٢٠) .

(٣) معترك الأقران (٣٤٩/٢) .

(٤) نفسه (٣٢٦/٢) .

(٥) انظر السفاريني ك لوامع الأنوار (٢٦٥/٢-٢٦٦) .

(٦) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٤٧/٦) .

(٧) انظر ابن تيمية مجموع الفتاوي (٣٩٦/٤) .

(٨) انظر : فتح الباري (٤٧١/٦،٤٤٧) ، ولوامع الأنوار (٢٦٦/٢) .

(٩) اسمها " يوخابذ " ، وهي في التوراة " يوكابد " بكاف بدل الخاء وبدال مهملة بدل المعجمة ، والنطق بالكاف مفخماً ، ومعناه بالعربية " جليلة " وضبطها السيوطي بحاء مهملة بدل الخاء المعجمة وبنون بدل الباء الموحدة ، انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٢٦٦/٢) .

(١٠) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٧١/٦،٤٤٧) ، لوامع الأنوار (٢٦٦/٢) .

(١١) انظر : فتح الباري (٤٤٧/٦) .

(١٢) سورة القصص (٧) .

وأمـــا إتيان الملك فكما قال تعالى : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً)[١] ، وقال أيضاً : (وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين)[٢] ونحوها من الآيات ، كما أن الله تعالى ذكرها في جملة الأنبياء الذين ذكرهم في سورة مريم ، أما في السنة فقد ورد قوله – صلى الله عليه وسلم – : " كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران... " الحديث[٣] .

ويظهـــر ميـــل ابن حزم إلى هذا الراي من تعريفه للنبوة في كتابه " الدرة " وهو مصرح به في كتابه الآخر " الفِصَـــل " فقـــد قال : " النبوة أن ينبئ الله – عز وجل – من يشاء من عباده ، بوحي يعلمه به ما يكون قبل أن يكون "[٤] ويـــلزم مـــن هذا التعريف أن كل من جاءه الوحي من الله – بمعنى الملك الذي ذكره أبو الحسن – بما يكون أو بما يحدث مستقبلاً فهو نبي ، – وعليه فأم موسى ، وأم اسحق ، وأم عيسى ، وأم اسماعيل ، وآسيا ، وحواء – كما قدمت – نبيات ، وهو ما يذهب إليه أبو محمد بن حزم صراحة ، ويدافع عنه – كما قلت آنفاً – فقد عقد فصلاً في كتابه " الفِصل في الملل والأهـــواء والـــنحل "[٥] بعنوان " نبوة النساء " وصحح نبوتهن – كما زعم – ولم يجوز أن يكون منهن رسل ، واستدل لما ذهـــب إليـــه بأدلـــة كثيرة محصلها عدم القطع بما قال[٦] ، كما يلزم من قوله في تعريف النبوة أن يكون النبي غير مأمور بالتبليغ ، وهذا فيه نظر ، وقد ناقشته في الفصل الأول من هذا الباب ، وكما يلزم من كلام الامام أبي الحسن الاشعري الذي تقـــدم ، ومـــن كلام الامام ابن حزم أيضاً ما لا يصح التزامه ، وهو القول بنبوة النفر الثلاثة من بني اسرائيل ، الاقرع ، والأبرص ، والأعمى[٧] ، لأنه قد أتاهم الملك عياناً ، وهذا لم يقله أحد من علماء الأمة[٨] ، كما أن نص الحديث يرد القول بنبوتهم لأنه نص في آخره على أن الله تعالى سخط عن اثنين منهم ، ورضي عن الثالث ، حين قال الملك للأعمى : " فإنما ابتليـــتم ، فقد رضي الله عنك ، وسخط عن صاحبيك "فكيف يكون من سخط الله عليه نبياً لمجرد مجئ الملك إليه ؟ كما أن ثالثهم الذي رضي الله عنه ، لم يقل أحد من الأئمة بنبوته ، لأنه لا نص فيه ولا اجتهاد .

ومـــن هـــذا الباب أيضاً حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : " أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد[٩] الله تعالى على مدرجته[١٠] ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً

---

(١) سورة مريم الآية (١٧) .
(٢) سورة آل عمران الآية (٤٢) .
(٣) صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٣٢) ح (٣٤١١) فتح الباري (٦/٤٤٦) . ومسلم (٤/١٨٨٦) ح رقم (٢٤٣١)
(٤) الدرة فيما يجب اعتقاده (ص٣٨٠) .
(٥) انظر : (٥/١٧-١٩) .
(٦) تكلم أيضاً على نفس الموضوع باختصار في كتابه : " الاصول والفروع " (٢/٢٧٥-٢٧٦) .
(٧) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٥١) ح رقم (٣٤٦٤) فتح الباري (٦/٥٠٠) . وصحيح مسلم (٤/٢٢٧٥) ح رقم (٢٩٦٤) .
(٨) انظر : تعليق المحقق د.أحمد ناصر الحمد على كلام ابن حزم في كتاب " الدرة فيما يجب اعتقاده " (ص٣٨٠) .
(٩) أرصده : أقعده يرقبه ، انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٢٤) .
(١٠) المَدْرَجَــة : بفتح الميم والراء هي الطريق سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها أي يمضون ويمشون ، انظر نفس المصدر السابق ، وانظر كذلك : النووي : رياض الصالحين (ص١٧٦) ت.الألباني .

لــي في هذه القرية ، فقال : هل لك من نعمة تَرُبُّها[1] عليه ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى ، قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه "[2] .

فقوله : " فإني رسول الله إليك... " نظير قوله تعالى على لسان الملك لمريم (قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً)[3] وهذا الرجل الزائر أخاه في الله لم يقل أحد من العلماء بأنه نبي بل قال الامام النووي : " وفيه أن الآدميين قــد يــرون الملائكة "[4] ولم يقل بأن هذا الرجل الذي رأى الملك ، بل وبلغه الملك رسالة من ربه هو نبي ، كذلك لم ينقل النووي عن أحد من الأئمة القول بنبوته ، كما أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سماه " رجلاً " ولم يسمه " نبياً " بمعنى أن النــبي – صــلى الله عليه وسلم – تحدث عنه باعتباره رجلاً صالحاً أحب له أخاً في الله ، وقام بزيارته من أجل تلك المحــبة لا لغرض دنيوي ولا من أجل مصلحة مادية ولا منفعة له عنده ، ولم يقل النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن ذاك الرجل الزائر هو نبي .

ومــن هــنا وجب القول : بأنه لا يلزم أن يكون كل من يأتيه الملك نبياً ، لمجرد ذلك الاتيان والمجئ وبه يظهر ضــعف القول بنبوة النساء بصفة عامة وبنبوة مريم بصفة خاصة ، وذلك بناءً على قولهم : إن كل من يأتيه الملك فهو نبي سواء كان رجلاً أو امرأة .

وبقــي الكلام الآن على بيان معنى " الاصطفاء " في قوله تعالى : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساء العالمين)[5] .

الاصطفاء في اللغة : الاختيار .

قال في القاموس: " استصفاه : أخذ صفوه ، واختاره كاصطفاه "[6] وقال في اللسان : " استصفى الشئ واصطفاه : اختاره ... والاصطفاء : الاختيار ، افتعال من الصفوة "[7] .

وكلام المفسرين في تفسير معنى الاصطفاء في الآية الكريمة لا يبتعد عن المعنى اللغوي ، بل يتطابق معه ، قال ابن جرير : " (اصطفاك) اختارك واجتباك لطاعته وما خصك به من كرامته ، وقوله (وطهرك) يعني طهر دينك من الريب والأدناس التي في أديان نساء بني آدم (واصطفاك على نساء العالمين) يعني : اختارك على نساء العالمين في زمــانك بطاعتك إياه ففضلك عليهم "[8] ، ففسر ابن جرير – كما نرى – الاصطفاء بالاختيار وهو معناه اللغوي الذي سبق أن نقلــته مــن معاجم اللغة ، فجعل (اصطفاكِ) الأولى : اختياره سبحانه وتعالى لمريم ابنة عمران ليجعلها محل كرامته

---

(١) تَرُبُّها : تقوم باصلاحها ، وتنهض إليه بسبب ذلك ، شرح النووي (١٢٤/١٦) .
(٢) رواه مسلم في " صحيحه " (١٩٨٨/٤) كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب (١٢) ح رقم (٣٨-{٢٥٦٧}) .
(٣) سورة مريم – عليها السلام – الآية (١٩) .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢٤/١٦) .
(٥) سورة آل عمران ، الآية (٤٢) .
(٦) ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة (٨٣٤/٢) .
(٧) (٤٦٣/١٤) ، والرازي : مختار الصحاح (ص٣٢١) .
(٨) جامع البيان (٢٦٢/٣) والأولى أن يقال : ففضلك عليهن ، لأن الآية في تفضيلها على النساء .

ورعايته فنشأت كريمة صالحة تقية عابدة ، وهذا محض فضل منه سبحانه وتعالى على أمته مريم .

وجعل (اصطفاكِ) الثانية : اختياره تبارك وتعالى لها مرة أخرى ليجزيها الجزاء الأوفى ، والثواب الأحسن لما رأى منها من الاجتهاد في العبادة والطهر والتقى ، فاختارها لتكون من أفضل نساء العالمين ، ولتكون أماً لعبده ورسوله عيسى – عليه السلام – وهذا أيضاً محض فضل وكرم وإحسان منه تبارك وتعالى ، فالفضل منه سبحانه بتوفيقها للطاعة والطهر والعبادة ، والفضل منه سبحانه وتعالى أيضاً بإثابتها وتفضيلها على غيرها من النساء .

والسيوطي كذلك فسر الاصطفاء بالاختيار ولم يخالف من سبقه من المفسرين فقال : " (يا مريم إن الله اصطفاكِ) اختاركِ (وطهركِ) من مسيس الرجال [١] (واصطفاكِ على نساء العالمين) أي أهل زمانك "[٢] والمفسرون – كما هو ملاحظ من تفاسيرهم – منهم من جعل تفضيل مريم – عليها السلام – على نساء زمانها ، وهو رأي ابن جرير والسيوطي ، ومنهم من جعل تفضيلها على نساء العالمين مطلقاً إلى يوم القيامة وهو كلام الشوكاني – كما سبق – وهو مقتضى كلام القرطبي في تفسيره لأنه جعلها نبية ، وسيأتي كلامه ومناقشته قريباً .

حكى هذين الرأيين أبو المظفر السمعاني في " تفسيره " ، وابن حجر في " الفتح " . قال السمعاني : " اختاركِ وطهركِ من الحيض والنفاس [٣] ، وقيل : من الذنوب ، (واصطفاكِ على نساء العالمين) منهم من قال : على نساء عالمي زمانها ، ومنهم من قال : على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب[٤] ، ولم يكن ذلك لأحد من نساء العالم "[٥] .

وقال ابن حجر في شرحه لقوله – صلى الله عليه وسلم – " خير نسائها مريم "[٦] قال : " أي نساء أهل الدنيا في زمانها ... و (اصطفاكِ على نساء العالمين) ظاهره أن مريم أفضل من جميع النساء ، وهذا لا يمتنع عند من يقول إنها نبية ، وأما من قال : ليست بنبية فيحمله على عالمي زمانها ، وبالأول جزم الزجاج وجماعة ، واختاره القرطبي ، ويحتمل أيضاً أن يراد نساء بني اسرائيل ، أو نساء تلك الأمة، أو " من " فيه مضمرة ، والمعنى : أنها من جملة النساء الفاضلات"[٧] .

وبعد هذا النقل لكلام المفسرين فإنني لم أفهم من تفاسيرهم أن الاصطفاء هو اصطفاء النبوة ، وإنما هو اصطفاء التفضيل والاكرام ، إلا ما كان من كلام الامام القرطبي وهو رأي مرجوح سيظهر – إن شاء الله تعالى – عند إيراد كلامه قريباً .

إذاً فالاصطفاء في الآية الكريمة – كما قلت – هو اصطفاء الهداية والتكريم والتوفيق للعبادة والطاعة والتفضيل

---

(١) أي طهرها من مسيس الرجال بالحرام .

(٢) تفسير الجلالين (ص٦٤) .

(٣) بل قد نفست بعيسى – علي السلام – .

(٤) الأولى أن يقال : ولدت بلا زوج ، لأن المرأة تلد عن طريق اقترانها بزوج لا أنها تلد بأب ، وإن كان المعنى المقصود أنها ولدت بلا أب لوليدها ، لكن الأولى ما قلته .

(٥) أبو المظفر السمعاني : تفسير القرآن (٣١٨/١) .

(٦) جزء من حديث رواه البخاري في " صحيحه " من حديث عبدالله ابن جعفر قال : سمعت عليا – رضي الله عنه – يقول : " سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول ك خير نسائها مريم ابنة عمران ، وخير نسائها خديجة " كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٤٥) ح رقم : (٣٤٣٢) ، انظر الفتح (٤٧٠/٦) .

(٧) فتح الباري (٤٧١/٦) .

عــلى الغير ، وكلها هبات وإحسان منه جل وعلا لبعض عباده دون بعض ، كما اصطفى تعالى أبا بكر الصديق - رضي الله عــنه - ليكــون صاحب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ووزيره الأول دون غيره من الأصحاب ، واصطفى تعالى أصحابه - صلى الله عليه وسلم - دون غيرهم لينعموا بشرف الصحبة لنبيه - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا والآخرة ، واصطفى تعالى له من النساء زوجاته الفضليات - رضي الله عنهن - ليكن له زوجات في الدنيا والآخرة ، وكم من امرأة تاقت لأن يكرمها ربها تعالى فتكون زوجة له - صلى الله عليه وسلم - ولكن لم يحصل لها ما أرادت ورجت

وكل هذا اصطفاء واختيار لأنواع عديدة من الاكرام والتفضيل والاحسان وليس فيه شئ من معاني النبوة .

ولا ضــير عــليّ أن أعضد ما قلته بكلام الفخر الرازي في تفسيره الكبير حيث قال : " اعلم أن المذكور في هذه الآية[١] . أولاً : هو الاصطفاء ، وثانياً : التطهير ، وثالثاً : الاصطفاء على نساء العالمين ، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولاً مــن الاصطفاء الثاني ، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق ، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها ، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها .

أما النوع الأول من الاصطفاء : فهو أمور :

أحدها : أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الاناث .

وثانيها : قال الحسن : إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين ، بل ألقتها إلى زكريا ، وكان رزقها يأتيها من الجنة .

وثالثها : أنه تعالى فرغها لعبادته ، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة .

ورابعها : أنه كفاها أمر معيشتها ، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى : (...أني لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله...)[٢] .

وخامسها : أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاهاً ، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها ، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول .

- وأما التطهير : ففيه وجوه :

أحدهـــا : أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية فهو كقوله تعالى في أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - : (ويطهركم تطهيراً)[٣] .

وثانيها : أنه تعالى طهرها عن مسيس الرجال (أي بالحرام) .

وثالثها : طهرها عن الحيض ، قالوا : كانت مريم لا تحيض .

ورابعها : وطهرك من الافعال الذميمة ، والعادات القبيحة .

وخامسها : وطهرك عن مقالة اليهود وتهمهم وكذبهم .

- وأمــا الاصطفاء الثاني : فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى - عليه السلام - من غير أب ، وأنطق عيسى حال انفصاله

---

(١) هي الآية (٤٢) من سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساء العالمين)

(٢) سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٧) .

(٣) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٣٣) .

منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة "[١] .

ومن هذا الذي نقلته عن الرازي ومن قبله يتأكد القول بأن الاصطفاء هو اختيار اكرام واحسان وإفضال ، وليس بصريح في إثبات نبوة مريم كما قرر ابن حجر[٢] ، حيث قال : " استدل بقوله تعالى : (إن الله اصطفاكِ) على أنها كانت نبية وليس بصريح "[٣] وأما ذكرها - عليها السلام - في سورة مريم مع من ذكر من الأنبياء[٤] ، فليس صريحاً كذلك على كونها نبية ، وإنما ذكرت من أجل نبوة ابنها عيسى - عليها السلام - وليس لنبوتها هي ، قال الفخر الرازي : " أعلم أن مريم - عليها السلام - ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً من أهل القرى)[٥] وإذا كان كذلك كان ارسال جبريل - عليه السلام - إليها ، إما أن يكون كرامة لها ، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء ، أو إرهاصاً لعيسى - عليه السلام - وذلك جائز عندنا "[٦] وأما التصريح بالايحاء لبعض النساء في القرآن كما قال ابو الحسن الاشعري[٧] ، فليس فيه أيضاً - ما يدل على النبوة ، لأن الايحاء هنا لأم موسى هو الإلهام الحاصل للإنسان - كما قد وضحته في الفصل الثالث عند الكلام عن تعريف الوحي وقلت هناك بأن الالهام أحد معانيه ، قال أبو اسحاق : " ...ولذلك صار الالهام يسمى وحياً "[٨] ومنه قوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي...)[٩] ومنه - أيضاً - قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى)[١٠] فهو إلهام[١١] يحصل لآحاد الناس توفيقاً منه تعالى لعبده ورحمة به وهو ما حدث لأم موسى - عليهما السلام - وليس فيه ما يؤكد نبوتها .

والحديث الذي ورد في كمال النساء وهو قوله - صلى الله عليه وسلم - : " كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران... "[١٢] فقد كان هذا الحصر في الحديث مما استدلوا به على أن آسية ومريم نبيتان ، قالوا : " لأن اكمل النوع الانساني الأنبياء ثم الأولياء والصديقون والشهداء ، فلو كانت غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة ، فكأنه قال ولم ينبأ من النساء إلا فلانة وفلانة ، وقو قال لم تثبت صفة الصديقة أو الولاية أو الشهادة إلا لفلانة وفلانة لم يصح ، لوجود ذلك في غيرهن

---

(١) التفسر الكبير (٤٧/٨) .
(٢) انظر : فتح الباري (٤٧٠/٦) .
(٣) فتح الباري (٤٧٠/٦) .
(٤) ذكر السيوطي هذا القول عن السبكي في " الحلبيات " قال : " ويشهد لنبوتها ذكرها في سورة مريم مع الأنبياء وهو قرينة ، قال : وقد اختلف في نبوة نسوة غير مريم كأم موسى وآسية وحواء وسارة ولم يصح عندنا في ذلك شئ " انظر : الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية للسيوطي (ص٢٤٠) وانظر فتح الباري (٤٧١/٦) .
(٥) سورة يوسف الآية (١٠٩) .
(٦) التفسير الكبير (٤٧/٢٠) .
(٧) انظر فتح الباري (٤٤٧/٦) .
(٨) لسان العرب (٣٨١/١٥) .
(٩) سورة المائدة الآية (١١) .
(١٠) سورة القصص الآية (٧) .
(١١) انظر : الراغب : المفردات (ص٥١٥) .
(١٢) سبق تخريجه ، وهو في الصحيحين .

، إلا أن يكون المراد في الحديث كمال غير الأنبياء فلا يتم الدليل على ذلك لأجل ذلك "[١] .

والظاهـر من الحديث أن المراد هو كمال غير الأنبياء وكمال كل جنس بحسبه ، فأعلى درجات الكمال في جنس الرجال بلوغ النبوة والرسالة فضلاً من الله ونعمة . ومقتضى حكمة إلهية ، وأعلى درجات الكمال في جنس النساء الصديقية ، كما أخبر تعالى عن مريم فقال : (وأمه صديقة)[٢] وإذا كان فيهن من بلغت رتبة الصديقية ففيهن أيضاً الولاية والشهادة ، ولا يستلزم نفي النبوة عنهن ، نفي ما سواها من الصديقية والولاية والشهادة فنفي الأعلى لا يستلزم نفي الأدنى ويصح عكسه ، فأبو بكر صديق ، وعمر ولي وشهيد ، والاجماع منعقد على أفضلية أبي بكر – رضي الله عنه – ، وبه ظهر أن المراد في الحديث كمال غير الأنبياء ويؤيد ما قلته قول الكرماني : " لا يلزم من لفظ الكمال ثبوت نبوتها – أي مريم – ، لأنه يطلق لتمام الشئ وتناهيه في بابه ، فالمراد بلوغها النهاية في جميع الفضائل التي للنساء ، قال : وقد نُقل الاجماع على عدم نبوة النساء "[٣] وقد سبق الكلام على نقل الاجماع .

ويؤيده كذلك ما قاله السيوطي في رد قول من قال بنبوة مريم ، وأكد على أنها صديقة وليست نبية قال السيوطي : (صديقة)[٤] " بناء مبالغة من الصدق أو من التصديق ، ووصف مريم بهذه الصفة دون النبوة ، يدفع قول من قال إنها نبيـة "[٥] وبناءً على هذا يتضح ضعف الأدلة التي استدل بها على نبوة النساء كل من الأشعري وابن حزم والقرطبي ، وسيأتي كلام القرطبي قريباً ورد القاضي عياض عليه .

كما يؤيد ما قلته – أيضاً – كلام شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد وصف كلام ابن حزم بالشذوذ ، فقال : " وبالجملة فهـذا قـول شاذ ، لم يسبق إليه أحد من السلف ، وأبو محمد (يعني ابن حزم) مع كثرة علمه وتبحره ، وما يأتي به من الفوائـد العظيمـة ، له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة ، وهذا كقوله : إن مريم نبية ، وإن آسية نبية ، وإن أم موسى نبية ، وقد ذكر القاضي أبو بكر ، والقاضي أبو يعلي ، وأبو المعالي ، وغيرهم : (الاجماع على أنه ليس في النساء نبية ، والقرآن والسنة دلا على ذلك (يعني على صحة الاجماع) كما في قوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى)[٦] ، وقوله : (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة...)[٧] ذكر أن غاية ما انتهت إليه أمه : الصديقية "[٨] .

وكان ممن قال بنبوة النساء – أيضاً – القرطبي ، ولكنه أسقط منهن سارة وهاجر ، ونقله في " التمهيد " عن أكثر

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (٦/٤٤٧) .
(٢) سورة المائدة الآية (٧٥) .
(٣) ابن حجر : فتح الباري (٦/٤٤٧) .
(٤) سورة المائدة ، بعض الآية (٧٥) .
(٥) معترك الأقران (٢/٥٨١) .
(٦) سورة يوسف الآية (١٠٩) .
(٧) سورة المائدة الآية (٧٥) .
(٨) مجموع الفتاوي (٤/٣٩٦) .

الفقهـــاء[١] ، قـــال القرطبي : " والصحيح أن مريم نبية "[٢] وقال عياض : " الجمهور على خلافه "[٣] " ونقل النووي في " الاذكـــار" أن إمام الحرمين[٤] نقل الاجماع على أن مريم ليست نبية ، وعن الحسن : ليس في النساء نبية ولا في الجن "[٥] ومـــا قالــه القاضي عياض ، والإمام النووي والجويني وما نقل عن الحسن هو الحق الذي ترجحه الأدلة ، وهو ما رجحه شـــيخ الاســـلام ابن تيمية ، وكذلك الفخر الرازي من قبله[٦] ، وتأكيداً لذلك أنقل نصاً آخر من كلام ابن تيمية فقد قال : " ومريم بنت عمران ، وآسيا زوجة فرعون من أفضل النساء ، والفواضل من هذه الأمة كخديجة وعائشة وفاطمة - رضي الله عـــنهن - أفضل منها[٧] ، كما أن المفضلين من رجال هذه الأمة أفضل من فضلاء رجال غيرها ، فإن الصواب الذي عليه عامة المسلمين ، وحكى الاجماع عليه غير واحد أنهما ليستا نبيتين ، وإنما غايتهما الصديقية ، كما دل عليه القرآن ، وصديقوا هذه الأمة رجالها ونساؤها أفضل من صديقي غيرها "[٨] .

المبحث الثالث : أنهم صادقون

رســـل الله وأنبياؤه - عليهم جميعاً السلام - صادقون مصدقون ، بارون راشدون كرام بررة أتقياء ، أمناء ، هداة مهتدون ، وبالبراهين الظاهرة والآيات الباهرة من ربهم مؤيدون ، بلغوا جميع ما أرسلهم الله تعالى به ، ولم يكتموا شيئاً ، ولم يغيروا أو يبدلوا ، ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفاً ولم ينقصوه (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين)[٩] ولقد كانوا جميعهم على الحق المبين ، والهدى المستبين ، ودلائل صدقهم كثيرة أذكر منها ثلاثة أنواع :

أولهـــا : وهـــو أعظمهـــا شـــهادة الله تعـــالى لهم بأنهم صادقون قال تعالى : (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)[١٠] ، وقال تعالى أيضاً : (...هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)[١١] . وقال عز شأنه عن اسماعيل - عليه السلام - : (إنه كان صادق الوعد)[١٢] وقال تبارك اسمه عن ابراهيم - عليه السلام - : (إنه كان صديقاً نبياً)[١٣] وقال عـــز وتقدس : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين)[١٤] فسلم على المرســـلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب[١٥] ، قال د. هراس : " ثم يسلم على رسله - عليهم الصلاة والسلام -

---

(١) فتح الباري (٤٧١/٦) و " التقريب لكتاب التمهيد " مخطوط في خزانة القرويين بفاس برقم (١١٧/٨٠) .
(٢) فتح الباري (٤٧١/٦) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٥٣/٤) .
(٣) فتح الباري (٤٧١/٦) ، (٤٧٣/٦) .
(٤) انظر : فتح الباري (٤٧٣/٦، ٤٧١) .
(٥) نفسه (٤٧٣/٦، ٤٧١) .
(٦) انظر : التفسير الكبير (٤٧/٨) .
(٧) هكذا بضمير الأفراد والصواب أن يقال : افضل منهما ، لأن سياق الكلام عن مريم وآسيا - عليهما السلام - ، ولعل الخطأ من النسخ أو الطباعة .
(٨) مختصر الفتاوي المصرية (ص٢٠١) .
(٩) سورة النحل الآية (٣٥) .
(١٠) سورة الزمر الآية (٣٣) .
(١١) سورة يس ، بعض الآية (٥٢) .
(١٢) سورة مريم ، بعض الآية (٥٤) .
(١٣) سورة مريم ، بعض الآية (٤١) ، وكذلك قال عن سّيدنا إدريس - عليه السلام - في الآية (٥٦) .
(١٤) سورة الصافات الآيات (١٨٠-١٨٢) .
(١٥) انظر : العقيدة الواسطية (ص٣٠) مع شرحها لهراس .

بعد ذلك للإشارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله – عز وجل – وإبعاده عن كل شائبة نقص وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم من كل عيب كذلك ، فلا يكذبون على الله ، ولا يشركون به، ولا يغشون أممهم ، ولا يقولون على الله إلا الحق "[١] فالرسل هم أصدق الخلق على الاطلاق ، يقول الله تعالى في تأكيد هذا الصدق : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين)[٢] أي لو كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما يزعمون مفترياً علينا " فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا – وليس كذلك – لعاجلناه بالعقوبة (لأخذنا منه باليمين) ... لانتقمنا منه باليمين ، لأنها أشد في البطش ... (ثم لقطعنا منه الوتين) ... وهو نياط القلب وهو العرق الذي القلب معلق فيه "[٣] يقول سيد قطب : " وفي النهاية يجيئ ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفتري على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه ، يجئ لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه ، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذاً شديداً ، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ ... ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – صادق فيما أبلغهم ، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق "[٤] وهذا المعنى بعينه متحقق في جميع الرسل كما هو متحقق في رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فكلهم رسل الله ، وجميعهم أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد[٥] ، وحكمهم في الصدق كذلك حكم واحدة ، وهم فيه قد بلغوا الغاية ، ويدل على ما قلته أن هذه الآية قُرئت (ولو تُقُوِّلَ) على البناء للمفعول – كما ذكر أبو عبدالله القرطبي[٦] – وهي صيغة تعم كل من تقول على الله تعالى ، سواء كان محمداً – صلى الله عليه وسلم – وحاشاه – أم كان غيره ، وقد قال الله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شئ ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله)[٧] أي ومن أخطأ قولاً ، وأجهل فعلاً ممن افترى على الله كذباً ، يعني : ممن اختلق على الله كذباً ، فادعى عليه أنه بعثه نبياً ، وأرسله نذيراً ، وهو في دعواه مبطل ، وفي قيله كاذب ، وهذا تسفيه من الله لمشركي العرب ، وتجهيل منه لهم في معارضة عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، والحنفي مسيلمة[٨] ، لنبي الله – صلى الله عليه وسلم

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٣٠) .

(٢) سورة الحاقة الآيات (٤٤-٤٧) .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢٤٥/٨) ، ونقل ذلك عن ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحكم ، وقتادة ، والضحاك ، ومسلم البطين ، وأبو حميد بن زياد ، وانظر ابن جرير : جامع البيان (٦٦،٦٧/٢٩) .

(٤) في ظلال القرآن (٣٦٨٩/٢٩) .

(٥) ورد هذا في حديث رواه البخاري في " صحيحه " ، كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٤٨) ح رقم (٣٤٤٢،٣٤٤٣) فتح الباري (٤٧٧،٤٧/٦) ورواه مسلم في "صحيحه " (١٨٣٧/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٤٠) ح رقم (١٤٣،١٤٤،١٤٥) ، وانظر : صحيح الجامع (١٤/٢) .ورواه أبو داود في " سننه " وأحمد في " مسنده " .

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٧٨/١٨) .

(٧) سورة الأنعام الآية (٩٣) .

(٨) مضت ترجمته ، وزوجه سجاح .

- ونفي منه عن نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - اختلاق الكذب عليه ، ودعوى الباطل[1] .

وما أخبرنا الله تعالى به من أن الكاذب عليه سبحانه يؤخذ أخذاً شديداً رعيباً ، نرى صدقه واقعياً مشاهداً وقد سجل لنا التاريخ هذا الشاهد القوي ، فإن النبي الصادق في دعواه ، ينصره الله تعالى ويؤيده ، ويظهر أمره فيستمر على ذلك حتى ينتهي الأجل المقدر .

أما الكذاب المفتري فلا يدوم أمره إلا قليلاً ، ثم ينقطع ذكره ويضمحل أمره فلا يبقى له من باقية ، وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية : " أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبئ الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة ، وهذه من حجج أحد ملوك النصارى الذين يقال بأنهم من ولد قيصر ... حيث رأى رجلاً يسب النبي - صلى الله عليه وسلم - من رؤوس النصارى ويرميه بالكذب ، فجمع علماء النصارى وسألهم عن المتنبئ الكذاب كم تبقى نبوته ؟ فأخبروه بما عندهم من النقل عن الأنبياء : أن الكذاب المفتري لا يبقى إلا كذا وكذا سنة لمدة قريبة ، إما ثلاثين سنة أو نحوها ، فقال لهم : هذا دين محمد له أكثر من خمسمائة سنة أو ستمائة سنة وهو ظاهر مقبول متبوع ، فكيف يكون هذا كذاباً ، ثم ضرب عنق ذلك الرجل "[2] إذاً لا يوجد مدع للنبوة كذاب إلا ولابد أن ينكشف ستره ، ويظهر أمره ، أما الأنبياء الصادقون فلا يزال يظهر صدقهم ، ويعلو أمرهم كما هو مشاهد ، وأن أخبارهم الصادقة لا تزداد مع الأيام إلا ثباتاً ووثوقاً وظهوراً ، ومع تداول الفرق ، وكثرة طعون الأعداء ، وحرصهم على توهينها و تضعيف أصلها إلا قوة وقبولاً ، وللطاعنين عليها إلا حسرة وغليلاً ، على عكس أخبار الكذابين التي لا أصل لها فإنه لا بد مع مرور الأزمان ، وتداول الناس من انكشاف كذبها ، وظهور بطلانها وخمول ذكرها[3] .

<u>ثانيها :</u> الآيات الباهرة ، والبراهين القاهرة التي أظهرها الله على أيديهم تنطق بصدقهم ، وتلوح بتأييدهم ، قال تعالى : (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين)[4] وقال تعالى : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين)[5] .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : " ما من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر... "[6] .

قال ابن حجر : " الآيات : المعجزات الخوارق ... وهذا دال على أن النبي لا بدله من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه ، ولا يضره من أصر على المعاندة ... والمعنى : أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها " فكل نبي أعطاه الله تعالى آية خاصة به لم يعطها بعينها غيره ، تحدى بها قومه ، وكانت آية كل نبي (معجزته) تقع مناسبة لحال قومه الذين أرسل إليهم ، فمن كان في قومه السحر فاشياً أعطاه آية مناسبة لما برعوا فيه من السحر كعصا موسى - عليه السلام - فإنها جاءت على صورة ما يصنع السحرة لكنها ليست بسحر إنما هي آية

---

(١) انظر : ابن جرير (٢٧٢/٧) ، وابن كثير (٢٩٥/٣) ، والقرطبي (٢٧/٧) .
(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص٩٦،٩٥) .
(٣) انظر : القاضي عياض : الشفا (٣٥٦/١) .
(٤) سورة الانفال الآية (٦٢) .
(٥) سورة الصف الآية (١٤) .
(٦) متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب (١) ، ح رقم (٤٩٨١) فتح الباري (٣/٩) ، ورواه أيضاً في كتاب الاعتصام بالسنة (٩٦) باب (١) ح رقم (٧٢٧٤) فتح الباري (٢٤٧/١٣) .ورواه مسلم في " صحيحه " (١٣٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧٠) ح رقم (٢٣٩) .

خارقة تلقفت ما صنعوه ولفقوه ، فأعجزتهم وبهرتهم حتى آمن بموسى صانعوا السحر أنفسهم ، لأنهم تيقضوا بخبرتهم أنها ليســت بســحر مــثل سحرهم الذي يأفكونه ، ولم يقع ذلك بعينه لغير موسى – عليه السلام – فاختص بها دون سواه من الأنــبياء ، وكذلك لما كان الطب والحكمة فاشيان في عهد عيسى ابن مريم – عليهما السلام – وأن الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور أيده الله تعالى بآية من جنس علمهم بما لم تصل قدرتهم إليه ، فكان عيسى – عليه السلام – يحي الموتى ويبرئ الاكمه والأبرص من غير معالجة منه كما يفعل أطباء عصره ، ومن غير أن يتعلم الطب كما تعلموه ونــبغوا فيــه وذلك كما كان نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – أمياً لا يقرأ ولا يكتتب وفاق قومه فيما أوحاه الله إليه من الكــلام الفصــيح البليغ المعجز وهو القرآن الكريم ، فإن قوم عيسى كانوا فائقين في علاج بلاء الأبدان ، فتفوق عليهم فيه وأعجــزهم أن يــأتوا بمثله ، وهم مع تفوقهم لم يصلوا إلى أنهم يحيون الموتى البتة ، لكن الله تعالى أيد رسوله عيسى بأنه كــان يحــي الموتى بإذنه تعالى ، فكانت آية له قاهرة بهرتهم ، فتيقنوا بخبرتهم الطبية أن هذا الذي يأتي به عيسى – عليه السلام – خارج عن نطاق الطب بالكلية ، ولا يستطيعه بشر ، إنما هو آية ربانية لبيان حق ودلالة صدق .

وكذا لما كان العرب الذين بعث فيهم نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – في غاية البلاغة والفصاحة ، اكرم الله رســوله محمداً – صلى الله عليه وسلم – بآية أعجزت ألسنتهم – وهم ملوك اللسان والبيان – عن محاكاته ، وهو القرآن العظيــم ، فتحداهم بأن يأتوا بسورة مثله ، فلم يقدروا على ذلك ، فأيقنوا بخبرتهم الفائقة في صناعة الكلام وتركيب الالفاظ الــتي تعتبر قمة في الفصاحة والبلاغة والبيان آنئذ ، لما سمعوا نظم القرآن الكريم ، وتراكيب الفرقان الحكيم ، أدركوا أنه فــوق طاقــة البشر ، وأنه آية ناطقة بصدقه – عليه الصلاة والسلام – وهكذا أعطى الله كل نبي آية تخصه وبجانبها آيات كثيرة آمن بسببها كثير من البشر ، كانت من أدل الدلائل على صدق هؤلاء الرسل الكرام .

<u>**وثالثاً :**</u> دلالة العقل على صدق الرسل والأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – والصدق هو مطابقة خبرهم للواقع ولــو بحســب اعتقادهم[١] فلو لم يكن الرسل صادقون للزم الكذب في خبره تعالى ، ولكن كذب خبره محال ، فما أدى إليه وهو عدم صدقهم محال ، فيجب لهم الصدق .

ودليل هذه الملازمة : أن الله صدقهم بالآية (المعجزة) النازلة منزلة قوله : صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ، وتصــديق الكــاذب مــن العالم بكذبه محض كذب ، وهو محال في حقه تعالى ، فملزومه وهو عدم صدقهم محال ، وإذا استحال عدم صدقهم ، وجب صدقهم وهو المطلوب .

قــال تعالى : (...وصدق الله ورسوله...)[٢] وقال : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين)[٣] لكنا لم نأخذ منه باليمين ، ولم نقطع منه الوتين ، فدل على أنه لم يتقول علينا ، بل كان صادقاً فيما

---

(١) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٣٠٧/٢) .
وانظر : ابراهيم بن محمد البيجوري : تحفة المريد على جوهرة التوحيد (ص٧٦) ، حسن السيد متولي : مذكرة التوحيد (ص٣٣) .
(٢) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٢٢) .
(٣) سورة الحاقة ، الآيات (٤٤-٤٦) .

بلغه عنا .

قال السفاريني : " والوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه وبالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج إلى تقريره ، وفي قصة هرقل مع أبي سفيان كما في الصحيح[1] عند سؤال هرقل عظيم الروم أبا سفيان عن أوصاف النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب أي على الناس ؟ قال : لا ، وإن كان ليدعي فينا بالأمين ، فقال : لقد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم ليكذب على الله تعالى ، فيشعر هذا أن عقلاء الأمم مطبقون على استحالة كذب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – "[2] .

وإذا كان قد علم صدق الأنبياء والرسل – عليهم السلام – بدلالة المعجزة ، وغيرها من دلائل النبوة ، وجب تصديقهم في كل ما أتوا به عن الله ، ويستحيل عليهم الكذب عقلاً وشرعاً – كما بينت آنفاً – .

قال الجلال السيوطي : " والكذب الصراح لا يجوز على الأنبياء عند أهل التحقيق ، وأما المعاريض فهي جائزة "[3] والمعاريض هي : " ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح "[4] .

المبحث الرابع : أنهم معصومون

من المقطوع به أن الأنبياء والرسل هم صفوة البشر ، خلقهم الله تعالى على الفطرة السليمة ، النقية عن الآفات الخُلقية ، وقد هيأ لهم الله جل وعلا نشأة أعدهم بها لتحمل أمانة دعوة الخلق إلى التوحيد والعمل الصالح ، فهم مكلفون من الله جل وعلا بهداية الخلق بالبيان الواضح ، وإقامة الحجة الدامغة ومقارعة الخصوم ، يزين ذلك عقل راجح ، وفطانة راشدة تبهت عقول المعاندين والمجادلين بالباطل (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت

---

(١) هذا ورد في حديث متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " كتاب بدء الوحي (١) باب (٦) ح رقم (٧) انظر : الفتح (٣١/١) ، ورواه أيضاً في كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٠٢) ح رقم (٢٩٤١) فتح (١٠٩/٦) ، وفي كتاب التفسير (٩٥) باب (٤) ، ح رقم (٤٥٥٣) فتح (٨/ ٢١٤) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (١٣٩٣/٣) كتاب الجهاد (٣٢) باب (٢٦) ح رقم (٧٤-{١٧٧٣}) وأحمد (٢٦٣/١،٢٦٢) .

(٢) لوامع الأنوار البهية (٣٠٧/٢) ، وانظر : تحفة المريد (ص٧٦) ، وحاشية محمد بن محمد الأمير على شرح الجوهرة لعبد السلام المالكي (ص١١٤) .

(٣) معترك الأقران (٧٢/٣) .

(٤) التعريفات (ص٦٢) .

وقال في اللسان (١٨٢/٧) : " وعرَّض لي بالشئ لم يبينه " وقال أيضاً (١٨٢/٧-١٨٣) : " والمعاريض من الكلام ما عُرِّض به ولم يُصَرَّح ، وأعراض الكلام ، ومعارضه ومعاريضه : كلام يشبه بعضه بعضاً في المعاني ، كالرجل تسأله : هل رأيت فلاناً ؟ فيكره أن يكذب وقد رآه فيقول : إن فلاناً لَيُرى . ولهذا المعنى قال عبدالله ابن العباس : ما أحب بمعاريض الكلام حمر النعم ، ولهذا قال عبدالله بن رواحة حين اتهمته امرأته بجارية له وقد كان حلف ألا يقرأ القرآن وهو جنب ، فألحت عليه بأن يقرأ سورة ، فأنشأ يقول :

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الاله مسومينا

قال : فرضيت ، لأنها حسبت هذا قرآنا ، فجعل ابن رواحة هذا عَرَضاً ومعْرَضاً فراراً من القراءة ... والمعاريض خلاف التصريح ، والمعاريض : التورية بالشئ عن الشئ " والتورية هي : " أن يريد المتكلم بكلامه خلاف ظاهره مثل أن يقول في الحرب : مات إمامكم ، وهو ينوي به أحداً من المتقدمين " (التعريفات ص٧١) ، وفي الحديث عن عمران بن حصين مرفوعاً : " إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب " أي سعة .

الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين)[١] ومع ذلك فهم يبلغون ما أوحاه الله إليهم بكل دقة وأمانة لا يغيرون ولا يبدلون ولا يتقولون ، (...قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إليّ)[٢] .

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين)[٣] .

وهـذه الأمانة هي ما اصطلح على تسميتها بالعصمة ، فهذه الصفوة المختارة قد عصمهم الله تعالى من كل ما من شأنه أن يعيق دعوتهم أو ينفر من سلوك طريقتهم ، أو يدخل في قلوب المدعوين أدنى ريب من جهة البلاغ والبيان .

فهـم القدوة الحسنة لجميع البشر ، وهم المثل الأعلى ، والنموذج الأكمل في جميع نواحي الكمال الخلقي والسمو الـروحي ، وذلـك بـبعدهم عن اقتراف المعاصي والآثام ، وعزوفهم عن الانكباب على الشهوات واجتنابهم كل ما يخل بالمـروءة أو يهدر الكرامة ، ومن أجل ذلك أمر الله تبارك وتعالى بالاقتداء بهم ، والنسج على منوالهم ، والتخلق بأخلاقهم والالتزام بمنهجهم قولاً وعملاً واعتقاداً . (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[٤] .

<u>- تعريف العصمة في اللغة :</u>

العصمة في كلام العرب تعني : المنع والحفظ .

وعَصَـمَه يَعصِمه عَصْماً : منعه ووقاه[٥] . واسم الفاعل : عاصم ، قال تعالى : (يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد)[٦] .

والعاصم هنا بمعنى : مانع ودافع[٧] وقد يطلق ويراد به اسم المفعول ، كما في قوله تعالى وتقدس حكاية عن ابن نـوح - عـليه السـلام - : (...قـال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم...)[٨] . أي : لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله تعالى ، أي : لا " معصوم إلا المرحوم "[٩]

وذكـر الراغب الأصفهاني أن العَصْم : الامساك والاعتصام : الاستمساك[١٠] ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، وفي التنزيل العزيز قوله جل وعلا : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...)[١١] أي : تمسكوا بعهد الله[١٢] ، أو بدينه

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٨) .
(٢) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - ، بعض الآية (١٥) .
(٣) سورة الحاقة الآيات (٤٤،٤٥،٤٦) .
(٤) سورة الأنعام ، بعض الآية (٩٠) .
(٥) لسان العرب (٤٠٣،٤٠٤/١٢) .
(٦) سورة غافر الآية (٣٣) .
(٧) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٦٢/٢٤) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١٣٣/٧)، والسمعاني : تفسير القرآن (١٩/٥) ، الشوكاني : فتح القدير (٤٩١/٤) ، حسنين محمد مخلوف : كلمات القرآن تفسير وتبيان (ص٣٩٥) بهامش المصحف الشريف ، الجلالين (ص٥٧٢) .
(٨) سورة سيدنا هود - عليه السلام - الآية (٤٣) .
(٩) لسان العرب (٤٠٣/١٢) .
(١٠) انظر : المفردات (ص٣٣٦) .
(١١) سورة آل عمران ، بعض الآية (١٠٣) .
(١٢) اللسان (٤٠٤،٤٠٥/١٢) ، وانظر : جامع البيان (٣٠/٤) ، وابن كثير ك تفسير القرآن العظيم (٧٣/٢) ، والشوكاني : فتح القدير (٣٦٩/١) .

أو بكتابه[١] فالعصمة إذاً معناها : المنع ، والحفظ ، والإمساك والوقاية .

- تعريف العصمة في الاصطلاح :

وأما العصمة في الاصطلاح : فقد اختلفت في ذلك عبارات العلماء فقال بعضهم : " هي حفظ الله تعالى عبده مما يوبقــه "[٢] ولفظـــة " عــبده " في هذا التعريف غير دقيقة إذ أنها تشمل غير الأنبياء ، مع أن الاتفاق بين علماء الأمة على ثــبوتها للأنــبياء والرسل فقط دون غيرهم من سائر البشر ، وعلى ذلك فهو تعريف جامع غير مانع . وقريب منه تعريف الجرجاني حيث قال : " العصمة : هي ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها "[٣] فهل هذه الملكة تحصل للأنبياء وغيرهم ؟ والجــواب المؤكــد أنها ليست ثابتة لغير الأنبياء ، ثم إن معنى كون العصمة ملكة ، أنه يمكن اكتسابها ، ذلك لأن الملكة حالة ترسخ في النفس مع كثرة المران والدربة

لذلــك قــال الجرجاني نفسه في تعريفها (أعني الملكة) : " هي صفة راسخة في النفس ، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بســبب فعل من الأفعال ، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية ، وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال ، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة ، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخُلقاً "[٤] فكل ذي حــرفة أو صنعة أو فن من العلوم بكثرة ممارسته له والانشغال به ، تصبح لديه ملكة في تلك الحرفة أو الصنعة أو الفن ، وذلك كالفقيه الذي رسخت لديه ملكة استنباط الأحكام من الأدلة بحيث يمكنه معرفة الحكم الشرعي لكل جزئية من تصرفات البشر من الحل أو الحرمة أو الكراهة أو غير ذلك ، فهي ملكة مكتسبة بالتعلم والدراسة والمناقشة والنظر في أقوال العلماء وسماع طرق اجتهادهم والوقوف على موارد نزاعهم مع الصبر والدأب في ذلك ، حتى تحصل له تلك الملكة .

إذاً فهــي صفة أو حالة تكتسب بالمراس والتعود وهي قابلة للزوال ، ولكن العصمة التي للأنبياء ليست كذلك ، بــل هــي محض فضل الله جل وعلا ، ولذا عرفها بعضهم بقوله : " هي محض فضل الله تعالى بحيث لا اختيار للعبد فيه وذلك إما بخلقهم[٥] على طبع يخالف غيرهم بحيث لا يميلون إلى المعصية ، ولا ينفرون عن الطاعة كطبع الملائكة ، وإما بصرف همتهم عن السيئات وجذبهم إلى الطاعات ، جبراً من الله تعالى بعد أن أودع في طبائعهم ما في طبائع البشر "[٦] .

وفــي القول بجبر الأنبياء على الطاعة ، وسلب اختيارهم نظر ، لأنهم إذا كانوا مجبورين على ذلك كان لا فرق بيــنهم وبين الملائكة ، إذ لا يصح أن يقال إن الملائكة معصومون ، لأنهم لا اختيار لهم بين الطاعة والمعصية إنما جبلهم الخــالق جل وعلا على الطاعة لاغير ، إنما العصمة تقال في حق من أودع فيه الاختيار بين هذا وذاك ، ولكنهم (أي الأنبياء - عليهم السلام -) حفظوا بفضل من الله جل وعلا عن مواقعة الاثم .

---

(١) انظر : ابن جرير ك جامع البيان (٣٠،٣١/٤)، والسيوطي: الدر المنثور (٢٨٤/٢-٢٨٧) والشوكاني : فتح القدير (٣٦٩/١) .

(٢) محمد الخضر بن الناجي ضيف الله : عصمة الأنبياء في الكتاب والسنة والرد على الشبهات الواردة عليها (ص١٩) .

(٣) التعريفات (ص١٥٠) .

(٤) التعريفات (ص٢٢٩) .

(٥) أي الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

(٦) الملا علي القاري الحنفي : شرح الفقه الأكبر (ص٩٤) .

ومن أجل هذا قال بعضهم : " العصمة فضل من الله ولطف منه ، ولكن على وجه يبقى اختيارهم بعد العصمة في الاقدام على الطاعة والامتناع عن المعصية وإليه مال الشيخ أبو منصور الماتريدي حتى قال : العصمة لا تزيل المحنة . أي : الابـتلاء والامتحان ، يعني لا تجبره على الطاعة ولا تعجزه عن المعصية ، بل هي لطف من الله تعالى يحمله على فعل الخير ، ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار ، تحقيقاً للابتلاء والاختبار "(١) .

قال د.أحمد بن ناصر الحمد ، حيث عرف العصمة فقال : " إنها حفظ الله تعالى لأنبيائه من تغير الفطرة ، ومن الخطأ فيما يبلغون عنه من وحي ، ومن اقتراف الكبائر ، وما يستقذر "(٢) .

وأفضـل مـن هذا وأجمع ما استخلصه د.أحمد آل عبداللطيف بقوله : " العصمة : هي حفظ الله ظواهر الأنبياء وبواطـنهم مما تستقبحه الفطر السليمة قبل النبوة ، وحفظهم من الكبيرة وصغائر الخسة بعدها ، وتوفيقهم للتوبة والاستغفار من الصغائر ، وعدم اقرارهم عليها "(٣) .

فالعصمة بهذا المعنى ثابتة للأنبياء – عليهم السلام – وهي من صفاتهم التي أكرمهم المولى جل وعلا بها وميزهم عـن سائر البشر ، ولا تكون هذه العصمة البتة إلا للأنبياء الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – حيث وهبهم الله جل جلاله ومنّ عليهم بهذه النعمة العظمى ، ولقد كان للسيوطي رأيه في هذه المسألة ، والذي سأبينه فيما يلي .

– رأي السيوطي في العصمة :

يـرى السـيوطي أن الأنـبياء – عليهم السلام – يتمتعون بالعصمة من الذنوب والآثام ، وذلك لكرامتهم على الله تعالى ، وهو في هذا لاينفرد عن بقية علماء الأمة . فهم متفقون جميعاً على إثبات هذه العصمة للأنبياء والمرسلين ، ولذلك قـال : " ونعتقد أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – معصومون ، لا يصدر عنهم ذنب ، لا كبيرة ولا صغيرة ، لا عمداً ولا سهواً ، لكرامتهم على الله تعالى بل ومن المكروه ، لأن وقوع المكروه من التقي نادر فكيف من النبي ؟ "(٤) .

فهـو – كمـا نرى من كلامه – ينفي وقوع الذنوب من الأنبياء ، أو صدورها عنهم أياً كانت هذه الذنوب فهم لا يصـدر عنهم لا كبيرة ولا صغيرة ، ولا حتى فعل مكروه ، وعلل ذلك بأن المؤمن التقي يندر منه وقوع الأفعال الكروهة شرعاً ، فمن باب أولى ألا يصدر من النبي مكروه من المكروهات .

وإن كـان من المتبع غالباً عند جل العلماء والباحثين أن يفرقوا بين العصمة قبل النبوة وبعدها ، إلا أن السيوطي هنا لم يفصل هذا الأمر هل هذه العصمة التي أثبتها هي ثابتة للنبي قبل وبعد النبوة ، أم أنها بعد النبوة فقط ؟ .

والذي يبدو من كلام السيوطي أنه يتناول العصمة بعد النبوة ، إذ أن النبي بعد اكرام الله تعالى له بها يكون موضع الأسوة والقدوة والتشريع ، أما قبلها فليس كذلك .

---

(١) تأويلات أهل السنة (١/٥٥٠،٢٤١) ، وانظر : الملا على القاري : شرح الفقه الأكبر (ص٩٤) ، د.علي عبدالفتاح المغربي : ابو منصور الماتريدي إمام أهل السنة وآراؤه الكلامية (ص٣٥١) .

(٢) ابن حزم : الدرة فيما يجب اعتقاده (ص٣٧٨) هامش المحقق د.أحمد بن ناصر الحمد .

(٣) د.أحمد عبداللطيف آل عبداللطيف : عصمة الأنبياء (ص٢٤) . رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى .

(٤) علم التوحيد (لوحة رقم (٢٩) مخطوط .

أولاً – العصـــمة قبل النبوة : يرى أكثر العلماء أنه لا دليل على ثبوت العصمة للأنبياء قبل النبوة ، وهذا هو رأي جمهور الأشاعرة وبعض المعتزلة . وهو كذلك رأي أهل السنة وسيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى .

فـــأبو الحسن الآمدي يرى عدم عصمة الأنبياء قبل النبوة ، فقد يصدر عنهم المعاصي كبيرة كانت أو صغيرة ، إذ لا دلالة للمعجزة على عصمة الأنبياء فيما قبل ظهورها على أيديهم ، كما أنه لا توجد دلالة سمعية على عصمتهم قبل بعثتهم [١] .

وكذلك هو مذهب أبي بكر بن الطيب الباقلاني[٢] ، وأكثر أصحابه[٣] .

وذهب إليه كذلك العضد الإيجي[٤] في المواقف[٥] والفخر الرازي في " عصمة الأنبياء "[٦] ، والبغدادي في أصول الديـــن[٧] ويتضح من ذلك – كما قلت – أن جمهور الأشاعرة يذهب إلى نفي العصمة قبل البعثة لأنه لا دليل عليها ، ولما كان السيوطي ينتسب إلى مذهب الأشاعرة كما يظهر من كتاباته ومؤلفاته[٨] فهو – على الظن الغالب – قائل بقولهم ، لأنه لـــو كـــان لديـــه خلاف ما هم عليه لأظهره وبينه ، أما وإنه قد سكت عنه فإن الأصل أن يكون على مذهبهم إلا أن يُظْهر خلافه ، أقول : إن أغلب الظن أن يكون على رأي الأشاعرة في هذه المسألة ولا أقطع بنسبة شئ إليه لم يقله .

ثانياً – أما العصمة بعد النبوة ، ففيها مسائل :

الأولى – العصـــمة فـــي التبـــليغ : ولقد اتفقت كلمة طوائف الاسلام بل أهل الشرائع قاطبة على عصمة الأنبياء والرسل عن تعمد كل ما يخل بصدقهم في دعوى الرسالة وتحملها ، وأمانتهم في التبليغ عن الله عز وجل[٩] ، فهم لا ينسون شيئاً مما أوحاه الله تعالى إليهم ، إلا شيئاً قد نسخ ، وقد تكفل الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – بأن يقرئه القرآن فلا ينســـى شيئاً فيه إلا ما نسخه الله وأراد أن ينسيه إياه ، قال تعالى : (سنقرئك فلا تنسى {٦} إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر ومـــا يخـــفى {٧})[١٠] وتكفـــل الله تعـــالى أيضـــاً بـــأن يجمعـــه فـــي صـــدره ، قـــال جـــل شـــأنه : (لا تحـــرك بـــه لســـانك لتعجل به {١٦} إن علينا جمعه وقرآنه {١٧} فإذا قرأناه فاتبع قرآنه {١٨})[١١] والعصمة في التبـــليغ عـــن الله تعالى وحيه وأحكامه وإن كان السيوطي لم يذكرها بخصوصها إلا أنه لا يتصور من إمام كالسيوطي أن

---

(١) ابكار الافكار (١٤٠/٢) ق ب – (١٤١) ق ب .

(٢) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني ، القاضي ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه رئاسة مذهب الأشاعرة ، ولد بالبصرة (٣٣٨هـــ-٩٥٠م) وسكن بغداد وتوفي بها (٤٠٣هـــ-١٠١٣م) له العديد من المصنفات انظر : وفيات الأعيان (٤٨١/١) ، قضاة الاندلس (ص٣٧-٤٠) ، تاريخ بغداد (٣٧٩/٥) ، دائرة المعارف الاسلامية (٢٩٤/٣) ، تبين كذب المفترى (٢١٧-٢٢٦) ، الاعلام (١٧٦/٦) .

(٣) انظر : الإحكام في أصول الأحكام (١٦٩/١) .

(٤) محمد بن عبدالرحمن الإيجي .

(٥) انظر : المواقف في علم الكلام (ص٣٥٩) .

(٦) انظر : (ص٣) .

(٧) انظر : (ص١٦٨) .

(٨) صـــرح الســـيوطي بانتسابه إلى المذهب الأشعري حيث قال : " وقد أطبقت أئمتنا الأشاعرة من أهل الكلام والأصول ... أن من مات ولم تبلغه الدعوة مات ناجياً " ، انظر : مسالك الحنفا في والدي المصطفى (ص١١) ضمن الرسائل التسع (ط١٤٠٥/١هـــ) – دار إحياء العلوم – لبنان .

(٩) انظـــر فـــي نقل هذا الإجماع : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٨٩،٢٩٠/١٠) ومنهاج السنة النبوية (٤٧٠/١-٤٧٣) والرازي : عصمة الأنبياء (ص٥٦) ، التفتازاني : شرح العقائد النسفية (ص٨٩) ، السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٣٠٤/٢) ، الأشقر : الرسل والرسلات (ص٩٧) .

(١٠) سورة الأعلى – جل جلاله – ، الآيتان (٦،٧) .

(١١) سورة القيامة الآيات (١٦،١٧،١٨) .

يقول بخلاف ما قرره العلماء الذين اتفقوا جميعاً على ذلك ، ولولا أن المسألة في عداد الأمور الراسخة المتفق عليها لتكلم عنها وذكرها ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا بأن هذه العصمة قد اتفق عيها العامة والخاصة ، إذ قد أيقنوا وآمنوا جميعاً بمعنى قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) [(١)] لأن من لا ينطق عن الهوى كان معصوماً من قبل الله – جل وعلا – .

إن ديـــن الله الـــذي شرعه لهداية البشر للتي هي أقوم إنما يعرف من قبل الرسل الكرام ، وليس ثمة طريق آخر يستطيع البشر الاهتداء به إلى ما يحبه الله تعالى ويرضاه ، أو يبغضه جل وعلا ويأباه ، فالأنبياء والرسل هم السبيل الوحيد لمعرفة دين الله ، ومعرفة الله جل وعلا وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهم الواسطة بين الحق والخلق ، فلا طريق إلا طريقهم ، ولا مـــنهاج للسعادة إلا منهاجهم ، ولا باب يوصل إلى جنات الله والنعيم المقيم إلا بابهم ، فلو كذب هؤلاء الرسل الكرام فيما أنزله الله تعالى عليهم لتبليغه إلى عباده فنقصوا منه أو زادوا عليه شيئاً من تلقاء أنفسهم ، أو لو بدلوا فيه أو غيروا أو حـــرفوا لكانت عقيدة الناس وشريعتهم على وجه غير صحيح ، وليس من حكمة الله تعالى وعدله ورحمته بخلقه أن يرسل إليهـــم رسلاً كذبة يفترون على الله – جل وعلا – ما لم ينزل به سلطاناً ومن المشاهد في سنن الله عز وجل في إرسال الأنـــبياء والمرســـلين إلى الناس ، أنه تعالى يُثَبِّتُ من اصطفاهم لهذه المهمة العظيمة على الصدق والحق ، ولو ذاقوا من أقوامهـــم مـــا حكـــاه الله عنهم من الأذى والتعذيب والتقتيل (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً)[(٢)] .

ومن المعلوم أيضاً من سنن الله تعالى مع رسله وأنبيائه الكرام أنه لم يخز ولم يعذب ولم يهلك أحداً منهم عقاباً له عـــلى كذب في تبليغه أو في دعواه فدل ذلك على عصمتهم من الكذب وغيره من كل ما يقدح في صدقهم وأمانتهم ، ودقة بلاغهم عن الله تعالى ، وشدة خوفهم منه سبحانه وتعظيمهم له ولأمره ونهيه .

ولمـــا كـــان الجلال السيوطي منتسباً إلى المذهب الأشعري – كما قلنا – فمن المؤكد أن رأيه في هذه المسألة هو رأيهم ، وقوله هو قولهم لأنني لم أجد له كلاماً يخالفهم فيها ، ولذلك سأوضح رأيهم في هذه المسالة فأقول :

اتفـــق الأشاعرة على عصمة الأنبياء – عليهم السلام – عن الكذب في دعوى النبوة وكذلك في تبليغهم ما أرسلوا به من قبل الله تعالى يقول شارح المواقف : " أجمع أهل الملل والشرائع كلها على وجوب عصمتهم عن تعمد الكذب ، فيما دل المعجـــز القـــاطع عـــلى صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله تعالى إلى الخلائق ، إذ لو جاز عليهم التقول والافتراء في ذلك عقلاً لأدى إلى إبطال دلالة المعجزة وهو محال "[(٣)].

وقـــريب من هذا قال أبو المعالي – رحمه الله – : " فإن قيل بينوا لنا عصمة الأنبياء وما يجب لهم ، قلنا : تجب

---

(١) سورة النجم ، الآيتان (٣،٤) .

(٢) سورة الاسراء الآيتان (٧٤،٧٥) .

(٣) الجرجاني : شرح المواقف (٢٦٢/٨) .

عصمتهم عما يناقض مدلول المعجزة وهذا مما نعلمه عقلاً ، ومدلول المعجزة صدقهم فيما يبلغون "[١] .

وبمثل ما قال الجرجاني والجويني قال أبو الحسن الآمدي : " وأما بعد النبوة فقد اتفق أهل الملل وأرباب الشرائع علـى وجـوب عصـمة الأنبياء – عليهم السلام – عن الكذب عمداً فيما دلت المعجزة القاطعة على صدقهم فيه وذلك في دعـوى الرسـالة وما يبلغونه عن الله تعالى إلى الأمة بطريق التبليغ عنه ، وإلا فلو جاز عليهم التقول والتخرص في ذلك عقلاً لأفضى إلى إبطال دلالة المعجزة وهو محال "[٢] .

ومـن كلام الآمدي وغيره يتضح أن عصمة الأنبياء لم تكن محل خلاف بين أهل الإسلام ، بل لم تكن كذلك بين أهل الشرائع كافة ، لكن الجميع متفقون على عصمتهم عن تعمد ما يخل بصدقهم وأمانتهم وهذا ما أكده السيوطي بقوله : " الكـذب الصـراح لا يجوز على الأنبياء عند أهل التحقيق "[٣] بل يذهب السيوطي إلى أبعد من ذلك فيذكر أن المشركين لم يكونوا يعتقدون كذب النبي – صلى الله عليه وسلم – ولكنهم كذبوا جحوداً منهم للحق مع علمهم بصدقه ، فقد قال عند قوله تعالى : (...فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)[٤] قال : لا يكذبونك بتشديد الذال ، بمعنى : لا يكذبونك معتقدين لكذبك ، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به .

ومن هنا يتضح اطباق أهل الأرض على تصديق الأنبياء مؤمنهم وكافرهم أما المتبعون لهم فظاهر وأما المكذبون لهم فظاهر أمرهم التكذيب والرفض ، وباطنه التصديق المحض وهو المقصود من إثبات العصمة لهم – صلوات الله تعالى عليهم أجمعين – .

لكـنه قـد حصل خلاف بين الأئمة في جواز وقوع الكذب من الأنبياء عن طريق الغلط والنسيان فأنكره البعض وجوزه آخرون .

قـال الآمدي : " واختلفوا في جواز ذلك عليهم بطريق الغلط والنسيان ، فمنع منه الأستاذ أبو اسحاق[٥] وكثير من الأئمـة ، لمـا فيه من مناقضة دلالة المعجزة القاطعة ، وجوزه القاضي أبو بكر[٦] مصيراً منه إلى أن ما كان من النسيان وفلـتات اللسـان غير داخل تحت التصديق المقصود بالمعجزة ، وهو الأشبه "[٧] وبقوله قال الإيجي بلفظ يكاد ينطبق على لفظه ، حيث قال : " وفي جواز صدوره عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف : فمنعه الاستاذ[٨] وكثير من الأئمة لدلالة المعجـزة على صدقهم ، وجوزه القاضي[٩] مصيراً منه إلى عدم دخوله في التصديق المقصود بالمعجزة "[١] وهذا الخلاف

---

(١) الجويني : الارشاد (٣٥٦) .
(٢) أبكار الأفكار (١٤١ ق أ) .
(٣) معترك الأقران (٧٢/٣) .
(٤) سورة الأنعام ، بعض الآية (٣٣) .
(٥) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفرايني ، ركن الدين الشافعي ، فقيه ومتكلم أصولي (ت٤١٨هـ) بنيسابور ، انظر : وفيات الأعين (٨/١-) ، شذرات الذهب (٢٠٩/٣-٢١٠) ، طبقات الشافعية (١١١/٣-١١٤) ، العبر (١٢٨/٣) ، معجم البلدان (٢٤٧/١) ، تبيين كذب المفترى (ص٢٤٣-٢٤٤) .
(٦) محمد بن الطيب الباقلاني – رحمه الله – .
(٧) إحكام الأحكام (١٧٠/١) ، وأبكار الأفكار (١٤١/٢ ق أ) .
(٨) أبو اسحاق الاسفرايني – رحمه الله – .
(٩) محمد بن الطيب الباقلاني – رحمه الله – .

الـذي نقله إلينا كل من الآمدي والأيجي مبنى على كون الغلط والنسيان داخلاً تحت دلالة التصديق المقصود بالمعجزة ، أو غيـر داخـل تحتها ، فالاستاذ أبو اسحاق ومن وافقه يرون أنه داخل تحت دلالة التصديق المقصود بالمعجزة ولذلك امتنع عندهم أن يقع غلط من النبي أو نسيان ذلك لأن المعجزة قائمة مقام قول الله جل وعلا : صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ، فإذا وقع الغلط أو النسيان ، كان ذلك ناقضاً لدلالة المعجزة على الصدق ، وذلك ممتنع ، فامتنع وقوع الغلط والنسيان .

وأمـا الآمـدي والقاضـي الباقلاني ومن وافقهما يرون أن الغلط والنسيان وفلتات اللسان غير داخل تحت دلالة التصـديق المقصود بالمعجزة ، ذلك لأن : " المعجزة إنما تدل على صدق الرسول فيما هو متذكر فيه ، عامد له ، وأما ما كان من النسيان وفلتات اللسان فلا تدخل تحت التصديق المقصود بالمعجزة ، ولا المعجزة دالة على نفسه ، وعلى هذا فلا تكون صورة النسيان ناقضة لدلالة المعجزة "[٢] وبمثل هذا قال الجرجاني في " شرح المواقف "[٣] .

ومن هنا يتضح أن الرأي الراجح لدى جمهور الأشاعرة جواز وقوع الغلط أو السهو أو النسيان من النبي .

أما السيوطي فهو يرى ما رآه الاستاذ أبو إسحاق خلافاً لجمهورهم من امتناع وقوع السهو من النبي وقد قال فيما نقلـناه عنه قبل قليل : " ونعتقد أن الأنبياء معصومون ، لا يصدر عنهم ذنب لا كبيرة ولا صغيرة ، لا عمداً ولا سهواً... "[٤] فهو بذلك لا يرى وقوع السهو أو الغلط من النبي وكلامه في هذا صريح كما رأينا مما نقلنا عنه .

الثانية - العصمة من الكبائر : أما الكبائر فقد حكى غير واحد اتفاق أهل العلم على عدم تعمد الأنبياء - عليهم السـلام - لارتكـاب الكـبائر والسيوطي ممن قال بهذا القول فوافق اتفاق العلماء على ذلك ، وقد سبق نقل كلامه في أن الأنبياء لا يقع منهم الذنوب الكبائر لا عمداً ولا سهواً[٥] .

قال الآمدي : " فإن كان من الكبائر ، فقد اتفق المحققون والأئمة على وجوب عصمتهم عن تعمده من غير نسيان ولا تأويل ، ولم يخالف في ذلك غير الحشوية[٦] "[٧] .

ونحا نحوه الجرجاني حيث قال : " أما الكبائر - أي صدورها عنهم عمداً - فمنعه الجمهور من المحققين والأئمة ولم يخالف فيه إلا الحشوية "[٨] .

---

(١) المواقف (ص٣٥٨) .
(٢) الآمدي : أبكار الأفكار (٢/١٤١ ق أ) .
(٣) انظر : (٨/٢٦٣) .
(٤) علم التوحيد (لوحة ٢٩) .
(٥) علم التوحيد (لوحة ٢٩) .
(٦) أول مـن استعمل لفظ " الحشوية " عمرو بن عبيد (المعتزلي) قال : كان عبدالله بن عمر حشوياً ، يريد بالحشوية الأميين ، ثم صار من يقدس العقـل ويؤثـره على النقل كالمعتزلة يرمون بها علماء الحديث كأحمد بن حنبل ومن على شاكلته من أهل الحديث من أئمة السنة والجماعة ، فأعداء أهل السنة عموماً ينبزون أهل السنة بمثل هذه الألقاب على سبيل الانتقاص ، انظر : تعليق الشيخ عبدالرزاق عفيفي على هذه اللفظة في كـتاب الآمـدي : إحكام الأحكام (١/١٧٠) وانظر كذلك : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٤/٢٩) ، والشهرستاني : الملل والنحل (ص١٠٥) في معرض كلامه عن المشبهة ، وانظر : د.عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية (ص١٦٩) .
(٧) أبكار الأفكار (٢/١٤١ ق أ) وأحكام الأحكام (١/١٧٠) .
(٨) شرح المواقف (٨/٢٦٤) .

ولمثل قولهما(١) ذهب السعد التفتازاني في " شرح المقاصد "(٢) وكذلك في " شرح العقائد النسفية "(٣) والبيضاوي في " طوالع الأنوار "(٤).

وأما إن كان قصدهم من ذكر " الحشوية " نبز أهل السنة بهذا اللقب ، فهذا من الباطل الذي زلت به ألسنة وأقلام بعض الفضلاء أمثال التفتازاني والإيجي والجرجاني ، وما كان يليق بمثلهم الوقوع في مثل هذا الصنيع .

ذلك لأن أهل السنة والجماعة كما هو مشهور عنهم ومعلوم ، يقولون بعصمة الأنبياء عن تعمد الكبائر ، وسيتضح لنا ذلك عند عرضنا لرأي أهل السنة بعد قليل – إن شاء الله – فرأيهم أفضل الآراء ، ومذهبهم في هذا وفي غيره أنصع المذاهب وأوضحها ، وهو الحق الذي لا مرية فيه .

الثالثة – عصمة الأنبياء من الصغائر : يقسم متكلموا الاشاعرة الصغائر إلى قمسين :

أولهما : قسم يوجب الحكم على فاعله بالخسة ، ودناءة الهمة ، سقوط المروءة ، وذلك كسرقة لقمة ، والتطفيف بحبة ، ونحو ذلك .

والثاني : لا يوجب على فاعلة الحكم بالخسة كنظرة أو كلمة سفه نادرة في حالة غضب .

ويلحقون القسم الأول بالكبائر في وجوب عصمة الأنبياء – عليهم السلام – منه ، وحكى بعضهم الاجماع على ذلك وفي هذا يقول الآمدي : " وأما ما ليس بكبيرة فإما أن يكون من قبيل ما يُلحِق فاعله بالأرازل والسفل والحكم عليه بالخسة ودناءة الهمة ، وسقوط المروءة ، كسرقة حبة ، أو كسرة ونحوه ، فالحكم فيه حكم الكبيرة "(٥) بمعنى أنه تجب عصمتهم منه كما تجب عصمتهم من تعمد ارتكاب الكبائر .

وحكى القاضي عياض اجماعهم على ذلك حيث قال : " وقال بعض أئمتنا لا يجب على القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها إذ تلحقها بالكبائر ، ولا في صغيرة أدت إلى إزالة الحشمة واسقطت المروءة ، وأوجبت الازراء والخساسة فهذا مما يعصم عنه الأنبياء إجماعاً "(٦) .

وأما القسم الثاني فيرون جواز صدوره من الأنبياء عمداً وسهواً ، وهو مذهب الآمدي وأكثر أصحابه ، وأكثر المعتزلة عدا الجبائي(٧) ، الذي قال بعصمة الأنبياء عن تعمد الصغائر ، وأن ذلك لا يجوز عليهم إلا بطريقة السهو أو الخطأ في التأويل وقد سبق الجبائي كلٌ من النظام(٨) ، وجعفر بن مبشر(٩) في هذا القول .

---

(١) أي الآمدي والجرجاني .
(٢) انظر (٥/٥٠) .
(٣) انظر : (ص٨٩) .
(٤) انظر : (ص٢١٤) .
(٥) أبكار الأفكار (٢/١٤١ ق أ) وانظر : إحكام الأحكام (١/١٧١) .
(٦) الشفا (٢/٣٣٠) .
(٧) محمد بن عبدالوهاب ، أبو علي الجبائي ، نسبة إلى بلده " جي في خوزستان كان رأساً في الاعتزال (ت٢٩٥هـ) انظر : الشهرستاني : الملل والنحل (١/٧٨)
(٨) ابراهيم بن سيار النظام ، أبو اسحاق ، رأس الغرفة النظامية المعتزلية (ت ما بين ٢٢٣، ٢٢١هـ) . الشهرستاني : الملل والنحل (١/٥٣) .
(٩) أبو محمد جعفر بن مبشر من رجال المعتزلة ، وهو و جعفر بن حرب زعيما الجعفرية من فرق الاعتزال ، انظر : الفرق بين الفرق (ص١٦٧) .

وفي حكاية هذا يقول الآمدي :

" وأما ما لا يكون من هذا القبيل كنظرة أو كلمة سفه نادرة في خصام ونحو ذلك ، فهذا مما اتفق أكثر أصحابنا ، وأكثر المعتزلة على جوازه عمداً وسهواً ... وذهب الجبائي إلى أن ذلك لا يجوز إلا بطريق السهو أو الخطأ في التأويل ، وذهب النظام وجعفر بن مبشر إلى أن ذلك لا يجوز منهم إلا على طريق الغفلة والسهو غير أنهم يؤاخذون بذلك ، وإن لم تؤاخذ أممهم به ، لعلوم رتبهم وقوة معرفتهم بالله تعالى "(١) .

فإذا كان جمهور الأشاعرة قد جوزوا وقوع الصغائر التي لاتوجب الخسة والدناءة من الأنبياء - عليهم الصلاة - عمداً وسهواً ، وجوزها جمهور المعتزلة سهواً لا عمداً ، فإن السيوطي قد منع من ذلك مطلقاً سواء كان عن طريق العمد أو كانت عن طريق السهو(٢) ذهاباً منه إلى أن ذلك لا يقع منهم - عليهم السلام - لكرامتهم على الله تعالى ، فإن الأنبياء لهم كرامة ومنزلة رفيعة ، ورتبة خاصة وزلفى لديه جل وعلا ، وهو تعالى يكرمهم بذلك بأن يعصمهم من الوقوع في شئ من الذنوب والآثام ، حتى ولو سميت صغيرة ، كما أن وقوع الصغائر والمكروهات من الرجل الصالح التقي نادر ، فمن باب أولى أن لا يقع فيها مطلقاً من هم أفضل منه وأتقى وأعلى وهم الأنبياء - عليهم السلام - وإنه لَيُشكر للسيوطي هذه الغيرة والمحبة وعدم المساس بجناب الأنبياء الكرام ، ولكن ينبغي التنبيه والحذر من أن تحملنا هذه المحبة والغيرة على تنزيه الأنبياء عن شئ لا يقدح في عدالتهم ولا يؤثر على عظيم كرامتهم وعلو مكانتهم عند الله جل وعلا ، بل هو مقتضى بشريتهم ، ودليل عليها ، ومع ذلك فإنهم ينبهون أو يعاتبون كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

وأما قول السيوطي بأن وقوع المكروه من التقي نادر ، فأولى ألا يقع مكروه من النبي ، كلام فيه نظر ، لأن وقوع المكروه من النبي أندر من النادر ومع ذلك قد يقع منه ما لا يؤثر ذلك على ما أكرمهم الله تعالى به من علو الرتبة ، ورفيع المنزلة ، ولكن - كما قلنا - لا يقرهم الله عليها ، بل ينبههم تنبيهاً ، وقد يعاتبهم عتاباً ، ولا يعاقبهم عقاباً ، بل عتاب المحب لحبيبه ، ويأتي - إن شاء الله - مزيد تفصيل لهذا عند بيان رأي أهل السنة ، فإلى رأيهم .

رأي أهل السنة والجماعة في العصمة

أولاً : العصمة قبل النبوة :

أهل السنة والجماعة لا يرون عصمة الأنبياء قبل النبوة مطلقاً ، خلافاً للرافضة(٣) ، وأكثر المعتزلة ، أما الرافضة فيذهبون إلى عصمة الأنبياء والرسل قبل النبوة من جميع الذنوب صغارها وكبارها ، وأن وقت العصمة عندهم يبدأ منذ الولادة ، ويستمر إلى الوفاة ، والأنبياء بأي حال من الأحوال لا تجوز عليهم المعاصي لا سهواً ولا عمداً ولا ذهولاً ،

---

(١) أبكار الأفكار (٢/١٤١ ق ب) وانظر : الايكي : المواقف (ص٣٥٩) والقاضي عبدالجبار : شرح الأصول الخمسة (ص٥٧٥) ، المغني (١٥/ ٢٨٠) والأشعري : مقالات الاسلاميين (١/٢٩٧) .

(٢) انظر : رسالة في علم التوحيد (لوحة رقم ٢٩) .

(٣) الرافضة أو الروافض : فرقة من فرق الشيعة كانوا من أتباع زيد بن علي بن الحسين حين طلبوا منه أن يتبرأ من الشيخين الجليلين أبي بكر وعمر ، فقال : لقد كانا وزيري جدي فلا أتبرأ منهما ، فرفضوه ، وتفرقوا عنه فسموا رافضة ، انظر : مقالات الاسلاميين (ص١٦، ص٦٥) بتصحيح هلموت ريتر ، وانظر : مروج الذهب (٣/٢٢٠) .

سواء كانت تلك المعاصي من الكبائر أم الصغائر[١] .

وأما أكثر المعتزلة فيرون عصمة الأنبياء عن الكبائر وما يجري مجراها في التنفير قبل البعثة[٢] .

وقد ألجأ كلا الفريقين هذا القول إلى تأويل نصوص القرآن الكريم التي أخبرت بما وقع من الرسل والأنبياء من التوبة من الذنوب ، ومغفرة الله تعالى لهم ورفع درجاتهم بذلك[٣] .

وقد بين ابن تيمية - رحمه الله - منشأ الخطأ في قول من يقول بقول كل من الرافضة والمعتزلة فيقول رحمه الله : " وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول : إن الله لا يبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل النبوة ، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم .

وكذلك من قال إنه لا يبعث نبياً إلا من كان مؤمناً قبل النبوة فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصاً وإن تاب التائب منها ، وهذا منشأ غلطهم ، فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيماً ، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شئ أصلاً ، لكن إن قدم التوبة لم يلحقه شئ وإن آخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله ، والأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - كانوا لا **يؤخرون التوبة ، بل يسارعون إليها ، ويسابقون إليها ، ولا يؤخرون ولا يصرون على الذنب ، بل هم معصومون من ذلك** "[٤] .

وقد حكى شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - الاتفاق على " جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل من قبله من النبوة والشرائع ، وأن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر ، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلاً عن أن تقر به ، قال تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره...)[٥] الآية ، وقال : (...يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق)[٦] فجعل انذارهم بالتوحيد كالانذار بيوم التلاق ، وكلاهما عرفوه بالوحي "[٧] .

ثم بين شيخ الإسلام - رحمه الله - أن من نشأ من الأنبياء بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم وقد عرف عنه الصدق والأمانة والبعد عما ينفر من القبول ، فالرسل يبعثون من خيار أمتهم ، وقد استنبط شيخ الإسلام هذا الفهم من قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب - عليه السلام - (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين ، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها...)[٨] الآية .

والشاهد من هذا قوله تعالى : (...أو لتعودن في ملتنا...) فالعود في ملة المشركين يدل على أن شعيباً - عليه

---

(١) انظر : الآمدي : أبكار الأفكار (٢/١٤٠ ورقة ب ، ١٤١ ق أ) .
(٢) انظر : القاضي عبدالجبار : شرح الأصول الخمسة (ص٥٧٣) ، والمغني (١٥/٣٠٤) .
(٣) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (١٥/١٥٠) .
(٤) مجموع الفتاوي (١٠/٣٠٩) .
(٥) سورة النحل ، بعض الآية (٢) .
(٦) سورة غافر ، بعض الآية (١٥) .
(٧) مجموع الفتاوي (١٥/٣١،٣٠) .
(٨) سورة الأعراف الآية (٨٨) ، وبعض الآية (٨٩) .

السلام – كان قبل أن يكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة على دين قومه ويدل عليه أيضاً قول شعيب – عليه السلام – الذي حكاه الله تعالى عنه : (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها...) فمن كانت حاله من الأنبياء مثل حال شعيب لم يكن عليه نقص في ذلك ، يقول شيخ الإسلام : " إن الله سبحانه إنما يصطفى لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب – كما في حديث هرقل ، ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم ، إذا كان معروفاً بالصدق والأمانة ، وفعل ما يعرفون وجوبه وترك ما يعرفون قبحه ، قال تعالى : (...وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)[١] فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب ، وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم ، ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحاً "[٢] .

بل قد بين شيخ الاسلام – رحمه الله – أن الرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم أكمل من غيره ممن نشأ بين أهل الايمان والنبوة ، وأنه ليس بالضرورة أن يبغض كل رسول ما كان عليه قومه من العبادة الوثنية قبل مبعثه ، أما ما حصل لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – من بغض لما كان عليه قومه من عبادة الأوثان فهو خاص به – صلى الله عليه وسلم – ، يقول شيخ الإسلام : " وما ذكر أنه بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي ، فإنه سيد ولد آدم ، والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره ، من وجهة تأييد الله له بالعلم والهدى ، وبالنصرة والقهر ، كما كان نوح وإبراهيم ، ولهذا يضيف الأمر إليهما في مثل قوله : (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم...)[٣] الآية ، (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم...)[٤] الآية "[٥] .

وهكذا يتضح أن أهل السنة والجماعة لا يرون عصمة الأنبياء عن الكفر والمعاصي قبل البعثة ، وإنما يرون وجوب عصمتهم عما ينفر الناس عن القبول لدعوتهم ، فهم يبعثون من خيار أمتهم نسباً وأخلاقاً وأن أعظم ما يتصفون به من الخلق الصدق والأمانة .

أما السيوطي فقد قدمت أنه أغفل الكلام عن العصمة قبل النبوة ، إما لأنه يرى – والله تعالى أعلم – أنه لا يتعلق بهم أسوة ولا قدوة قبل النبوة ، وإما موافقة منه لرأي جمهور الأشاعرة الذي بينته فيما سبق ، وهو أنهم يذهبون إلى عدم عصمة الأنبياء قبل النبوة تماماً كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة .

ثانياً – العصمة بعد النبوة :

وفيها أربعة مسائل هذه رؤوسها :

الأولى : العصمة في تحمل الرسالة . الثانية : العصمة في التبليغ .

الثالثة : العصمة من كبائر الذنوب . الرابعة : العصمة من صغائرها .

---

(١) سورة الاسراء ، بعض الآية (١٥) .
(٢) مجموع الفتاوي (١٥/٣٠) .
(٣) سورة الحديد ، بعض الآية (٢٦) .
(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٣) .
(٥) مجموع الفتاوي (١٥/٣١) .

المسألة الأولى : العصمة في تحمل الرسالة :

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – معصومون في تحملهم لرسالات ربهم جل وعلا ، فهم يحفظون ما أوحاه الله تعالى إليهم من نصوص وأحكام ، فلا ينسون شيئاً منه إلا ما قد أراد الله تعالى نسخه قال جل وعلا : (سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى)(١) .

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – : " وهذا إخبار من الله – عز وجل – ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها "(٢) .

وقال الإمام ابن جرير – رحمه الله تعالى – : " يقول تعالى ذكره : سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه ، إلا ما شاء الله ثم اختلف أهل التأويل في معنى قوله : (فلا تنسى إلا ما شاء الله) فقال بعضهم : هذا إخبار من الله نبيه – عليه الصلاة والسلام – أنه يعلمه هذا القرآن ، ويحفظه عليه... وقال آخرون : معنى النسيان في هذا الموضع : الترك ، وقالوا : معنى الكلام : سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشئ منه ، إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما ننسخه "(٣) ثم اختار القول الأول .

المسألة الثانية – العصمة في التبليغ :

إذا ثبتت العصمة في التحمل والتلقي ، فإن أهل السنة والجماعة كذلك يثبتون العصمة للأنبياء والرسل في تبليغ ما حفظوه عن الوحي ، بمعنى أنهم يستحيل أن يكذبوا على الله تعالى ، أو أن يتقولوا عليه سبحانه ما لم يقله ، أو يكتموا شيئاً مما أوحاه الله تعالى إليهم ، فإن فعل شئ من ذلك خيانة ، وهو من المستحيل في حق رسل الله تعالى وأنبيائه – عليهم السلام – قال جل وعلا : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين)(٤) " فسبح – سبحانه وتعالى – نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب "(٥) .

يقول ابن كثير – رحمه الله – : " ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون – تعالى وتقدس – عن قولهم علواً كبيراً ، ولهذا قال : (سبحان ربك رب العزة) أي : ذي العزة التي لا ترام (عما يصفون) أي : عن قول هؤلاء المعتدين المفترين (وسلام على المرسلين) أي : سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيقته "(٦).

فالرسل والأنبياء – عليهم السلام جميعاً – صادقون مصدقون ، في كل ما يخبرون به عنه – جل وعلا – معصومون من الكذب عليه والإخبار عنه بما يخالف الواقع ، وأنه لو حدث شئ من الكتمان أو التغيير أو التبديل لما أوحاه

---

(١) سورة الأعلى الآيتان (٦،٧) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٠١/٨) .
(٣) جامع البيان (١٥٤/٣٠) .
(٤) سورة الصافات الآيتان (١٨١،١٨٠) .
(٥) ابن تيمية : العقيدة الواسطية – مع شرحها لمحمد خليل هراس (ص٣٠) .
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤١/٧) .

الله تعـالى إلى أحـد مـنهم لعاجله الله تعالى بالعقوبة وانتزاع النبوة منه ، قال - جل وعلا - : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين)[١] .

ويدل على العصمة في التبليغ أيضاً قوله - جل وعلا - : (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى)[٢] .

ومـن هنا كانت عصمة الأنبياء في التبليغ محل اتفاق الأمة كلها ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : " فإنهم - أي العلماء - متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله - تعالى - ، وهذا هو مقصود الرسالة ، فإن الرسول هو الذي يبلغ عن الله أمره ونهيه وخبره ، وهم معصومون في تبليغ الرسالة باتفاق المسلمين ، بحيث لا يجوز أن يستقر في ذلك شئ من الخطأ "[٣] .

وقـال فـي موضع آخر : " إن الإنبياء - صلوات الله عليهم - معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبـليغ رسالاته باتفاق الأمة ، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه ... بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ولو كانوا أولياء الله ... وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة ... والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة ، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين "[٤] .

وقـال ابـن حمدان[٥] : " وأنهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى "[٦] وقال ابن عقيل[٧] في الارشاد : " إنهم - عليهم الصلاة والسلام - لم يعتصموا في الأفعال بل في نفس الأداء قال : ولا يجوز عليهم الكذب فيما يؤدونه عن الله تعالى "[٨]

وقـال السـفاريني : " وقـد أجمعت الأمة على أن ما كان طريقه الإبلاغ ، فالأنبياء والرسل معصومون فيه من الإخبار عن شئ منه بخلاف الواقع ، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً على تفصيل في بعض ذلك "[٩] ومن العصمة في التبليغ عصمة الأنبياء - عليهم السلام - من تناقص أقوالهم ، فلا يجوز أن يصدر عنهم " خبران متناقضان في الحقيقة ، ولا أمران متناقضان في الحقيقة إلا وأحدهما ناسخ والآخر منسوخ "[١٠] وذلك لأن الله تعالى " قد ضمن حفظ الذكر الذي أنزله على رسوله ، ولم يضمن حفظ ما يؤثر عن غيره ولأن ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة هو هدي الله الذي جاء من عند الله ، به يعرف سبيله ، وهو حجته على عباده ، فلو وقع فيه ضلال لم يبين لسقطت حجة الله في ذلك ، وذهب

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات (٤٦،٤٥،٤٤) .
(٢) سورة النجم الآيتان (٣،٤) .
(٣) منهاج السنة النبوية (٤٧١/١،٤٧٠) .
(٤) مجموع الفتاوي (٢٩٠/١٠،٢٨٩) ، وانظر : النبوات (ص٣٣٣-٣٣٥) .
(٥) هـو : أحمد بن حمدان بن شبيب النميري الحراني ، فقيه حنبلي ، أديب ولد عام (٦٢٠هـ) بحران ، ونشأ بها ، كف بصره بعدما أسن ، توفي في القاهرة عام (٦٩٥هـ) انظر : العليمي : المنهج الأحمد (ص٤٠٥) والدر المنضد (٤٣٦/١) .
(٦) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٣٠٤/٢) .
(٧) هـو : عـلي بن عقيل بن محمد ، أبو الوفاء ، عالم العراق ، وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته ، توفي (٥١٣هـ) ، انظر : ابن رجب : طبقات الحنابلة (٢٥٩/٢) والعليمي : الدر المنضد (٤٣٦/١) .
(٨) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٣٠٤/٢) .
(٩) لوامع الأنوار (٢٠٧/٢) .
(١٠) ابن تيمية : مجموع الفتاوي (١٦٨/٤) .

هداه ، وعميت سبيله "[١] .

وهذه العصمة في التبليغ ثابتة بالشرع والعقل والإجماع حكى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] ، وغيره .

المسألة الثالثة : العصمة من كبائر الذنوب :

اتفق السلف على عصمة الأنبياء من الكبائر وما فحش من الذنوب والآثام ، يؤكد هذا شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول : " ...فـإن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف حتى إنه قـول أكـثر أهـل الكلام ، كما ذكر أبو الحسن الآمدي ، أن هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول "[٣] .

وحـكى القاضي عياض اجماع المسلمين على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر والموبقات[٤] ، كما حكى أبو الحسـن الأشـعري إجمـاع المعتزلة على ذلك[٥] ، وألمح الشوكاني إلى هذا المعنى في تفسيره[٦] ، وصرح به في إرشاد الفحول حكاية عن القاضي أبي بكر بن العربي ، وابن الحاجب وغيرهما[٧] .

وهـذه العصـمة بعـد النبوة أما قبل البعثة وقبل نزول الوحي فقد قدمنا أن أهل السنة لا يثبتون العصمة للأنبياء ووافقهم في هذا الأشاعرة ، قال التفتازاني : "...وأما قبل الوحي فلا دليل على امتناع صدور الكبيرة "[٨]وقد فصلت القول في ما سبق بما يغني عن الإعادة هنا .

المسألة الرابعة : العصمة من الصغائر :

جوز أهل السنة والجماعة وقوع الذنوب الصغائر من الأنبياء ومعنى هذا أنهم لايثبتون لهم العصمة من الصغائر ، ولكنهم مع ذلك ذهبوا إلى أن الله تعالى لا يقر الأنبياء على هذه الصغائر بل ينبههم وقد يعاتبهم على ذلك فلا يقرون عليها ، بل يتداركهم ربهم جل وعلا بعنايته فيسير لهم التيقظ والتفطن لملاحظتها ثم يمن عليهم بتوبة عاجلة يسارعون إليها مسارعة ، ويسـابقون إليهـا مسابقة ، فيتبين لمتبعيهم أنها معصية ، ويتبين من جهة أخرى صدق الرسل والأنبياء وأما نتهم في نقل الوحي الذي يعاتبهم الله تعالى به فلا يكتمون منه شيئاً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : " والأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - " كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل يسارعون إليها ، ويسابقون إليها ، لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك "[٩] .

كمـا يبين - رحمه الله - فيما نقلت عنه آنفاً ، أن عدم عصمة الأنبياء من الذنوب الصغائر هو قول أكثر علماء

---

(١) نفسه (٤/١٦٨-١٦٩) .
(٢) انظر : السابق (١٠/٢٩٥) .
(٣) مجموع الفتاوي (٤/٣١٩) .
(٤) الشفا (٢/٣٣٧) .
(٥) انظر : مقالات الاسلاميين (١/٢٩٧) .
(٦) انظر : فتح القدير (٣/٨) .
(٧) انظر : (١/١٥٩) ت.د.شعبان محمد اسماعيل ، دار الكتبي ط١٤١٣/١هـ-١٩٩٢م .
(٨) شرح العقائد النسفية (ص٨٩) .
(٩) مجموع الفتاوي (١٠/٣٠٩) .

الإســلام ، فهــو قــول أكــثر عــلماء الكلام ، وأكثر أهل التفسير ، والحديث ، والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين إلا ما يوافق هذا القول(١) .

قــال القاضـــي عياض : " وأما الصغائر ... فجوزها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء ، وهو مذهب أبي جعفر الطبري ، وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين "(٢) .

وهــؤلاء الذين منعوا من وقوع الصغائر ظنوا أن نسبة هذه الصغائر إلى الأنبياء طعن بهم ، وغض من مــنازلهم الشريفة ، واعتداء على مقام النبوة ، ولكنهم في نفس الوقتت وجدوا بعض نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشــريفة تثبت وقوع شئ من هذه الصغائر من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فتحملوا لذلك تأويل النصوص الشرعية اخضـــاعاً لهـــا تحـــت ما يتوهمون ، وكان العكس هو الواجب ، بمعنى أنه كان ينبغي عليهم أن يتقبلوا النصوص بالتسليم والرضى واخضاع العقول والنفوس لأحكامها بدلاً من تأويلها الذي يصل إلى درجة التحريف ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمـــه الله– " ونصـــوص الكـــتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المســـلمين كـــثيرة ، لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية ... وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها أنها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه "(٣) .

عـــلى أن القائـــلين بالعصمة من الصغائر لا دليل لديهم ولا حجة على رأيهم ، غير حجج ضعيفة هي في حقيقتها شبهات وفي هذا يقول شيخ الاسلام – رحمه الله – : " والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ، ليس لهم حجة من كــتاب وسنة رسول ، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها ، وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء ، كالروافض والمعتزلة ، وحجتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم "(٤) .

أما الشبهات التي بني عليها هؤلاء القائلون بالعصمة فهي شبهتان :

<u>الأولى :</u> قــالوا : إن الله تعالى قد أمرنا باتباع الرسل ، والتأسي بهم ، والأمر باتباع الرسول والاقتداء به يستلزم أن تكون اعــتقاداته وأقواله وأفعاله جميعها طاعات لا محالة ، لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لله تعالى لحصل تناقض في واقع الحال ، إذ يقتضي أن يجتمع في هذه المعصية التي وقعت من الرسول الأمر باتباعها وفعلها من حيث كوننا مأمورين بالتأســـي بالرســـول – صلى الله عليه وسلم – والنهي عن مواقعتها من حيث كونها معصية منهي عنها ، وهذا تناقض فلا يمكــن أن يأمـــر الله عبداً بشئ في حال أنه ينهاه عنه ، فوجب أن يكون النبي معصوماً من مقارفة جميع المعاصي أياً كان صغيرة أم كبيرة(٥) .

---

(١) نفسه (٣١٩/٤) .

(٢) الشفا (٣٢٨/٢)، وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٣٠٩/١٠-٣١٦) ، وجامع الرسائل (٢٢١/١-٢٧٦،٢٢٦-٢٧٩)، والآمدي : أبكار الأفكار (١٤٢/٢ ق ب-١٥٦ ق ب)، وقد أورد الآمدي أدلة كثيرة على جواز صدور الصغائر من الأنبياء بعد البعثة ، حيث بلغت أكثر من عشرين دليلاً ، وانظر : الأشقر : الرسل والرسالات (ص١٠٧-١٠٩) .

(٣) مجموع الفتاوي (٣١٣/١٠-٣١٤) .

(٤) جامع الرسائل (٢٧٦/١) .

(٥) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩٣/١٠) .

وجوابها : كما يقرر ابن تيمية أنه اعتراض غير صحيح ، وقد يكون له وجهة لو أن معصية النبي من الأنبياء أو الرســول بقيت خافية غير ظاهرة بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية ، أما وأن الله تعالى ينبه رسله وأنبياءه إلى ما وقع منهم من مخالفات ويوفقهم إلى المسارعة للتوبة منها من غير تأخير ، فإن ما أوردوه لا يصح دليلاً ، " والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر ، فأما المنسوخ والمنهي عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالاتفاق .

فإذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها ، فالافعال التي لم يقر عليها أولى بذلك "[(١)] .

إذاً فالاقتداء والتأسي بهؤلاء الأنبياء في هذه الحالة إنما يكون منصباً على الاسراع في التوبة عند وقوع المعصية وعدم التسويف في ذلك ، تأسياً برسل الله وأنبيائه الكرام في مبادرتهم بالتوبة من غير تأخير[(٢)] .

والـــثانية : توهمهم أن الذنوب تنافي الكمال ، وأنها تكون نقصاً وإن تاب منها التائب[(٣)] ، أو أنها تؤدي إلى التنفير منهم ، وعدم السكون إليهم والأخذ عنهم .

والجـــواب : أن هـــذا الـــتوهم غير صحيح ، فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيمــاً ، فـــإن التوبة تغفر الحوبة ، ولا تنافي الكمال ، ولا يتوجه إلى صاحبها لوم ولا عقاب ، بل إن العبد في كثير من الأحيـــان يكون بعد توبته من معصيته خيراً منه قبل مقارفته للمعصية وذلك لما يحصل في قلبه من الندم والخوف والخشية مـــن الله تعالى ، ولما يجهد به نفسه من الاستغفار والدعاء ، ولما يجهد به نفسه كذلك من القيام بصالح الأعمال ليلاً ونهاراً يرجو بذلك أن تمحو الصالحات تلك السيئات ، وقد ورد عن بعض السلف أنه قال : " كان داود – عليه السلام – بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة "[(٤)] ، وورد أيضاً عن غيره : " لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه "[(٥)] .

يؤيد ذلك ما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال " لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دوية مهـــلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه فأضلها ، فخرج في طلبها حتى إذا أدركه الموت ولم يجدها ... فغلبـــته عيـــنه ، فاستيقظ فإذا راحلته عند راسه عليها طعامه وشرابه وما يصلحه... "[(٦)] وقد أخبر الله تعالى أنه يحب الـــتوابين ، والأنـــبياء والرسل أعظم التوابين قال تعالى : (...إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[(٧)] وقال جل وعلا مبيناً ثواب التائبين : (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً)[(٨)] .

ومعـــلوم أنـــه لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار ، يدلنا على هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنـــبياء – عليهم السلام – إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار فآدم وزوجه عصيا فبادرا بالتوبة قائلين : (...ربنا ظلمنا أنفسنا

---

(١) ابن تيمية : جامع الرسائل (٢٧٦/١) ، وانظر : مجموع الفتاوي (٢٩٣/١٠) .

(٢) انظر : الأشقر : الرسل والرسلات (ص١١٠) .

(٣) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩٣/١٠-٣٠٩) ، الآمدي : ابكار الأفكار (١٥٧/٢ ق أ-١٥٩ ق ب) .

(٤) ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩٤/١٠) .

(٥) نفسه .

(٦) مـــتفق عـــليه : رواه الـــبخاري ، في صحيحه ، كتاب الدعوات (٨٠) باب (٤) ح رقم (٦٣٠٨) انظر الفتح (١٠٢/١١) ، ومسلم في صحيحه (٢١٠٢/٤) كتاب التوبة (٤٩) باب (١) ح رقم {(١-{٢٦٧٥}،٣-٢-{٢٧٤٤}،٤،٥-{٢٧٤٥}،٦-{٢٧٤٦}،٧-{٢٧٤٧}،٨} .

(٧) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٢٢) .

(٨) سورة الفرقان الآية (٧٠) .

وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)[١] .

ومــا كادت ضربة موسى – عليه السلام – تقضي على القبطي فيسقط قتيلاً حتى سارع موسى – عليه السلام – طالباً الغفران والرحمة من ربه جل وعلا قائلاً : (...رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي...)[٢] ونبي الله داود – عليه السلام – مــا كــاد يشــعر بخطيئته حتى خر راكعاً منيباً إلى ربه جل وعلا ، قال الله تعالى عنه : (...فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب)[٣] .

فالأنــبياء – صــلوات الله عليهم وسلامه – لا يقرون على الذنب من جهة ، ومن جهة أخرى فإنهم لا يؤخرون التوبة ، فالله تعالى قد عصمهم من ذلك ، وهم بعد التوبة والإنابة أكمل منهم قبلها[٤] .

وبهــذا يتــبين غلط من ذهب إلى عصمة الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – من الصغائر لدلالة الكتاب والســنة على نقيض ما ذهبوا إليه ، وهاتان الشبهتان المتقدمتان هما أهم ما تمسك به هؤلاء ، وبدحضهما يحصل المقصود من اثبات صحة ما ذهب أهل السنة والجماعة ، وحسب المؤمن الأدلة الواضحة البينة التي تهدي للتي هي أقوم .

---

(١) سورة الأعراف ، بعض الآية (٢٢) .

(٢) سورة القصص ، بعض الآية (١٦) .

(٣) سورة ص ، بعض الآية (٢٤) .

(٤) انظر: ابن تيمية : مجموع الفتاوي (١٠/٢٩٣-٢٩٦) ، وجامع الرسائل (١/٢٧٦-٢٧٩)، الأشقر : الرسل والرسالات (ص١٠٩-١١١) .

الفصل السادس :نبوة نبينا محمد - ﷺ - وخصائصه

المبحث الأول : دلائل نبوة نبينا محمد - ﷺ -

تناولنا فيما مضى - وفي الفصل الرابع من هذا الباب - طرق إثبات النبوة عند الجلال السيوطي ، بصفة عامة ، أما هنا وفي هذا الفصل ، فإننا - بحول الله تعالى - نتكلم عن نبوة الحبيب المصطفى محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه - خاصة ، وسنحاول أن نبرز من خلال هذا الفصل - إن شاء الله تعالى رأي السيوطي فيها .

والسيوطي - كغيره من العلماء - يشهد أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - عبدالله ونبيه ورسوله(١) ، صاحب الطريقة الغراء ، التي من رغب عنها فهو الهالك(٢) ، سيد العرب والعجم نبي سريّ(٣) ، قدره عليّ ، وبرهانه جلي(٤) ، مشيد أركان البلاغة والفصاحة ، ومؤيد دعائم الجود والسماحة(٥) .

رحم الله العالمين بإرسال هذا النبي الرحيم إليهم ، لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة ، وهداهم بعد الضلالة(٦) .

" أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين إن جاءهم أن يؤمنوا به وينصروه(٧) ، ولو أدركوه لما وسعهم إلا أن يتبعوه ، ويعزوه ويوقروه(٨) ، وأرسله إلى جميع الخلق كافة ... وأجرى على يديه من المعجزات ألوفاًجمله ، وآتاه من الخصائص ما لم يؤته نبياً قبله... "(٩) .

إنه - صلى الله عليه وسلم - أفضل الخلق على الإطلاق(١٠) ، قد ختم الله تعالى به النبيين والمرسلين ، فلا نبي بعده ولا رسول(١١) .

والناظر في كلام السيوطي هذا يجده قد اشتمل على ثلاثة عناصر رئيسية ، وهي :

١- الإقرار بنبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - والإيمان بأنه رسول الله حقاً ، يدل على صدق نبوته أدلة كثيرة منها المعجزات الكثيرة التي أيده الله تعالى بها ، وأن أعظم هذه المعجزات هي المعجزة الخالدة على مر العصور وكر الدهور ، وهو القرآن العظيم(١٢) .

٢- أن الله تعالى جعله خاتم النبيين فلا نبي بعده ولا رسول(١٣) .

وسأتناول إن شاء الله كلاً من هذين العنصرين في مطلب مستقل ، أما العنصر الثالث وهو خصائصه - صلى الله عليه وسلم - فسأتناوله في المبحث الثاني إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر : الكنز المدفون والفلك المشحون (ص٣) .

(٢) انظر : تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (٢/١) .

(٣) السَّرِيّ : صاحب المروءة في شرف ، أو السخاء في مروءة ، والمعنى : السيد الشريف السخي .

(٤) انظر : المقامة السندسية في النسبة المصطفوية (ص١١٢) ضمن الرسائل التسع .

(٥) انظر : شرح مقامات السيوطي (٢٢١/١) .

(٦) انظر : معترك الأقران (١٩٠/٢) .

(٧) قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) آل عمران الآية (٨١) .

(٨) قال الله تعالى : (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) سورة الفتح الآية (٩) .

(٩) المقامة السندسية (ص١١٥) .

(١٠) علم التوحيد ، لوحة رقم (٢٣) .

(١١) نفسه ، لوحة رقم (٥) .

(١٢) انظر : الكنز المدفون (ص٣٩ ومعترك الأقران (٣/١) .

(١٣) انظر : المقامة السندسية (ص١١٥) والخصائص الكبرى كله .

المطلب الأول : معجزاته - ﷺ -

قدمت في الفصل الرابع تعريف المعجزة في اللغة ، وفي الإصطلاح ، بما يغني عن إعادته هنا ، وقد تعرض السيوطي لبيان بعض المعجزات التي أيد الله تعالى بها نبيه ورسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - فكانت دلائل باهرة على نبوته وإكرام الله تعالى له بالرسالة . ولكن المعجزة الكبرى التي أفاض في بيانها والكلام عنها السيوطي هي المعجزة الخالدة وهي القرآن الكريم ، ومن المعجزات التي تناولها السيوطي بالبيان ما يأتي :

المعجزة الأولى - خاتم النبوة :

وهو جلد ناشئ قليلاً عن بقية جلد الجسد مثل بيضة الحمامة ، كالخال الذي هو عبارة عن شامة سوداء في البدن ، وقيل هي نكتة سوداء فيه ، والجمع خِيلان ... وفي صفة خاتم النبوة عليه خيلان هو جمع خال وهي الشامة في الجسد[١] .

وموضع هذا الخاتم أو الخال أو الشامة في جسد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - بين كتفيه الشريفين .

قال السيوطي : " اختلفت أقوال الرواة في خاتم النبوة وليس ذلك باختلاف بل كل شبَّه بما سُنح له ، فواحد قال كزرِّ الحجلة[٢] وهو بيض الطائر المعروف أو زر البُشْخَانَاة[٣] وآخر : كبيضة الحمامة ، وآخر : كالتفاحة ، وآخر بَضْعة لحم ناشزة ، وآخر : كالمحجمة ، وآخر : كركبة العنز ، وكلها ألفاظ مؤداها واحد وهو قطعة لحم ، ومن قال : شَعْر ، فلأن الشعر حوله متراكب عليه "[٤] . ثم روى السيوطي في إثبات هذا الخاتم بعض الآثار منها :

١- عن السائب بن يزيد قال : " قمت خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه مثل زر الحجلة"[٥]

٢- عن جابر بن سمرة قال : " رأيت خاتم النبوة بين كتفيه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده "[٦] .

٣- عن عبدالله بن سَرْجَس قال : " نظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، عند نُغْضِ كتفه اليسرى ، جُمْعاً عليه خيلان كأمثال الثآليل "[٧] وقد أورد السيوطي آثاراً غير هذه ، بعضها مقبول وبعضها ضعيف[٨] ، وفيما أوردناه في هذا غنية .

---

(١) انظر : لسان العرب (٢٢٩/١١) ، وانظر : ابن الأثير : الكامل (٢٠٨/٢) .

(٢) الحجلة طائر في حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين ، وهو يعيش في الصرود العالية ، انظر : لسان العرب (١٤٣/١١) وحاشية المحقق لكتاب الخصائص الكبرى (١٥٠/١) .

(٣) البُشْخَانَاة ، طائر كالحجلة .

(٤) الخصائص الكبرى (١٥٠/١) ، ت.د.محمد خليل هراس ، وانظر هذه الأقوال كلها عند ابن حجر : فتح الباري (٥٦٣/٦) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الوضوء (٤) باب (٤٠) رقم (١٩٠) انظر الفتح (٢٩٦/١) ، ومسلم في " صحيحه " (١٨٢٣/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٣٠) رقم (١١١-{٢٣٤٥}) ، والترمذي في " سننه " كتاب المناقب (١١) .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٢٣/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢٩) رقم (١٠٩) ، والترمذي في " سننه " كتاب المناقب (١١) وأحمد (٢/ ٢٢٦) ، (٩٠/٥) .

(٧) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٢٣/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٣٠) رقم (١١٢) .

(٨) انظر : الخصائص (١٤٧/١-١٥١) أورد السيوطي في هذا الباب آثاراً تفيد بأن خاتم النبوة مكتوب عليه " محمد رسول الله " أو مكتوب عليه " الله وحده لا شريك له محمد رسول الله " قال د.محمد خليل هراس : " كل ما ورد من وجود كتابة في الخاتم أو غيره بلحم أو بشعر كذب موضوع " انظر الخصائص (١٥٠/١) حاشية (١) .

المعجزة الثانية – انشقاق القمر :

تكلم السيوطي عن معجزة انشقاق القمر ، واستدل عليها بما ورد في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية(١) .

قال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر)(٢) وقد وقعت معجزة انشقاق القمر في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – " وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي – صلى الله عليه وسلم – وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات "(٣) وسبب هذه المعجزة أن كفار مكة سألوه – صلى الله عليه وسلم – أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر آية حجة على صدقه ، وحقيقة نبوته ، ولكنهم بعد ما أراهم تلك المعجزة الباهرة أعرضوا وكذبوا وقالوا : هذا سحر مستمر ، سحرنا محمد(٤) .

ومن الأحاديث التي دلت على هذه الآية العظيمة :

١- عن أنس – رضي الله عنه – قال : " إن أهل مكة سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين "(٥).

ولفظ البخاري أنه " أراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما "(٦).

٢- عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه – رضي الله عنه – قال : " انشق القمر على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فصار فرقتين ، فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل فقالوا : سحرنا محمد "(٧) .

٣- عن عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – قال : " انشق القمر في زمان النبي – صلى الله عليه وسلم – "(٨) .

---

(١) انظر : الخصائص الكبرى (٣١٢/١) .

(٢) سورة القمر ، الآية (١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤٤٧/٧) ، وانظر : ابن جرير : جامع البيان (٨٤/٢٧) .

(٤) (صلى الله عليه وسلم) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٨٤/٢٧) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) باب (١) رقم (٤٨٦٧-٤٨٦٨) انظر الفتح (٦١٧/٨) ، ومسلم في " صحيحه " (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) باب (٨) رقم (٤٦-{٢٨٠٢}) ، وأحمد في " المسند " (١٦٥/٣) ، وابن جرير : جامع البيان (٨٤/١٧) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٧٠/٧) إلى عبدالرزاق ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردوية ، وانظر : الخصائص (٣١٢/١) .

(٦) البخاري في " صحيحه " كتاب مناقب الأنصار (٦٣) باب (٣٦) رقم (٣٨٦٨) انظر الفتح (١٨٢/٧) ، وابن جرير : جامع البيان (٨٥/٢٧) ، وانظر : الدر المنثور (٦٧٠/٧) .

(٧) انظر : الخصائص الكبرى (٣١٣/١) .
والحديث رواه ابن جرير : في " جامع البيان " (٥١/٢٧) من حديث محمد بن فضيل وغيره عن حصين به ، وتفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه ، وأسنده البيهقي في " الدلائل " من طريق محمد بن كثير ، عن أخيه سليمان بن كثير عن حصين بن عبدالرحمن ، ورواه البيهقي أيضاً من طريق إبراهيم ابن طهمان وهشيم ، كلاهما عن حصين عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده فذكره . انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٨/٧) وزاد السيوطي عزوه في الدر المنثور (٦٧١/٧) إلى عبد بن حميد ، والترمذي والحاكم وأبي نعيم .

(٨) رواه البخاري في " صحيحه " ، كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة اقتربت الساعة (٥٤) باب (١) ح رقم (٤٨٦٦) .
ورواه البخاري أيضاً في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٧) ح (٣٦٣٨) ومسلم في " صحيحه " (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين (٥٠) باب (٨) ح رقم (٤٨-{٢٨٠٣}) من حديث بكر بن مضر عن جعفر ابن ربيعة ، عن عراك بن مالك به مثله .
ورواه ابن جرير بسنده إلى ابن عباس أيضاً في " جامع البيان " (٨٥/٢٧) .
قال ابن كثير : " وروى العَوْفي ، عن ابن عباس نحو هذا " انظر : تفسير القرآن العظيم (٤٤٨/٧) .

وفي رواية ابن جرير قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه "[١] .

٤- عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال في قوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر)[٢] : وقد كان ذلك على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – انشق فلقتين ، فلقة من دون الجبل وفلقة من خلف الجبل ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " اللهم اشهد "[٣] .

٥- عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : انشق القمر على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شقتين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " اشهدوا "[٤] .

وعنه أيضاً – رضي الله عنه – قال : " كنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمنى ، فانشق القمر ، فأخذت فرقة خلف الجبل ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " اشهدوا ، اشهدوا "[٥] .

وبناءً على هذه الأدلة المتقدمة فمعجزة انشقاق القمر ثابتة بما لا يدع مجالاً للشك في وقوعها على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال السيوطي : " قال العلماء : انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شئ من آيات الأنبياء وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة فلذلك صار البرهان به أظهر "[٦] .

وقد حكى القاضي عياض أجماع المفسرين وأهل السنة على وقوعه[٧] فثبتت هذه المعجزة بالكتاب والسنة والإجماع .

وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٦٧١/٧) إلى ابن مردوية ، والبيهقي في " الدلائل " .

(١) جامع البيان (٨٦/٢٧) .

(٢) سورة القمر الآية (١) .

(٣) رواه مسلم في " صحيحه " (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) باب (٨) ح رقم (٢٨٠١) ، والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد ، به ، قال مسلم : كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود ، وقال الترمذي : " حسن صحيح " انظر : تحفة الأحوذي ، تفسير سورة القمر (١٧٥/٩) ح رقم (٣٣٤٢) .

وابن جرير في " جامع البيان " (٨٥/٢٧) .

وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٦٧١/٧) إلى ابن المنذر ، وابن مردوية ، وانظر : الخصائص الكبرى (٣١٣/١) .

(٤) متفق عليه .

– رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) سورة اقتربت الساعة (٥٤) باب (١) ح رقم (٤٨٦٥) الفتح (٦١٧/٨) ، وكتاب مناقب الأنصار (٦٣) باب (٣٦) ح رقم (٣٨٦٩) انظر : الفتح (١٨٣/٧) .

– ورواه مسلم في " صحيحه " (٢١٥٨/٤) ح رقم (٤٤) ورواه أبو داود بلفظ : " انشق القمر على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشه ، قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال فجاء السفار فقالوا ذلك " انظر : منحة المعبود (١٢٣/٢) أبواب ما جاء في معجزاته – صلى الله عليه وسلم – باب ومن معجزاته – صلى الله عليه وسلم – انشقاق القمر .

وابن جرير في " جامع البيان " (٨٥/٢٧) من حديث المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود ، وزاد : " فأنزل الله عز وجل : (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، وانظر ابن كثير في " تفسيره " (٤٨٠/٧) .

ورواه الإمام أحمد (٣٧٧/١) ح رقم (٣٥٨٣) ، (٤١٣/١) رقم (٣٩٢٤) ، (٤٤٧/١) رقم (٤٢٧٠) ، (٤٥٦/١) رقم (٤٣٦٠) .

(٥) ابن جرير ك جامع البيان (٨٥/٢٧) . وانظر : الخصائص الكبرى (٣١٢/١) .

(٦) الخصائص الكبرى (٣١٤/١) .

(٧) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٣٩٦/١) .

المعجزة الثالثة – شفاء عين علي بن أبي طالب ﷺ ببركة بصاق النبي ﷺ و إخباره – ﷺ – بفتح خيبر :

ذكرها السيوطي ضمن المعجزات التي جمعها في كتاب الخصائص الكبرى(١) ، ثم استدل عليها بما رواه الشيخان أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال يومْ خيبر : " لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس ليلتهم أيهم يعطي ، فغدوا كلهم يرجوه ، فقال : " أين علي ؟ " فقيل يشتكي عينيه ، فبصق في عينيه ، ودعا له فبرا كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه فقال : ... "(٢) الحديث .

وفي بعض الروايات : " ... فبات الناس يدوكون(٣) ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كلهم يرجون أن يعطاها ، فقال : " أين علي بن أبي طالب ؟ " فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : " فأرسلوا إليه " فأُتي به ، فبصق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في عينيه ، ودعا له فبرأ ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية... "(٤) .

وفي رواية لمسلم : " ...فأعطاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الراية ، ففتح الله عليه "(٥) .

ففي هذا الحديث الشريف معجزتان اثنتان لا معجزة واحدة **أولاهما :** شفاء علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بسبب بركة بصاق النبي – صلى الله عليه وسلم – في عينيه ، فقد برأ عليٌّ – رضي الله تعالى عنه – من رمده الذي كان في عينيه بمجرد أن بصق فيهما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقام كأن لم يكن به وجع ، قال ابن حجر : " وعند الحاكم من حديث علي نفسه قال : فوضع رأسي في حجره ثم بزق في الية راحته فدلك بها عيني ، وعن بريدة في " الدلائل " للبيهقي : " فما وجعها عليٌّ حتى مضى لسبيله " أي مات ، وعند الطبراني من حديث عليّ : " فما رُمِدتُ ولا صُدِعتُ مذ دفع النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الراية يوم خيبر " وله من وجه آخر : " فما اشتكيتها حتى الساعة ، قال : ودعالي فقال : " اللهم أذهب عنه الحر والقر " ، قال : فما اشتكيتها حتى يومي هذا "(٦) .

وأما المعجزة الثانية : فهي تحقق خبر النبي – صلى الله عليه وسلم – بفتح خيبر – كما في رواية مسلم – " ففتح الله عليه " وهي معدودة من دلائل نبوته – عليه الصلاة والسلام – .

وكون علي _ رضي الله عنه – لم يشتك عينيه بعد ما بصق فيهما النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى مات

---

(١) انظر (٥٢/٢) .

(٢) متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " في مواضع ، في كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٠٢) ح رقم (٢٩٤٢) انظر الفتح (١١١/٦) ، وفي نفس كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٤٣) ح رقم (٣٠٠٩) انظر الفتح (١٤٤/٦) ، وفي كتاب فضائل الصحابة (٦٢) باب (٩) رقم (٣٧٠١) عن سهل بن سعد الساعدي ، رقم (٣٧٠٢) عن سلمة ، وكتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٩) ، رقم (٤٢١٠) . ورواه مسلم في " صحيحه " (١٨٧١/٤) رقم (٣٣-{٢٤٠٥}) عن أبي هريرة ، (١٨٧٢/٤) رقم (٣٤-{٢٤٠٦}) عن سلمة بن الأكوع .

(٣) أي : يخوضون ويتحدثون في ذلك ، والدوكة بالكاف الاختلاط – فتح (٤٧٧/٧) .

(٤) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٢١٠) الفتح (٤٧٦/٧) ، ومسلم في " صحيحه " كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب (٤) رقم (٣٤-{٢٤٠٦}) ، (١٨٧٢/٤)

(٥) صحيح مسلم (١٨٧٢/٤) ، كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب (٤) رقم (٣٥-{٢٤٠٧}) .

(٦) فتح الباري (٤٧٧/٧) .

معجــزة ثالــثة ، من معجزات - صلى الله عليه وسلم - وكونه أيضاً لم يشتك الحر والقر بعدما دعا له النبي - صلى الله عليه وسلم - معجزة رابعة تضاف إلى رصيد المعجزات النبوية .

المعجزة الرابعة : إخباره - ﷺ - عمن أبلى بلاءً حسناً في القتال ، أنه من أصحاب النار[١] :

وأورد السيوطي في ذلك حديث سهل بن سعد ، وأبي هريرة - رضي الله عنهما - الذي رواه الشيخان :

١- عــن ســهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألتقى هو والمشركون فاقتتلوا ، فلما مال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عسكره ، ومال الآخرون إلى عسكرهم ، وفي أصحاب رسول الله - صــلى الله عليه وسلم - رجل لا يدع لهم شاذةً[٢] إلا اتبعها يضربها بسيفه ، فقالوا : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان[٣] ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أما إنه من أهل النار " ، فقال رجل من القوم : أنا صاحبه[٤] أبداً ، قــال فجــرح معــه ، كلما وقف وقف معه ، وإذا أسرع أسرع معه ، قال : فخرج الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بالأرض ، وذبابه[٥] بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أشهد أنك رسول الله ، قال : " وما ذاك ؟ " قال : الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار ، فأعظم الــناس ذلــك ، فقــلت : أنــا لكم به ، فخرجت في طلبه ، حتى جرح جرحاً شديداً ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بــالأرض وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل عليه فقتل نفسه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند ذلك : " إن الرجل ليعمــل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة "[٦] ، اللفظ لمسلم) .

٢- عــن أبــي هريرة - رضي الله عنه - قال : شهدنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حُنَيْناً[٧] ، فقال لرجل ممن يُدْعَى بالاسلام : " هذا من أهل النار " فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة ، فقيل : يا رسول الله ، الــرجل الذي قلت له آنفاً إنه من أهل النار[٨] ، فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً ، وقد مات ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " إلى النار " فكاد بعض المسلمين أن يرتاب ، فبينما هم على ذلك ، إذ قيل : إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديدة ،

---

(١) انظر : الخصائص الكبرى (٦٣/٢) .

(٢) الشــاذ والشاذة : الخارج والخارجة عن الجماعة ، وأنث الكلمة على معنى النَّسَمة ، أو تشبيه الخارج بشاذة الغنم ، يقال : فلان لا يدع شاذة ولا فاذة ، إذا كان شجاعاً ، لا يلقاه أحد إلا قتله .

(٣) أي : ما كفى وأغنى عنا أحد غناءه وكفايته .

(٤) أي : أنا أصحبه في خفية وألازمه لأنظر السبب الذي يصير به من أهل النار .

(٥) ذباب السيف هو طرفه الأسفل ، أما طرفه الأعلى فمقبضه أو نصله .

(٦) متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٢) الفتح (٤٧١/٧) ، وفي كتاب الرقاق (٨١) باب (٣٣) رقم (٦٤٩٣) الفتح (٣٣٠/١١) ، وفي كتاب الجهاد (٥٦) باب (٧٧) رقم (٢٨٩٨) الفتح (٨٩/٦) .

- ورواه مسلم في " صحيحه " (١٠٦/١) كتاب الإيمان (١) باب (٤٧) رقم (١٧٩-{١١٢}) ، وأورده السيوطي في الخصائص (٦٢/٢) .

(٧) كــذا وقع في الأصول ، قال القاضي عياض : " صوابه خيبر " ويؤيده رواية البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٣) انظر الفتح (٤٧١/٧) .

(٨) أي الذي قلت في شأنه أنه من أهل النار .

فـلما كـان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأُخبِر النبي – صلى الله عليه وسلم – بذلك ، فقال : " الله أكبر ، أشـهد أني عبد الله ورسوله " ثم أمر بلالاً فنادى في الناس ، " إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر "(١) ، (اللفظ لمسلم) .

والمعجزة في هذا واضحة جلية لا تحتاج إلى بيان ، وهو وقوع ما أخبر به الصادق المصدوق قبل وقوعه ، وهي من الدلالات العظيمة على صدق نبوته ورسالته ، التي أرسله الله تعالى بها ، فهو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى .

كما ذكر السيوطي في معرض كلامه عن غزوة خيبر عدة معجزات أخر ، منها :

المعجزة الخامسة : شفاء ساق سلمة بن الأكوع ﷺ من الضربة التي ضربها يوم خيبر

عـن يزيد بن أبي عبيد قال : " رأيت أثر ضربة في ساق سلمة بن الأكوع فقلت : يا أبا مسلم ما هذه الضربة ؟ قال ضربة أصابتها يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت النبي – صلى الله عليه وسلم – فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشـتكيت حـتى الساعة "(٢) وفي هذا أيضاً شفاء الضربة التي ضُرِبَها سلمة – رضي الله عنه – بسبب بركة ريق النبي – صلى الله عليه وسلم – .

المعجزة السادسة : إخباره – ﷺ – عن الشاة المسمومة :

عـن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – شاة فيها سم ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود " فجمعوا له ، فقال لهم رسول الله – صـلى الله عليه وسلم – : " إني سائلكم عن شئ فهل أنتم صادقوني عنه ؟ " فقالوا : نعم يا أبا القاسم : فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من أبوكم ؟ " قالوا : أبونا فلان ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " كذبتم، بل أبوكم فلان " قالوا صدقت وبررت ، فقال : " هل أنتم صادقوني عن شئ إن سألتكم عنه ؟ " فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبـناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، قال لهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : " من أهل النار ؟ " فقالوا : نكون فيهـا يسيراً ثم تخلفوننا فيها ، فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " اخسئوا فيها ، والله لا نخلفكم فيها أبداً " ثم قـال لهم : " هل أنتم صادقوني عن شئ إن سألتكم عنه ؟ " قالوا : نعم ، فقال : " هل جعلتم في هذه الشاة سُماً ؟ " فقالوا : نعم ، فقال : " ما حملكم على ذلك ؟ " فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك(٣) .

وتمام قصة هذه الشاة المسمومة ذكرها ابن اسحاق بغير اسناد – كما قال ابن حجر(٤) – ، قال ابن اسحاق : "

---

(١) متفق عليه .
– رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٣) الفتح (٤٧١/٧) ، وفي كتاب القدر (٨٢) باب (٥) رقم (٦٦٠٦) الفتح (٤٩٨/١١) .
– ورواه مسلم في " صحيحه " (١٠٥/١) كتاب الإيمان (١) باب (٤٧) رقم (١٧٨-{١١١}) .
(٢) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٦) انظر الفتح (٤٧٥/٧) .
(٣) البخاري في " صحيحه " كتاب الجزية والموادعة (٥٨) باب (٧) رقم (٣١٦٩) فتح الباري (٢٧٢/٦) ، الخصائص الكبرى (٦٣/٢) .
(٤) انظر : فتح الباري (٢٤٥/١٠) .

لمـــا اطمـــأن النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية وكـــانت ســـألت : أي عضو من الشاة أحب إليه ؟ قيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، فلما تناول الذراع لاك منها مضـــغة ولم يسغها ، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور فأساغ لقمته ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن هـــذا العظم ليخبرني أنه مسموم ، ثم دعا بها ، فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيُخبَر ، قال : فتحاوز عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ومات بشر من أكلته[١] .

وقـــد أورد هذه القصة ابن سعد مطولة من طرق عن ابن عباس بسند ضعيف[٢] ، ووقع في مرسل الزهري[٣] أن رســـول الله – صـــلى الله عليه وسلم – تناول الكتف فنهش[٤] منها فلما ازدرد لقمته قال : " إن الشاة تخبرني " يعني أنها مســـمومة ، وأوردها أيضاً البيهقي موصولة من طريق سفيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبـــي هريـــرة – رضـــي الله عنه – وفيها أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أكل منها ، فقال لأصحابه : " أمسكوا فإنها مسمومة " ثم قال لها أي للمرأة : " ما حملك على ذلك ؟ "[٥]... الخ

ومعجزة إخباره – صلى الله عليه وسلم – بأن الشاة مسمومة ثابتة ولا خلاف بين العلماء في وقوعها ، وهي تعد مـــن دلائل نبوته – صلى الله عليه وسلم – ولذلك ذكرها البيهقي وغيره في دلائل النبوة ، أما الخلاف فقد وقع بين العلماء في قتل زينب بنت الحارث اليهودية التي وضعت ذلك السم في الشاة ، فقال بعضهم : إنها لما اعترفت تركها النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يكن ينتقم لنفسه ، وقيل : لأنها أسلمت لما رأت هذه المعجزة منه – صلى الله عليه وسلم – فلما أسلمت خـــلى ســـبيلها ولم يتعرض لها . حكى إسلامها الزهري ، وجزم به سليمان التيمي في " مغازية " ولفظه بعد قولها : وإن كنت كاذباً أرحتُ الناس منك ، قالت : " وقد استبان لي الآن أنك صادق ، وأنا أُشهدك ومن حضر أني على دينك ، وأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله " ، قال : فانصرف عنها حين أسلمت ، وقال البعض : بل قتلها ، وأجابوا عن القول الأول بأنـــه – صلى الله عليه وسلم – تركها في بادئ الأمر لما أسلمت ولكن بعدما مات بشر بن البراء الذي أكل من الشاة مع النبي – صلى الله عليه وسلم – قتلها به قصاصاً ، لأنه بموته تحقق وجوب القصاص بشرطه[٦] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٣٣٧/٢) ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٩٧/٧) .

(٢) انظر : فتح الباري (٢٤٥/١٠) .

(٣) وهو عند أبي داود في السنن ، وانظر فتح الباري (٤٩٧/٧) وقال ابن حجر : " وهذا منقطع لأن الزهري لم يسمع من جابر " وأخرجه أبو داود أيضاً من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة نحوه مرسلاً . قال البيهقي : " وصله حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة " انظر الفتح (٤٩٧/٧) .

(٤) نَهَسَ اللحمَ يَنْسُه نَهْساً ونَهَساً ، بالسين المهملة ، انتزعه بالثنايا للأكل ، أما النَّهْشُ بالشين المعجمة فهو أخذ اللحم بجميع الأسنان ، انظر اللسان (٢٤٤/٦) مادة نَهَس ، (٣٦٠/٦) مادة : نَهَشَ .

(٥) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٩٧/٧) .

(٦) حكى هذا الخلاف ، وهذه الأقوال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٩٧/٧) ونقلتها باختصار .

المعجزة السابعة : نعيه - ﷺ - قواد جيشه في غزوة مؤتة إلى أصحابه ، قبل أن يصل خبرهم إليه :

ومؤتة بأدنى البلقاء من أرض الشام كانت في جمادي الأولى سنة ثمان[١] ، وقد بعث إليها رسول الله - صلى الله عـــليه وسلم - البعوث ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة - رضي الله عنه - وقال : " إن قُتل زيد فجعفر ، وإن قُتل جعفر فعبدالله بن رواحة "[٢] ، قال أنس - رضي الله عنه - : نعى النبي - صلى الله عليه وسلم - زيداً ، وجعفراً ، وابن رواحة للـــناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : " أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليه "[٣] .

وهذا السيف من سيوف الله الذي فتح الله عليه هو خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فقد اصطلح الناس عليه بعد مقتل الثلاثة الأول[٤] - رضي الله عنهم - ، قال ابن حجر : " وفيه علَم ظاهر من أعلام النبوة "[٥] أي في هذا الحديث ، وفيه أيضاً " فضيلة ظاهرة لخالد بن الوليد ولمن ذكر من الصحابة "[٥] - رضي الله عنهم - .

وقد ذكر السيوطي روايات متعددة في تقرير هذه المعجزة ، لا تصح[٦] ، وقد اقتصرت في هذا على ما صح منها وفيه غنية والحمد لله.

المعجزة الثامنة :إخباره - ﷺ - عن الظعينة التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش :

حـــدث هذا أثناء استعداد النبي - صلى الله عليه وسلم - لفتح مكة المكرمة ، وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله به ديـــنه ، ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين ، وهو الفـــتح الـــذي استبشر به أهل السماء ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأشرق وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً ، خرج له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بكتائب الإسلام ، وجنود الرحمن سنة ثمانٍ ، لعشر مضين من شهر رمضان المبارك ، واستعمل على المدينة المنورة أبا رُهْم كلثوم بن حُصين الغفاري ، وقيل : استعمل عبدالله بن أم مكتوم - رضي الله عنهما[٧] - .

وقـــد عزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المسير إلى فتح مكة بعد ما نقضت قريش العهد الذي عقدوه معه في صلح الحديبية ، بإعانتها حلفاءها بني بكر بن عبدمناة بن كنانة ، على حلفاء النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) انظر : ابن القيم : زاد المعاد (٣/٣٣٦) .

(٢) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٤٤) رقم (٤٢٦١) ، انظر فتح الباري (٧/٥١٠) ، وأحمد في " المسند " (٥/ ٣٠١،٣٠٠،٢٩١) .

(٣) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٤٤) رقم (٤٢٦٢) انظر فتح الباري (٧/٥١٢) .

(٤) زاد المعاد (٣/٣٣٨) .

(٥) فتح الباري (٧/٥١٣) .

(٦) انظر : الخصائص الكبرى (٢/٧٠-٧٥) .

(٧) انظر : زاد المعاد (٣/٣٤٧) .

من خزاعة ، وهم على ماء يقال له الوتير ، وقتلوا منهم عدداً[١] .

فلما عزم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المسير إلى مكة المكرمة أعلم أصحابه بذلك ، وأمرهم بالجد والتجهيز وقال : " اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها في بلادها ، فتجهز الناس لذلك[٢] .

فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إليهم ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته في قرون رأسها . ذكر السيوطي روايات ما فعله حاطب في ذلك بعضها في الصحيحين ، وبعضها في أحدهما ، والباقي ما نقله عن ابن اسحاق والبيهقي والحاكم وغيرهم[٣] .

فمن ذلك ما رواه الشيخان عن عليٍّ – رضي الله عنه – قال : بعثني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنا والزبير والمقداد فقال : " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها " ، قال : فانطلقنا تعَادَى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا لها : أخرجي الكتاب ، قالت ما معي كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، قال : فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة – إلى ناس بمكة من المشركين – يخبرهم ببعض أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " يا حاطب ، ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل عليّ ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش – يقول : كنت حليفاً – ولم أكن من أنفُسها ، وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أما إنه قد صدقكم " فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : " إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال : اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم " فأنزل الله السورة[٤] (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق – إلى قوله – فقد ضل سواء السبيل "[٥] . وفي هذه القصة أكثر من دليل على معجزته – صلى الله عليه وسلم – :

أولها : إخباره – صلى الله عليه وسلم – بما فعل حاطب – رضي الله عنه – وكتابته الكتاب إلى قريش ، والحديث فيه اعتراف حاطب – رضي الله عنه – بذلك ، وعدم انكاره ، كما أن كتابه شاهد مادي آخر غير اعترافه ، وهما دليلان على صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعلى نبوته .

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية (٣٩٤/٢-٣٩٥) نقله عن ابن اسحاق بغير سند ، ووصله الطبراني في الصغير (ص٢٢٢) من حديث ميمونة بنت الحارث – رضي الله عنها – بإسناد ضعيف ، وانظر : زاد المعاد (٣٤٨/٣) ، وابن حجر : الفتح (٥١٩/٧) – وتخريج ابن حجر للرواية (٥٢٠) .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية (٣٨٩/٢-٣٩٨) عن ابن اسحاق بلا سند ، وانظر : زاد المعاد (٣٥٠/٣-٣٥١) .

(٣) انظر : الخصائص الكبرى (٧٦/٢-٨٩) .

(٤) سورة الممتحنة الآية (١) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٤١) رقم (٣٠٠٧) انظر الفتح (١٤٣/٦) وباب (١٩٥) رقم (٣٠٨١) الفتح (١٩٠/٦) والمغازي (٦٤) باب (٤٦) رقم (٤٢٧٤) الفتح (٥١٩/٧) .

ومسلم في " صحيحه " (١٩٤١/٤) كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب (٣٦) رقم (١٦١-{٢٤٩٤}) وسنن أبي داود – كتاب الجهاد ، باب في حكم الجاسوس إذا كان مسلماً ، وانظر تحفة الأحوذي (١٩٨/٩-٢٠٢) رقم (٣٣٦٠) .

الثاني : إخباره – صلى الله عليه وسلم – بأن الكتاب دفعه حاطب إلى ظعينة أي امرأة من مزينة[١] ، وشهد الواقع بصدقه – صلى الله عليه وسلم – .

الثالث : إخباره – صلى الله عليه وسلم – بمكانها وهو : روضة خاخ ، وقد أدركها علي وصاحباه في نفس المكان .

قال ابن حجر – رحمه الله – : " وقد أظهر الله صدق رسوله في كل من أخبر عنه بشئ "[٢] .

المعجزة التاسعة : نبع الماء من بين أصابعه الشريفة – ﷺ – :

جمع السيوطي تحت هذه المعجزة كثيراً من الأحاديث منها صحاح ومنها غير ذلك [٣] ، وأحاديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة تعددت طرقها الصحيحة حتى بلغت حد التواتر المعنوي ، فمنها ما اتفق عليه في الصحيحين ، ومنها ما انفرد به أحدهما ، ومنها ما ورد في غيرهما ، وقد انتقيت لتقرير هذه المعجزة وغيرها ، ما كان حديثاً صحيحاً ، وأعرضت عن كثير مما جمعه السيوطي ولم يصح ، لأن في الصحيح الغنية عن غيره في إثبات المقصود وقد انتقيت من تلك الأحاديث التي أوردها السيوطي خمسة أحاديث صحيحة :

١- حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – .

٢- حديث أنس – رضي الله عنه – .

٣- حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – .

٤- حديث عمران بن حصين – رضي الله عنه – .

٥- حديث أبي قتادة – رضي الله عنه – .

١- **أما الأول :** فعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – قال : " عطش الناس يوم الحديبية ، والنبي – صلى الله عليه وسلم – بين يديه رِكْوة[٤] ، فتوضأ ، فجَهِشَ الناس نحوه ، فقال : " مالكم " ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده في الرِكوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا ، قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة "[٥] .

٢- **الثاني :**

---

(١) انظر : السيرة النبوية (٣٩٨/٢) ، ابن حجر : فتح الباري (٥٢٠/٧) وذكر ابن حجر أن هذه المرأة اسمها " سارة " – فيما نقله عن ابن اسحاق – وهو في سيرة ابن هشام (٣٩٨/٢) ، ونقل ابن حجر عن الواقدي أن اسمها " كنود " وقال : " وفي رواية " سارة " وفي رواية أخرى " أم سارة " ، كما ذكر ابن هشام في " السيرة " النبوية أن هذه المرأة كانت ضمن الذين أهدر الرسول دماءهم يوم فتح مكة لأنها كانت تغني بهجاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكانت مولاة لبعض بني عبدالمطلب ، السيرة النبوية (٤١٠/٢) .

(٢) فتح الباري (٦٣٥/٨) .

(٣) انظر : الخصائص الكبرى (٢١٤/٢-٢٢٦) .

(٤) الرِكوة : مثلثة الراء ، وهي إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء ، اللسان (٣٣٣/١٤) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " في مواضع وهي : كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) ، رقم (٣٥٧٦) الفتح (٥٨١/٦) وفي كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٥) رقم (٤١٥٢) الفتح (٤٤١/٧) ورقم (٤١٥٣) الفتح (٤٤٣/٧) ، كتاب الأشربة (٧٤) باب (٣١) رقم (٥٦٣٩) الفتح (١٠١/١٠) ورواه أحمد في " المسند " (٣٦٥/٣،٣٥٣،٣٤٣،٣٢٩) . وأورده السيوطي في " الخصائص الكبرى " (٢١٤/٢) .

أ)- عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأُتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بوَضوء فوضع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضئوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه حتى توضئوا من عند آخرهم "(١) .

فهذا من طريق إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس – رضي الله عنه(٢) – .

ب)- ومن طريق ثابت عن أنس – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – : دعا بإناء من ماء ، فأُتي بقدح رَحْرَاحٍ فيه شئ من ماء فوضع أصابعه فيه ، قال أنس : فجعلت انظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه قال أنس فحزرت من توضأ ما بين السبعين إلى الثمانين(٣) .

قال الحافظ ابن حجر : " قوله : (رَحْرَاح) بمهملات ، الأولى مفتوحة بعدها سكون ، أي متسع الفم ، وقال الخطابي : الرحراح : الإناء الواسع الصحن القريب القعر ، ومثله لا يسع الماء الكثير فهو أدل على عظم المعجزة "(٤) .

جـ)- ومن طريق حميد عن أنس – رضي الله عنه – قال : حضرت الصلاة فقام من كان قريب الدار إلى أهله وبقي قوم ، فأُتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمخضب(٥) من حجارة فيه ماء فصغر المخضب أن يبسط فيه كفه ، فتوضأ القوم كلهم ، قلنا : كم كنتم ؟ قال : ثمانين وزيادة(٦) .

د)- ومن طريق الحسن قال : حدثنا أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : " خرج النبي – صلى الله عليه وسلم – في بعض مخارجه ، ومعه ناس من أصحابه ، فانطلقوا يسيرون ، فحضرت الصلاة " فلم يجدوا ماء يتوضئون ، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء يسير ، فأخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – فتوضأ ، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ، ثم قال : " قوموا فتوضئوا فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء وكانوا سبعين أو نحوه "(٧) .

هـ)- ومن طريق قتادة عن أنس – رضي الله عنه – قال : " أُتي النبي – صلى الله عليه وسلم – بإناء وهو بالزوراء ، فوضع يده في الإناء ، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ القوم ، قال قتادة : قلت لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة ، أو زُهاءَ ثلاثمائة "(٨) .

---

(١) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الوضوء (٤) باب (٣٢) رقم (١٦٩) الفتح (٢٧١/١) .

(٢) انظر : الخصائص الكبرى (٢١٤/٢) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الوضوء (٤) باب (٤٦) رقم (٢٠٠) انظر : فتح الباري (٣٠٤/١) . ورواه مسلم في " صحيحه " (٤/ ١٧٨٣) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢) رقم (٤-{٢٢٧٩}) ولفظه : (ما بين الستين إلى الثمانين) . ورواه أحمد في " المسند " (١٤٧/٣) ، وانظر : السيوطي : الخصائص الكبرى (٢١٥/٢) .

(٤) فتح الباري (٣٠٤/١) .

(٥) المِخْضَبُ : وعاء يشبه المِركَن لغسل الثياب أو خضبها .

(٦) رواه البخاري " صحيحه " كتاب الوضوء (٤) باب (٤٥) رقم (١٩٥) الفتح (٣٠١/١) ، وكتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٥) الفتح (٦/ ٥٨١) ، ورواه أحمد في " المسند " (١٠٦،١٧٥،٢٤٨،٢٤٩/٣) . وانظر : الخصائص الكبرى (٢١٥/٢) .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٤) الفتح (٥٨١/٦) .

(٨) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٢) الفتح (٥٨٠/٦) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (١٧٨٣/٤

٣- الثالث : حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - :

عن عبدالله قال : " كنا نعد الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر فقل الماء ، فقال : " اطلبوا فضلة من ماء " فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده في الإناء ثم قال : حيّ على الطهور المبارك ، والبركة من الله[١] ، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل "[٢] .

٤- الرابع : حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - :

قال - رضي الله عنه - كنا في سفر مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنا أسرينا حتى إذا كنا في آخر الليل ، وقعنا وقعة ، ولا وقعة أحلى عند المسافر منها ، فما أيقظنا إلا حر الشمس ، وكان أول من استيقظ فلان ، ثم فلان ، ثم فلان ، - يسميهم أبو رجاء[٣] فنسي عوف[٤] - ثم عمر بن الخطاب الرابع ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا نام لم يوقظ حتى يكون هو يستيقظ ، لأنا لا ندري ما يحدث له في نومه ، فلما استيقظ عمر ، ورأى ما أصاب الناس - وكان رجلاً جليداً - فكبر ورفع صوته بالتكبير ، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ بصوته النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما استيقظ شكوا إليه الذي أصابهم ، قال : " لا ضير" - أو " لا يضير" " ارتحلوا " ، فارتحل ، فسار غير بعيد ، ثم نزل فدعا بالوَضوء فتوضأ ، ونودي بالصلاة فصلى بالناس ، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصل مع القوم قال : " ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم " ؟ قال : أصابتني جنابة ولا ماء ، قال : " عليك بالصعيد فإنه يكفيك " ، ثم سار النبي - صلى الله عليه وسلم - فاشتكى إليه الناس من العطش ، فنزل فدعا فلاناً - يسميه أبو رجاء نسيه عوف - ودعا علياً فقال : " اذهبا فابتغيا الماء " فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين[٥] - أو سطيحتين[٦] - من ماء على بعير لها ، فقالا لها : أين الماء ؟ قالت : عهدي بالماء أمسِ هذه الساعة ، ونفرنا خلوفاً[٧] ، قالا لها : انطلقي إذاً ، قالت : إلى أين ؟ قالا : إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، قالت : الذي يقال له الصابئ ؟ قالا : هو الذي تعنين[٨] ، فانطلقي ،

) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢) رقم (٧) ، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (٢/٢١٥) .

(١) قال الدكتور محمد خليل هراس : " ما أجمل هذه العبارة في هذه المناسبة ففيها احتياط للتوحيد ، ونفي لكل ما يتوهم من نسبة هذه الآيات إلى غير الله عز وجل ، مما كان سبباً في ضلال كثير من الناس ، حيث ألهوا بعض من أجريت على أيديهم هذه الأمور ، كما فعل النصارى بالنسبة للمسيح - عليه السلام - " ، انظر : الخصائص الكبرى (٢/٢١٨) حاشية رقم (٤) .

(٢) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٩) الفتح (٦/٥٨٧) ، الترمذي في " سننه " كتاب المناقب (٦) ، والدارمي في " سننه " المقدمة (٥) ، والنسائي طهارة (٦٠) ، وأحمد في " المسند " (١/٤٦٠) ، وأورده السيوطي في " الخصائص الكبرى " (٢/٢١٨) .

(٣) الراوي عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - .

(٤) الراوي عن أبي رجاء ، فالحديث يرويه عوف عن أبي رجاء عن عمران .

(٥) المزادة : أكبر من القربة ، والمزادتان حمل بعير ، سميت مزادة لأنه يزاد فيها من جلد آخر من غيرها ، وتسمى أيضاً السطيحة . الفتح (١/٤٥٢) .

(٦) السطيحة هي المزادة ، انظر : الفتح (١/٤٥٢) .

(٧) تريد أن رجالها تخلفوا لطلب الماء ، انظر : الفتح (١/٤٥٢) .

(٨) هذا الرد فيه أدب حسن ، ولو قالا لها : لا ، لفات المقصود ، ولو قالا لها : نعم ، لم يحسن بهما إذ فيه تقرير ذلك فتخلصا أحسن تخلص - انظر : الفتح (١/٤٥٢) .

فجـاءا بها إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وحدثاه الحديث ، قال : فاستنزلوها عن بعيرها ، ودعا النبي – صلى الله عـليه وسلم – بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين – أو السطيحتين ، وأوكأ أفواهما وأطلق العزالي[١] ، ونودي في الناس : اسقوا[٢] ، واستقوا ، فسقَى من شاء ، واستقى من شاء ، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناءً من ماء قال : " اذهـب فأفرغه عليك " وهي قائمة تنظر إلى ما يُفعل بمائها ، وايم[٣] الله لقد أقلع عنها ، وإنه ليخيل إلينا أنها أشد مِلأةً منها حيـن ابـتدأ فيها ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " اجمعوا لها " ، فجمعوا لها – من بين عجوة ودقيقة وسويقة – حتى جمعوا لها طعاماً ، فجعلوها[٤] في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها ، قال لها : " تعلمين ما رَزِئنا من مائك شيئاً ، ولكن الله هو الذي أسقانا " ، فأتت أهلها وقد احتبست عنهم ، قالوا : ما حبسكِ يا فلانة ؟ قالت : العجب ، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ ، ففعل كذا وكذا ، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه ، وقالت بأصبعها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء ، تعني السماء والأرض – أو أنه لرسول الله حقاً ، فكان المسلمون بعد ذلك يغيـرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصِّرْمَ[٥] الذي هي منه ، فقالت يوماً لقومها : ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمداً ، فهل لكم في الإسلام ؟ فأطاعوها ، فدخلوا في الإسلام .

قال أبو عبدالله[٦] : صبأ : خرج من دين إلى غيره[٧] .

٥- حديث أبي قتادة – رضي الله عنه – :

" أن النـبي – صـلى الله عـليه وسـلم – كان في سفر فأسرى ثم نام فما استيقظ إلا والشمس في ظهره ، فدعا بميضأة[٨] كان معي فيها شئ من ماء فتوضأ منها ، ثم قال : احفظ علينا ميضأتك ستكون لها نبأ ، فسار حتى امتد النهار ، فقـال الـناس : هلكـنا وعطشـنا ، فقال : " لا هُلْكَ[٩] عليكم " ثم قال : " انطلقوا إلى غُمَرِي[١٠] ، يعني القدح الصغير – فـدعـا بالميضأة فجعـل النبي – صلى الله عليه وسلم – يصب وأبـو قتادة يسقيهم ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم

---

(١) العَـزَالِي : بفتح المهملة ، والزاي وكسر اللام ، ويجوز فتحها : جمع عَزْلاء بإسكان الزاي ، قال الخليل : هي مصب الماء من الرواية ، ولكل مزادة عزلاوان من أسفلها " يفرغ منهما الماء ، انظر : الفتح (٤٥٢/١) .

(٢) أسقوا بهمزة قطع مفتوحة من أسقى ، أو بهمزة وصل من سقى ، (انظر : الفتح (٤٥٢/١) والمراد أنهم سقوا غيرهم من الدواب ، واستقوا هم .

(٣) أصله : ايمن الله ، بهمزة وصل مفتوحة أو مكسورة والميم مضمومة ، وهو اسم وضع للقسم هكذا ، ثم حذفت النون تخفيفاً . انظر فتح الباري (١/ ٤٥٣) .

(٤) أي الأطعمة التي جمعوها لها .

(٥) بكسر الصاد المهملة : أي الأبيات المجتمعة من الناس ، انظر : الفتح (٤٥٣/١) .

(٦) هو : محمد بن اسماعيل البخاري في " صحيحه " انظر : الفتح (٤٤٧/١) .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التيمم (٧) باب (٦) رقم (٣٤٤) ، الفتح (٤٤٧/١) ، وفي باب (٩) رقم (٣٤٨) الفتح (٤٥٧/١) وفي كتاب المـناقب (٦١) بـاب (٢٥) رقم (٣٥٧١)، ورواه مسلم في " صحيحه " (٤٧٤/١) كتاب المساجد (٥) باب (٥٥) رقم (٣١٢-{٦٨٢}) ، ورواه أحمد في " المسند " (٤٣٥/٤،٤٣٤) .

(٨) الميضأة : هي الإناء الذي يتوضأ به ، كالرَّكوة .

(٩) (لا هُلْك عليكم) أي لا هلاك .

(١٠) الغُمَر : كَصُرَد ، القدح الصغير ، وهو في الحديث مضاف إلى ياء المتكلم .

- : " أحسنوا الملأ[١] ، كلكم سيروي حتى ما بقى أحد "[٢] .

هـذا ما انتقيته مما جمعه السيوطي ، وهو كاف في إثبات هذه المعجزة العظيمة ، الدالة دلالة ظاهرة على صدق نبوة - نبينا وحبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

المعجزة العاشرة : تكثير الطعام القليل :

وهـي أن يكون الطعام قليلاً لا يكاد يكفي فرداً واحداً ، فيدعو فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبركة ، أو يضع يده الشريفة عليه ، فيكثر الطعام ببركة ذلك حتى يكفي العدد الكثير من الناس .

والأحاديث الواردة في إثبات هذه المعجزة كثيرة وصحيحة كما وقع في غزوة الخندق[٣] وغيرها .

والسيوطي كعادته يجمع من الأحاديث الصحيح والضعيف في الموضوع عنوان البحث ولكنني سأنتقي ما صح فيه

١- عن أنس - رضي الله عنه - قال : " قال أبو طلحة[٤] لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شئ ؟ قالت : نعم ، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها فلفت فيه الخبز ببعض ، ولاثتني[٥] ببعضه ، ثم أرسلتني إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فذهبت به ، فوجدت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " آرسلك أبو طلحة ؟ ، فقلت : نعم ، قال : " بطعام ؟ " قلت : نعم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمن معه : " قوموا " ، فانطـلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته قال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالناس ، وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت : الله ورسوله أعلم . فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله - صلى الله عـليه وسلم - فأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " هـلمي[٦] يـا أم سليم ما عندك " فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الله عليه وسلم - ففُتَّ ، وعصـرت أم سليم عُكَّة[٧] فأدمته ، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه ما شاء الله أن يقول[١] ، ثم قال : " ائذن

---

(١) (أحسنوا الملأ) الملأ : الخُلق والعشرة ، يقال : ما أحسن ملأ فلان أي خلقه وعشرته ،، وما أحسن ملأ بني فلان أي عشرتهم وأخلاقهم ، ذكره الجوهري وغيره ، وأنشد الجوهري تَنَادَوْا يالَ بُهثَةَ إذ رأونا فقلنا : أحسِني ملأ جُهَيْنَا وهو في صحيح مسلم (٤٧٤/١) كتاب المساجد (٥) باب (٥٥) رقم (٣١١-{٦٨١}) ، ورواه أحمد في " المسند (٢٩٨/٥) .

(٢) هكـذا أورد السـيوطي في الخصائص الكبرى (٢٢٤/٢) مختصراً جداً ، وهو في صحيح مسلم (٤٧٤/١) كتاب المساجد (٥) باب (٥٥) رقم (٣١١-{٦٨١}) ، ورواه أحمد في "المسند" (٢٩٨/٥) .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية (٢١٨/٢) ، صحيح البخاري ، كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٨) انظر : الفتح (٥٨٦/٦) ، وذكر ابن حجر أن هذا كان حين محاصرة الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق . انظر : الفتح (٥٨٨/٦) . وسيأتي الحديث بتمام بعد قليل - إن شاء الله تعالى - ، وانظر : الفتح (٣٩٢/٧) .

(٤) هـو : زيد بن سهل الأنصاري زوج أم سليم والدة أنس ابن مالك - رضي الله عنهم - وقد اتفقت الطرق على أن الحديث من مسند أنس ، وقد وافقه على ذلك أخوه لأمه عبدالله بن أبي طلحة فرواه مطولاً عن أبيه أخرجه أبو يعلي من طريقه بإسناد حسن . الفتح (٥٨٨/٦) .

(٥) لاثتني ببعضه : أي لفتني به ، يقال : لاث العمامة على رأسه أي عصبها . الفتح (٥٨٩/٦) .

(٦) في بعض الروايات (هلم) وهي لغة حجازية ، هلم عندهم لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع ، ومنه قوله تعالى : (...والقائلين لإخوانهم هلم إلينا...) الاحزاب (١٨) والمراد بذلك طلب ما عندهما . انظر الفتح (٥٩٠/٦) .

(٧) المراد أنها صيرت ما خرج من العُكة له إداماً ، والعُكّة بضم المهملة وتشديد الكاف إناء من جلد مستدير يجعل فيه السمن غالباً والعسل . انظر الفتح (٥٩٠/٦) .

لعشرة " فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : " ائذن لعشرة فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : " ائذن لعشرة " فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : " ائذن لعشرة " فأكل القوم كلهم حتى شبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً "[٢] .

وفي بيان قلة الطعام الذي كان عند أم سليم – رضي الله عنها – ورد في رواية يعقوب بن عبدالله بن أبي طلحة ، قال أنس – رضي الله عنه – : " فدخل أبو طلحة على أمي فقال : هل من شئ ؟ فقالت : نعم ، عندي كسر من خبز وتمرات فإن جاءنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحده أشبعناه ، وإن جاء آخر معه قل عنهم "[٣] فلما دعا رسول الله فيه بالبركة – أكل منه ثمانون رجلاً حتى شبعوا ففي رواية عبدالله بن عبدالله بن أبي طلحة عند مسلم : " وأفضلوا ما أبلغوا جيرانهم "[٤] أي أنه فضل من الطعام شئ أهدوه إلى جيرانهم ، وهذا ببركة دعائه – صلى الله عليه وسلم – .

٢- عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " الله الذي لا إله إلا هو ، إن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعني ، فمر ولم يفعل ، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل ، ثم مر بي أبو القاسم – صلى الله عليه وسلم – فتبسم حين رآني ، وعرف ما في نفسي وما في وجهي ، ثم قال : " يا أبا هر " قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " إلحق " ومضى ، فتبعته ، فدخل فاستأذن فأذن لي ، فدخل فوجد لبناً في قدح ، فقال : " من أين هذا اللبن ؟ قالوا : أهداه لك فلان – أو فلانة – قال : " أبا هر " قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " إلحق إلى أهل الصفة فادعهم لي " قال : وأهل الصفة أضياف الاسلام ، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم ، وأصاب منها وأشركهم فيها ، فساءني ذلك[٥] ، فقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة ؟ كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – بد ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : " يا أبا هر " ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " خذ فأعطهم " فأخذت القدح

---

(١) في رواية سعد بن سعيد " فمسحها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ودعا فيها بالبركة " وفي رواية النضر بن أنس " فجئت بها ففتح رباطها ثم قال : " بسم الله ، اللهم أعظم فيها البركة " وعرف بهذا المراد بقوله : " وقال فيها ما شاء الله أن يقول " انظر : الفتح (٥٩٠/٦) .

(٢) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الصلاة (٨) باب (٤٣) رقم (٤٢٢) الفتح (٥١٧/١) ، وكتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٨) الفتح (٥٨٦/٦) ، كتاب الأطعمة (٧٠) باب (٦) رقم (٥٣٨١) الفتح (٥٢٦/٩) ، وكتاب الأطعمة – أيضاً – (٧٠) باب (٤٨) رقم (٥٤٥٠) الفتح (٥٧٤/٩) ، وكتاب الأيمان والنذور (٨٣) باب (٢٢) رقم (٦٦٨٨) ، الفتح (٥٧٠/١١) .

ورواه مسلم في "صحيحه" (١٦١٢/٣) كتاب الأشربة (٣٦) باب (٢٠) رقم (١٤٢-{٢٠٤٠}) ، ورواه الترمذي – كتاب المناقب (٦) ، ومالك في " الموطأ " – صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – (١٩) .

(٣) صحيح مسلم (١٦١٤/٣) كتاب الأشربة (٣٦) باب (٢٠) رقم (١٤٣) .

(٤) نفسه .

(٥) يعني ساءه أن يأتي هذا العدد الكبير من أهل الصفة ، واللبن قليل يخاف أن لا يبقى منه شئ يشربه يتقوى به ، وهو أكثرهم جوعاً – رضي الله عنهم – .

فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد علي القدح ، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروي ، ثم يرد علي القدح ، فيشـــرب حتى يروي ثم يرد علي القدح ، حتى انتهيت إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد روي القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده ، فنظر إليّ فتبسم ، فقال : " يا أبا هر " قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " بقيتُ أنا وأنت " قلت : صدقت يـــا رسول الله ، قال : " اقعد فأشرب " فقعدت فشربت فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول : " اشرب " حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ، ما أجد له مسلكاً ، قال : " فأرني " فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة... "[١] .

٣- عن جابر بن عبدالله الأنصاري – رضي الله عنهما – : " أن أباه استشهد يوم أحد ، وترك ست بنات ، وترك عليه دَيْناً ، فــلما حضره جِذاذُ النخل أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقلت : يا رسول الله قد علمت أن والدي استشهد يوم أحد وترك عليه ديناً كثيراً ، وإني أُحب أن يراك الغرماء ، قال " اذهب فبَيْدِر[٢] كل تمر على ناحية " ، ففعلت ثم دعوته ، فــلما نظروا إليه أُغروا بي[٣] تلك الساعة ، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها بَيْدَراً ثلاث مرات ، ثم جلس عليه ، ثــم قال : " ادع أصحابك " فمازال يكيل لهم حتى أدى الله أمانة والدي ، وأنا والله راض أن يؤدي الله أمانة والدي ، ولا أرجع إلى أخواتي تمرة ، فَسَلِم والله البَيَادِرُ كلها حتى أني أنظر إلى البَيْدَر الذي عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كأنه لم ينقص تمرة واحدة "[٤] .

هـــذه الأحـــاديث الثلاثة التي انتقيتها من المجموع الذي جمعه السيوطي تحت هذه المعجزة ، وهي ثلاثة أحاديث صحيحة تثبت ما نحن بصدده من المعجزة في تكثير الطعام القليل ببركة دعائه – صلى الله عليه وسلم – فيه ، أو مسّه له بيده الشريفة وقد إكتفيت هنا بما صح في ذلك .

وهـــذه المعجزات العشرة تعد من الدلائل الباهرة على صدق نبوة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد أثبتها كمثال هنا على ما يستدل به من علامات النبوة وإلا فهي غيض من فيض ، وسطر من كتاب ، وموجة من عباب مما جمعه الســـيوطي وغيره في هذا الباب العظيم من دلائل النبوة وعلاماتها ، ولو أني ذهبت استقصى ما سطره يراع السيوطي فيه لطال البحث وخرج عن مقصوده الذي ينحصر في بيان طريقته ومنهجه الذي انتبعه في هذا المقام .

وبقـــي أن أتكـــلم هنا عن معجزة كبرى ، هي أعظم المعجزات على الإطلاق ، ألا وهي معجزة القرآن الكريم ، المعجزة الخالدة على مر العصور وكر الدهور ، ولقد أخرتها هنا لتكون مسك الختام .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الرقاق (٨١) باب (١٧) رقم (٦٤٥٢) انظر : الفتح (٢٨١/١١).
ورواه الترمذي – كتاب القيامة (٣٦) وأحمد في " المسند " (٣٠٠/٣،٤٤) .

(٢) بَيْدِر : بفتح الموحدة ، وسكون التحتانية ، بعدها دال مكسورة بصيغة فعل الأمر ، أي : اجعل كل صنف في بَيْدَر – أي جرين – يخصه ، انظر : الفـــتح (٤١٤/٥) ، والمراد : أن يكوم جابر – رضي الله عنه – الله عنه – كل صنف من التمر في كوم ويضعه في مكان منفرد عن الآخر ، والبيدر أو الجرين هو الموضع الذي يجمع فيه الحصيد ويداس .

(٣) أُغروا بي : بفتح الهمزة وضمها ، فبالفتح معناها : هيجوا بي ، ومنه قوله تعالى : (فأغْرَيْنَا بينهمُ العداوة والبغضاء ...) المائدة ، بعض الآية (١٤) ، وبضم الهمزة معناها : لهج به وأولع ، والإغراء : هو التهييج والإفساد . انظر : الفتح (٤١٤/٥) .

(٤) رواه الـــبخاري في " صحيحه " كتاب الوصايا (٥٥) باب (٣٦) رقم : (٢٧٨١) الفتح (٤١٣/٥) وكتاب المغازي (٦٤) باب (١٨) رقم (٤٠٥٣) الفتح (٣٥٧/٧) . ورواه النسائي في " سننه " كتاب الوصايا (٣) . وأحمد في " المسند " (٢٦٥/٣) . وأورده السيوطي في " الخصائص الكبرى " (٢٤٣/٢) .

المعجزة الحادية عشرة : { القرآن الكريم } المعجزة الخالدة :

١- تمهيد :

القـــرآن الكـــريم هو : كلام الله تعالى الذي أنزله سبحانه وتعالى على قلب نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – بلســـان عـــربي مـــبين ، بواسطة الملك جبريل الأمين – عليه السلام – بلفظه ومعناه ، المكتوب في المصاحف ، المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر المبدوء بسورة الفاتحة ، والمختوم بسورة الناس .

تكــلم الله تعالى به على الحقيقة فسمعه منه جبريل – عليه السلام – وتكلم به جبريل – عليه السلام – فسمعه منه النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وتكلم به النبي – صلى الله عليه وسلم – فسمعته منه أمته ، وحفظته عنه ، فهذا المحفوظ فـــي الصـــدور ، المقروء بالألسنة ، المكتوب في المصاحف هو كلام الله حقيقة ، فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القـــارئ ، أنزله الله تعالى لنقراه تدبراً ، ونتأمله تبصراً ، ونسعد به تذكراً ، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه ، ونصدق بـــه ونجـــتهد على إقامة أوامره ونواهيه ، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته ، وطريقه الموصلة السالكة إليه ، ونوره المبين ، وصراطه المستقيم الذي لا تميل به الآراء ، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء ، والنزل الكريم الذي لا يشبع مـــنه العلماء ، لا تفنى عجائبه ، ولا تقلع سحائبه ، ولا تنقضي آياته ، ولا تختلف دلالاته ، فهو نور البصائر من عماها ، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها .

لقد أنزله الله تعالى على رسوله ، وقال له : (...وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)[١] لقـــد نالت معجزة القرآن الإهتمام الأكبر من فكر جلال الدين السيوطي فقد تكلم عنها بإسهاب بالغ حتى لقد وضع لها مؤلفاً مســـتقلاً مـــن ثلاثـــة مجلدات[٢] ليبين دلالة إعجاز القرآن ، وهو يبدأ كلامه عن القرآن وإعجازه فيبين أن الله تعالى جعل معجزات هذه الأمة عقلية ، لفرط ذكائها ، وكمال عقولها وأفهامها ، وفضلهم على من تقدمهم من الأمم[٣] .

وقد أنزل الله تعالى هذا الكتاب المعجز على نبيه – صلى الله عليه وسلم – وخصه بالإعانة على التبليغ ، فلم يقدر أحد من مناوئيه على معارضته بعد تحديهم ، وكانوا أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ، وأمهلهم طوال السنين فعجزوا ، وقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم : (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)[٤] .

يقول السيوطي[٥] : " فأخبر تعالى أن الكتاب آية من آياته ، قائم مقام معجزات غيره من الأنبياء[١] لفنائها بفنائهم ،

---

(١) سورة النحل ، الآية (٤٤) .

(٢) هـــو كتاب : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ضبطه وصححه وكتب فهارسه : أحمد شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م .

(٣) انظر : معترك الأقران (٣/١) .

(٤) سورة العنكبوت الآيتان (٥١،٥٠) .

(٥) معترك الأقران (١/٣-٤) .

وكـــانوا أحـــرص الناس على إطفاء نوره ، وإخفاء أمره ، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها تقوية لحججهم ، بل عدلـــوا إلى العـــناد تـــارة ، وإلى الاستهزاء أخرى ، فتارة قالوا ساحر ، وتارة قالوا : أساطير الأولين ، كل ذلك من تحيرهم ، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم ، وسبى ذراريهم وحُرمهم ، واستباحة أموالهم ، فنصب لهم الحرب ونصبوا لـــه ، وقـــتل من عليتهم وأعلامهم ، وأعمامهم وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بأن يأتوا بسورة واحدة ، وآيات يســـيرة ، إذ هـــي انقص لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل نفوسهم وخروجهم من أوطـــانهم ، مع أنهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم[٢] ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة ، قالوا له : أنـــت تعرف من حال الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، فقال لهم : هاتوها مفتريات لتبكيتهم ، فلم يرم ذلك خطيـــب ، ولا طمـــع فيه شاعر ، ولا طبع[٣] منه أو تكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيره ويحميه ، نصـــرة لدينهم ، بل أظهر الله دينه ، وخرق العادة في أسلوب كلامه ، وبلاغته وحلاوته ، حتى ألتذوا بسماعه ألذ من أهل الـــلهو في لهوهم ، وأبقى ذلك فيه إلى صفحات الدهر ، ليراها ذوو البصائر كما قال – صلى الله عليه وسلم – : " ما من الأنـــبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "[٤] .

نعـــم لقد تحدى القرآن نفسه جميع البشر أن يأتوا بمثله ، أو بمثل سورة منه ، فما استطاع واحد منهم ، أو جماعة – منذ بعث الله تعالى محمداً – صلى الله عليه وسلم – حتى يوم الناس هذا – أن يعارضه بكتاب مثله ، أو بمثل سورة منه رغم كثرة أعداء الإسلام في مختلف عصور التاريخ ، ومنهم دول عظمى ، وهم يتمنون لو يستطيعون معارضة هذا القرآن العظيم لاشتروا ذلك بالقناطير المقنطرة من أنْفَسِ ما يملكون .

قال تعالى في هذا المقام – مقام التحدي للمشركين – : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[٥] فهذا تحد لتأكيد تعجيزهم عن مضاهاة كلامه – جل وعلا – ثم قال عـــز من قائل : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[٦] فقوله تعالى : (ولن تفعلوا) لنفي التأبيد أو تأبيد النفي أي : ولن تفعلوا ذلك أبداً وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعـــارض بمثله أبداً في مستقبل الزمن ، وحتى يوم الدين ، وكذلك وقع الأمر ولم يُعارض القرآن من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكـــن ذلـــك وأنىّ يـــتأتى ذلك لأحد ، والقرآن كلام الله خالق كل شئ ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين[٧] ؟

---

(١) وانظر : الباقلاني : إعجاز القرآن (ص٣٥) .

(٢) هذا كلام السيوطي في معترك الأقران (٣،٤/١) ، وانظر في معناه : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٥٥/١) .

(٣) هكذا في نص كلام السيوطي ولا أدري ما معناه .

(٤) البخاري في " صحيحه " كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة (٩٦) باب (١) رقم (٧٢٧٤) الفتح (٢٤٧/١٣) ، كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب (١) رقم (٤٩٨١) ، ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٧٠) رقم (٢٣٩) . صحيح مسلم (١٣٤/١) .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣) .

(٦) سورة البقرة الآية (٢٤) .

(٧) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨٩/١) .

والعجيب أن هـذا التحدي من الله تعالى وقع في غير موضع من كتاب الله - جل وعلا - ، فقد قال تعالى : (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما[١] أتبعه إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين)[٢] .

وقال في موضع آخر : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[٣].

وقال تعالى في موضع ثالث : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)[٤] .

وقال - جل وعلا - في موضع رابع : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)[٥] وهـذه الآيات الأربع مكية ، ثم تحداهم أيضاً في المدينة بآية سورة البقرة التي أوردتها في أول آيات التحدي ، وجعل التحدي فيها مستمراً إلى يوم القيامة .

٢- العلماء المصنفون في إعجاز القرآن :

يذكر السيوطي أنه قد سبقه ثلة من العلماء بالتصنيف في بيان إعجاز القرآن ، اذكر منهم على سبيل المثال :

١- الإمام ، أبو سليمان ، حَمْدُ[٦] بن محمد بن إبراهيم الخطابي[٧] ، البستي ، (ت٣٨٨هـ) وهو عالم جليل سني المنهج ، سلفي المعتقد ، مع بعض المآخذ عليه التي لا تغض من قدره ومكانته . وله مصنفات شهيرة منها : " معالم السنن "[٨] ، و " شأن الدعاء "[٩] و " أعلام الحديث "[١] و " بيان إعجاز القرآن "[٢] وغيرها .

---

(١) قال ابن كثير - رحمه الله - " أي التوراة والقرآن " انظر : تفسير القرآن العظيم (٢٥٢،٢٥٣/٦) ، وانظر : الرازي : التفسير الكبير (٢٦١/٢٤)

(٢) سورة القصص الآيتان (٤٩،٥٠) .

(٣) سورة الإسراء الآية (٨٨) .

(٤) سورة سيدنا هو - عليه السلام - الآية (١٣) .

(٥) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - الآية (٣٧) .

(٦) بفتح الحاء وسكون الميم ، وهو الصواب في اسمه ، وقد سماه أبو عبيد الهروي بأحمد ووافقه الثعالبي في اليتيمة (٣٣٤/٣) وتبعهما على ذلك ياقوت في معجمه وآخرون غيره ، قال أبو طاهر السِّلفي في مقدمة معالم السنن (كما في مختصر سنن أبي داود) (١٦١/٨) : " والصواب في اسمه حمد كما قاله الجم الغفير والعدد الكثير لا كما قالاه " يعني الهروي والثعالبي . وقد ذكر ابن خلكان عمن سمع أبا سليمان يقول : اسمي الذي سميت به حمد ، ولكن الناس كتبوا أحمد فتركته عليه . وفيات الأعيان (٢١٥/٢) .

(٧) نسبة إلى جده الخطاب (وفيات الأعيان ٢١٥/٢) وقيل لزيد بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو ابن نفيل بن عبدالعزي القرشي العدوي أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، وله شرف الصحبة . الاستيعاب (٥٥٠/٢-٥٥٣) .

(٨) " معالم السنن في تفسير كتاب السنن لأبي داود السجستاني " وبعضهم يقول في شرح كتاب السنن بدل تفسير . طبع في حلب بتحقيق محمد راغب الطباخ ، وطبع في القاهرة سنة ١٩٤٨م بتحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي .

(٩) وقد سمي بتفسير أسامي الرب - عز وجل - وبشرح دعوات ابن خزيمة ، وبشرح الاسماء الحسنى انظر : معجم الأدباء (٢٥٢/٤) ، (١٠/ ٢٦٩) وتذكرة الحفاظ (١٠١٩/٣) وطبقات الشافعية للسبكي (٢٨٣/٣) وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص٤٠٤) ، وقد طبع الكتاب بدار المأمون للتراث سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م بتحقيق أحمد يوسف الدقاق .

٢- أبـو الحسـن ، عـلي بن عيسى الرُّماني[٣] ، وهو من شيوخ المعتزلة ، وكانت له مشاركة في الحياة العامة ببغداد ، وتوفي عام (٣٨٦هـ)[٤] .

٣- الإمام فخر الدين ، ابو عبدالله ، محمد بن عمر الرازي ، الشافعي ، صاحب " التفسير الكبير ومفاتيح الغيب " المتوفي (٦٠٤هـ) .

ولـم يذكـر السـيوطي اسـم مصنف الرازي الذي صنفه في إعجاز القرآن ، ولعله الموسوم بـ " مختصر في الإعجاز " والرازي من علماء المذهب الأشعري ، ويعتبره البعض مهذب المذهب ومقعد أصوله .

٤- الإمام القاضي ، أبو بكر ، محمد بن الطيب الباقلاني ، وهو من فضلاء المذهب الأشعري ، ولعله أفضلهم ، ولم يذكر السيوطي كذلك اسم مصنفه في الإعجاز ، وهو مشهور ومطبوع ومتداول بعنوان : " إعجاز القرآن " .

٣- عدد وجوه إعجاز القرآن الكريم :

ذكر السيوطي أن بعض العلماء أنهى وجوه إعجاز القرآن إلى ثمانين وجهاً[٥] .

لكنه قال : " والصواب : أنه لا نهاية لوجوه إعجازه "[٦] والسيوطي نفسه لم يثبت في كتابه من وجوه الإعجاز سوى خمسة وثلاثيـن وجهـاً ، ضـمنها الجزء الأول من مصنفه ، وجعل الجزأين الآخرين في تفسير وبيان بعض الألفاظ والعبارات والآيات ، يستنبط منها بعض الفوائد والنكت ، ويورد في بيانها بعض الروايات والقصص التي قد لا يصح بعضها .

إن معجـزات الأنبياء السابقين على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - كانت معجزات مادية ، تنقضي بإنقضاء وقـتها ولا يـبقى لها أثر بعد ذلك إلا في نفوس من رأوها وشاهدوها وبموتهم وفنائهم ينتهي كل ما للمعجزة من أثر ، أما معجـزة القـرآن الكـريم فهو المعجزة الكبرى لخاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم - معجزة خالدة بحقيقتها وآثارها إلى يوم الدين .

كما أن المعجزات المادية السابقة تعتبر مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحي ، أما القرآن الكريم فدلالته عـلى صـفة النبوة وحقيقة الدين ، وأصل الشريعة وأهداف الوحي ، لأنه معجزة وتشريع ، وهو دليل باهر على النبوة ، ونظام حياة شامل لمن آمن بها وصدق بصاحبها .

فهـو معجـزة الإسلام ، وأصل الدين ، يطلع عليه الأجيال في كل زمن ، ويتلونه في كل عصر ، وهو البرهان

---

(١) ذكـر لهـذا الكتاب نحو أحد عشر اسماً ، انظر مقدمة محققه د.محمد بن سعد ابن عبدالرحمن آل سعود (٦٤/١-٦٥) وقد طبـع في جامعة أم القـرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م بتحقيق د.محمد بن سعد بن عبدالرحمن آل سعود ثم طبع مرة أخرى بالمغرب بتحقيق د.يوسف الكتاني .

(٢) نشـره عبدالله بن الصديق الغماري سنة ١٣٧٢هـ بمطبعة دار التأليف بالقاهرة ونشر أخيراً بطبعة - دار المعارف ت محمد خلف الله أحمد و د.محمد زغلول سلام .

(٣) علي بن عيسى بن علي بن عبدالله باحث معتزلي مفسر من كبار النحاة (ت٣٨٤هـ) .

(٤) رسالته في إعجاز القرآن سماها " النكت " نشرت مع رسالتين إحداهما للجرجاني والثانية للخطابي من نشر دار المعارف .

(٥) معترك الأقران (٥/١) .

(٦) ونقله عن السكاكي في " المفتاح " .

العظيم الذي يلامسون وجوه إعجازه فيستدلون به على أمور :

الأول : أن هذا الكتاب هو كلام الله حقاً ، وليس بكلام بشر .

الثاني : أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - صادق في رسالته ، لأنه هو الذي بلغه إلينا عن ربه - جل وعلا - ولم نعلم به إلا عن طريقه - صلى الله عليه وسلم - .

الثالث : أن معجزات الأنبياء السابقين ، لولا القرآن الكريم لم نعلم بها بطريق يقيني ثابت ، فالذي يعرفنا بها بيقين إنما هو القرآن الكريم نفسه ، فمتى ثبت هو ثبتت هي .

٤- هل يُعلم الإعجاز ضرورة أم استدلالاً ؟ :

يتساءل السيوطي عن هذه المسألة ثم يجيب عليها فيقول : " ظهور ذلك على النبي - صلى الله عليه وسلم - يعلم ضرورة ، وكونه معجزاً يعلم بالاستدلال "[١] وحكى عن الأشعري أن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالاً ، وكذلك من ليس ببليغ ، أما البليغ الذي أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة ، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه وعجز غيره عن الإتيان بمثله[٢] .

٥- هل العجز يتاول الجن والملائكة ؟؟ :

أما عن هذا العجز فهل يتناول الجن والملائكة أم أنه مختص بالإنس فقط دون غيرهم ؟ يقول السيوطي : " إنما وقع العجز في الإنس دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه ، وإنما ذكروا في قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[٣] تعظيماً لشأنه ، لأن للهيئة الاجتماعية من القوة ما ليس للأفراد ، فإذا فرض اجتماع الثقلين ، وظاهر بعضهم بعضاً وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز ، وقال بعضهم : " بل وقع للجن أيضاً والملائكة منويون في الآية لأنهم لا يقدرون أيضاً على الإتيان بمثل القرآن "[٤] ، وذكر السيوطي عن بعض العلماء أنه إنما اقتصر في الآية على ذكر الجن والإنس لأنه - صلى الله عليه وسلم - كان مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة[٥] .

والذي أراه - والله أعلم - أن هذا التحدي يشمل جميع المخلوقين، سواء كانوا جناً أم ملائكة ، ذلك لأن كلام الله جل وعلا لا يمكن أن يضاهيه مخلوق لا ملكٌ ولا جن ولا غيرهما ، إذ لو قدر أن تأتي الملائكة أو الجن بمثل كلام الله - تعالى - لم يكن لكلام الله تعالى الخالق مزية على غيره من كلام المخلوقين ، ولا ستوى كلام الخالق وكلام المخلوق ، وهذا لا يقوله عاقل . كما أن ذكر الجن في آية سورة الإسراء[٦] صريح في بيان عجزهم عن الإتيان بمثل كلامه عز وجل

---

(١) معترك الأقران (٧/١) .

(٢) انظر : معترك الأقران (٧/١) ، والاتقان (١٢٣/٢) ، الباقلاني : إعجاز القرآن (ص١٦٤) ، (ص٣٢٩) .

(٣) سورة الاسراء الآية (٨٨) .

(٤) معترك الأقران (٧/١) .

(٥) نفسه ، نقله السيوطي عن الكرماني في " غرائب التفسير " .

(٦) الآية رقم (٨٨) .

، حتى ولو اجتمع عالم الجن بعالم الإنس وتظاهروا على ذلك ، فإذا ثبت عجز الثقلين مجتمعين ، كان أمر كل عالَم منفرداً عن الآخرين أشد عجزاً عن ذلك ، وهو إثبات لتفرد كلام الله – تبارك وتعالى – وتميزه الفائق عن كل كلام سواه .

ومن هنا يتضح أن الصواب قول من قال : بحصول العجز للإنس والجن والملائكة ، فجميع الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن .

٦- هل غير القرآن الكريم من كلام الله تعالى معجز ؟

أو يقال : التوراة والإنجيل اللذان أنزلهما الله تعالى على موسى وعيسى – عليهما السلام – هل يقع فيهما الإعجاز كما وقع في القرآن الكريم ؟

الجـواب عـند السيوطي وبه شئ من التفصيل ، حيث يفرق السيوطي : بين جانب النظم والتأليف ، وبين جانب الإخبار بالمغيبات .

١- أما جانب النظم والتأليف بالنسبة للتوراة والإنجيل فينفي السيوطي وقوع الإعجاز فيه .

٢- وأمـا جانب الإخبار بالمغيبات ، فيثبت تضمنه للإعجاز . يقول السيوطي : " فإن قلت : هل يقال : إن غير القرآن من كلام الله معجز ، كالتوراة والإنجيل ؟ فالجواب : ليس شئ من ذلك معجزاً في النظم والتأليف وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب "[١] ولمثل هذا الذي قاله السيوطي ، ذهب القاضي أبو بكر الباقلاني[٢] .

ويستدل السيوطي على عدم إعجاز التوراة والإنجيل بأدلة نجملها فيما يلي :

__أولاً :__ أن الله تعالى لم يصفهما بما وصف به القرآن الكريم من الإعجاز .

__ثانياً :__ أنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي فيهما كما وقع في القرآن الكريم ، والآيات التي نقلناها فيما سبق ناطقة بذلك ، بخلاف غيره من الكتب .

__ثالـثاً :__ أن اللسـان الذي أنزل به التوراة والإنجيل لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز[٣] .

ثم نقل السيوطي تأييداً لكلامه عن ابن جنى[٤] في قوله تعالى : (قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى)[٥] أن العدول عن قوله : أن نلقي ، لغرضين :

__أحدهما :__ لفظي ، وهو المزاوجة لرؤوس الآي .

__والـثاني :__ معـنوي ، وهو أنه تعالى أراد أن يخبر عن قوة أنفس السحرة واستطالتهم على موسى ، فجاء عنهم باللفظ أتم وأوفى منهم في أسنادهم الفعل إليه .

---

(١) معترك الأقران (١٠/١) ، الإتقان (١٢٤/٢) .
(٢) انظر : إعجاز القرآن (٣٣٠-٣٣١) .
(٣) انظر : معترك الأقران (١٠/١) ، الاتقان (١٢٤/٢) .
(٤) عثمان بن جنى الموصلي ، أبو الفتح من أئمة الأدب والنحو (ت٣٩٢هـ) .
(٥) سورة طه الآية (٦٥) .

ثـم أورد سـؤالاً ، وهـو أنا نعلم أن السحرة لم يكونوا أهل لسان ، فنذهب بهم هذا المذهب من صنعة الكلام . وأجـاب بـأن جميـع ما ورد في القرآن حكاية عن غير أهل اللسان[1] من القرون الخالية ، إنما هو معرب عن معانيهم ، وليـس هـو بحقيقـة ألفاظهم ، ولهذا لا يُشَك أن قوله تعالى : (قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى)[2] إن هذه الفصاحة لم تجر على لغة العجم[3] .

٧- ما موضع الإعجاز من كتاب الله تعالى ؟ :

يـنقل السـيوطي جواب هذا السؤال عن أبي حيان التوحيدي[4] ، ومفاده أنه لا يشار إلى موضع بعينه من القرآن الكـريم يـتحقق فيه الإعجاز دون غيره ، بل القرآن الكريم بجملته ينطبق عليه هذا الوصف، وكان مما قاله : " هذه مسألة فيهـا حيـف على المفتي ، وذلك أنه شبيه بقولكم ما موضع الإنسان من الإنسان ؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان ، بل متى أشرت إلى جملته قصدت حقيقته ، ودللت على ذاته كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شئ منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لمحاوِله ، وأهدى لقائله ، وليس في طاقة البشر الاحاطة بأغراض[5] الله في كتابه فلذلك حارت العقول ، وتاهت البصائر عنده "[6] .

٨- القدر المعجز من القرآن :

أُختلِف في القدر المعجز من القرآن على أقوال حكاها السيوطي في الاتقان ، نجملها فيما يلي :

الأول : قول الأشاعرة تبعاً لأبي الحسن قالوا : إن أقل ما يُعجز عنه من القرآن السورة ، قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرهـا . فـإذا كانت الآية بقدر حروف السورة ، وإن كانت سورة الكوثر ، فذلك معجز ، ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر[7] .

الـثاني : قول المعتزلة حيث ذهبوا إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة ، وقد حُكي عنهم نحو القول الأول إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة ، بل شرط الآيات الكثيرة[8] .

ونسب السيوطي إلى بعضهم أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن[9] ، بمعنى أنه لا يحصل الإعجاز إلا بالقرآن كله جملة وهذا مردود بقوله تعالى : (...فأتوا بسورة من مثله...)[10] وقوله تعالى : (...فأتوا بعشر سور مثله مفتريات...)[1] .

---

(١) أي : اللسان العربي .

(٢) سورة طه الآية (٦٣) .

(٣) معترك الأقران (١/١٠) ، الاتقان (٢/١٢٤-١٢٥) .

(٤) هو : علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، فيلسوف متصوف معتزلي ، قال ابن الجوزي كان زنديقاً ، ولد في شيراز ، وتوفي نحو (٤٠٠هـ-١٠١٠م) . انظر : طبقات السبكي (٢/٤) بغية الوعاة (٣٤٨) ، ميزان الاعتدال (٣/٣٥٥) الاعلام (٤/٣٢٦) .

(٥) لا ينبغي أن يعبر بلفظ " أغراض الله " لأنه لم يرد في النصوص الشرعية وإنما يقال : " مراد الله " لأن الارادة من صفاته تعالى .

(٦) معترك الأقران (١/١٠) ، الاتقان (٢/١٢٤-١٢٥) .

(٧) انظر : الباقلاني : إعجاز القرآن (ص٣٢٤) .

(٨) انظر : نفسه .

(٩) انظر : الاتقان (٢/١٢٣) .

(١٠) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٣) .

الثالث : أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره ، لقوله تعالى : (فليأتوا بحديث مثله...)(٢) .

قال السيوطي : " ولا دلالة في الآية لأن الحديث التام لا تحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة "(٣)

والرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب – والله أعلم – إذ أن الإعجاز إنما يتحقق بمحصل كلام تام المعنى وإن كان قصيراً كسورة الكوثر أو آية بقدرها ، وقد علم يقيناً أن العرب قاطبة قد عجزوا عن مثل ذلك ولم يستطع أحد منهم الإتيان به وإلحاقاً بهذه المسألة أورد السيوطي اعتراضاً قال فيه : " فإن قال قائل : فلعل السور القصار يمكن فيها المعارضة قيل لا يجوز فيها ذلك من قبل أن التحدي قد وقع بها فظهر العجز عنها "(٤) في قوله تعالى : (فأتوا بسورة...)(٥) أي أن قوله " سورة " تشمل القصار والطوال ، وقد تحدى بها ولم يُعارض ، فظهر بذلك العجز كما حكى هذا الاعتراض كل من الرماني ، والباقلاني ، أما عبارة الرماني فهي التي نقلتها عن السيوطي ، وأما الباقلاني فقال : " فإن ادعى ملحد أو زعم زنديق أنه لا يقع العجز عن الإتيان بمثل السور القصار ، أو الآيات بهذا المقدار ، قلنا له : إن الإعجاز قد حصل بما بيناه ، وعرف بما وقفنا عليه ، من عجز العرب عنه ثم فيه شئ آخر ، وهو أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد لأنه يزعم أنه ليس في القرآن كله إعجاز ، فكيف يناظره على تفصيله ، وإذا ثبت لنا معه إعجازه في السور الطوال قامت الحجة عليه ، وثبتت المعجزة ، ولا معنى لطلبه لكثرة الأدلة والمعجزات .

ونحن نعلم أن إعجاز البعض بما بيناه ، والبعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا... "(٦)

ويكمل السيوطي الاعتراض الذي ذكره الرماني عن بعض المعترضين فيقول : " فإن قال : فإنه يمكن في القصار أن تغير الفواصل فيجعل بدل كل كلمة ما يقوم مقامها فهل يكون ذلك معارضة ؟ قيل له : لا ، من قبل أن المفحم يمكنه في قوافي الشعر مثل ذلك وإن كان لا يمكنه أن ينشئ بيتاً واحداً ، ولا يفصل بطبعه بين مكسور وموزون ، فلو أن مفحماً رام أن يجعل بدل قوافي قصيدة رؤبة(٧) :

وقاتِمِ الأعماق خاوي المختَرقْ   مشتَبِه الأعْلام لماعِ الخَفَقْ

يكِلُّ وفدُ الريح من حيثُ انخَرَقْ

فجعل بدل " المخترق " الممزق ، وبدل " الخفق " الشفق وبدل " انخرق " انطلق ، لأمكن ذلك ، ولم يثبت له

---

(١) سورة سيدنا هود – عليه السلام – ، بعض الآية (١٣) .

(٢) سورة الطور ، بعض الآية (٢٤) .

(٣) الاتقان (١٢٣/٢) ، وانظر : الباقلاني : إعجاز القرآن (ص٣٢٤-٣٢٥) .

(٤) الاتقان (١٢٥/٢) ، وانظر : الرماني : النكت في إعجاز القرآن (ص١١١) ضمن " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " للرماني والخطابي والجرجاني ، ت. محمد خلف الله أحمد ، دكتور محمد زغلول سلام – دار المعارف – القاهرة ط٤ .

(٥) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٣) .

(٦) إعجاز القرآن (ص٣٢٦-٣٢٧) .

(٧) رؤبة بن عبدالله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي ، أبو الجَحّاف أو أبو محمد ، راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كان أكثر مقامه في البصرة ، توفي (١٤٥هـ-٧٦٢م) انظر : وفيات الأعيان (١٨٧/١) البداية والنهاية (٩٦/١٠) لسان الميزان (٢/ ٤٦٤) ، الاعلام (٣٤/٣) .

به قول الشعر ، ولا معارضة رؤبة في هذه القصيدة عند أحد له أدنى معرفة ، فكذلك سبيل من غير الفواصل "[١] .

٩- وجوه إعجاز القرآن الكريم :

أسهب السيوطي في بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وهو باطلاعه عما صُنِّف مِن قَبْل مُصنَّفِه في الاعجاز قد وضع مصنفه جامعاً لمحاسن من تقدمه من العلماء ، لكن السيوطي لا يستحسن كل ما كتب في هذه المسألة لذلك يقول : " لما ثبت كون القرآن معجزة نبينا - صلى الله عليه وسلم - وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز ، وقد خاض الناس في ذلك كثيراً فبين محسن ومسئ "[٢] ولعل السيوطي يقصد بالمسيئين هؤلاء الذي قالوا بأن التحدي وقع بالكلام القديم ، أي الصفة الذاتية ، وهي كون الله تعالى متصفاً بصفة ذاتية هي صفة الكلام ، وهي التي يعبر عنها المتكلمون من الأشاعرة وغيرهم بقولهم الكلام النفسي ، أي الصفة القائمة به - جل وعلا - لا يقصدون بذلك القرآن الكريم ، وإنما يقصدون الكلام النفسي الذي إذا عبر الله تعالى عنه بالعبرية كان توراتاً ، وإذا عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، فالتوراة والقرآن - على زعمهم - ليست كلام الله تعالى على الحقيقة ، وإنما هما عبارة عن كلام الله - جل وعلا - وإنما يقال عنهما كلام الله مجازاً ، عندهم وكلام الله عندهم هو الصفة القديمة القائمة بالنفس . وقد نقضنا هذا القول - بحمد الله تعالى وحسن توفيقه - عند كلامنا عن صفة الكلام في فصل الأسماء والصفات . والمقصود أن السيوطي يخطئ من قال : إن التحدي وقع بهذه الصفة القديمة أي الكلام النفسي ، ويصفهم بالإساءة ، وهو كما قال ، لأن الكلام النفسي لا يمكن لأحدٍ الاطلاع عليه ، فكيف يُتحدى بأن يأتي بمثله ؟ ولذلك قال : " فزعم قوم أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كلفت في ذلك مالا يطاق ، وبه وقع عجزها "[٣] ثم رد السيوطي ذلك القول بما قدمنا معناه آنفاً فقال : " وهو مردود لأن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدي به "[٤] ثم يرجح السيوطي رأي جمهور الأشاعرة فيقول : " والصواب ما قاله الجمهور أنه وقع بالدال على القديم ، وهو الألفاظ "[٥] وهو بقوله " الدال على القديم " يقصد القرآن الكريم ، فالقرآن عنده - كبقية الأشاعرة - ليس هو كلام الله حقيقة ، وإنما هو ألفاظ دالة على الكلام النفسي ، وهم يقولون عنه إنه عبارة عن كلام الله - كما قدمت ذلك ورددت عليه في فصل الأسماء والصفات عند صفة الكلام .

وفي كلام السيوطي هذا رد عليه وعلى الأشاعرة عموماً ، لأنه إن كان هذا القرآن ليس كلام الله تعالى حقيقة ، فكيف يتحداهم الله بما ليس من كلامه ؟

إنما الحق ما عليه أهل السنة أن القرآن الكريم هو كلام الله حقيقة تكلم الله تعالى به على الحقيقة ، وأنزله على عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وتحدى به العرب فهو كلامه المعجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) الاتقان (١٢٥/٢) ، النكت في إعجاز القرآن (ص١١١-١١٢) .
(٢) الاتقان (١١٨/٢) .
(٣) الاتقان (١١٨/٢) .
(٤) نفسه .
(٥) نفسه .

- الكلام عن الإعجاز بالصرفة :

ذهب النظام - من المعتزلة - أن وجه إعجاز القرآن كان بالصرفة ، بمعنى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم عن ذلك ، وأن الإعجاز لم يكن راجعاً إلى صفة القرآن في نفسه ، بل كان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمر خارجي ، فصار كسائر المعجزات[١] .

وقد صور الباقلاني هذا المذهب بعبارة رائقة فقال : " فإن قيل : فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله ، مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم : إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة ، وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع ، أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ، ليتكامل ما أراده الله من الأدلة ، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى ، وكذلك الثالثة . حتى يتكامل قدر الآية والسورة "[٢] .

والجواب عن هذا القول الفاسد من وجوه :

__أولها :__ قال السيوطي عن هذا القول : إنه قول فاسد بدليل قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[٣] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لإجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره "[٤] .

__الثاني :__ انعقاد الإجماع على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة الإعجاز ، بل المعجز في الحقيقة - والحال هذه - هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم على الإتيان بمثله[٥] .

__الثالث :__ أنه يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي ، وزمان التحدي مرهون بوجود الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - فبعد أن لحق النبي - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى يزول التحدي وبزواله يزول الإعجاز عن القرآن الكريم ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - العظمى باقية ولا معجزة له باقية سوى القرآن[٦] .

__الرابع :__ أن الإعجاز إن كان بالصرفة لم يكن كلام الله تعالى معجزاً ، وإنما الإعجاز يكون بالصرفة ، وعليه فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه[٧] ، قال القاضي أبو بكر الباقلاني : " وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم أن

---

(١) انظر : الاتقان (١١٨/٢) .
(٢) اعجاز القرآن (ص٥٥-٥٦) .
(٣) سورة الإسراء الآية (٨٨) .
(٤) الاتقان (١١٨/٢) .
(٥) الاتقان (١١٨/٢) .
(٦) السابق نفسه .
(٧) نفسه .

الكـل قادرون على الإتيان بمثله وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب ، لو تعلموه لوصلوا إليه به ، ولا بأعجب من قـول فـريق منهم : إنه لا فرق بين كلام البشر ، وكلام الله تعالى في هذا الباب ، وإنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد "(١) .

الوجه الأول من وجوه الإعجاز

كونه حقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

فهو الكتاب الخالد الذي لا يتطرق إليه باطل في نصه ولا في أحكامه ، ولا في أي حقيقة علمية عرضها ، أو أي مبدأ من مبادئه وتشريعاته أو أي خبر تاريخي أخبر به من أنباء الغيب الماضية ، أو أي خبر أخبر عن وقوعه في المستقبل ، كما أنه لا يأتيه باطل ألبته بتحريف أو تبديل أو ضياع أو نسيان .

قال الله – جل وعلا – (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(٢) .

وقال – تعالى – مبيناً تعهده بحفظه وصيانته : (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون)(٣) .

وهـذا الواقـع يشهد أن القرآن الكريم لم يأته باطل بحال من الأحوال ، ولا من وجه من الوجوه ، وكذلك لن يأتيه الباطل من أى وجه من الوجوه ، مهما توالت الدهور ، واتسعت تجارب الحياة وزادت مكتشفات العلوم .

إن اكتشـاف الحقـائق العلمية الثابتة بيقين ، تثبت دواماً يوماً بعد يوم أن القرآن الكريم حق لايأتيه الباطل ، وإنه كـتاب الله المسطور الذي يؤيده كتاب الله المنظور الذى هو هذا الكون بحقائقه وسننه فالقرآن كلام الله ، والكون خلق الله ، وكل منهما يؤيد الآخر ويؤكده ، وأنه يستحيل تعارضها أو تنـاقضهما .

وكذلك فإن هذا الكتاب العظيم لا يأتيه الباطل في أي خبر تاريخي أخبر به عن القرون الماضية ، والأمم الخالية ، قال تعالى : (ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين)(٤) .

وقال تعالى : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين)(٥)

وقـد جاءت حديثاً دلائل الآثار الأرضية بعد قرون من نزول القرآن ، فصدقت حقائقها التي توصل إليها علماء الآثار الأخبار التي أتى بها القرآن الكريم ، وذلك من إعجاز القرآن الكريم الدال على أنه كلام الله وليس من كلام البشر (٦) .

وكذلـك فإن هذا الكتاب العظيم المعجز لا يأتيه الباطل في أي خبر أخبر به عما سيحدث في مستقبل أيام الدهر ، والأمثلة على تحقق الكثير من هذه الأخبار كثيرة نذكر منها .

---

(١) الاتقان (١١٨/٢) ، إعجاز القرآن (٥٨) .
(٢) سورة فصلت الآية (٤٢) .
(٣) سورة الحجر الآية (١٥) .
(٤) سورة سيدنا هود – عليه السلام – الآية (٤٩) .
(٢) سورة النمل الآية (٧٦ ، ٧٧) .
(٣) أنظر : الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني : العقيدة الإسلامية وأسسها (ص٣٢١) ط ٧ / ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م – دار القلم – دمشق .

١- قول الله – جل وعلا – : (...لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ...)(١)

وقد تحقق ما أخبر الله تعالى به في هذه الآية الكريمة ، فدخل الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه – رضي الله عنهم – المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، غير خائفين .

٢ – وقوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ويبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً)(٢) وقد وفى الله تعالى للمؤمنين هذا الوعد الحق ، فكانت دولة الإسلام هي الدولة المستخلفة في الأرض ، والممكنة بتمكين الله تعالى لها ، ولم يشهد التاريخ دولة مثلها في قوة الإيمان ، وقوة العدل ، وقوة البأس ، بفضل إيمانها وتمسكها بحبل الله ونصرها لله تعالى ودينه ورسوله .

٣ – وقوله تعالى : (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب...)(٣) وقد تحقق ذلك فتم نصر الله للمؤمنين ، والفتح المبين – فتح مكة – ثم فتح الممالك العظمى التي كانت صاحبة السيادة والسلطان في الأرض .

٤ – وقوله تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين)(٤) .

وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى ، وتحقق وعد الله تعالى لهم ، فانتصروا علىالمشركين نصراً مؤزراً ، وغنموا منهم رغم قلة عدد المسلمين بالنسبة لهم .

٥ – وقوله تعالى : (آلم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(٥) .

وقد تحقق ذلك بإجماع أهل التاريخ ، فانتصر الروم على فارس بعد أن غُلبوا ، وذلك في بضع سنين كما أخبر الكتاب العزيز المعجز .

والآيات في هذا الباب معلومة ما من وعد ولا خبر أخبر بوقوعه في المستقبل إلا ووقع كما أخبر واضحاً جلياً مثل فلق الصبح ، ولا زالت الأنباء والأخبار والحقائق تظهر لتؤكد هذا الإعجاز الباهر .

الوجه الثاني من وجوه الإعجاز :

هذا السلطان العجيب لآيات القرآن العظيم في هدايته ، وتأثيره المعنوي على عقول الناس وقلوبهم ، وفي الخشية والرهبة التي تحدثها تلاوته في قلوب سامعية واستيلاء مواعظه عليها الأمر الذى حدا بخصومه أن يصفوه بالسحر ، إذ هو

---

(١) سورة الفتح ، بعض الآية (٢٧) .

(٢) سورة النور الآية (٥٥) .

(٣) سورة الصف ، بعض الآية (١٣) .

(٤) سورة الأنفال الآية (٧) .

(٥) سورة الروم الآيات (١ – ٦) .

سحر البيان الذى يستولي على الألباب فتخشع القلوب وتذل الرقاب لعظمة بلاغته وتأثيره العجيب .

لقـد كان هذا السلطان الروحي هو السر في تجمع مختلف الشعوب والأمم حوله - عرباً وعجماً على سواء - إذ بسـر هـذا الـتأثير تركت عصبياتها القومية ، ومعتقداتها الدينية الباطلة الموروثة ، وهجرت تقاليدها وأعرافها وعاداتها الجاهـلية المتبعة ، ولا غرو أن يصفه الله تعالى بأنه هدى للناس وبينات من الهدى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان)[١] .

ولا غـرو كذلـك أن يحـدث هـذه الخشية والخشوع في القلوب والنفوس والعقول فقط ، وإنما يحدثها كذلك في الجمادات الصماء التي لا تعقل ولا تعي تأثراً بسلطانه العجيب (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[٢] .

ومن أمثلة تأثير القرآن الكريم في النفوس :

١- لمـا قـرأ جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - القرآن على النجاشي ومن حوله من القسيسين والرهبان ، وأخذت الخشـية تغشاهم فأجهشوا جميعاً بالبكاء حتى فرغ جعفر - رضى الله عنه - من القراءة، ثم إن النجاشي أرسل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مجموعة من علماء النصارى فقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليهم سورة " يس " فبكوا وآمنوا[٣] ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)[٤] .

٢ - وعـن جـبير بن مطعم - رضى الله عنه - قـال : سمعت رسـول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في المغرب بـالطور فـلما بلغ هذه الآية : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون)[٥] كاد قلبي يطير للإسلام [٦] .

يقـول الإمام أبو سليمان الخطابى في بيان هذا الوجه : (قلت : في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن ، منظوما ولا منثوراً ، وإذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٥) .

(٢) سورة الحشر الآية (٢١) .

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٣ / ١٣٠) وعزاه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ ، وابن مردويه عن سعيد بن جبير ، وروى نحوه ابن جرير في " جامع البيان " (٧ / ٥) عن السدى ، وقال الحافظ ابن كثير : وقد روى النسائي عن عمر بن على الفلاس ، عـن عمر بن على بن مقدم ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءآمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . تفسير القرآن العظيم (٣ /١٥٩) .

(٤) سورة المائدة الآية (٨٣) .

(٥) سورة الطور الآيات (٣٥-٣٧) .

(٦) متفق عليـه : رواه البخـارى في " صحيحـه " كتـاب التفسـير (٦٥) بـاب (١) رقم (٤٨٥٤) أنظر : الفتح (٦٠٣/٨) . ومسلم في " صحيحه " (٣٣٨/١) كتاب الصلاة (٤) باب (٣٥) رقم (٧٤ - {٤٦٣}) .

منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، وقد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها فكم من عدو للرسول – صلى الله عليه وسلم – مِن رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله ، وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه ، وصار عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيماناً ، خرج عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يريد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويعمد لقتله ، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه ، فلما وقع فى سمعه لم يلبث أن آمن[١] وبعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليوافقوه على أمور أرسلوه بها ، فقرأ عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – آيات من حم السجده ، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش قالوا : أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به[٢] .

ومصداق ما وصفناه في القرآن في قوله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله...)[٣] . وفى قوله : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله...)[٤] . وقال سبحانه : (...أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم...)[٥] . وقال سبحانه : (...وإذا تليت عليهم آياتنا زادتهم إيمانا ...)[٦] . وقال سبحانه : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ...)[٧] في أى ذوات عدد منه ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وهو من عظيم آياته ، ودلائل معجزاته)[٨] .

أما السيوطى فيجعل لتأثير القرآن الكريم على قلوب سامعيه حالين :

<u>**الأولى :**</u> حال المؤمن إذا سمع آيات الله تعالى تتلى فإنه يقشعر جلده ، ويمتلئ قلبه روعة وهيبة وانجذاباً وتلذذا بسماع كلام الله – جل وعلا – فيزداد بسماعه لذة واستمتاعاً وإيمانا[٩] ، فسامعه لايمجه ، وقارئه لا يمله فتلذ له الأسماع ، وتشغف له القلوب ، فلا تزيده تلاوته إلاحلاوة ، ولا ترديده إلا محبة ، ولا يزال غضاً طرياً ، وغيره من الكلام – ولو بلغ في الحسن والبلاغة – مبلغه – يمل مع الترديد ، ويعادى إذا أعيد ، لأن إعادة الحديث على القلب أثقل من الحديد ، وكتابنا بحمد الله تعالى يُستلذ به في الخلوات ويؤنس به في الأزمات ، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك ، حتى أحدث لها أصحابها لحونا

---

(١) انظر: قصة إسلام عمر في سيرة ابن هشام (٣٤٣/١)وما بعدها .
(٢) سيأتى نص الحديث بذلك قريباً – إن شاء الله تعالى – .
(٣) سورة الحشر ، بعض الآية (٢١) .
(٤) سورة الزمر ، بعض الآية (٢٣) .
(٥) سورة العنكبوت ، بعض الآية (٥١) .
(٦) سورةالأنفال ، بعض الآية (٢) .
(٧) سورة المائدة ، بعض الآية (٨٣) .
(٨) بيان إعجاز القرآن (ص٧٠-٧١) ضمن ثلاث رسائل .
(٩) انظر معترك الأقران (١٨٢/١-١٨٣) .

وطربا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها ، أما القرآن الكريم فإنه لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عبره ، ولا تفنى عجائبه هوالجد ليس بالهزل ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، من قـال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المـتين ، والشـفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، فيه نبأ الأولين والآخرين ، فتح الله به أعيناً عمياً ، وأذناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، فيه ينابيع العلم ، وفهم الحكمة(١) .

<u>الـثانية :</u> حـال الكافر المكذب الذي إذا سمع كلام الله – جل جلاله – أحس كأنه سياط وقوارع ، فتعتريه الهيبة والخوف والوجل ، ولذلك كان بعضهم يستـثـقل سماعه ، ويزداد نفوراً كما قال تعالى : (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءآذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً)(٢) .

و " الوقر " هو الثـقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به(٣) .

وتوليهم ونفورهم بسبب اشمئزاز قلوبهم من ذكر الله تعالى قال – جل وعلا – : (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)(٤) .

يقول السيوطي : (الوجه العشرون من وجوه إعجاز : الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه ، والهيـبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله ، وإبانه خطره ، وهي على المكذبين به أعظم ، حتى كانوا يستثقلون سماعه ، ويـزيدهم نفـوراً ، كمـا قال تعالى ، ويودون انقطاعه لكراهتهم له ... وأما المؤمن فلا تزال روعته به ، وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذاباً وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه ، وتصديقه به ... وهذه الروعة قد اعترف بها جماعة قبل الإسلام وبعده : فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به ، ومنهم من كفر(٥) ثم ساق السيوطي حديث جبير بن مطعم الذي نقلته قبل قليل ، وساق أيضاً حديث عتبه بن ربيعة لما جاء النبي – صلى الله عليه وسلم – من خلاف قومه ، فتلا عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حم السجدة ، قال الإمام ابن كثير :

" قـال الإمـام العلم عبد بن حميد في مسنده : حدثني ابن أبي شيبة ، حدثنا علي بن مسهر ، عن الأجلح ، عن الذيال ابن حرمـلة الأسـدي ، عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانـة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه ؟ فقـالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة . فقالوا : أنت يا أبا الوليد : فأتاه عتبة فقال : يا محمد ، أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله – صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر : معترك الأقران (١/١٨٤-١٨٥) .
(٢) سورة الإسراء ، الآية (٤٦) .
(٣) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥ / ٧٩) .
(٤) سورة الزمر ، الآية (٤٥) .
(٥) معترك الأقران (١ / ١٨٢ - ١٨٣) .

- ، فقـال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلة [١] قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا وفضحتنا في العـرب ، حـتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهنا ! والله ما ننظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، حتى نتفانى ! أيها الرجل ، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش فلنزوجك عشراً . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرغت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم) [٢]حتى بلغ (فـإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) [٣] . فقال عتبة : حسبك ! ما عندك غير هذا ؟ قال : " لا " فرجع إلى قريش ، فقالوا ، : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته . قالوا : فهل أجابك ؟ قال : لا ، والذى نصبها بنيةً[٤] ما فهمت شيئاً مما قال ، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . قالوا : ويلك ! يكلمك الرجل بالعربية ما تدري ما قال ؟! قال : لا ، والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلي الموصلي في مسنده ، عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده ، مثله سواء .

وقـد سـاقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل ، عن الأجلح – وهو ابن عبدالله الكندي – وقد ضعُف بعـض الشـئ عـن الذيال بن حرملة ، عن جابر ، فذكر الحديث إلى قوله : (فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صـاعقة عاد وثمود) [٥] فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم : فقـال أبـو جهـل : يا معشر قريش ، والله ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد ، وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه . فانطلقوا إليه فقال أبو جهل : يا عتبة ، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت لك حاجة جمعنا لك فغضب وقال :لقد علمتم اني اكثركم مالاً ، ولكني أتيته وقصصت عليه فأجابني بشئ والله مـا هـو بشـعر ولا كهانــة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله : (فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمـود) [٦]، فأمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب . وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلي ، والله أعلم .

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط ، فقال :

حدثـني " يزيد " بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً – قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم

---

(١) السخلة : ولد الشاه من المعز والضأن . والسخل : المولود المحبب إلى أبويه . وهو فى الأصل ولد الغنم .
(٢) سور فصلت الآيتان (١،٢) .
(٣) سورة فصلت ، الآية (١٣) .
(٤) يعني بالبنية : الكعبة . وكانت تدعى بنية إبراهيم – عليه السلام – ، لأنه بناها ، وقد كثر قسمهم برب هذه البنية .
(٥) يعني بالبنية : الكعبة . وكانت تدعى بنية إبراهيم – عليه السلام – ، لأنه بناها ، وقد كثر قسمهم برب هذه البنية .
(٢) سورة فصلت ،الآية (١٣) .

إلى محمــد فأكــلمه وأعرض عليه أمور لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حــتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.– فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السُطة(1) في العشرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفــرت بــه مــن مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . قال : فقال له رســول الله – صلى الله عليه وسلم – : " قل يا أبا الوليد أسمع " . قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالاً . وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً(2) تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبناً لك الطــب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع(3) على الرجل حتى يداوي منه – أو كما قال له – حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستمع منه قال : " أفرغت يا أبا الوليد؟ " قال : نعم . قال : " فاستمع مــني " قــال : أفعل . قال : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقــوم يعــلمون . بشــيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) . ثم مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيها يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى السجدة (منها) فسجد ، ثم قال : " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك " . فقام عتبة إلى أصــحابه ، فقــال بعضهم لبعض : أقسم – يحلف بالله – لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قــالوا : مــا وراءك يــا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقولــه الــذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه مُلككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم(4) .

وهذا السياق أشبه من الذي قبله ، والله أعلم .

وقــد ساق السيوطي هذا الحديث مختصراً ليدلل على الهيبة والروعة التي يتركها القرآن الكريم في نفوس الناس عامة وفي نفوس المعاندين بصفة خاصة ، وهذا دليل على أن هذا ليس كلام مخلوق بل هو كلام الله – جل وعلا – ويزيد الســيوطي الأمر تأكيداً فيذكر أن بعض المعاندين أراد أن يعارض القرآن فاعترته روعة وهيبة كف بها عن ذلك فيقول : "

---

(1) السطة – بكسر السين – : الشرف .

(2) الرئى – بفتح الراء ، وبنو تميم يكسرونها – : ما يتراءى للإنسان من الجن .

(3) التابع : ما يتبع الإنسان من الجن .

(4) سيرة ابن هشام : (1/293-294) .

روي أن ابن المقفع[1] طلب ذلك ورامه ، وشرع فيه ، فمر بصبي يقرأ : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك...)[2] فرجع ومحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ، وكان أفصح أهل وقته ، وكان يحيي بن حكيم الغزال[3] ، بليغ الأندلس في زمنه ، فحكى أنه رام شيئاً من هذا فنظر في سورة الإخلاص ليحذوا على مثالها ، وينسخ – بزعمه – على منوالها ، قال : فاعترتني خشية ورقة حملتني على التوبة والأوبة "[4] .

الوجه الثالث : بلاغته وفصاحته :

إن القرآن الكريم – بوصفه كتاب هدى للعالمين – على ذروة سنام الفصاحة والبلاغة ، وفي المنزلة التي لا يستطيع البشر – أحدهم أو كلهم ، أو كلهم مع عالم الجن – مهما أوتوا من بلاغة وبيان أن يرقوا إلى مستواه ، وقد شهد بذلك العدو والصديق ، والمؤمن والكافر .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني : " .. ثم انظر في آية آية ، وكلمة كلمة ، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم ، وبديع الرصف ؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها ، تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها ، ثم من قصة إلى قصة ، ومن باب إلى باب ، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل ، وحتى يُصوِّر لك الفصل وصلاً ، ببديع التأليف وبليغ التنزيل "[5] لقد عجز العرب – وقت نزول القرآن – عن الإتيان بمثله ، يدل لذلك أنه تحداهم حتى طال التحدي ، وقد جعله الله تعالى بذلك دليلاً على صدق رسوله – صلى الله عليه وسلم – ونبوته ، وضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم ، وسبى ذراريهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه ، بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال وإكثار المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الأوطان ، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي ، فلما لم يحصل هناك معارضة منهم ، علم أنهم عاجزون عنها ، وذلك لبلوغه في البلاغة والفصاحة والبيان الذروة ، والدرجة القصوى ، التي عجز عن مضاهاتها كل فصيح ، وقعد عن معارضتها كل بليغ ، وبلاغة القرآن المعجزة تتجلى في أمور منها :

أولاً : أن اللفظ القرآني في مفرداته وتراكيبه في مقام الذروة من الفصاحة والبلاغة والبيان ، فهو قد بلغ الغاية في " حسن

---

(١) عبدالله بن المقفع ، من أئمة الكتاب ، وقيل أنه من عنى في الإسلام بكتب المنطق وترجمتها ، أصله من الفرس ، ولد بالعراق (١٠٦هـ–م٧٢٤) مجوسياً (مزدكيا) وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي ، وترجم له كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق، وكتاب " المدخل إلى علم المنطق " المعروف " بإيساغوجي " وترجم عن الفارسية كتاب " كليلة ودمنة " وهو أشهر كتبه ، أتهم بالزندقة فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي (١٤٢هـ–٧٥٩م) انظر : أمراء البيان (٩٩–١٥٨) ، لسان الميزان (٣/٣٦٦) ، البداية والنهاية (١٠/٩٦) ، دائرة المعارف الإسلامية (١/٢٨٢) الأعلام (٤/١٤٠) .

(٢) سورة سيدنا هود – عليه السلام – ، بعض الآية (٤٤) .

(٣) هو : يحيى بن الحكم وليس ابن حكيم – البكري الجياني ، المعروف بالغزال ، شاعر مطبوع من أهل الأندلس ، امتاز نظمه الجيد الحسن بالفكاهة المستملحة – انظر : بغية الملتمس (٤٨٥) ، نفخ الطيب (١/٤٤٩) ، المطرب من أشعار أهل المغرب (١٣٣–١٥١) ، الأعلام (٨/١٨٤) .

(٤) السيوطي : معترك الأقران (١/١٨٣–١٨٤) وهذا قريب من معنى الصرفة التي يدعيها النظام من المعتزلة .

(٥) إعجاز القرآن (ص٢٥١–٢٥٢) ، وانظر : الاتقان (٢/١١٨–١١٩) .

تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن "[١]

ثانياً : أن أساليب القرآن المختارة للدلالة على المعاني المرادة هي أروع الأساليب وأجملها ، وأكملها وأحكمها ، وفي القمة من الإبداع وجمال التصوير ، فلا يستطيع أحد أن يداني " صورة نظمه العجيب " والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه ، ووقفت عليه مقاطع آياته ، وانتهت إليه فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعـــده نظير له "[٢] فهو خارج بفصاحته وبلاغته عن جنس كلام العرب من النظم والنثر ، والخطب والشعر ، أقول إنه خـــارج خروج تفوق على ما ألفوه من فنون التعبير ، وأساليب الكلم ، مع كون حروفه في كلامهم ، ومعانيه في خطابهم ، وألفاظـــه في حروفهم ، لكنه بذاته قبيل غير قبيل كلامهم ، ورتبة أخرى متميزة عن رتب خطابهم ، فهو الأسلوب المعجز للثقلين أجمعين ، الجامع بين " صفتي الجزالة والعذوبة ، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالباً في كلام البشر "[٣] ، إنه يكاد يكون إجماع بين علماء الإسلام على سمو الأسلوب القرآني ، ورفعة منزلته فوق كل أسلوب ، ولذلك وجدنا علماء السنة ، والأشاعرة ، والمعتزلة ، لا يشذ أحد منهم عن الإقرار بهذا ، يقول الرماني (من شيوخ المعتزلة) : "" وأما نقض العادة : فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ، منها : الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومـــنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة "[٤] .

ثالـــثاً : أن المعاني القرآنية المرادة ، في مقام الذورة أيضاً من الإبداع والجمال والكمال ، والمطابقة لحال مهمة الرسالة ، مـــع الصـــدق فيها ، وموافقة الحق والواقع ، واستيفائها لكل ما يضمن المصلحة العامة والخاصة ، ويحقق السعادة لجميع الـــناس ، أفـــراداً وجماعات ، وشعوباً وحكومات . قال تعالى : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[٥] وقال تعالى : (إن هذا القرءآن يهدي للتي هي أقوم...)[٦] وقـــال عز من قائل : (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)[٧] وقال عز شأنه وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً يهدي به من نشآء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)[٨] .

ولـــنأتي هـــنا بمثال واحد يدل على كمال المعاني التي يتضمنها الأسلوب القرآني ، وشرفها وعلو منزلتها بما لا

---

(١) السيوطي : معترك الأقران (٢٣/١) ، الاتقان (١٢٢/٢) ، وانظر : القاضي عياض : الشفا (٣٥٨/١) .

(٢) معترك الأقران (٢٣/١) ، الاتقان (١٢٢/٢) ، انظر الشفا (٣٦٩/١) .

(٣) الاتقان (١٢٢/١) .

(٤) النكت في إعجاز القرآن (ص١١١) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، وانظر : الاتقان (١٢٢/٢) .

(٥) سورة المائدة الآيتان (١٥-١٦) .

(٦) سورة الإسراء ، بعض الآية (٩) .

(٧) سورة البقرة الآيتان (١،٢) .

(٨) سورة الشورى الآية (٥٢) .

يدانيه كلام آخر ، قال السيوطي في قوله تعالى : (...ولكم في القصاص حياة...)[١] قال : " معناه كثير ، ولفظه يسير ، لأن معناه أن الانسان إذا علم أنه متى قَتَل به ، كان ذلك داعياً إلى ألا يُقدم على القتل ، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص ، كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ، وكان ارتفاع القتل حياة لهم "[٢] فهذا ما تتضمنه هذه اللفظة الوجيزة من معنى شريف وهذا على سبيل الإجمال ، وللعلماء بإعمال فكرهم ، وتدبر نظرهم في هاتين الكلمتين : (القصاص حياة) لمحوا فضلهما عما كان مثلاً سائراً بين العرب وهو قولهم : " القتل أنفى للقتل" بنحو عشرين وجهاً ذكرها السيوطي بقوله : " وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى ، وهو قولهم : " القتل أنفى للقتل " بعشرين وجهاً أو أكثر "[٣] وأنا أجتزئ منها عشرة :

__أولها :__ أن العبارة القرآنية أقل حروفاً ، فإن حروفها عشرة ، وحروف : القتل أنفى للقتل – أربعة عشر – .

__ثانيها :__ أن نفي القتل لا يستلزم الحياة ، والآية ناصة على ثبوتها ، التي هي الغرض المطلوب منه .

__ثالثها :__ أن تنكير " حياة " تفيد تعظيماً فتدل على أن القصاص فيه حياة متطاولة ، والمثل ليس كذلك .

__رابعها :__ أن الآية مطردة بخلاف المثل ، فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل ، بل قد يكون أدعى له وهو القتل ظلماً وإنما ينفيه قتل خاص ، وهو القصاص ، ففيه حياة أبداً .

__خامسها :__ أن الآية مستغنية عن تقدير محذوف بخلاف قولهم ، فإن فيه حذف " من " التي بعد أفعل التفضيل وما بعدها ، وحذف " قصاصاً " مع القتل الأول ، وحذف " ظلماً " مع القتل الثاني ، والتقدير : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً من تركه .

__سادسها :__ أن الآية اشتملت على فن من البديع ، وهو جعل أحد الضدين الذي هو الفناء والموت محلاً ومكاناً لضده وهو الحياة ، واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة فكأنه جعل القصاص كالمنبع للحياة والمعدن لها بإدخال " في " عليه .

__سابعها :__ أن في الآية طباقاً ، لأن القصاص مشعر بضد الحياة ، بخلاف القتل .

__ثامنها :__ أن المثل كالمتناقض من حيث الظاهر، لأن الشئ لا ينفي نفسه.

__تاسعها :__ سلامة الآية من لفظ القتل المشعر بالوحشة ، بخلاف لفظ الحياة ، فإن الطباع أقبل له من لفظ القتل .

__عاشرها :__ أن لفظ القصاص مشعر بالمساواة ، فهو ينبئ عن العدل ، بخلاف مطلق القتل[٤] .

وذكر السيوطي وجوهاً أخرى آثرت الاقتصار على هذه العشرة اجتزاءاً بها عن بقيتها ، وهي كالمثال لغيرها .

فانظر إلى روعة الأسلوب القرآني الذي لا يضاهيه قول مخلوق كان أو يكون ، فهو بديع النظم ، عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه ، ولذلك قيل : " البلاغة ، إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة "[٥] .

---

(١) سورة البقرة ، بعض الآية (١٧٩) .

(٢) معترك الأقران (١/٢٢٧) .

(٣) معترك الأقران (١/٢٢٧) .

(٤) انظر هذه الوجوه وغيرها : السيوطي : معترك الأقران (١/٢٢٧-٢٣٠) .

(٥) الرماني : النكت في إعجاز القرآن (ص٧٥-٧٦) .

فبلاغة القرآن الكريم معجزة ، إنما تتناول اللفظ والمعنى معاً ، إذ لا يتصور أن ينفك المعنى المعجز عن لفظ يحمله هو معجز أيضاً ، لأن الألفاظ هي ظروف المعاني التي تحملها وتحتويها ، فإذا كانت الألفاظ فصيحة جزلة ، وجب أن يتضمن ترتيبها وتأليفها بنظمها وضم بعضها إلى بعض معاني سامية هي تكميل لوجه إعجازها .

يقول الباقلاني : " ...فإن ادعى إعجازها لألفاظها ، ونظمها وتأليفها ، فإني لا أدفع ذلك ، وأصححه "[١] .

على أن الإمام عبدالقاهر الجرجاني يرى أن الإعجاز لا يتعلق بالكلم المفرد ، بل يتعلق بالتراكيب والنظم الذي ينتج معنى معجزاً ، إذ أنه لو قيل إن الكلمات المفردة التي هي أوضاع اللغة هي التي يتعلق بها الإعجاز لزم أن يكون قد حدث لها وصف لم يكن موجوداً قبل نزول القرآن أوجب لها ذلك الإعجاز ، وهذا محال ، فلا يجوز أن يكون ذلك الوصف في الألفاظ المفردة التي هي بوضع اللغة لأنه يؤدي إلى أن يكون هذا الوصف قد تجدد في معنى الحمد ، الرب ، ومعنى العالمين ، والملك ، واليوم ، والدين ، وهذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن ، وهذا إن كان صحيحاً لم يكن شئ أبعد من المحال منه[٢] .

ويؤكد الشيخ عبدالقاهر على هذا في موضع آخر فيقول : (إن الفصاحة ، والبلاغة ، وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني ، وإلى ما يُدَل عليه بالألفاظ دون اللفاظ أنفسها "[٣] ويذهب يدلل الشيخ عبدالقاهر على هذا فيذكر أن المعارضة لا يتصور حصولها في الألفاظ ، لأن من جاء بلفظ فوضعه مكان لفظ آخر نحو : أن يقول بدل " أسد " " ليث " ، وبدل " بَعُد " " نأى" ، وبدل " قرُب" " دنا " ، لم تكن هذه المعارضة ، والإلكان كل تفسير للألفاظ هو معارضة لها ، وعلى هذا فينبغي أن يُصار إلى أن المعارضة ترجع إلى جهة معاني الكلام المعقولة ، دون الألفاظ المسموعة[٤] .

ولكني أقول : إنه لولا تميز اللفظ في مفرداته وتركيبه لما تميز المعنى على غيره ، فلو قيل : " زيد كالأسد " كان تشبيهاً لزيد بالأسد ، ولكن إن قيل : " زيد أسد " كان المعنى أبلغ في هذه العبارة الثانية منه في العبارة الأولى ، وإنما تغير المعنى تبعاً لتغير تركيب الكلام ، إذاً فالمعنى فرع عن تركيب اللفظ ، وما شرفت المعاني إلا بشرف بلاغة الألفاظ في تركيبها وترتيب بعضها على بعض .

وهكذا يقال في القرآن إن إعجازه في لفظه ، وفي معناه ولا يقال إن التحدي كان في المعنى دون اللفظ ، وإنما وقع التحدي كما هو معلوم على الإتيان بمثله ، لفظاً ومعنى ، وهذا هو الذي أعجز العرب ، ولذا كان القرآن الكريم بياناً ، وتبياناً لكل شئ ، قال تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان)[٥] لكن بيان الإنسان مما يليق به كمخلوق أما بيان الله تعالى على ما يليق به جل وعلا وهو الخالق سبحانه فقد وصف القرآن بأنه بيان قال تعالى : (...هذا بيان

---

(١) إعجاز القرآن (ص٣٤٤) .

(٢) انظر : دلائل الإعجاز (ص٢٤٨) .

(٣) دلائل الإعجاز (١٧٢-١٧٣) .

(٤) انظر : السابق نفسه .

(٥) سورة الرحمن الآيات (١،٢،٣) .

للناس...)[1] ووصفه بأنه تبيان لكل شئ فقال تعالى : (...ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة...)[2] وقال : (بلسان عربي مبين...)[3] فكرر في مواضع أنه مبين ، فالقرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه ، وطرقه وأبوابه ، من تعديل النظم وسلامته ، وحسنه وبهجته ، وحسن موقعه في السمع ، وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول ، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ، ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناءً ورفعة[4] .

فالكلام إذا علا في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتأثير في النفوس ، ما يذهل ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، ويطمع ويؤيس ، ويضحك ويبكي ، ويحزن ويفرح ، ويهز الأعطاف ، ويبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً ، وكلام الله حاز المنزلة العليا من هذه الأوصاف فقد عجز العرب عن معارضته لمزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظه ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز الفحول ، ونظاماً والتئاماً ، واتقاناً وإحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ منهم – ولو حك بنافوخه السماء – موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعي أو تقول ، وخلدت الأفهام فلم تملك أن تصول .

هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرتها هي أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وقد ذكر السيوطي وجوهاً أخر بلغت خمسة وثلاثين وجهاً ، فذكر من وجوه إعجازه : مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض ، وكذلك افتتاح السور وخواتمها وذكر فيها ما احتوى عليه القرآن في سوره من براعة الاستهلال ، وذكر كذلك من وجوه إعجازه وقوع ناسخه ومنسوخه ، وانقسامه إلى محكم ومتشابه ، وما احتواه من قراءات سبع متواترة ، وتقديم بعض ألفاظه وتأخيرها ، واحتواؤه على جميع لغات العرب ، وما فيه من عموم وخصوص ، وإجمال وتفصيل ، وما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، وأحوال القرون السالفة ، وتيسير الله تعالى حفظه وتلاوته ، ووقوع التشبيه والاستعارة ، والكناية والتعريض والإيجاز والاطناب ، ووقوع البدائع البليغة فيه من الالتفات والاستدراك ، وغيرها من بدائع الأسلوب ، وكذلك احتواؤه على الخبر والإنشاء ، والوعد والوعيد ، وغير ذلك مما ذكره السيوطي من وجوه إعجازه .

وقد اقتصرت على ذكر الوجوه الثلاثة الأولى تفصيلاً ، لأن البعض قد ينازع في كون الوجوه الأخرى وجوهاً للإعجاز ومثال ذلك أن يقال – مثلاً – : إن من وجوه إعجازه احتواؤه على الأخبار الغيبية المستقبلية وكذلك إخباره بأحوال

---

(١) سورة آل عمران ، بعض الآية (١٣٨) .
(٢) سورة النحل ، بعض الآية (٨٩) .
(٣) سورة الشعراء ، الآية (١٩٥) .
(٤) انظر : الباقلاني : إعجاز القرآن (ص٣٤٤-٣٤٥) .

الأمـم السابقة وأيامها الخالية مما أصبح في عداد الغيبات المنسية التي لا يمكن معرفتها إلا من طريق هذا القرآن العظيم ، ولا شـك أن هـذا وجه من وجوه إعجازه وأنه من عند الله تعالى وليس من كلام أحد من البشر ، ولكن ليست جميع آيات القرآن الكريم تخبر بمغيبات مستقبلية أو ماضية ، وبمقتضى ذلك يمكن لقائل أن يقول ليس القرآن كله معجزاً ، لأن بعض الآيات تتضمن هذه الأخبار ، وبعضها الآخر لا يتضمن شيئاً من ذلك ، فما تضمنها فهو معجز ، وما لم يتضمن شيئاً منها فهـو غيـره معجز ، مع أن المعلوم المجمع عليه أن القرآن كله معجز ، وكل آية فيه معجزة ، وكل سورة كذلك لأن الله تعـالى لمـا ذكر آيات التحدي لم يخصص شيئاً منه ، وإنما تحدى به كله أو بأي سورة منه ، ولم يعين سورة بعينها ، من أجـل هذا فصلت القول في الوجوه الثلاثة الأولى لأنها وجوه جامعة للقرآن كله ، والباقي لا يعدو كونه دلائل على أنه من عند الله تعالى ، لأن النبي الأمي - عليه الصلاة والسلام - ما كان ليدري شيئاً من هذه الغيوب إلا بإذن الله تعالى وإطلاعه عليها .

المطلب الثاني : أنه -ﷺ- خاتم النبـيين

قال السيوطي : " أرسل (الله) تعالى رسله مؤيدين منه بالمعجزات الباهرة ، أي الظاهرة ، وختم بهم[١] محمداً - صـلى الله عـليه وسلم -، كما قال تعالى : (...ولكن رسول الله وخاتم النبيين...)[٢] "[٣] خَتْمُ النبوة والرسالة بنبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وكذلك ختم الرسل والأنبياء به - عليهم جميعاً السلام - أمر مقرر بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

فلا نبي بعد نبينا ورسولنا سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا رسول ، ولا نبوة بعد نبوته ولا رسالة .

- أمـا بالقـرآن : فلقولـه تعـالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عـليماً)[٤] ففي هذه الآية الكريمة تصريح بخاتميته - صلى الله عليه وسلم - للأنبياء قبله ، فلا نبي بعده ولا رسول ، وهذا هو الذي فهمه أئمة المفسرين لكتاب الله تعالى من صدر الإسلام وحتى اليوم .

قـال ابن جرير : " يقول تعالى ذكره ما كان أيها الناس محمد أبا زيد بن حارثة ولا أبا أحد من رجالكم الذين لم يـلده محمد فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحـد بعده إلى قيام الساعة ، وكان الله بكل شئ من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك ذا علم لا يخفى عليه شئ "[٥] ثم روى عن قتادة في قوله تعالى : (وخاتم النبين) . أي آخرهم[٦] .

---

(١) هكذا العبارة عند السيوطي في رسالته : في علم التوحيد (مخطوط) لوحة رقم (٥) ، وصحة العبارة أن يقال : وختمهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لا أن يقال : ختم بهم محمداً - صلى الله عليه وسلم - .

(٢) سورة الأحزاب ، بعض الآية رقم (٤٠) .

(٣) رسالة في علم التوحيد ، لوحة رقم (٥) .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٤٠) .

(٥) جامع البيان (١٦/٢٢) .

(٦) جامع البيان (١٦/٢٢) وأورد هذا الأثر السيوطي في الدر المنثور (٢٠٤/٥) عن عبدالرزاق وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

وقال البغوي : " ختم الله به النبوة " وروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : " يريد - أي الله تعالى - لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابناً يكون بعده نبياً "(١) .

وقال الزمخشري : " يعني أنه لو كان له ولد بالغ فبلغ مبلغ الرجال لكان نبياً ، ولم يكن هو خاتم الأنبياء "(٢)

وقال ابن الجوزي : " من قرأ خاتم بكسر التاء فمعناه : وختم النبيين ، ومن فتحها فالمعنى آخر النبيين "(٣) ثم أورد كلام ابن عباس - رضي الله عنهما - الذي ذكره البغوي .

وقال القرطبي : " قال ابن عطية : هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفاً وسلفاً متلقاة بالقبول على العموم التام مقتضيه نصاً أنه لا نبي بعده - صلى الله عليه وسلم - "(٤) .

وقال ابن كثير : " فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بالطريقة الأولى والأحرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حديث جماعة من الصحابة - رضي الله عنه - " ثم ساق عدداً من الأحاديث(٥) وذكر المحلي في الجلالين أنه - صلى الله عليه وسلم - لا نبي بعده(٦) .

فهذه أقوال المفسرين ، مما نقلنا عنهم ، ومما لم ننقل لا يخرج كلامهم عن مثل هذا الذي نقلنا ، وكلهم متفقون على أن المراد بالآية ختم النبوة المحمدية ، وأن رسول الله محمد بن عبدالله هو آخر الأنبياء والمرسلين ، ولم يخالف أحد منهم في هذا .

<u>أما أدلة السنة :</u> في هذا فهي صريحة كذلك في تقرير ختم النبوة بنبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - من ذلك :

١- قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ...وإنه سيكون في أمتي كذابون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي "(٧) .

٢- في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إليه - صلى الله عليه وسلم - فيقولون : " أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك... "(٨) .

٣- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون "(٩) .

٤- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل

---

(١) الحسين بن مسعود الفراء البغوي : معالم التنزيل (٦/٥٦٥) .
(٢) محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف (٣/٢٣٩) .
(٣) أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي : زاد المسير (٦/٣٩٣) .
(٤) أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٩٦) .
(٥) أبو الفداء اسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩٣) .
(٦) تفسير الجلالين (٢/١١٠) .
(٧) سنن أبي داود (٤/١٣٨) ، سنن الترمذي (٦/٤٦٦) وقال الترمذي : حديث صحيح ، وسند أحمد (٥/٢٧٨) وله أصل في صحيح مسلم (٤/٢٢١٥) وابن ماجة (٢/١٣٠٤) .
(٨) متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " (٦/١٠٦) ، ومسلم في صحيحه (١/١٨٤) .
(٩) البخاري في " صحيحه " (٥/٢٠٦) ، ومسلم في صحيحه (٣/١٤٧١) ، وأحمد في المسند (٢/٢٩٧) ، وابن ماجة في سننه (٢/٩٥٨) .

رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين "(١) .

وأما الإجماع : فقد أجمع الصحابة – رضي الله عنهم – على قتال المتنبئين بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – وسيروا الجيوش إلى قتالهم ، كما فعلوا مع مسيلمة وغيره ، ولو كانوا غير معتقدين بختم النبوة وانتهائها بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما تعجلوا في ذلك ولطالبوا المتنبئين بالدليل على دعواهم تلك ، ولكنهم لم يفعلوا لأنهم يعلمون علم اليقين أنه لا نبي بعد محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

وقد ذكر البغدادي أسباب تكفير بني حنيفة وبني أسد وأن من ذلك دعواهم نبوة مسيلمة وطليحة فقال : " فأما المرتدون من بني حنيفة وبني أسد فإنهم كفروا من وجهين : أحدهما : اسقاط وجوب الزكاة ، والثاني : دعواهم نبوة مسيلمة وطليحة "(٢) .

كما حكى البغدادي أيضاً إجماع علماء المسلمين على أن آخر الأنبياء هو رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – . فقال : " أجمع المسلمون وأهل الكتاب على أن أول من أرسل من الناس آدم – عليه السلام – وآخرهم عند المسلمين محمد – صلى الله عليه وسلم – "(٣) وقال أيضاً: " كل من أقر بنبوة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – أقر بأنه خاتم الأنبياء والرسل ، وأقر بتأبيد شريعته ، ومنع من نسخها "(٤) .

وهذا يبين مدى رسوخ هذه العقيدة في نفوس المسلمين من صدر الإسلام وعلى مدار التاريخ وحتى الآن ، ولا يزال علماؤنا يؤكدون هذه العقيدة ، ويتصدون لمن يخالفها ، مما جعلها أمراً مجمعاً عليه ، ولا يسع أحداً الخروج عليه .
كما أكد على هذا الإجماع القاضي عياض(٥) ، والغزالي أبو حامد(٦) ، وهو مقتضى كلام أبي عبدالله القرطبي(٧) وغيره .

وإذا ذهبنا نستقصي كلام علماء أمة الإسلام في تقرير هذه العقيدة لطال بنا البحث وخرج عن مقصوده ، والذي يهمنا أن الجلال السيوطي واحد من هؤلاء العلماء الذين قد انعقد بهم الإجماع على عقيدة ختم النبوة بنبوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – .

المبحث الثاني : خصائصه – ﷺ –

لقد اختص الله تعالى نبيه ورسوله – محمداً – صلى الله عليه وسلم – بخصائص عظيمة باهرة ، مشرقة إشراق البدور السافرة ، امتن سبحانه وتعالى عليه بها ، واختصه دون الأنبياء والمرسلين ، تفضيلاً وإكراماً ، وتبجيلاً وإعظاماً ، حتى كان إمام المتقين ، وسيد المرسلين ، فهو إمامهم إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، صلوات الله تعالى عليه وعلى آله

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " (٤/٢٢٦) ، ومسلم في " صحيحه " (٤/١٧٩٠) ، وأحمد في " المسند " (٢/٢٩٨) ، والحميدي في " مسنده " (٢/٤٤٨) .
(٢) الفرق بين الفرق (ص٢٣١) .
(٣) أصول الدين (ص١٥٩) ، والفرق بين الفرق (ص٣٣٢) .
(٤) أصول الدين (ص١٦٢) .
(٥) انظر : الشفا (٢/٢٧١) .
(٦) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٢٢٥) .
(٧) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٩٦) .

وصحبه، وأنصاره وحزبه، والتابعين من تبعهم إلى يوم الدين .

والسيوطي صنف مصنفاً ضخماً في خصائصه - صلى الله عليه وسلم - سماه " الخصائص الكبرى " أو " كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب "(١) ،جمع فيه كثيراً من الأخبار فيها الصحيح والضعيف والموضوع ، ولسوف اقتصر هنا على بعض ما صح نقله في هذا الكتاب .

فمن هذه الخصائص :

الأولى : أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا به(٢) :

قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)(٣) ورد في تفسير هذه الآية الكريمة :

١- أن علياً وابن عباس قالا : لم يبعث الله عز وجل نبياً ، آدم فما بعده ، إلا أخذ عليه العهد في محمد ، لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، فقال : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة...)(٤) الآية(٥) .

٢- وعن قتادة قال : " هذا ميثاق أخذه الله على النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى قومهم ، وأخذعليهم فيما بلغتهم رسلهم أن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويصدقوه وينصروه "(٦) .

٣- وعن السُدَّي قال : " لم يبعث الله عز وجل نبياً قط من لدن نوح إلا أخذ ميثاقه ليؤمنن بمحمد ولينصرنه إن خرج وهو حي ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به ، ولينصرنه إن خرج وهم أحياء "(٧) .

قال السيوطي : " واذكر (إذ) حين (أخذ الله ميثاق النبيين) عهدهم (لما) بفتح اللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق ، وكسرها متعلقة بأخذ وما موصولة على الوجهين أي الذي (آتيتكم) إياه ، وفي قراءة آتيناكم (من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) من الكتاب والحكمة وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - (لتؤمنن به ولتنصرنه) جواب القسم إن أدركتموه وأممهم تبع لهم في ذلك (قال) تعالى لهم (أأقررتم) بذلك (وأخذتم) قبلتم (على ذلكم إصري) عهدي (قالوا أقررنا قال فاشهدوا) على أنفسكم وأتباعكم بذلك (وأنا معكم من الشاهدين)

---

(١) حققه فضيلة الشيخ الدكتور - محمد خليل هراس - رحمه الله - ونشره دار الكتب الحديثة بالقاهرة - مصر ، بدون طبعة ولا تاريخ .
(٢) انظر : الخصائص الكبرى (٢٢/١) .
(٣) سورة آل عمران الآية (٨١) .
(٤) ابن جرير : جامع البيان (٣٣٢/٣) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥٦/٢) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٨٠/٤-٨١)، والسيوطي : الدر المنثور (٢٥٢/٢-٢٥٣) .
(٥) سورة آل عمران ، بعض الآية (٨١) .
(٦) ابن جرير : جامع البيان (٣٣٣/٣) ، والسيوطي : الدر المنثور (٢٥٣/٣) .
(٧) ابن جرير : جامع البيان (٣٣٢/٣) ، والسيوطي : الدر المنثور (٢٥٣/٣) ، والخصائص الكبرى (٢٢/١) .

عليكم وعليهم "[١] .

وهـذا الـذي ذكرته في الآية أحد وجهي تفسيرها والوجه الثاني : أن المقصود بالآية : أن الله تعالى أخذ الميثاق علـى الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً ويأمر بعضهم بالأيمان بعضاً ، فذلك معنى النصرة بالتصديق ، وهذا قول سعيد بن جـبير ، وطـاووس ، والحسـن ، وروى عن قتادة والسَّدِّي[٢] قال القرطبي : " وهو ظاهر الآية ، قال طاووس : أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر "[٣] .

الثانية : عموم بعثته إلى جميع الإنس والجن :

حكى السيوطي الإجماع على أنه – صلى الله عليه وسلم – مبعوث إلى جميع الإنس والجن[٤] .

ولذلـك فلا يشك عاقل أنه من بدهيات الإسلام أن رسول الله محمداً – صلى الله عليه وسلم – أرسل للناس كافة أحمـرهم وأبيضـهم وأسـودهم ، وليـس لطائفة معينة منهم أو لجنس خاص من أجناسهم ، يدل لذلك قوله تعالى : (وما أرسـلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً...)[٥] وقوله تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً...)[٦] والدلالة فـي هـاتين الآيتين صريحة في اختصاصه – صلى الله عليه وسلم – بإرساله إلى عموم البشر ، وأنه – صلى الله عليه وسـلم – رسـول الله إلى الناس جميعاً ، وكما أنه رسول الله إلى جميع الناس في عصره ، فهو كذلك رسوله المرسل إلى جميع الناس في جميع العصور والأزمان من بعده ، قال تعالى : (وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ...)[٧] فكل مـن بلغه هذا الكتاب العظيم فهو مطالب بالإيمان بمحمد – صلى الله عليه وسلم – وبكتابه وبدينه وشريعته[٨] ، فيجب على كل أحد الإيمان به واتباعه وحبه وتعظيمه وتوقيره ، والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه حتى يفوز بخيري الدنيا والآخرة .

وقد وردت أحاديثه – صلى الله عليه وسلم – تؤيد عمومية بعثته إلى جميع البشر فمن ذلك قوله – صلى الله عليه وسـلم – : " ...وكـان النـبي يـبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة "[٩] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ...وأرسلتُ إلى الخلق كافة وختم بي النبيون "[١٠] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ...وبعثتُ إلى الأحمر والأسود "[١١]

---

(١) الجلالين (ص٧٠) .
(٢) انظر: القرطبي الجامع لأحكام القرآن (٤/٨٠)، ابن جرير: جامع البيان (٣/٣٣١-٣٣٢) السيوطي : الدر المنثور (٣/٢٥٢) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/٨٠) .
(٤) انظر : الخصائص (٣/١٣٧) .
(٥) سورة سبأ ، بعض الآية (٢٨) .
(٦) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٥٨) .
(٧) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٩) .
(٨) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣/٢٤٠) .
(٩) رواه البخاري في " صحيحه " (١/٩١) ، والنسائي في " سننه " (١/٢٠٩) ، والدارمي في " سننه " (١/٣٢٢) .
(١٠) رواه مسلم في " صحيحه " (١/٣٧١) ، وأحمد في " المسند " (٢/٤١٢) .
(١١) رواه الإمام أحمد في " المسند " (٥/١٤٥) وقال في مجمع الزوائد (٨/٢٥٩) رجاله رجال الصحيح ، وأبو داود الطيالسي في " مسنده " بترتيب البنا المسمى بمنحة المعبود (٢/١٢٢) .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ...أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم... "(١) .

فهذه الأحاديث تدل على عموم بعثته – صلى الله عليه وسلم – لكافة الناس ، من غير استثناء أو تقييد بزمن دون زمـن ، ممـا يؤكد أن المراد بذلك العموم ، هو عموم مكاني بحيث لا يخرج عنه مكان في الأرض كلها ، وعموم زماني كذلك بحيث يمتد منذ وجوده – صلى الله عليه وسلم – إلى قيام الساعة ، وهذه خصوصية من خصائصه – ﷺ –

الثالثة : أنه رحمة للعالمين :

كـان إرسـاله – صـلى الله عليه وسلم – رحمة للعالمين ، وهذا صريح قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(٢) .

قـال السيوطي : " اختصاصه – صلى الله عليه وسلم – بأنه بعث رحمة للعالمين حتى الكفار بتأخير العذاب ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة "(٣) .

وورد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين ، قال : " إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة "(٤) .

قـال ابـن كـثير : " فإن قيل : فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر ابن جرير : حدثنا اسـحاق بن شاهين ، حدثنا اسحاق الأزرق ، عن المسعودي ، عن رجل يقال له : سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قـال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف "(٥) .

الرابعة : أنه – صلى الله عليه وسلم – أكثر الأنبياء تابعاً :

لما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أوتي جوامع الكلم من القرآن والسنة ، وكانت صحبة قوية دامغة ، وبـرهانه سـاطعاً كثر أتباعه والمؤمنون به ليتقنهم من صدقه وأمانته ، وأنه رسول مرسل بالحق من قبل الله جل وعلا ولذلك قال – صلى الله عليه وسلم – : " ما من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته

---

(١) رواه أحمـد في " المسند " (٢٥٦/٥) وقال الهيثمي : رجاله ثقات (٣٦٧/١٠) من مجمع الزوائد ، وقال أحمد شاكر : " اسناده صحيح " ، (١٣/ ٢٦) من المسند بتحقيقه .

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

(٣) الخصائص (١٣٧/٣) .

(٤) انفرد بإخراجه مسلم في " صحيحه " كتاب البر ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٠٠٦/٤) رقم (٨٧) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٨٠/٥) .

(٥) تفسـير القـرآن العظيم (٣٨٢/٥) ، وابن جرير : جامع البيان (١٠٦/١٧) قال ابن كثير : " وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عـن ابـي سعد وهو سعيد بن المرزُبان البقال عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فذكر بنحوه ، والله أعلم ، وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عـبدان بن أحمد عن عيسى بن يونس الرملي ، عن أيوب بن سويد ، عن المسعودي ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف " انظر تفسير القرآن العظيم (٣٨٢/٥) .

وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "[١] قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : " قوله : فأرجو أن أكثرهم تابعاً يوم القيامة) رتب هذا الكلام على ما تقدم من معجزة القرآن المستمرة لكثرة فائدته ، وعموم نفعه ، لاشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون ، فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد ، فحسن ترتيب الرجوى المذكورة على ذلك وهذه الرجوى قد تحققت ، فإنه أكثر الأنبياء تبعاً "[٢] .

وقد صح عنه - صلى الله عليه وسلم - أيضاً أنه قال : " أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً "[٣] وقال أيضاً : " أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة "[٤] وكونه - صلى الله عليه وسلم - أول من يقرع باب الجنة هي خصوصية أخرى له - صلى الله عليه وسلم - .

الخامسة : أنه أعطى خمساً لم يعطهن نبي قبله[٥] :

خصه الله تعالى بخمسة أشياء لم يعطها لأحد من الأنبياء السابقين وردت في قوله - صلى الله عليه وسلم - " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة "[٦] فهذه رواية البخاري ، وأما رواية مسلم فهي من حديث أبي هريرة مرفوعاً : " فضلت على الأنبياء بست ... " فذكر أربعاً من هذه الخمس ، وزاد اثنتين ، وهما قوله : " أعطيت جوامع الكلم ، وختم بي النبيون " فأما ختم النبيين بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد سبق الحديث عنه في المطلب الثاني من المبحث الأول من هذا الفصل ، وأما جوامع الكلم فهي أيضاً من خصائصه - صلى الله عليه وسلم - ، وردت في أحاديث أخر رواها البخاري[٧] ومسلم[٨] وغيرهما[٩] وفي قوله - صلى الله عليه وسلم - : " نصرت بالرعب مسيرة شهر " هو بأن يقذف الله تعالى الرعب في قلوب أعدائه قبل أن يأتي إليهم أو يأتوا إليه بمدة شهر[١٠] ، قال ابن حجر - رحمه الله - : " وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى لو كان وحده بغير عسكر ، وهل هي حاصلة لأمته من بعده ؟ فيه احتمال "[١١]

(١) متفق عليه ، سبق تخريجه في الكلام على معجزة القرآن .

(٢) فتح الباري (٧/٩) .

(٣) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٨/١) كتاب الإيمان (١) باب (٨٥) ح رقم (٣٣٠) .

(٤) نفسه .

(٥) انظر الخصائص (١٣٤،١٥٣،١٥٤،١٥٦،١٦١/٣) .

(٦) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب التيمم (٧) باب (١) رقم (٣٣٥)، الفتح (٤٣٥،٤٣٦/١) كتاب الصلاة (٨) باب (٥٦) رقم (٤٣٨) الفتح (٥٣٣/١) ورواه مسلم في "صحيحه"(٣٧٠/١) كتاب المساجد (٥) رقم (٣) على اختلاف في الترتيب بينه وبين رواية البخاري ، وقال ابن حجر في الفتح " مدار هذا الحديث على هشيم بهذا الاسناد وله شواهد من حديث ابن عباس وأبي موسى وأبي ذر من رواية عمر وبن شعيب عن أبيه عن جده رواها كلها أحمد بأسانيد حسان " الفتح (٤٣٦/١) .

(٧) الحديث رقم (٢٩٧٧) و (٦٩٩٨) و (٧٠١٣) .

(٨) الحديث رقم (٥٢٣) .

(٩) رواه أيضاً الإمام أحمد في " مسنده " (٢٥٠،٢٦٤/٢) ، والترمذي رقم (١٥٥٣) ، والنسائي (٣/٦-٤) .

(١٠) انظر : ابن حجر : الفتح (٤٣٧/١) .

(١١) نفسه .

- وقد جعل الله تعالى له - صلى الله عليه وسلم - الأرض كلها مسجداً يصلي هو وأمته حيث أدركتهم الصلاة ، وكانت الأمم قبلنا لا يصلون إلا في أماكن مخصوصة كالبيع والصوامع وكذلك جعل له تربتها طهوراً ، أي مطهراً لغيره ، بمعنى أنه يرفع الحدث عند عدم الماء ، أي بالتيمم ، كما ورد في حديث حذيفة - رضي الله عنه - : " وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء "(١) .

- وأما الغنائم فقد أحلت له - صلى الله عليه وسلم - ولأمته من بعده ، ولم يكن ذلك لأحد من قبله ، وقد كان الأمم المتقدمة على ضربين : منهم لم يؤذن له في الجهاد فلم تكن لهم غنائم ، ومنهم من أذن له فيه لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحل لهم أن يأكلوه ، وجاءت نار فأحرقته(٢) .

- وأما الشفاعة ، فالمقصود بها الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف ولا خلاف في وقوعها ، جزم بذلك غير واحد من العلماء(٣) .

ورد حديث الشفاعة العظمى من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون بمن ؟ ، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويُسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس : أبوكم آدم . فيأتونه ، فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيت . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح... " الحديث(٤) وفيه أنهم يذهبون إلى نوح - عليه السلام - ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى يأتون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فيسجد تحت العرش فيقال له : يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع ، وسل تعطه ، وهذه الشفاعة كما هو واضح من نص الحديث أنها خصوصية من خصائصه - عليه الصلاة والسلام - كما ذكر السيوطي(٥) وابن خزيمة(٦) وغيرهما .

السادسة : أن كتابه معجز :

اختص الله تعالى نبيه وحبيبه محمداً بالكتاب العزيز ، القرآن الكريم الذي أعجز الانس والجن أن يأتوا بمثله فهو كتاب معجز ، محفوظ من التبديل والتحريف على مر الدهور ، جامع لكل ما يحتاجه البشر من الهداية والارشاد والتشريع (

---

(١) رواه مسلم في " صحيحه " (٣٧١/١) كتاب المساجد (٥) رقم (٤) .
(٢) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٣٨/١) .
(٣) انظر : فتح الباري (٤٣٨/١) .
(٤) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٣) رقم (٣٣٤٠) الفتح (٣٧١/٦) كتاب التفسير (٦٥) باب (٥) رقم (٤٧١٢) الفتح (٨/ ٣٩٥) ، ورواه مسلم في "صحيحه" (١٨٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٨٤) رقم (٣٢٧) ، والترمذي (٦٢٢/٤) ، وأحمد (٤٣٥/٢) .
(٥) انظر : الخصائص (٢٢٣/٣) .
(٦) التوحيد (٥٨٩/٢-٥٩٦) .

وتمـــت كلمة ربك صدقاً وعدلاً...)[١] أي صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام ، وأنه كتاب مستغن عن غيره ، ميسر لــلحفظ والذكر ، نزل منجماً عل سبعة أحرف[٢]، وقد تعهد الله تعالى بحفظه ، وأخبر أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد تكلمنا عن إعجاز القرآن فيما مضى في بحث المعجزات .

السابعة : اختصاصه بالفاتحة وخواتيم سورة البقرة :

ورد في الحديث الصحيح أن الله تعالى آتاه – صلى الله عليه وسلم – سورة الفاتحة ، وخواتيم سورة البقرة ، ولم يؤتها أحداً من الأنبياء قبل كما روى أنهما من كنز تحت العرش[٣] .

أورد الســـيوطي في ذلك حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : بينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعـــنده جبريل إذ سمع نقيضاً[٤] فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : " هذا باب قد فتح من السماء ، ما فتح قط ، قال فنزل منه ملك ، فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : أبشر بنورين قد أوتيتها لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته "[٥] .

وعـــن عقبة بن عامر الجهني قال : قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيتها من تحت العرش "[٦] .

ويـــدل عـــلى خصوصيته بهما ما ورد في حديث حذيفة وفيه : " ... لم يعطها أحد قبلي ، ولا يعطاها أحد بعدي "[٧] ،وكذلك في حديث ابن عباس .

الثامنة : اختصاصه بليلة القدر :

ذكـــر السيوطي أن ليلة القدر مما اختص الله تعالى به نبيه – صلى الله عليه وسلم[٣] – بل نقل الإجماع على هذا عن بعض العلماء ، فقد نقل عن الإمام النووي – رحمه الله قال : " ليلة القدر مختصة بهذه الأمة زادها الله تعالى شرفاً ، لم تكن لمن قبلنا ، قال مالك في الموطأ : بلغني أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أرى أعمال الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك ، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغه غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً مـــن ألف شهر "[٨] قال السيوطي : " وله شواهد بينتها في التفسير المسند "[١] قال الحافظ ابن كثير : وهذا الذي قاله مالك

(١) سورة الأنعام ، بعض الآية (١١٥) .
(٢) انظر : الخصائص (١٢٧/٣) .
(٣) انظر : الخصائص (١٣٣/٣، ١٦٦) .
(٤) النقيض : الصوت .
(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (٥٥٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٤٣) رقم (٢٥٤) ، والنسائي في " سننه " كتاب الصلاة (١) ، أحمد في " المسند " (٤٢٢/١، ٣٨٧) ، (١٨٠/٥، ١٥١) .
(٦) أحمـــد في " مسنده " (١٤٧/٤) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٠٦/١) ثم قال : " هذا إسناد حسن ، ولم يخرجوه في كتبهم " وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (١٣٧/٢) إلى أبي عبيد ، ومحمد بن نصر ، وأورده أيضاً في الخصائص (١٦٦/٣، ١٣٣) .
(٧) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٠٦/١) .
(٨) الخصائص الكبرى (١٩٢/٣-١٩٣) .

يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب " العُدة " أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء فالله أعلم ، وحكى الخطـابي عليه الإجماع "[١] وفي هذا الإجماع الذي حكاه الخطابي - رحمه الله - نظر ، فقد ذكر ابن كثير خلافاً في هذه الخصوصـية ، وما حكاه صاحب " العُدة "من أن الجمهور على القول بالخصوصية دليل على وجود المخالف ، ولذلك قال ابـن كـثير ك " اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة ، أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين ... والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضيين كما هي في أمتنا "[٢] .

التاسعة : اختصاصه - صلى الله عليه وسلم - بالإسراء :

قـال تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتـنا إنـه هو السميع البصير)[٣] هذه الآية الكريمة صريحة في وقوع الإسراء لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - بجسـده وروحـه الشريفين ، يقظة لا مناماً ، فقد ابتدئت بكلمة (سحان) التي تدل على أن ما بعدها أمر عجيب الشأن ، والإسراء بالروح وحدها أمر عادي لا عجب فيه ثم قال تعالى : (أسرى بعبده) والإسراء السير ليلاً ، والعبد اسم للشخص الذي هو مجموع الروح والجسد ، ولو كان الإسراء بالروح فقط لقال تعالى : روح عبدنا ، ثم قال جل وعلا : (لنريه من آياتـنا) ليـدل على أنه لا بد أن تكون الرؤية بصرية ، فإن الرؤيا في النوم تقع لكل أحد فلا تظهر فيها خصوصية له - صـلى الله عـليه وسـلم - وعلى هذا فالإيمان بالإسراء واجب ، وأما المعراج وهو الرحلة السماوية فهي ثابتة بالأحاديث الصحيحة التي يفيد مجموعها التواتر وتدل عليه كذلك الآيات من أور سورة النجم .

قال السيوطي : " أعلم أن الإسراء ورد مطولاً ومختصراً من حديث :

"- أنس . - وأبي بن كعب .
- وبريدة . - وجابر بن عبدالله .
- وحذيفة بن اليمان . - وسمرة بن جندب .
- وسهل بن سعد . - وشداد بن أوس .
- وصهيب . - وابن عباس .
- وابن عمر . - وابن عمرو .
- وابن مسعود . - وعبدالله بن أسعد بن زرارة .
- وعبدالرحمن بن قرط . - وعلي بن أبي طالب .
- وعمر بن الخطاب . - ومالك بن صعصعة .
- وأبي أمامة . - وأبي أيوب الأنصاري .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٦٦/٨) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٦٦/٨) .
(٣) سوورة الاسراء الآية (١) .

- وأبي ذر .　　　　　- وأبي سعيد الخذري .

- وأبي سفيان بن حرب .　　　　　- وأبي ليلى الأنصاري .

- وأبي هريرة .　　　　　- وعائشة .

- وأسماء ، بنتي أبي بكر .　　　　　- وأم هانئ .

- وأم سلمة - رضي الله عنهم جمعياً - "[١] .

ثـم أورد السـيوطي أحـاديث هؤلاء الصحابة جميعاً ، ومنها ما هو في الصحيحين ، ومنها ما هو في أحدهما ، وبقيتها في كتب السنن والمسانيد ، وأنا أورد هنا بعض ما صح من هذه الأحاديث لإثبات المطلوب وهو بيان خصوصيته - صلى الله عليه وسلم - بهذه المنقبة العظيمة .

١- حديث أنس - رضي الله عنه - :

- روى مسـلم من طريق ثابت البناني عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " أتيت بالـبراق[٢] (وهو دابةٌ أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتها طرفه) قال ، فركبته حتى أتيت بيت المقـدس[٣] . قـال ، فربطته بالحلقة[٤] التي يربط به الأنبياء . قال ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين . ثم خرجت . فجـاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ . فاخترت اللبن . فقال جبريل - صلى الله عليه وسلم - اخترت الفطرة[٥] " الحديث[٦] .

وهذا القدر من الحديث يثبت إسراء النبي - صلى الله عليه وسلم - كما هو واضح وهو حديث طويل وبقيته تثبت معراجه عليه الصلاة والسلام إلى السموات العلى ، فبعد هذا القدر المذكور بقول : " ثم عَرَجَ بنا إلى السماء... " إلخ .

وأخرجه البخاري وابن جرير من طريق شريك بن عبدالله ابن أبي نَمِر عن أنس قال : " ليلة أُسرِيَ برسول الله - صـلى الله عـليه وسلم - من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفرٍ قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم : أيُّهـم هـو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال أحدهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يـرى قلبُه وتنام عينه ولا ينام قلبُه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر

---

(١) الخصائص الكرى (٣٧٨/١) .

(٢) " أتيت بالبراق " قال أهل اللغة : البراق اسم الدابة التي ركبها - صلى الله عليه وسلم - ليلة الإسراء .

(٣) "بيـت المقدس " قال ابو علي الفارسي : لا يخلو إما أن يكون مصدراً أو مكاناً . فإن كان مصدراً كان كقوله تعالى : إليه مرجعكم ، ونحوه من المصادر . وإن كان مكاناً فمعناه بيت المكان الذي جعل فيه الطهارة . أو بيت مكان الطهارة . وتطهير إخلاؤه من الأصنام وإبعاده منها .

(٤) " فربطته بالحلقة " قال صاحب التحرير : المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس .

(٥) " اخترت الفطرة " فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة . ومعناه ، والله أعلم ، اخترت علامة الإسلام والاستقامة . وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً سائغاً للشاربين ، سليم العاقبة . وأما الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع من الشر في الحال والمال .

(٦) رواه مسـلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٧٤) رقم {٢٥٩-(١٦٢)} انظر (١٤٥/١) ، ورواه الإمام أحمد في " المسند " بهذا السياق (١٤٨،٢٨٦/٣) ، قال : حدثنا حسن ابن موسى ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا ثابت البناني عن أنس ابن مالك ... الحديث .

زمـــزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطستٍ من ذهب فيه تور من ذهب محشواً إيماناً وحكمةً ، فحشا به صدره ولغاديده – يعني عروق حلقه – ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء " الحديث[١] .

٢- حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – :

– عــن جابـــر بن عبدالله – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر إليه "[٢] .

٣- حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – :

قال : " لما أسرى برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فانتهى إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يُعرج بـــه... "[٣].

٤- حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – :

قـــال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكُرِبتُ كرباً ما كُربتُ مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شئ إلا أنبأتهم به "[٤] .

العاشرة : أنه سيد ولد آدم – عليه السلام – و أول من تنشق عنه الأرض وأول من يجيز على الصراط:

عـــد ذلك السيوطي من خصائصه[٥] ، وهو كذلك دليله قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع "[٦] .

وأمـــا إنـــه أول من يجيز على الصراط فلقوله – صلى الله عليه وسلم – " يضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته "[٧]

---

(١) البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٣٧) رقم (٧٥١٧) انظر الفتح (٤٧٨/١٣) ، كتاب بدء الخلق (٥٩) باب (٦) رقم (٢٢٠٧) الفـــتح (٣٠٢) مـــن طريق قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة – رضي الله عنهما – ورواه ابن جرير في تفسيره (٣/١٥) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (١٤٨/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧٤) رقم (٢٦٢،٢٦٤) .

(٢) رواه البخاري في " صحيحه " مناقبل الأنصار (٦٣) باب (٤١) رقم (٣٨٨٦) الفتح (١٩٦/٧) ، ورواه مسلم في صحيحه (١٥٦/١) رقم (٢٧٦) .

(٣) رواه مسلم في " صحيحه " (١٥٧/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧٦) في ذكر سدرة المنتهى حديث رقم (١٧٩) ، من طريق مُرة الهمذاني . وكذا رواه الحـــافظ أبو بكر البيهقي عن طريق الزبير بن عدي عن طلحة بن مصرف عن مرة ، ثم قال : " وهذا الذي ذكره عبدالله بن مسعود طرف من حديث المعراج .

(٤) رواه مسلم في " صحيحه " (١٥٦/١) من طريق أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة ، كتاب الإيمان (١) باب (٧٥) ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال ، رقم (٢٧٨) .

(٥) انظر : الخصائص (٢٤١/٣،٢٤٠،٢٢٠) .

(٦) رواه مســلم في " صحيحه " (١٧٨٢/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢) رقم (٢٢٧٨) ، وأورده السيوطي في الخصائص (٢٢٠/٣) . ورواه أبو داود في " سننه " (١٣) ، ابن ماجة في " سننه " كتاب الزهد (٣٧) وأحمد في " المسند " (٥/١) .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأذان (١٠) باب (١٢٩) رقم (٨٠٦) انظر الفتح (٢٩٢/٢) ، وأحمد في " المسند " (٢٩٣/٢) . وأورده السيوطي في الخصائص (٢٤٠/٣) .

الحادية عشرة : أنه أول من يفيق من الصعقة :

ذكـرها السـيوطي واسـتدل عليها بقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ...لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصـعقون يـوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان موسى فيمن صَعِق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله عز وجل "(١) .

وقال – صلى الله عليه وسلم – أيضاً : " يصعق الناس حين يصعقون ، فأكون أول من قام... "(٢) الحديث .

الثانية عشرة : أن الله تعالى لم يناده في القرآن الكريم باسمه بل بلقبه :

ذكـر السـيوطي أن مـن خصائصه – عليه الصلاة والسلام – أن الله تعالى لم يخاطبه في القرآن الكريم باسمه المجـرد بل خاطبه بلقب من ألقابه ، كما قال تعالى يخاطب نبيه ورسوله – صلى الله عليه وسلم – : " يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)(٣) وقال تعالى : (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال...)(٤) وقال تعالى (يا أيها النـبي قـل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم...)(٥) (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم...)(٦) (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين...)(٧) (يا أيها النبي إنا أرسلناك شـاهداً ومبشـراً ونذيـراً)(٨) (يـا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك...)(٩)

(يـا ايها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً)(١٠) (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك...)(١١) (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن...)(١٢) (يـا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك...)(١٣) وفي خطاب الله تعالى لزوجاته – رضي الله عنهن – لم يقل لهن يا

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٤٣) رقم (٦٥١٧) ، انظر الفتح (٣٦٧/١١) ، ورواه فيكتاب الخصومات (٤٤) باب (١) رقم (٢٤١١) ، (٢٤١٢) الفتح (٧٠/٥) ، وكتاب التوحيد (٩٧) باب (٣١) رقم (٧٤٧٢) الفتح (٤٤٧/١٣) .
– ورواه مسلم – (١٨٤٣/٤–١٨٤٥) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٤٢) ، رقم (١٥٩،١٦٠،١٦١،١٦٢) ، وأبو داود في " سننه " كتاب السنة ، باب (١٣) ورواه أحمد في " المسند " (٢٦٤/٢) ، (٤١/٣) .
(٢) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٤٣) رقم (٦٥١٨) الفتح (٣٦٧/١١) .
(٣) سورة الأنفال الآية (٦٤) .
(٤) سورة الأنفال ، بعض الآية (٦٥) .
(٥) سورة الأنفال ، بعض الآية (٧٠) .
(٦) سورة التوبة ، بعض الآية (٧٣) ، سورة التحريم ، بعض الآية (٩) .
(٧) سورة الأحزاب ، بعض الآية (١) .
(٨) سورة الأحزاب الآية (٤٥) .
(٩) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٥٠) .
(١٠) سورة الأحزاب الآية (٥٩) .
(١١) سورة الممتحنة ، بعض الآية (١٢) .
(١٢) سورة الطلاق ، بعض الآية (١) .
(١٣) سورة التحريم ، بعض الآية (١) .

نساء محمد ، إنما قال تعالى : (يا نساء النبي...)[١] وقال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك...)[٢] وغيـرها ، وقال : (يا أيها المزمل)[٣] ، (يا أيها المدثر)[٤] أما سائر الأنبياء - عليهم السلام - فخاطبهم بأسمائهم دون ألقـابهم كما قال تعالى : (... يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك...)[٥] ، (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا...)[٦] (يـا آدم اسـكن أنت وزوجك الجنة...)[٧] ، (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي...)[٨] (...يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك...)[٩] ، (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض...)[١٠] (يا زكريا إنا نبشرك بغلام...)[١١] ، (يا يحي خذ الكتاب بقوة...)[١٢] .

ولا شـك أن خطاب الله تعالى لحبيبه محمد - صلى الله عليه وسلم - بالألقاب الشريفة التي وردت في الآيات ، دون خطابـه باسـمه المجرد ، فيه معنى الإعزاز والتكريم والتشريف ، وإنه لأعظم تشريف وتكريم إن كان من الله تعالى لأحد من خلقه ، ومن هذا تتضح الخصوصية التي اختصه الله تعالى بها .

<u>الثالثة عشرة : تحريم ندائه باسمه على الأمة :</u>

مـن تكـريم الله تعالى لنبيه ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه حرم تعالى على أمته مناداته باسمه الشريف مجرداً وإذا كان الله تعالى لم يناده باسمه الشريف مجرداً ، تكرماً منه تعالى وتشريفاً فمن باب أولى ألا يناديه أحد من البشر باسمه المجرد بل بلقب من ألقابه الشريفة التي تدل على التعظيم والتوقير .

قال السيوطي : " ومن خصائصه تحريم ندائه باسمه على الأمه بخلاف سائر الأنبياء فإن أممهم كانت تخاطبهم بأسمائهم "[١٣] .

قال الله جل وعلا : (...قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون)[١٤] ، وقال تعالى : (إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين)[١٥] .

أما رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد قال الله تعالى في حقه : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء

---

(١) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٣٢) .
(٢) سورة المائدة ، بعض الآية (٦٧) .
(٣) سورة المزمل الآية (١) .
(٤) سورة المدثر الآية (١) .
(٥) سورة سيدنا هود - عليه السلام - ، بعض الآية (٤٨) .
(٦) سورة الصافات ، بعض الآية (١٠٤) ، بعض الآية (١٠٥) .
(٧) سورة البقرة ، بعض الآية (٣٥) وسورة الأعراف ، بعض الآية (١٩) .
(٨) سورة الأعراف ، بعض الآية (١١٤) .
(٩) سورة المائدة ، بعض الآية (١١٠) .
(١٠) سورة ص ، بعض الآية (٢٦) .
(١١) سورة مريم - عليها السلام - ، بعض الآية (٧) .
(١٢) سورة مريم - عليها السلام - بعض الآية (١٢) .
(١٣) الخصائص الكبرى (١٤١/٣) نقله عن أبي نعيم .
(١٤) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٣٨) .
(١٥) سورة المائدة الآية (١١٢) .

بعضكم بعضاً...)[١] .

فهــذا نهــي منه سبحانه أن ينادوه باسمه أو بكنيته ، كأن يقولوا : يا محمد ، أو يا أبا القاسم ، بل ينادوه بما فيه تشـريف له – صـلى الله عليه وسلم – قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه – صلوات الله وسلامه عليه – قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبي الله "[٢] وهــو قول الضحاك ، وقتادة ، ومقاتل ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن[٣]. وهو أحد الوجهين في تأويل الآية الكريمة . والوجه الثاني : أن معنى الآية : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا[٤] . حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، والحسن البصري ، وعطية العوفي[٥] ، واختار هذ الوجه ابــن جرير – رحمة الله – ورجح ابن كثير الوجْه الأول وهو الذي أراه راجحاً ، ذلك لأن قول القائل : دعا زيد عمراً ، غير قوله : دعا عليه ، فدعاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – مناداته ، بدليل قوله تعالى : (كدعاء بعضكم بعضاً) ولم يقل كدعاء بعضكم على بعض فإذا تعدى الفصل بنفسه كان في معنى النداء ، كقوله ادع فلاناً ، والله تعالى أعلم .

الرابعة عشرة : إقسام الله تعالى بحياته – صلى الله عليه وسلم –:

أقسم الله تعالى في القرآن الكريم بحياة رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – اعتبر السيوطي هذا من خصائصه – عــليه الصلاة والسلام[٦] – قال الله تعالى : (لعمرك إنهم لمن سكرتهم يعمهون)[٧] يقول تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – : وحياتك يا محمد ، إن قومك من قريش (...لفي سكرتهم يعمهون)[٢] يقول : لفي ضلالتهم وجهلهم يترددون[٨] ، يقــول ابــن كثير – رحمه الله – : " أقسم تعالى بحياة نبيه – صلوات الله وسلامه عليه – وفي هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع وجاه عريض "[٩] روى ابن جرير – رحمه الله – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد – صلى الله عليه وسلم – وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره "[١٠]

وروى أيضــاً عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد – صلى

---

(١) سورة النور ، بعض الآية (٦٣) .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٩٦/٦) ، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٢٣٠/١٨) إلى ابن أبي حاتم وابن مردوية وأبي نعيم في الدلائل .
(٣) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٧/١٨)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٩٦/٦)، والسيوطي الدر المنثور (٢٣١/١٨) .
(٤) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٧/١٨)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٩٧/٦).
(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٩٧/٦) .
(٦) انظر : الخصائص (١٣٨/٣) .
(٧) سورة الحجر الآية (٧٢) .
(٨) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٤٤/١٤) .
(٩) تفسير القرآن العظيم (٤٦٠/٤) .
(١٠) جــامع الـبيان (٤٤/١٤) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٦٠/٤) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٢٧/١٠) ، وعزاه السيوطي في "الــدر المنثور" (٨٩/١٤) إلى ابن ابي شيبة ، والحرثِ بن أبي أسامة ، وأبي يعلي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردوية ، وأبي نعيم ، والبيهقي معاني الدلائل ، وفي الخصائص (١٣٨/٣) لابن عساكر .

الله عليه وسلم – قال : وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا (إنهم لفي سكرتهم يعمهون) "[١] ولهذا ذهب المفسرون فقد قالوا : أقسم الله تعالى ها هنا بحياة رسوله ومصطفاه محمد – صلى الله عليه وسلم – تشريفاً له وتكريماً وتعظيماً لشأنه ، وقد حكى القاضي عياض اجماع أهل التفسير على ذلك[٢] ، وأصل كلمة (لعمرك) ضم العين ، من العمر ، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ، وفي هذا نهاية التعظيم ، وغاية البر والتشريف[٣] .

الخامسة عشرة : إسلام قرينه من الجن :

ذكر السيوطي أن الله تعالى اختص نبيه – صلى الله عليه وسلم – بإسلام قرينه من الجن[٤]، وذكر في ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم -: " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن " قالوا : وإياك يا رسول الله ، قال : " وإياي . إلا أن الله أعانني عليه فأسلَم . فلا يأمرني إلا بخير "[٥] وعن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خرج من عندها ليلاً ، قالت : فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : " مالك يا عائشة ! أغرتِ ؟ " فقلت : وما لي لايغار مثلي على مثلك ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أقد جاءك شيطانك ؟ " قالت : يا رسول الله أو معي شيطان ؟ قال : " نعم " قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : " نعم " قلت : ومعك ؟ يا رسول الله ، قال : " نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم "[٦] .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – في الحديث الأول : " إلا أن الله أعانني عليه فأسلم " وفي الثاني : " حتى اسلم " روى " أسلم " بضم الميم وفتحها ، وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال : معناه أسلمُ أنا من شره وفتنته ، أي يكتب الله لي السلامة من وسوسته بالشر ، ومن فتح الميم قال : إن القرين اسلم ، من الإسلام ، وصار مؤمناً فلا يأمرني إلا بخير .

واختلفوا في الأرجح منهما ، فقال الخطابي : الصحيح المختار الرفع ، ورجح القاضي عياض الفتح واختاره الإمام النووي – رحمه الله – وذلك لقوله – صلى الله عليه وسلم -: " فلا يأمرني إلا بخير "[٧]. واختلفوا على رواية الفتح : قيل : أسلم بمعنى استسلم وانقاد ، وقيل معناه : صار مؤمناً وهذا هو الظاهر . قال القاضي عياض – رحمه الله – " واعلم " أن الأمة مجمعة على عصمة النبي – صلى الله عليه وسلم – من الشيطان وكفايته منه ، لافي جسمه بأنواع الأذى ، ولا على خاطره بالوساوس "[٨] .

ومن فوائد هذا الحديث الإشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا – صلى الله عليه وسلم –

---

(١) جامع البيان (١٤/٤٤) .

(٢) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٧) .

(٣) انظر : السابق نفسه .

(٤) انظر : الخصائص (٣/١٣٩) .

(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (٤/٢١٦٧) كتاب صفة القيامة "كتاب صفات المنافقين وأحكامهم" (٥٠) باب (١٦) رقم {٦٩-(٢٨١٤)} وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٥٥٨) ، ورواه أحمد في " مسنده " (١/٤٦٠،٤٠١،٣٩٧،٣٨٥) .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (٤/٢١٦٨) كتاب صفة القيامة من كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) ، باب (١٦) رقم {٧٠-(٢٨١٥)} .

(٧) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/١٥٨) ، والقاضي عياض : الشفا (٢/٧٣).

(٨) الشفا (٢/٧٣٥) .

بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان أما إسلام قرينه – صلى الله عليه وسلم – فهي خصوصية له ، ليست لأحد سواه .

السادسة عشرة : أن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[١]:

قـــال الله تعـــالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً)[٢] .

نقـــل الســـيوطي عن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام أن من خصائصه أنه أخبره الله تعالى بالمغفرة ، ولم ينقل أنه أخـــبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك ، بل الظاهر أنه لم يخبرهم ، بدليل قولهم في الموقف يوم القيامة نفسي نفسي[٣] ، ويدل لذلـــك أيضاً قول عيسى – عليه السلام – عندما يذهب الناس إليه في موقف القيامة : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقـــدم مـــن ذنبه وما تأخر ، وهذا يدل على خصوصيته بذلك قال ابن كثير : " هذا من خصائصه – صلوات الله وسلامه عـــليه – التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهـــذا فيـــه تشريف عظيم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو – صلوات الله وسلامه عليه – في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة "[٤] ، وهذا يؤكد كلام السيوطي في اعتبار ذلك خصوصية له – صلى الله عليه وسلم – .

السابعة عشرة : تحريم نكاح زوجاته من بعده :

قـــال تعـــالى : (...ومـــا كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً)[٥] .

قال السيوطي : " ولم يثبت ذلك لأحد من الأنبياء "[٦] يعني في تحريم نسائه أن يتزوجن غيره من بعده ، فكان ذلك خصوصية له – صلى الله عليه وسلم – وفي معنى هذه الآية يقول الله عز وجل : وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً لأنهن أمهاتكم ، ولا يحل للرجل أن يتزوج أمه .

وقد ذكر أن ذلك نزل في رجل كان يدخل قبل الحجاب قيل : هو طلحة بن عبيد الله[٧] – رضي الله عنه – ، قال : لئن مات محمد لأتزوجن امرأة من نسائه ، قيل : هي عائشة[٣] – رضي الله عنها – فأنزل الله تبارك وتعالى : (...وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً...) الآية[٨] .

---

(١) انظر الخصائص (١٦١/٣) .
(٢) سورة الفتح ، الآيتان (١،٢) .
(٣) انظر : الخصائص (١٦١/٣-١٦٢) .
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣١٠/٧) .
(٥) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٥٣) .
(٦) الخصائص (١٤٤/٣) .
(٧) انظـــر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٥/٦) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٤٧/١٤) وهذا الكلام لا يليق بصحابي جليل من المبشرين بالجنة وسيأتي نقص هذا الكلام بعد قليل :انظر (ص ٩٠٠) .
(٨) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٤٠/٢٢) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤/٦).

وقد علل السيوطي تحريم نكاح أزواج النبي من بعده - صلى الله عليه وسلم - و - رضي الله عنهم - لأنهن أزواجه في الجنة ولأنهن أمهات المؤمنين وأن في ذلك غضاضة ينزه عنها منصبه الشريف[١] .

وتحصّل مما سبق أنه يحرم على أي أحد من الأمة أن ينكح واحدة من زوجات نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وذلك لسببين :

<u>أولهما :</u> أنهن أمهات المؤمنين ، بنص القرآن الكريم قال تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم...)[٢] ونكاح الأمهات محرم أيضاً بنص القرآن الكريم قال تعالى : (حرمت عليكم أمهاتكم...)[٣] فهن - رضي الله عنهن - أمهات للمؤمنين بنص كلام الله جل وعلا ، والتحريم بهذا النص أقوى في الحرمة والتعظيم من أمهات النسب ، فإذا حرم نكاح أمهات النسب على أبنائهن فأمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - أولى بالتحريم والتعظيم منهن .

<u>الثاني :</u> أن أزواجه - رضي الله عنهن - هن أزواجه في الجنة وذلك لأنهن لما خيرن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فكافأهن الله تعالى على ذلك بأن جعلهن زوجات لنبيه في الجنة[٤] .

ولهذين السببين أجمع علماء الأمة قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أزواجه أنه يحرم على غيره أن يتزوجها من بعده - صلى الله عليه وسلم[٥] - .

والخلاف بين العلماء فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين .

ومنشأ هذا الخلاف : أن من طلقها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حياته هل تدخل في عموم قوله تعالى : (...من بعده...) أم لا ؟

فمن قال بأنها داخلة في هذا العموم ذهب إلى التحريم . فيكون معنى قوله تعالى : (... من بعده ...) أي من بعد فراق لها سواء بالتطليق أم بالموت .

ومن قال أنها ليست داخلة فيه ذهب إلى الجواز اقتصاراً في التحريم على من فارقها - صلى الله عليه وسلم - بالموت دون التطليق . قال القرطبي - رحمه الله - : " والصحيح جواز ذلك "[٦] أما من تزوجها - صلى الله عليه وسلم - ثم طلقها قبل أن يدخل بها فيقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : " فما نعلم في حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعاً ، والله أعلم "[٧] .

وقد اتضح من هذا أن تحريم نكاح زوجاته - صلى الله عليه وسلم - على كل أحد من بعده خصوصية من

---

(١) انظر الخصائص (١٤٥/٣) .
(٢) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٦) .
(٣) سورة النساء ، بعض الآية (٢٣) .
(٤) انظر : الخصائص (١٤٥/٣) حاشية (٢) للمحقق الشيخ هراس .
(٥) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٥/٦) .
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٤٨/١٤) .
(٧) تفسير القرآن العظيم (٤٤٥/٦) .

خصائصـــه تمييـــزاً لشرفه وتنبيهاً على رفيع مرتبته ، وأن من استحل ذلك فهو كافر كما قد نقل عن الإمام الشافعي[١] – رحمه الله – .

وما نقل عن طلحة بن عبيد الله – رضي الله عنه – أنه هو الذي قال : لئن مات محمد – صلى الله عليه وسلم – لأتـــزوجن امرأة من نسائه ، فقد نقل القرطبي – رحمه الله – أن ذلك لا يصح عنه وإنما كان ذلك من أحد المنافقين ، وأن الصـــحابة ينزهون عن مثل هذا ، يقول القرطبي : " وحكى مكي عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبيد الله ، قلت : وكذا حـــكى النحاس عن معمر أنه طلحة ، ولا يصح ، قال ابن عطية : لله در ابن عباس ، وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله ، قال شيخنا أبو العباس : وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله ، والكذب في نقله ، وإنمـــا يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . يروي أن رجلاً من المنافقين قال : حين تزوج رسول الله – صلى الله عليه وســـلم – أم سلمة بعد أبي سلمة ، وحفصة بعد خنيس بن حذافة ما بال محمد يتزوج نساءنا ! والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت الآية في هذا... "[٢] والحق ما قاله القرطبي – رحمه الله – فإن الصحابة جميعاً – رضي الله عنهم – كانوا ينظرون إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نظرة إعظام وإكبار ، وتقدير وإجلال ، ولم يدر بخلد واحد منهم أن يصـــاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بشوكة فما دونها فضلاً عن أن يتمنى أحدهم موته ، أو يتربص به ذلك لكي ينكح واحدة من زوجاته ، فهذا لا يليق بأدنى مؤمن ينظر تلك النظرة ، أو تخطر بباله تلك الخطرة ، في حق زوجات إمام من أئمة المسلمين أو خليفة من خلفائهم أو عالم مقدم من علمائهم ، فضلاً عن أن يكون ذلك في حق رسول الله – صلى الله عـــليه وسلم – ونبيه ومصطفاه ، فهو في مقام الأب لجميع المؤمنين ، وزوجاته في منزلة الأمهات لهم ، ولو لم يأت نص كريم يقرر ذلك .

<u>الثامنة عشرة : منزلة الوسيلة في الجنة[٣] :</u>

ثبت له – صلى الله عليه وسلم – هذه الخصوصية بصحيح السنة مغن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رســـول الله – صـــلى الله عليه وسلم – : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلـــى عليَّ صلاة صـــلـــى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة "[٤] .

والوسيلة فسرها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأنها منزلة في الجنة ، وفسرها أهل اللغة بأنها المنزلة عند المـــلك[٥] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " أنا هو " خبر كان ، وقع موقع إياه ، وهذا على تقدير أن يكون " أنا " تأكيداً

---

(١) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٤٧) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٤٧) .

(٣) السيوطي : الخصائص (٣/٢٤٢) .

(٤) رواه مســـلم فـــي " صـــحيحه " (١/٢٨٨) كتاب الصلاة (٤) باب (٧) رقم {١١-(٣٨٤)} ، ورواه أبو داود في " سننه " كتاب الصلاة (٣٦) ، والترمذي في " سننه " كتاب المناقب (١) والنسائي في " سننه كتاب الأذان (٣٧) ، وأحمد في " المسند " (٢/١٦٨) .

(٥) انظر : لسان العرب (١١/٧٢٤) ، ترتيب القاموس المحيط (٤/٦١٢) .

للضـــمير المستتر في " أكون " ويحتمل أن يكون " أنا " مبتدأ و " هو " خبر ، والجملة خبر " أكون " . وقوله : " حلت له " أي وجبت وقيل نالته[١] .

التاسعة عشرة : أن الله يرضيه في أمته ولا يسوؤه[٢] :

وفـــي ذلك يقول عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – تلا النبي – صلى الله عليه وسلم – قول الله – عز وجل – في إبراهيم : (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني...) الآية[٣] وقال عيسى – عليه السـلام – : " إن تعذبهـم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم "[٤] فرفع يديه وقال : " اللهم أمتي أمتي " وبـكى فقـال الله – عز وجل – يا جبريل اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل – عليه السـلام – فسـاله ، فأخبره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما قال – وهو أعلم – فقال الله : يا جبريل : اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك "[٥] . وهذا من كرامته على ربه وكريم منزلته عند الله – جل وعلا – .

العشرون : أن الله تعالى أنكحه زينب من فوق سبع سموات :

قـال الله تعالى : (... فلما قضى زيداً منها وطراً زوجناكها ...)[٦] نزلت هذه الآية الكريمة في شأن زينب بنت جحش أم المؤمنين – رضي الله عنها – وكانت قبل أن يتزوجها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحت زيد بن حارثة – رضي الله عنه – وكان قد اتخذه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – له ابناً بالتبني ، وكان العرب يأنفون أن يتزوج الـرجل زوجـة ابـنه بالتبني إذا فارقها ، فأراد الله تعالى أن يبطل هذه العادة الجاهلية ، فأنزل هذه الآية الكريمة بتزويج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بزينب – رضي الله عنها[٧] – .

قـال ابن كثير : " وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله – عز وجل – بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها ، بلا ولي ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر "[٨] .

وفـي هذا تقول زينب أم المؤمنين – رضي الله عنها – : " زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات "[٩] وفي دخوله – صلى الله عليه وسلم – عليها بغير إذن ولا عقد ولا شهود يقول أنس – رضي الله تعالى عنه – : " لما انقضـت عـدة زينب ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لزيد : " فاذكرها علي "[١٠] قال : فانطلق زيد حتى أتاها

---

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٨٦/٤) .
(٢) انظر : السيوطي : الخصائص الكبرى (٢٣٦/٣) .
(٣) سورة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ، بعض الآية (٣٥) .
(٤) سورة المائدة الآية (١١٨) .
(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (١٩١/١) كتاب الإيمان (١) باب (٨٧) رقم {٣٤٦-(٢٠٢)}.
(٦) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٣٧) .
(٧) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٢٢/١٤) .
(٨) تفسير القرآن العظيم (٤٢٠/٦) .
(٩) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٢) رقم (٧٤٢٠) . الفتح (٤٠٣/١٣) .
(١٠) أي : فاخطبها لي من نفسها .

وهي تخمر عجينها[١] . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري[٢] . حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي[٣] فقلت : يا زينب ! أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكرك ، قالت ، ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها[٤] ، ونزل القرآن[٥] ، وجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدخل عليها بغير إذن... "[٦] وظاهر هذا كما قال ابن كثير أنه - صلى الله عليه وسلم - دخل على زينب أم المؤمنين بغير إذن ، وبدون عقد ولا شهود من البشر ولا ولي ، فالذي تولى عقدها وكان ولياً لها وشاهداً على نكاحها هو الله جل وعلا وهو خير الشاهدين وأنعم به تعالى من ولي يتولى الصالحين .

الحادية والعشرون :أن الله أباح له النكاح من وهبت نفسها له :

عد السيوطي من خصائصه - صلى الله عليه وسلم - أن الله تعالى أباح له النكاح بلفظ الهبة ، وبلا مهر ابداءً وانتهاءً[٧] . وشاهد هذا قوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي ءاتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللآتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً)[٨] .

يقول ابن كثير في قوله تعالى : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي...) " أي : ويحل لك - أيها النبي - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك ، وهذه الآية توالى فيها شرطان "[٩] وهما قوله تعالى : (إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها...) ونظير هذا في القرآن في آيات عدة منها قوله تعالى إخباراً عن نوح - عليه السلام - أنه قال لقومه : (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن

---

(١) أي : تجعل في عجينها الخمير .

(٢) قوله : (عظمت في صدري) معناه أنه هابها واستجلها من أجل إرادة النبي - صلى الله عليه وسلم - تزوجها ، فعاملها معاملة من تزوجها - صلى الله عليه وسلم - في الإعظام والإجلاء والمهابة ، وقوله : (أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) هو بفتح الهمزة من أن أي من أجل ذلك أي : ما أستطيع أن انظر إليها من أجل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكرها .

(٣) أي رجعت ، وكان جاء إليها ليخطبها وهو ينظر إليها على ما كان من عادتهم، وهذا قبل نزول الحجاب ، فلما غلب عليه الإجلال تأخر وخطبها وظهره إليها لئلا يسبقه النظر إليها .

(٤) أي : موضع صلاتها من بيتها - رضي الله عنها - .

(٥) أي : نزل قوله تعالى : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) فدخل عليها - صلى الله عليه وسلم - بغير إذن لأنها صارت بذلك زوجة له .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (١٠٤٨/٢) كتاب النكاح (١٦) باب (١٥) باب زواج زينب بنت جحش - رضي الله عنها - ، ونزول الحجاب ، واثبات وليمة العرس .

- ورواه النسائي في " سننه " كتاب النكاح (٢٦) . - ورواه أحمد في " مسنده " (١٩٥/٣) .

(٧) الخصائص (٣٠٢/٣) .

(٨) سورة الأحزاب الآية (٥٠) .

(٩) تفسير القرآن العظيم (٤٣٤/٦) .

يغويكــم...)[١] وقولــه تعالى إخباراً عن موسى أنه قال : (...يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[٢]

ويدل على خصوصيته – صلى الله عليه وسلم – بمن تهب له نفسها ما ورد عن عكرمة أنه قال في قوه تعالى : (...خالصــة لــك مــن دون المؤمنين...) " أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً "[٣] .

وكذا قال مجاهد ، وقتادة[٤] ، والشعبي[٥] . وروى نحوه عن إبراهيم النخعي ، وطاووس ، ومكحول والزهري وعطاء[٦] .

وقــال ابن جرير – رحمه الله – في قوله تعالى : (...قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم...) " يقول تعالى ذكره : قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم إذا أرادوا نكاحهن مما لم نفرضه عليك وما خصصناهم به من الحكم في ذلك دونك ، وهو أنا فرضنا عليهم أنه لا يحل لهم عقد نكاح على حرة مسلمة إلا بولي عصبة وشهود عدول ، ولا يحل لهم منهن أكثر من أربع "[٧] .

وقال ابن كثير – رحمه الله – : " إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، كمــا حكــم به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بَرْوَع بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله – صلى الله عــليه وســلم – بصــداق مثلها لما توفى عنها زوجها ، والموت والدخول سواء في تقرير المهر ، وثبوت مهر المثل في المفوضــة لغير النبي – صلى الله عليه وسلم – فأما هو – عليه السلام – فإنه لا يجب عليه للمفوضة شئ ولو دخل بها ، لأن له أن يــتزوج بغيــر صداق ، ولا ولي ، ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش – رضي الله عنها – "[٨] ونقل الرازي عن الشافعي – رحمهما الله – في الآية أن معناها : إباحة الوط بالهبة ، وحصول التزوج بلفظها من خواصك[٩] .

وهذه الأقوال من المفسرين تدل بمقتضى الآية على خصوصية – صلى الله عليه وسلم – بذلك .

وهل كان عنده – صلى الله عليه وسلم – امرأة موهوبة أم لا ؟ على قولين للعلماء :

١- فمنهم من قال : لم تكن عنده – صلى الله عليه وسلم – امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين ، أما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد وهو مروى عن ابن عباس[١٠] – رضي الله عنهما – ومجاهد[١١] .

---

(١) سورة سيدنا هو – عليه السلام – ، بعض الآية (٣٤) .
(٢) سورة سيدنا يونس – عليه السلام – ، بعض الآية (٨٤) .
(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/٦) .
(٤) انظر : نفسه .
(٥) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٢٢/٢٢) .
(٦) انظر : السيوطي : الدر المنثور (٦٣٠/٢٢) .
(٧) جامع البيان (٢٣/٢٢) .
(٨) تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/٦) .
(٩) انظر : التفسير الكبير (٢٢١/٢٥) .
(١٠) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٢٣/٢٢) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم ، والقرطبي : الجامع (١٤/ ١٣٤) ، وعــزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٣٠/٢٢) إلى الطبراني وابن مردوية والبيهقي في السنن ، وانظر : فتح الباري (٥٢٩/٨) وقال إسناده حسن .
(١١) انظر ابن جرير : جامع البيان (٢٣/٢٢) .

وقال آخرون : بل كان عنده - صلى الله عليه وسلم - منهن ، ثم اختلفوا في تسميتها :

أ- فقيل : هي ميمونة بنت الحارث - رضي الله عنها - وهو قول قتادة ، وروى عن ابن عباس[١] - رضي الله عنهما - وعكرمة[٢] .

ب- وقيل : هي زينب بنت خزيمة الأنصارية - رضي الله عنها - التي كانت تدعى أم المساكين ، وهو قول الشعبي[٣] .

جـ- وقيل : هي أم شريك بنت جابر الأسدية ، وهو قول علي ابن الحسين[٤] ، والضحاك مقاتل[٥] ، وعروة بن الزبير[٦]

د- وقيل : هي خولة بنت حكيم بن أمية بن الأوقص السلمية ، وهو قول عائشة[٧] - رضي الله عنها - وعروة بن الزبير[٨] .

هـ - وقيل : هي فاطمة بنت شريح[٩] .

و- وقيل : هي ليلى بنت قيس بن الخطيم[١٠] .

والذي يظهر لي أنه أصح هذه الأقوال أنها خولة بنت حكيم ، روى ذلك البخاري في صحيحه موصولاً ومعلقاً .

ومن هذا يتضح اختصاص النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذه الخصوصية سواء وقع فعلاً أم لم يقع .

الثانية والعشرون : تزويجه من شاء من النساء بمن شاء من الرجال بغير رضاهن ورضى آبائهن :

عد السيوطي هذا من خصائصه - صلى الله عليه وسلم[١١] - وقد قال تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم...)[١٢] لأن الله تعالى قد علم شفقة رسوله - صلى الله عليه وسلم - على أمته ، ونصحه لهم فجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر

---

(١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٢٢/٢٣) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٦/٤٣٥)، وعزاه لسعيد بن أبي عروبة ثم قال : " فيه انقطاع ، هذا مرسل " ، وابن حجر : فتح الباري (٨/٥٢٥) وقال : " وهذا منقطع ، وأورده من وجه آخر مرسل وإسناده ضعيف " وهو يعارض ما نقلناه عن ابن عباس في القول الأول من أنه لم يكن عنده - صلى الله عليه وسلم - امرأة موهوبة .

(٢) انظر : السيوطي : الدر المنثور (٢٢/٦٣١) .

(٣) انظر : جامع البيان (٢٢/٢٣) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٣٥) ، والسيوطي : الدر المنثور (٢٢/٦٣٠ وانظر: الفتح (٨/٥٢٥) ثم قال : " وليس بثابت " .

(٤) انظر : جامع البيان (٢٢/٢٣) ، والجامع لأحكام القرآن (١٤/١٣٥)، والفتح (٨/٥٢٥) .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٣٥) .

(٦) انظر : السيوطي : الدر المنثور (٢٢/٦٣١) ، والفتح (٨/٥٢٥) .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب النكاح (٦٧) باب (٢٩) رقم (٥١١٣) انظر الفتح (٩/١٦٤) ،وكذلك الفتح (٨/٥٢٥) وأشار البخاري إليه تعليقاً كما قال ابن حجر في الفتح (٨/٥٢٥) وتعليق البخاري في " صحيحه " المشار إليه آنفاً قال : " رواه أبو سعيد المؤدب ، ومحمد بن بشر ، وعبده ، عن هشام عن أبيه عن عائشة ، يزيد بعضهم على بعض " قال ابن حجر : " أما رواية أبي سعيد واسمه محمد بن مسلم بن ابي الوضاح فوصلها ابن مردوية في التفسير والبيهقي من طريق منصور بن ابي مزاحم عنه مختصراً ... " .

(٨) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٣٥) .

(٩) انظر : الفتح (٨/٥٢٥) .

(١٠) انظر : الفتح (٩/١٧٥) .

(١١) انظر : الخصائص (٣/٣٠٧) .

(١٢) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٦) .

بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)[١] وقال – صلى الله عليه وسلم – : " ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرأوا إن شئتم : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)[٢] فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه [٤].

وفي تقرير هذا أيضاً يقول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) [٥].

وفي سبب نزول هذه الآية الكريمة روى المفسرون عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ، فخطبها فقالت : لست بناكحته ، فقال – رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " بل فانكحيه " قالت : يا رسول الله ، أؤامر في نفس ، فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله – صلى الله عليه وسلم –: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً...) [٢] الآية ، قالت : قد رضيته لي منكحاً يا رسول الله ؟ قال : " نعم " قالت : إذاً لا أعصي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، قد أنكحته نفسي[٣] فليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله – صلى الله عليه وسلم – بأمر أن يعصياهما أو أن يخالفا أمرهما .

الثالثة والعشرون : وجوب قضاء دين من مات من المسلمين :

كان من شفقته ورحمته – صلى الله عليه وسلم – أنه إذا مات رجل من المسلمين وكان معسراً اجتهد – صلى الله عليه وسلم – في قضاء الدين عنه وعد السيوطي هذه من خصائصه – عليه الصلاة والسلام[٤] – ، فعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول : " صبحكم ومساكم " . ويقول : " بعثت أنا والساعة كهاتين " ويَقْرُن بين أصبعيه السبابة والوسطى ، ويقول : " أما بعد . فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهُدَى هُدَى محمد ، وشرُ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ثم يقول : " أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالاً فلأهله . ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ "[٥] .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " والذي نفس محمد بيده إن على الأرض من مؤمن إلا أن أولى الناس به ، فأيكم ما ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه ، وأيكم ترك مالاً فغلى العصبة من كان "[٦]

---

(١) سورة النساء الآية (٦٥) .

(٤)رواه البخاري في صحيحه "كتاب الإستقراض (٤٣)باب (١١) رقم (٢٣٩٩)، الفتح (٦١/٥) ، ورواه ايضاً في كتاب التفسير ، تفسير سورة الأحزاب (٣٣) باب (١) رقم (٤٧٨١) الفتح (٥١٧/٨) ورواه ابن جرير : انظر جامع البيان (٧٧/٢١) ورواه الإمام احمد في "المسند"(٣/ ٣٣٤)،(٣٣٥/٣) وعزاه السيوطي في" الدر المنثور" (٥٦٦/٢١) مع ما سبق إلى ابن مردوية .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٣٦) .

(٣) ابن جرير : جامع البيان (١١/٢٢) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤١٧/٦) اقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٢١/١٤) ن فتح الباري (٥٢٤/٨) .

(٤) انظر : الخصائص (٢٥٨/٣) .

(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (٥٩٢/٢) كتاب الجمعة (٧) باب (١٣) رقم {٤٣-(٨٦٧)}.

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (١٢٣٨/٣) كتاب الفرائض (٢٣) باب (٤) رقم (١٥) .

وعـن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكر أحاديث منها : وقـال رسـول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أنا أولى الناس بالمؤمنين في كتاب الله عز وجل ، فأيكم ما ترك ديناً أو ضـيعة فادعوني ، فأنا وليه ، وأيكم ما ترك مالاً فليؤثر بماله عصبة من كان "(١) وعن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عـليه وسـلم – كان يؤتي بالرجل الميت عليه الدين ، فيسأل : " هل ترك لدينه من قضاء ؟ " فإن حُدّث أنه ترك وفاءً صلى عليه ، وإلا قال : " صلوا على صاحبكم " فلما فتح الله عليه الفتوح قال : " أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعليّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته "(٢) فصلاته على الميت شفاعة وقد كانوا حريصين على ذلك ، ومن الـذي لا يحـرص على دعاء النبي – صلى الله عليه وسلم – له ؟ وهل كانت صلاته على من عليه دين محرمة عليه أو جائزة ؟ وجهان : ولكن الصواب الجزم بجوازها مع وجود الضامن(٣) .

ونقـل الحافظ ابن حجر عن القرطبي أنه – صلى الله عليه وسلم – ربما كان يمتنع من الصلاة على من استدان ديـناً غير جائز ، وأما من استدان لأمر هو جائز فما كان يمتنع ، قال ابن حجر " وفيه نظر ، لأن في حديث الباب ما يدل على التعميم حيث قال : (من توفي وعليه دين) ولو كان الحال مختلفاً لبينه "(٤) .

وفيه إشعار بأنه – صلى الله عليه وسلم – كان يقضيه من مال المصالح ، وقيل : بل كان يقضيه من خالص مال نفسه(٥) .

وهل كان قضاء الدين واجباً عليه – صلى الله عليه وسلم – أم لا؟ فقيل كان واجباً ، وقيل كان تبرعاً منه – صلى الله عليه وسلم(٦) – ولكن قوله – صلى الله عليه وسلم – " فعليّ قضاؤه " يشعر بالوجوب ، كقوله تعالى : (...كتب عليكم الصيام...)(٧) ومعناه : عليّ قضاؤه مما يفئ الله عليه من الغنائم والصدقات ، وهكذا يلزم المتولي لأمر المسلمين أن يفعله بمن مات وعليه دين ، فإن لم يفعل فالإثم عليه إن كان حق الميت في بيت المال يفي بقدر ما عليه من الدين وإلا فبقسطه(٨)

ويكـون معنى كلامه – صلى الله عليه وسلم – في هذا الحديث المتقدم : أنا قائم بمصالحكم حياة أحدكم وموته ، وأنا وليه في الحالين ، فإن كان عليه دين قضيته من عندي إن لم يخلف وفاء وإن كان له مال فهو لورثته لا آخذ منه شيئاً وإن خلف عيالاً محتاجين ضائعين فليأتوا إليّ فعليّ نفقتهم ومؤنتهم(٩) .

---

(١) مسلم (١٢٣٨/٣) نفس الكتاب والباب ، والحديث رقم (١٦) .

(٢) الـبخاري في " صحيحه " كتاب الكفالة (٣٩) باب (٥) رقم (٢٢٩٨) الفتح (٤٧٨/٤) ، كتاب النفقات (٦٩) باب (١٥) رقم (٥٣٧١) الفتح (٩/ ٥١٥) ، كـتاب الاستقراض (٤٣) باب (١١) رقم (٢٣٩٩) الفتح (٦١/٥) ، كتاب التفسير ، سورة الأحزاب (٣٣) باب (١) رقم (٤٧٨١) الفتح (٥١٧/٨)، كتاب الفرائض (٨٥) باب (٤) رقم (٦٧٣١) الفتح (٩/١٢) .

ومسلم في " صحيحه " (١٢٣٧/٣) كتاب الفرائض (٢٣) باب (٤) رقم {١٤-(١٦١٩)} .

(٣) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٦٠/١١) ، وابن حجر : الفتح (٤٧٨/٤) .

(٤) التفح (٤٨٧/٤) .

(٥) انظر : النووي شرح مسلم (٢٦٠/١١) ، الفتح (٤٧٨/٤) .

(٦) انظر : النووي : شرح مسلم (٦٠/١١) ، التفح (٤٧٨/٤) .

(٧) سورة البقرة ، بعض الآية (١٨٣) .

(٨) انظر : ابن حجر : التفح (٤٧٨/٤) . نقله عن ابن بطال ، مقتضى هذا الكلام أنه ليس خصوصية له –صلى الله عليه وسلم – وإنما هوتشريع .

(٩) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٦٠،٦١/١١) .

ويتضح من هذا أنه خصوصية من خصائصه - صلى الله عليه وسلم - .

الرابعة والعشرون : تحريم الصدقة والزكاة عليه :

ذهـب السـيوطي إلى اختصاصه - صلى الله عليه وسلم - بتحريم الزكاة والصدقة عليه وعلى آله وعلى مواليه وموالـي آلـه[١] . وذلـك لما روى مسلم عن المطلب بن ربيعة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس ، وإنها تحل لمحمد ولا لآل محمد "[٢] .

وعـن ابـن عـباس - رضي الله عنهما - قال : استعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - الأرقم الزهري على السعاية[٣] ، فاستتبع أبا رافع[٤] مولى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : " يا أبا رافع إن الصدقة حرام على محمد وعلى آل محمد "[٥]

وعن المطلب بن ربيعة بن الحارث قال : جئت أنا والفضل ابن العباس فقلنا : يا رسول الله جئنا لتؤمرنا على هذه الصـدقات ، فسـكت ورفـع رأسه إلى سقف البيت حتى أردنا أن نكلمه ، فأشارت إلينا زينب من وراء حجابها تنهانا عن كلامه ، وأقبل فقال : " إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وإنما هي أوساخ الناس "[٦] .

فـلما كـانت الصدقة أوساخ الناس اختصه الله تعالى بتنزيه منصبه الشريف عن ذلك فحرمها عليه ، وانجر ذلك التحريم إلى آله بسببه ، قال أبو هريرة - رضي الله عنه - : أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة ، فجعلها في فيه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كَخ كَخ[٧] . ارم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة[٨] ؟ " ، وفي رواية " لا تحل لنا الصدقة ؟ "[٩] .

وأيضـاً فالصـدقة تعـطى على سبيل الترحم المبني على ذل الآخذ ، فأبدلوا عنها بالغنيمة المأخوذة بطريق العز والشرف المنبئ عن عز الآخذ وذل الماخذ منه . فكان ذلك اختصاصاً به - صلى الله عليه وسلم - وهل شاركه فيه سائر الأنبياء أم اختص به دونهم ؟ وجهان عند علماء السلف : فقال بالأول الحسن البصري - رحمه الله - وبالثاني : سفيان ابن

---

(١) انظر : الخصائص (٣٦٥/٣) .

(٢) مسلم في "صحيحه" (٧٥٤/٢) كتاب الزكاة (١٢) باب (٥١) رقم (١٦٨) وأبو داود في "سننه" كتاب الإمارة (٢٠) ، والنسائي في " سننه " كتاب الزكاة (٩٥) ، وكتاب الفئ (١٥) ، ومالك في "الموطأ" كتاب الصدقة (١٣)، (١٥) ، أحمد في " المسند " (٢٠٢/٣) ، (١٦٦/٤) .

(٣) يعني جمع الصدقات .

(٤) قال في المعارف : " واسمه اسلم أجمعوا على ذلك ، واختلف في قصته فقال بعضهم : كان للعباس بن عبدالمطلب فوهبه للنبي - صلى الله عليه وسـلم - . فلما اسلم العباس بشر أبو رافع النبي - صلى الله عليه وسلم - بإسلامه فأعتقه وزوجه سلمى مولاته فولدت له عبيد الله بن أبي رافع فلم يزل ، كاتباً لعلي بن أبي طالب خلافته كلها ، وقال آخرون كان لسعيد بن العاص إلا سهماً من سهام فأعتقه واشترى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك السهم فأعتقه .

(٥) عزاه السيوطي في الخصائص (٢٦٥/٣) إلى الطبراني من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - .

(٦) مسلم في " صحيحه " (٧٥٣/٢) كتاب الزكاة (١٢) باب (٥١) رقم (١٦٧) .

(٧) "كخ كخ" قال القاضي : يقال : كخ كخ ، بفتح الكاف وتسكين الخاء ويجوز كسرها مع التنوين، وهي كلمة يزجر بها الصبيان عن المستقذرات ، فيقال له : كخ . أي أتركه وارم به.

(٨) " أمـا عـلمت أنا لا نأكل الصدقة " تقال هذه العبارة في الشئ الواضح التحريم ونحوه ، وإن لم يكن المخاطب عالماً به وتقديره : عجب ! كيف خفى عليك هذا مع ظهور تحريمه ، وهذا أبلغ في الزجر عنه من قوله : لا تفعله .

(٩) مسلم في " صحيحه " (٧٥١/٢) كتاب الزكاة (١٢) باب (٥٠) رقم {١٦١-(١٠٦٩)} .

عيينة – رحمه الله[١] – ورجح بعضهم القول الأول لأن الصدقة إذا كانت أوساخ الناس وكانت تقتضي ذل آخذها ، وأن اليد العـليا خير من اليد السفلى ، فلا شك أنه يجب تنزيه الأنبياء عما يغض من أقدارهم الشريفة ويكون فيه نوع مهانة لهم[٢] . وعـلى هـذا القول فلا خصوصية له – صلى الله عليه وسلم – وعلى القول الثاني فالخصوصية ثابتة والزكاة المفروضة وصدقة التطوع بالنسبة إليه – صلى الله عليه وسلم – سواء في التحريم .

وأمـا آله – صلى الله عليه وسلم – فمذهب الشافعية أنه لا يحرم عليهم سوى الزكاة ، وأما صدقة التطوع فتحل لهم في الأصح .

وفي وجه آخر : عند الشافعية وهو مذهب المالكية أنها تحرم عليهم أيضاً .

وفي وجه ثالث : تحرم عليهم الصدقة الخاصة دون الصدقة العامة كالمساجد ومياه الآبار ونحوها[٣] .

قـال العلامـة ابـن قدامة – رحمه الله – : " لا نعلم خلافاً في أن بني هاشم لا تحل لهم الصدقة المفروضة ... وسواء أعطوا من خُمس الخَمس أو لم يعطوا لعموم النصوص ، ولأن منعهم من الزكاة لشرفهم ، وشرفهم باق فيبقى المنع ، فـإن أعطوا منها لغزو أو حمالة جاز ذلك ... وإن كان الهاشمي عاملاً أو غارماً لم يجزئه الأخذ في أظهر الوجهين... وحكـم مواليهم حكمهم عند أحمد – رحمه الله – وقال أكثر أهل العلم : يجوز الدفع إليهم لأنهم ليسوا بقرابة النبي – صلى الله عليه وسلم – فلم يمنعوا الصدقة كسائر الناس "[٤] ثم رجح ابن قدامة القول بتحريم الصدقة على مواليهم واستدل بحديث أبي رافع المتقدم . وقال إن الموالي هم بمنزلة القرابة ، "ويثبت فيهم حكم القرابة من الإرث والعقل والنفقة فلا يمتنع ثبوت حكـم تحريم الصدقة فيهم "[٥] وقرر ابن قدامة جواز صدقة التطوع على بني هاشم ، ونقل عن الإمام أحمد – رحمه الله – قوله : " إنما لا يعطون من الصدقة المفروضة فأما التطوع فلا "[٦] .

ثـم قـال ابـن قدامة : " فأما النبي – صلى الله عليه وسلم – فالظاهر أن الصدقة جميعها كانت محرمة عليه ، فرضـها ونفـلها ، لأن اجتنابها كان من دلائل نبوته ، فلم يكن ليحل له ذلك[٧] ، بدليل أن في حديث[٨] سلمان الفارسي أن الـذي أخبره عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ووصفه له قال : إنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة[٩] . وقال أبو هريرة : كـان النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا أتى بطعام سال عنه ، فإن قيل : صدقة ، قال لأصحابه " كلوا " ولم يأكل ، وإن

---

(١) انظر : الخصائص (٣/٢٦٧) .
(٢) نفسه ، حاشية المحقق الشيخ محمد خليل هراس (١) .
(٣) انظر : الخصائص (٣/٢٦٧) .
(٤) المغني من الشرح الكبير (٢/٧١٠-٧١١) .
(٥) نفسه (٢/٧١١) .
(٦) نفسه .
(٧) المغني (٢/٧١٢) .
(٨) هكذا العبارة في المغني .
(٩) رواه ابـن هشام في السيرة النبوية (١/٢١٤) عن محمد بن اسحاق بسنده إلى عبدالله بن عباس عن سلمان – رضي الله عنهم – وموضع الشاهد أنه لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية (١/٢١٨) .

قبل هدية ضرب بيديه وأكل معهم[1] .

الخامسة والعشرون : إباحة القتال له بمكة المكرمة :

عد السيوطي من خصائصه – صلى الله عليه وسلم – أن الله تعالى أباح له القتال بمكة والقتل بها[2] .

قال تعالى : (لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد)[3] فقوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد) قسم من الله – عز وجـل – بمكة المكرمة أم القرى[4] . يقول تعالى ذكره : أقسم يا محمد بهذا البلد الحرام وهو مكة[5] وقوله تعالى : (وأنت حل بهذا البلد)[6] يقول جل ثناؤه : لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – وأنت يا محمد حل بهذا البلد يعني بمكة ، يقول : أنت به حلال تصنع فيه مِنْ قتلِ مَنْ أردت قتله ، وأسْرِ من أردت أسره ، مطلق ذلك لك[7] .

وأورد المفسرون تحت تفسير هذه الآية الكريمة بعض الأحاديث والآثار التي تدل على إباحة القتال للنبي – صلى الله عـليه وسـلم – بمكـة ، فعن أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دخل مكة عام الفتح وعـلى رأسـه المغفـر ، فلما نزعه جاء رجل فقال : إن ابن خطل[8] متعلق بأستار الكعبة ، فقال : " اقتلوه "[9] وعن أبي شريح العدوي قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول يوم الفتح : " إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يَعضدَ بها شجرة[10] ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيها فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، ثم عادت

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الهبة (٥١) باب (٧) رقم (٢٥٧٦) الفتح (٢٠٣/٥)، والنسائي في " سننه " كتاب الزكاة (٩٨) ، أحمد في " المسند " (٥/٥) .

(٢) انظر : الخصائص (٢٩٠/٣) .

(٣) سورة البلد ، الآيتان (١،٢) .

(٤) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٢٤/٨) .

(٥) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٩٣/٣٠) .

(٦) سورة البلد الآية (٢) .

(٧) جامع البيان (١٩٣/٣٠) .

(٨) هو : عبدالعزي بن خطل ، وقيل عبدالله بن خطل ، وقيل هلال بن خطل ، وقيل : غالب بن عبدالله بن خطل ، وقيل : عبدالله بن هلال بن خطل . وقيـل : كان اسمه عبدالعزي فلما أسلم سمي عبدالله ، وأما من قال هلال فالتبس عليه بأخ له اسمه هلال ، بين ذلك الكلبي في النسب ، واسم خطل عبدمناف من بني تيم بن فهر بن غالب ، وإنما أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مصدقاً ، وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى يخدمه وكان مسلماً ، فنزل منزلاً ، فأمر المولى أن يذبح تيساً ويصنع طعاماً ، فـنام واسـتيقظ ولم يصنع شيئاً ، فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً ، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكان من الذين أهدر الرسول – صلى الله عليه وسلم – دماءهم يوم الفتح، انظر : فتح الباري (٦٠/٤-٦١).

(٩) الـبخاري فـي " صحيحه " كتاب جزاء الصيد (٢٨) باب (١٨) رقم (١٨٤٦) ، الفتح (٥٩/٤) ، كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٦٩) رقم (٣٠٤٤) الفتح (١٦٥/٦) ، كتاب الغازي (٦٤) باب (٤٨) رقم (٤٢٨٦) الفتح (١٥/٨) ، كتاب اللباس (٧٧) باب (١٧) رقم (٥٨٠٨) الفتح (١٠/ ٢٧٥) .

ومسـلم فـي " صحيحه " (٩٨٩/٢) كتاب الحج (١٥) باب (٨٤) رقم (٤٥٠) . وأبو داود في " سننه " كتاب الجهاد (١١٧) ، والترمذي – كتاب الجهـاد (١٨) ، والنسـائي كـتاب المناسـك (١٠٧) ابـن ماجة كتاب الجهاد (١٨) والدارمي – كتاب المناسك (٨٨) ، وأحمد (٣/ ١٨٦،١٨٠،١٦٤،١٠٩،٢٤٠،٢٣٢،٢٣١،٢٢٤) .

(١٠) "يعضد" بكسر الضاد وفتح الدال أي : يقطع بالمعضد وهو آلة كالفاس .

حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب "[١] ففي هذا دليل على خصوصيته - صلى الله عليه وسلم - بجواز القتال في مكة ، وأن الله تعالى أحل له القتال فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها كما كانت .

السادس والعشرون : الكذب عليه السلام كالكذب على غيره[٢] :

ورد وعيد شديد لمن يتعمد الكذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إمام الأمة المبلغ عن ربه - جل وعلا - لما يترتب عليه من المفاسد العظيمة ، منها اضطراب التشريع وفشو البدع وتعطيل الأحكام ، الزيادة في الدين بما لم يأذن به الله تعالى ، ولخطورة ذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن كذباً عليّ ليس ككذبٍ على أحد فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار "[٣] وفي الحديث ترهيب من الكذب عليه - صلى الله عليه وسلم - هو عام في كل كاذب ، مطلق في كل نوع من الكذب ، قال ابن حجر : " وقد اغتر قوم من الجهلة فوضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب ، وقالوا : نحن لم نكذب عليه ، بل فعلنا ذلك لتأييد شريعته ، وما دروا أن تقويله - صلى الله عليه وسلم - ما لم يقل يقتضي الكذب على الله تعالى ، لأنه إثبات حكم من الأحكام الشرعية سواء كان في الإيجاب أو الندب ، وكذا مقابلهما وهو الحرام والمكروه "[٤] فظن هؤلاء أن الكذب لتأييد شريعته هو كذب له وليس كذباً عليه ، وهو جهل باللغة كما قال ابن حجر ، وسواء كان الكذب له أم كان عليه فهو كذب داخل في هذا الوعيد ، فالكذب له كالكذب عليه - إن صح التعبير بذلك - يقول الحافظ ابن حجر : " ولا يعتد بمن خالف ذلك من الكرامية حيث جوزوا وضع الكذب في الترغيب والترهيب في تثبيت ما ورد في القرآن والسنة واحتج بأنه كذب له لا عليه ، وهو جهل باللغة العربية "[٥] .

وقد ذكر السيوطي جملة من الخصائص الأخرى كوجوب محبته - صلى الله عليه وسلم - ومحبة أهل بيته وأصحابه[٦] وأنه - صلى الله عليه وسلم - يوعك كما يوعك الرجلان من أمته[١] ، وأن أمته يبعثون غراً محجلين من آثار

---

(١) البخاري في " صحيحه " كتاب العلم (٣) وباب (٣٧) رقم (١٠٤) ، الفتح (١٩٧/١) ، وكتاب جزاء الصيد (٢٨) باب (٨) رقم (١٨٣٢) الفتح (٤١/٤) ، كتاب المغازي (٦٤) باب (٥١) رقم (٤٢٩٥) الفتح (٣٠/٨) . ومسلم في " صحيحه " (٩٨٧/٢) كتاب الحج (١٥) باب (٨٢) رقم (٤٤٦) ، والترمذي في " سننه " كتاب الحج (١) والنسائي في كتاب المناسك (١١١) وأحمد (٣١،٣٢/٤) .

(٢) انظر : الخصائص (٣٢٦/٣) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٣٣) الفتح (١٦٠/٣) ، كتاب العلم (٣) باب (٣٨) رقم (١١٠،١٠٩،١٠٨،١٠٧،١٠٦) الفتح (١٩٩/١-٢٠٢)، كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٥٠) رقم (٣٤٦١) الفتح (٤٩٦/٦) كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٥٠) رقم (٣٤٦١) الفتح (٤٩٦/٦) ، كتاب الأدب (٧٨) باب (١٠٩) رقم (٦١٩٧) الفتح (٥٧٧/٦) . ومسلم في " صحيحه " (٢٢٩٨/٤) كتاب الزهد والرقائق (٥٣) باب (١٦) رقم {٧٢-(٣٠٠٤)} . وأبو داود - كتاب العلم (٤) ، والترمذي - كتاب الفتن (٧٠) وكتاب العلم (٨،١٣) والتفسير (١) والمناقب (١٩) وابن ماجة - المقدمة (٤) والدارمي - المقدمة (٢٥،٤٦) ، وأحمد (٢/ ٥١٩،٤٦٩،٤١٣،٢١٤،٢٠٢،١٧١،١٥٩،١٥٠،١٢٣،٨٣،٤٧) ، (٣/ ٤٢٢،٣٠٣،٢٨٠،٢٧٨،٢٢٣،٢٠٩،٢٠٣،١٧٦،١٦٧،١٦٦،١١٦،١١٣،٩٨،٥٦،٤٦،٤٤،٣٩،١٣) (٣٦٧/٤،٢٠١،١٥٦،١٠٠،٤٧) ، (٤١٢/٥،٢٩٢،٢٤٥)

(٤) فتح الباري (١٩٩/١-٢٠٠) .

(٥) نفسه (٢٠٠/١) .

(٦) قال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) التوبة (٢٤) . وأخرج الشيخان عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " . وأخرجا أيضاً من حديث أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار "

الوضـــوء[٢] ، وأنـــه يدخل من أمته سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب[٣] ، وكذلك اختصاصه - صلى الله عليه وسلم - وأمـــته بالصــــلاة في النعال ، وأن الميت يسأل عنه في قبره ، وأن أمته خير الأمم ، وأن الله تعالى قد تجاوز عنها الخطأ والنسيان[٤] . وأن أمته لا تهلك بجوع ولا بفرق[٥] . وأن الطاعون لأمته رحمة[٦] . وأن أمته أقل الأمم عملاً وأكثرها أجراً من سائر الأمم[٧] . وأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك[٨] . وذكر السيوطي كذلك جملة أخرى من الخصائص التي يضعف دليلها عن النهوض بها ، أو بعض الخصـــائص التي في استنباطها بعض التكلف . وعلى كل حال فمصنف السيوطي في الخصائص المحمدية مصنف جيد في بابـــه لولا ما فيه من بعض الحشو والتكلف والروايات الضعيفة ، وقد اقتصرت فيما بينته من خصائصه - صلى الله عليه وســـلم - على ما صح مما نقله السيوطي في مصنفه ، وتركت غيره لأنه لا حاجة بالمسلم لأن يتكلف تصحيح ما لم يصح من النصوص الشرعية ، وفي الصحيح غنية وكفاية والله أعلم .

---

(١) انظر الخصائص (٣٧٩/٣).

(٢) انظر : صحيح البخاري رقم (١٣٦) فتح (٢٣٥/١) .

(٣) انظـــر : الخصـــائص الكبرى (٢٤٩/٣) . وأخرج الشيخان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : خرج إلينا رسول الله - صلى الله عليه وســـلم - ذات يـــوم فقال : " عرضت عليّ الأمم يمر على النبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد ، والنبي معه الرهط فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن تكون هذا أمتي فقيل لي : هذا موسى وقومه ثم قيل : انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سد الأفق فقيل لي : انظر هكذا أو هكذا فرأيت سواداً كثيراً فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب " .

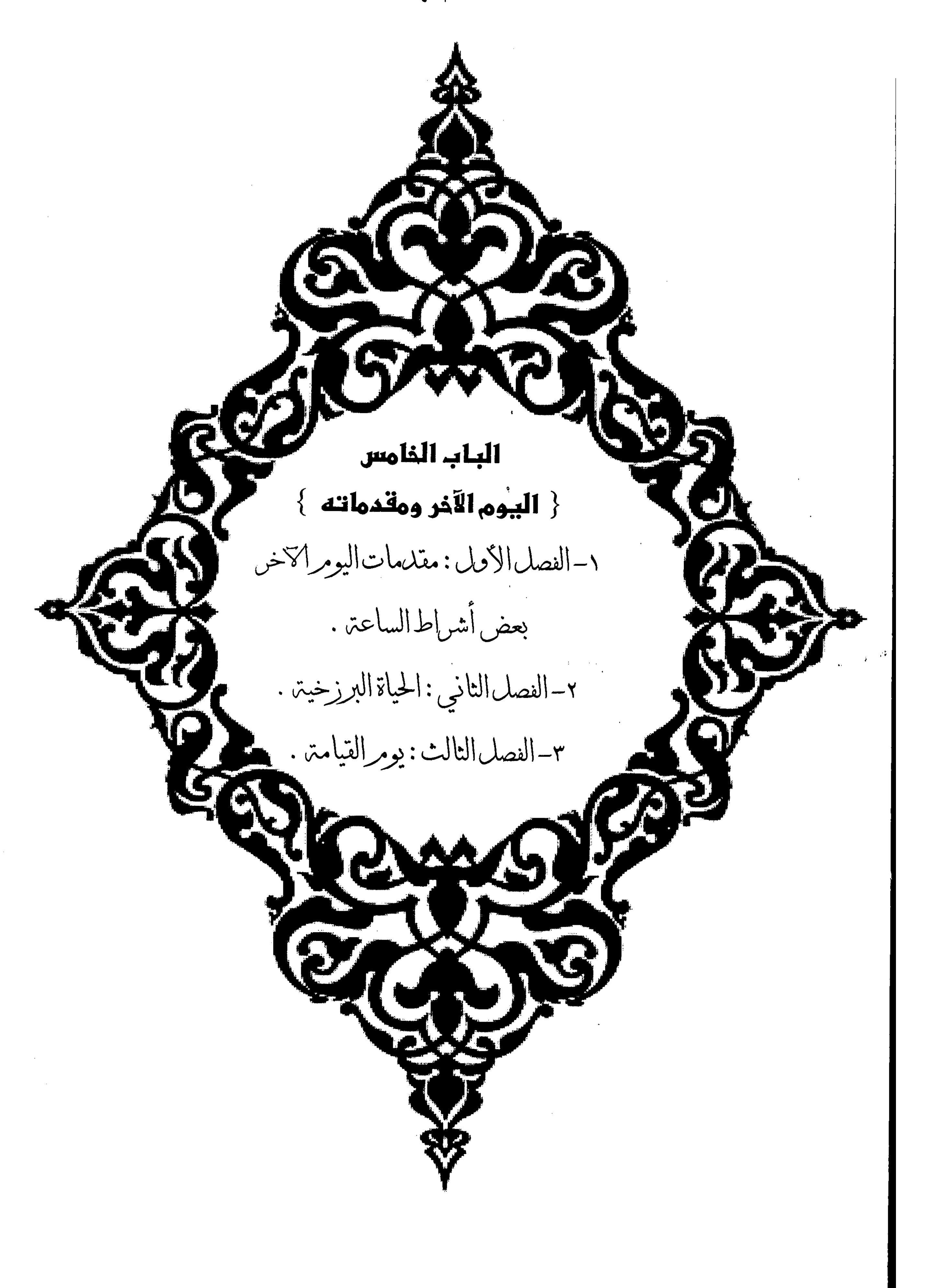
(٤) انظر : الخصائص (٢٠٢/٣) ، و صحيح مسلم (١١٦/١) م رقم (١٢٧).

(٥) انظر : أنظر ا لخصائص (٢٠٩/٣) ،وصحيح مسلم (٢٢١٠/٤) ح رقم (٢٨٨٩).

(٦) انظر : الخصائص (٢١٢/٣) .وصحيح مسلم البخاري (٣٤٧٣) فتح (٥١٣/٦).

(٧) انظر : الخصائص (٢١٧/٣) . وصحح البخاري م رقم (٥٥٧) فتح (٣٨/٢) .

(٨) انظر الخصائص (٢١٣/٣) ،وصحيح البخاري ح رقم (٧٣١١) فتح ٢٩٣/١٣) .



الباب الخامس

{ اليوم الآخر ومقدماته }

١- الفصل الأول : مقدمات اليوم الآخر

بعض أشراط الساعة .

٢- الفصل الثاني : الحياة البرزخية .

٣- الفصل الثالث : يوم القيامة .

الفصل الأول :

مقدمات اليوم الآخر

بعض أشراط الساعة

تمهيد :

الشـــرط : بالـــتحريك ، هـــو العلامة ، جمعه أشراط . وأشراط الشئ : أوائله : ومنه شُرَط السلطان ، وهم نخبة أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من جنده ، ومنه الاشتراط الذي يشترطه الناس بعضهم على بعض . فالشرط علامة على المشروط[١] .

معنى الساعة : في اللغة : هي جزء من أجزاء الليل أو النهار ، جمعها: ساعات وساع .

فـــي الاصطلاح : هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وسميت بالساعة لسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة ، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة [٢] .

فأشـــراط الساعة : هي علامات القيامة التي تسبقها وتدل على قربها ، وقيل هي ما ينكره الناس من صغار أمورها قبل أن تقوم الساعة ، وقيل هي أسبابها التي هي دون معظمها وقيامها[٣] .

والساعة تطلق على ثلاثة معان :

١- الساعة الصغرى : وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد حضرت ساعته أو قامت قيامته لانتقاله عن الدار الدنيا .

٢- الســـاعة الوســـطى : وهـــي مـــوت أهل القرن الواحد ، قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنه - الله عنها : كان الأعـــراب إذا قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألوه عن الساعة ، فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال : " إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم "[٤] . والمراد منه ساعة المخاطبين[٥] .

٣- الساعة الكبرى : وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء .

وإذا أطـــلقت الساعة في القرآن الكرم فالمراد بها القيامة الكبرى قال تعالى : (يسألك الناس عن الساعة ...)[٦] أي : القيامة . وقال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر)[٧] . أي : اقتربت القيامة .

وقـــد تذكـــر القيامة الصغرى كما في قوله تعالى : (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تشعرون)[٨] .

---

(١) انظر : النهاية (٤٦٠/٢) ، لسان العرب (٣٢٩/٧-٣٣٠) .

(٢) انظر : النهاية (٤٢٢/٢) واللسان (١٦٩/٨) ، وترتيب القاموس المحيط (٦٤٧/٢) .

(٣) انظر : النهاية (٤٦٠/٢) ، واللسان (٣٢٩/٧-٣٣٠) .

(٤) رواه البخاري في " صحيحه " ح رقم (٦٥١١) الفتح (٣٦١/١١) ، ورواه مسلم في " صحيحه " .

(٥) انظر : الفتح (٣٦٣/١١) .

(٦) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٦٣) .

(٧) سورة القمر ، الآية (١) .

(٨) سورة الواقعة ، الآيات (٨٣-٨٥) .

وقوله جل وعلا : (فلولا إذا بلغت التراقي)[١] .

والذي نحن بصدده إن شاء الله تعالى هو القيامة الكبرى التي بينها القرآن الكريم والسنة المطهرة[٢] .

تناول السيوطي الكلام عن بعض أشراط الساعة في مواضع من بعض مصنفاته فذكر أن الناس قد يستخف بعضهم بيوم القيامة ويستبعد وقوعه فعند قوله تعالى : (يسال أيان يوم القيامة)[٣] قال : " أي يسال الإنسان على وجه الاستخفاف والاستهزاء متى يوم القيامة ؟ وهذا لجهله إما على أن من مات فقد قامت قيامته ، وهو يشاهد الموت بغتة ، فكيف يستبعدها ، وليس اخبر كالمعاينة ، لكن الجاهل أعمى ، ولا يقال لهذا جاهل بل هو أحمق "[٤] .

يقول ابن كثير – رحمه الله – : " وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده "[٥] كما قال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون)[٦] .

وقد ذكر الله – جل وعلا – في كتابه ما يبين قدرته – جل وعلا – على إقامة الساعة وكأنه رد على هذا الإنسان الذي سأل سؤال استبعاد لوقوع ذلك اليوم ، قال تعالى : (...وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب...)[٧] يقول السيوطي : " بيان لقدرة الله تعالى على إقامتها ، وأن ذلك يسير عليه "[٨] . كقوله تعالى : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة)[٩] .

ثم يتناول السيوطي الكلام على أشراط الساعة فيذكر عند قوله تعالى : (...فقد جاء أشراطها...)[١٠] يقول : " يعني علامات الساعة ، والذي جاء من ذلك مبعثه – صلى الله عليه وسلم – لقوله : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تليها[١١] .

وقد أخبر أن لها دلائل منها : ظهور الفتن ، وكثرة المعاصي والحرص على الدنيا ، والتنافس عليها ، وتوسيد الأمر لغير أهله ، فحينئذ يظهر الدجال ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، وتفصيل هذا كله يحتاج لطول نفس ، لكنهم اختلفوا في أول الآيات ظهوراً ، وذلك يتوقف على صحة نقل ، وظهور المهدي والدجال بعده ، وعيسى بعده ، ويعلم الله ما بعد ، ويعلم الله ما بعد ذلك ، والصحيح أنها كالخرز ، إذا ظهرت واحدة تبعتها أختها "[١٢] .

---

(١) سورة القيامة ، الآية (٢٦) .
(٢) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٢٦٣/٤-٢٦٥) ، فتح الباري (٣٦٤/١١) .
(٣) سورة القيامة ، الآية (٦) .
(٤) معترك الأقران (٤٣٨/٣) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣٠١/٨) .
(٦) سورة سبأ ، الآيتان (٣٠،٢٩) .
(٧) سورة النحل ، بعض الآية (٧٧) .
(٨) معترك الأقران (٣٥٣/٢) .
(٩) سورة لقمان ، الاية (٢٨) .
(١٠) سورة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – بعض الآية (١٨) .
(١١) البخاري في " صحيحه " رقم (٦٥٠٣) ، (٦٥٠٤) ، (٦٥٠٥) الأولى عن سهل بن سعد ، والثاني عن أنس ، والثالث عن أبي هريرة – رضي الله عنهم – الفتح (٣٤٧/١١) .
(١٢) معترك الأقران (١٠١/٣) .

وقد ذكر السيوطي بعض العلامات في أواخر أرجوزته التي سماها " تحفة المهتدين بأسماء المجددين " قال :

" وآخر المئين فيها يأتي — عيسى نبي الله ذو الآيـات
يجدد الدين لهـذى الأمة — وفي الصلاة بعضنا قد أمَّه
مقرراً لشرعنا ويحكـم — بحكمنا إذ في السماء يعلمُ
وبعده لم يبق من مجدد — ويُرفع القرآن مثل ما بدى
وتكثر الأشرار والإضاعة — من رفعه إلى قيام الساعة "(١)

ومـن هذه النصوص يمكننا أن نستخرج بعض أشراط الساعة التي ذكرها السيوطي فيها لكي نتناولها – بإذن الله تعالى – بشئ من البيان والتوضيح .

وهـذه العلامات التي ذكرها السيوطي بعضها يدخل تحت أشراط الساعة الصغرى ، وبعضها الآخر يدخل تحت القسم الثاني ، وهو العلامات الكبرى .

- فالعلامات التي هي ضمن العلامات الصغرى التي ذكرها السيوطي هي :

١- بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – .
٢- ظهور الفتن .
٣- كثرة المعاصي وكثرة الأشرار .
٤- توسيد الأمر إلى غير أهله .
٥- الحرص على الدنيا والتنافس فيها .
٦- رفع القرآن وقبض العلم .

- وأما التي تندرج ضمن العلامات الكبرى فهي :

١- ظهور المهدي المنتظر .
٢- ظهور المسيح الدجال .
٢- نزول المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – .
٤- ظهور يأجوج ومأجوج .
٥- طلوع الشمس من مغربها .
٦- ظهور الدابة .

وسأتناول – إن شاء الله تعالى – كل واحدة منها بشئ من التوضيح.

المبحث الأول

العلامات الصغرى

الأولى : بعثة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – :

ذكرها السيوطي عند قوله تعالى : (...فقد جاء أشراطها...)(٢)

فقـال : " يعني علامات الساعة والذي جاء منها مبعثه – صلى الله عليه وسلم – لأنه قال : " بعثت أنا والساعة كهاتين "(٣) ويشير بإصبعيه فيمدهما ، يعني الوسطى والسبابة كما هو موضح في الأحاديث .

---

(١) التنبئه بمن يبعثه الله على رأس كل مئة " (ص٧٥) ت. عبدالحميد شانوحة – دار الثقة – مكة المكرمة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .
(٢) سورة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – بعض الآية (١٨) .
(٣) البخاري في " صحيحه " ح رقم (٦٥٠٣) ، وانظر : معترك الأقران (١٠١/٣) .

وكون مبعثه - صلى الله عليه وسلم - أول اشراط الساعة لأنه النبي الأخير الذي ختم به النبيون أجمعون فلا نبي بعـده بينه وبين قيام الساعة ، فقيام الساعة تليه كما يلي السبابة الوسطى وليس بينهما إصبع ، أو كما يفضل أحدهما الآخر فـي الطـول[١] يؤيده قوله - صلى الله عليه وسلم - : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار أبو داود بالسبابة والوسطى فما فضل إحداهما على الأخرى[٢] وورد عن قتادة مثله[٣] .

الثانية : ظهور الفتن :[٤] الفتن جمع فتنة ، وهي الابتلاء والاختبار ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إلى المكروه ، كالإثم والكفر والقتل والتحريق وغير ذلك من الأمور المكروهة[٥] .

وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن بين يدي الساعة تظهر الفتن التي تزلزل الإيمان ، ويلتبس فيها الحق بالـباطل ، ويصبح الحليم فيها حيران ، كلما ظهرت فتنة قال المؤمن هذه مهلكتي ، ولا تزال الفتن تظهر وتتتابع في الناس حتى تقوم الساعة .

١- قال - صلى الله عليه وسلم - : " إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمســي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي . فكسّروا قسيكم ، وقطعوا أوتاركم ، واضربوا بسيوفكم الحجارة . فإن دُخل على أحدكم فليكن كخير ابني آدم "[٦] .

٢- وقـال - صلى الله عليه وسلم - : " بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً . يبيع دينه بعرض من الدنيا "[٧] .

وأخبر - صلى الله عليه وسلم - أن اكثر ما تظهر الفتن من قبل المشرق حيث يطلع قرن الشيطان .

٣- فقال - صلى الله عليه وسلم - وهو مستقبل المشرق : " ألا إن الفتنة هاهنا ، ألا إن الفتنة ها هنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان "[٨] . وهذا متفق عليه[٩] .

وفي رواية لمسلم : أنه قال : " رأس الكفر من ها هنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان " يعني المشرق[١٠] .

قـال الحافظ ابن حجر : " وأول الفتن كان منبعها من قبل المشرق فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين ، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به ، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة "[١١] .

---

(١) انظر : القرطبي : التذكرة (ص٦٢٥-٦٢٦) ، وتحفة الأحوذي (٤٦٠/٦) .
(٢) الترمذي في " سننه " (٤٥٩/٦-٤٦٠) وقال : " حيدث حسن صحيح " .
(٣) مسلم في " صحيحه شرح النووي (٨٩/١٨) .
(٤) انظر السيوطي : معترك الأقران (٣ / ١٠١) .
(٥) انظر : لسان العرب (٣١٧/١٣-٣٢١) ، النهاية (٤١٠/٣-٤١١) ، والفتح (٣/١٣) .
(٦) أحمـد في " مسنده " (٤٠٨/٤) بهامشه منتخب كنز العمال ، وعون المعبود (٣٣٧/١١) والحاكم في " المستدرك " (٤٤٠/٤) وقال : " صحيح الاسناد ولم يخرجاه " وسكت عنه الذهبي ، وابن ماجة في " سننه " (١٣١٠/٢) وصححه الألباني في " صحيح الجامع " ح رقم (٢٠٤٥) .
(٧) مسلم في " صحيحه " (١٣٣/٢) مع شرح النووي .
(٨) قرن الشيطان قوته وأتباعه ، وقيل : إن الشيطان يقترن رأسه بالشمس عند طلوعها (الفتح ٤٦/١٣) .
(٩) البخاري في " صحيحه " رقم (٧٠٩٣) الفتح (٤٥/١٣) ، ومسلم في " صحيحه " (٣١/١٨) مع شرح النووي .
(١٠) مسلم في " صحيحه " (٣١/١٨-٣٢) مع شرح النووي .
(١١) فتح الباري (٤٧/١٣) .

والواقع يؤيد هذا ويؤكده ، فمن العراق ظهر الخوارج ، والشيعة ، والروافض ، والباطنية ، والقدرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، وكذلك ما ظهر من جهة الفرس المجوس كالزرادشتيه ، والمانوية والمزدكية ، والهندوسية ، والبوذية وغيرها . ولا ننسى قدوم التتار على ديار المسلمين في منتصف القرن السابع وما أحدثوه من القتل والنهب والدمار والشر العظيم المدون في كتب التاريخ الذي لا ينسى .

ولسنا ببعيد عن الشيوعية الملحدة التي تتمركز في روسيا والصين ، وسيكون ظهور الدجال ويأجوج من تلك الجهة نعوذ بالله من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن .

الثالثة : كثرة المعاصي وكثرة الأشرار : من العلامات التي ظهرت في

من العلامات التي ظهرت في هذا الكون فشو المعاصي والمنكرات من ارتكاب الزنا ، وشرب الخمر . وانتشار الربا ، وظهور التفسخ الخلقي وسفور النساء وتعري أجسادهن ، والسب واللعن والغش في المعاملات ، وظهور الفنيات والمعازف ، ووقوع الناس في كثير من الموبقات كالسحر والقتل ، وقذف المحصنات الغافلات ، والشرك ، وشهادة الزور ، حتى عمت المفاسد وطمت الشرور ، وأصبح الصالحون يتوارون حياءً من سطوة أهل الشر والفساد والاغلال .

١- قال - صلى الله عليه وسلم - : " إن من أشراط الساعة ... (فذكر منها) ويظهر الزنا "[١] .

٢- وقال أيضاً : " سيأتي على الناس سنوات خداعات ... (فذكر الحديث وفيه) وتشيع فيها الفاحشة "[٢] .

٣- وقال : " ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير "[٣] .

٤- وذكر - صلى الله عليه وسلم - أنه في آخر الزمان بعد ذهاب المؤمنين يبقى الأشرار ، يتهارجون تهارج الحمر[٤] كما في حديث النواس بن سمعان - ﷺ - : " ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة "[٥] .

٥- وقال - صلى الله عليه وسلم - : " بين يدي الساعة يظهر الربا "[٦] .

٦- وقال : " إن من أشراط الساعة ... (وذكر منها) ويشرب الخمر "[٧] .

٧- وقال : " والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل ، ولا المقتول فيم قُتل ؟ " فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : " الهرج ، القاتل والمقتول في النار "[٨] .

الرابعة : توسيد الأمر إلى غير أهله :

---

(١) البخاري في " صحيحه " الفتح (١٧٨/١) ، ومسلم في " صحيحه " شرح النووي (٢٢١/١٦) .

(٢) الحاكم في " المستدرك " (٥١٢/٤) وقال : " حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي .

(٣) البخاري في " صحيحه " الفتح (٥١/١٠) .

(٤) أصل الهرج : الكثرة في الشئ والاتساع ، والمراد به هنا : الجماع والنكاح ، والمعنى : أن يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير . النهاية (٢٥٧/٥) وشرح النووي على مسلم (٧٠/١٨) .

(٥) مسلم في " صحيحه " (٧٠/١٨) من شرح النووي .

(٦) رواه الطبراني كما في " الترغيب والترهيب للمنذري (٩/٣) وقال : رواته رواه الصحيح " .

(٧) صحيح مسلم مع شرح النووي (٢٢١/١٦) .

(٨) نفسه (٣٥/١٨) .

ذكرها السيوطي في ضمن ما ذكره من العلامات[١] وقد صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة " قيل : كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : " إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة "[٢]

وبيــن – صـــلى الله عليه وسلم – كيف ترفع الأمانة من قلوب الناس فقال حذيفة – رضي الله عنه – : حدثنا أن الأمانـــة نزلت في جذر[٣] قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة ، وحديثنا عن رفعها قال : " ينام الرجل الــنومة فتقــبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[٤] ثم ينام الومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل[٥] ، كجمر دحرجته على رجل فنفط[٦] فتراه منتبراً[٧] ، وليس فيه شئ فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة ، فيقال : إن فــي بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل ما أعقله ، وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولقــد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً رده عليّ الإسلام ، وإن كان نصرانياً رده علي ساعين ، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً "[٨] .

الخامسة : الحرص على الدنيا والتنافس فيها :

ذكــرها الســيوطي فيما ذكر من العلامات[٩] وهو من الأخلاق الذميمة التي تحمل صاحبها على الفسق والخداع والشح بما في يده .

ورد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " إن من أشراط الساعة أن يظهر الشح "[١٠] .

ويروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " يتقارب الزمان وينقص العمل ، ويلقى الشح "[١١]

وبهذا الشح يحرص الناس على الدنيا ويتنافسون فيها ويلهيهم لتكاثر منها حتى تشارك النساء الرجال في التجارة .

قال – ﷺ- : " بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفشوة التجارة حتى تشارك المرأة زوجها في التجارة "[١٢] .

وقـــال أيضاً : " والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم "[١٣] .

وهــذا التــنافس والــتكاثر في الدنيا يجر صاحبه إلى ضعف الدين ، فيتنازع الناس ، ويتباغضوا فتتفرق كلمتهم

---

(١) انظر : معترك الأقران (١٠١/٣) .
(٢) البخاري في " صحيحه " الفتح (٣٣٣/١١) .
(٣) الجذر : الأصل من كل شئ . النهاية (٢٥٠/١) .
(٤) الوكت : جمع وكته ، وهي الأثر في الشئ كالنقطة من غير لونه – النهاية (٢١٨/٥) .
(٥) المجل : هو ما يكون في الكف من أثر العمل بالأشياء الصلبة الخشنة كهيئة البثر . النهاية (٣٠٠/٤) .
(٦) نفط : بفتح ثم كسر : بثرة تخرج في اليد من العمل ملأى ماء . اللسان (٤١٦/٧) .
(٧) المنتبر : المرتفع ، يقال : انتبر الجرح إذا انتفخ وامتلأ ماء . النهاية (٥/٧-٨) .
(٨) البخاري في " صحيحه " الفتح (٣٣٣/١١) .
(٩) انظر : معترك الأقران (١٠١/٣) .
(١٠) الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٣٢٧/٧) " رجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث بن سفيان ، وهو ثقة " .
(١١) البخاري في " صحيحه " الفتح (١٣/١٣) .
(١٢) أحمد في " المسند " (٣٣٣/٥) مع شرح أحمد شاكر وقال : " إسناده صحيح " . والحاكم في " المستدرك " (٤٤٥/٤-٤٤٦) .
(١٣) البخاري في " صحيحه " الفتح (٢٥٧/٦-٢٥٨) ، ومسلم في " صحيحه " شرح النووي (٩٥/١٨) .

وتذهب شوكتهم .

السادسة : رفع القرآن وقبض العلم :

ذكرها الجلال السيوطي في معرض كلامه عن بعض أشراط الساعة[١] .

ورد عــن عــبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : " لينزعن القرآن من بين أظهركم ، يُسرى عليه ليلاً ، فيذهب من أجواف الرجال ، فلا يبقى في الأرض منه شئ "[٢] .

قــال شــيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : " يُسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور ، فلا يبقى في الصدور منه كلمة ، ولا في المصاحف منه حرف "[٣] .

وأعظــم من هذا أن لا يذكر رب العالمين ، ولا ينطق أحد باسمه جل وعلا كما صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله . الله "[٤]

وفي معناه قولان :

١- أن لا يــنكر مــنكر ، ولا يزجر أحد إذا تعاطاه كما ورد في الحديث : " ...فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً "[٥] .

٢- أن لا يذكــر رب العالمين في الأرض ، ولا يعرف اسمه – عز وجل – وذلك عند فساد الزمان ، وضلال الانسان ، وكثرة الكفر والفسوق والعصيان[٦] .

أمــا قــبض العلم ، فقد صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت الجهل "[٧] .

وصح عنه – ﷺ– أيضاً أنه قال : " إن بين يدي اساعة لأياماً يُنزل فيها الجهل ، ويرفع العلم "[٨] .

وفي رواية لمسلم : " يتقارب الزمان ، ويقبض العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى الشح ، ويكثر الهرج "[٩] .

ويثــبت عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغي علم فضلوا وأضلوا "[١٠] .

والمــراد بالعلم في هذه الأحاديث علم الشريعة ، والعلم بالكتاب والسنة فهو العلم الموروث عن النبي – صلى الله

---

(١) انظر : معترك الأقران (١٠١/٣) .
(٢) رواه الطبراني ، قال في " مجمع الزوائد " : " رجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة " المجمع (٣٢٩/٧-٣٣٠) .
(٣) مجموع الفتاوى (١٩٨/٣-١٩٩) .
(٤) مسلم في " صحيحه " مع شرح النووي (١٧٨/٢) .
(٥) مسند الإمام أحمد بشرح أحمد شاكر (١٨١/١١-١٨٢) وقال " إسناده صحيح " .
(٦) انظر : ابن كثير : النهاية (١٨٦/١) .
(٧) صحيح البخاري مع الفتح (١٧٨/١) ، ومسلم مع شرح النووي (٢٢٢/١٦) .
(٨) صحيح البخاري مع الفتح (١٣/١٣) .
(٩) صحيح مسلم مع شرح النووي (٢٢٢/١٦-٢٢٣) .
(١٠) صحيح البخاري مع الفتح (١٩٤/١) ، ومسلم مع شرح النووي (٢٢٣/١٦-٢٢٤) .

عليه وسلم - والعلماء ورثته ، وبذهابهم يذهب العلم ، وتموت السنة وتكثر البدع ويعم الجهل .

ويدل على أن علم الشرع قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ...فسئلوا فأفتوا بغير علم " والفتوى والاستفتاء لا يكون إلا للشرع ، أما علم الدنيا فهو في نماء وازدياد واضطراد وليس هو المراد من هذه الأحاديث .

المبحث الثاني

ما ذكره السيوطي من العلامات الكبرى

الأولى : ظهور المهدي المنتظر - عليه السلام - .

ذكره السيوطي ضمن فتوى من فتاويه التي تضمنها " الحاوي " وقد ذكره أيضاً في أرجوزته المسماة " تحفة المهتدين بأسماء المجددين " ضمن رسالة " التنبئة بمن يبعثه الله تعالى على رأس كل مئة " . وكلامه في الفتوى أعم من كلامه في التحفة وسيكون المعول عليه إن شاء الله تعالى .

قال السيوطي : " الأحاديث في المهدي مختلفة ، وكذلك العلماء ففي بعضها : " لا مهدي إلا عيسى بن مريم " وأكثر الأحاديث على أن غيره ، وأنه من أهل البيت ثم في بعضها أنه من ولد فاطمة . وفي بعضها أنه من ولد العباس ، وبعض العلماء حمله على المهدي ثالث خلفاء بني العباس الذي تولى الخلافة في القرن الثاني ، والذي ترجح عندي من أكثر الأحاديث أنه غيره ، وأنه خليفة يقوم في آخر الزمان ، وأنه من ولد فاطمة ، وقد ثبت في أحاديث أنه يخرج من قبل المشرق ، وأنه يبايع له بمكة بين الركن والمقام ، وأنه يدخل بيت المقدس ، وأنه يمكث سبع سنين ، وأنه يملأ الأرض عدلاً "(١) هذا الجزء من الفتوى المتعلق بالمهدي من كلام السيوطي ، وهو يحتاج إلى شئ من البيان ليعرف ما صح منه .

١- اسمه : محمد ، أو أحمد بن عبدالله ، من ذرية فاطمة - رضي الله عنها - بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم من ولد الحسن بن علي - رضي الله عنهم قال ابن كثير : " هو محمد بن عبدالله العلوي الفاطمي الحسني - ﷺ - "(٢) .

٢- يكون ظهوره من قبل المشرق كما قال السيوطي ، يؤيده ما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لا يصير إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يُقتله قوم ... فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله المهدي "(٣) .

قال ابن كثير - رحمه الله - : المراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة ... والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق ، ويبايع له عند البيت "(٤) .

الأدلة من السنة النبوية على ظهوره :

١- عن أبي سعيد الخذري - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " يخرج في آخر أمتي

---

(١) الحاوي للفتاوى (٣٧٩/١) .

(٢) النهاية (٢٩/١) .

(٣) سنن ابن ماجة (١٣٦٧/٢) . ومستدرك الحاكم (٤٦٣/٤-٤٦٤) وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين " ووافقه الذهبي .
وقال ابن كثير : النهاية (٢٩/١) : " هذا إسناد قوي صحيح " .
وصححه الألباني في " سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة " (١١٩/١) ح رقم (٨٥) .

(٤) النهاية (٢٩/١-٣٠) .

المهـدي . يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويعطى المال صحاحاً ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأمة يعيش سبعاً أو ثمانيا ، (يعني : حججاً) "(١) .

٢- وعـنه - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أبشركم بالمهدي ، يبعث على اختلاف مـن الناس وزلازل ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض يقسم المـال صحاحاً ، فقال له رجل : ما صحاحاً ؟ قال : " بالسوية بين الناس " . قال : " ويملأ الله قلوب أمة محمد - صلى الله عـليه وسلم - غنى ، ويسعهم عدله ، حتى يأمر منادياً ، فينادي فيقول : من له في ما حاجة ؟ فما يقوم من الناس إلا رجـل ، فيقول : إئت السدان - يعني الخازن - فقل له : إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً ، فيقول له : احث ، حتى إذا حجـره وأبـرزه ، ندم ، فيقول كنت أجشع أمة محمد نفساً ، أو عجز عني ما وسعهم ؟ " قال : " فيرده ، فلا يقبل منه ، فيقال : إنا لا نأخذ شيئاً أعطيناه ، فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ثم لا خير في العيش بعده " أو قال : " ثم لا خير في الحياة بعده "(٢) .

٣- وعـن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " المهدي منا أهل البيت ، يصلحه الله في ليلة "(٣) .

قال ابن كثير - رحمه الله - : " أي يتوب عليه ، ويوفقه ، ويلهمه ، ويرشده ، بعد أن لم يكن كذلك "(٤) .

٤- وعـن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " المهدي مني ، أجلى الجبهة(٥) أقنى الأنف(٦) ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين "(٧) .

٥- وعـن أم سـلمة - رضي الله عنها - قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " المهدي من عترتي(٨) ، من ولد فاطمة "(٩) .

---

(١) مستدرك الحاكم (٤/٥٥٧-٥٥٨) وقال : " هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/٣٣٦) ح رقم (٧١١) .
(٢) مسند أحمد (٣/٣٧) مع منتخب كنز العمال ، وقال الهيثمي : " رواه الترمذي وغيره باختصار كثير ، ورواه أحمد بأسانيد ، وابو يعلي باختصار كثير ، ورجالهما ثقات " مجمع الزوائد (٧/٣١٣) . وانظر : عبدالمحسن العباد : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (ص١٧٧) .
(٣) مسند أحمد (٢/٥٨) ت. أحمد شاكر ، وقال : " إسناده صحيح " وسنن ابن ماجة (٢/١٣٦٧) . وصححه الألباني : صحيح الجامع الصغير (٦/٢٢) ح رقم (٦٦١١) .
(٤) النهاية (١/٢٩) .
(٥) الأجلى : الذي انحسر الشعر عن جبهته . النهاية لابن الأثير (١/٢٩٠) .
(٦) القنا في الأنف : طول ورقة أرنبته مع جدب في وسطه . النهاية (٤/١١٦) .
(٧) سـنن أبـي داود (١١/٣٧٥) ح رقـم (٤٢٦٥) وقال ابن القيم : " سنده جيد " المنار المنيف (ص١٤٤) ت. عبدالفتاح أبو غدة ، ورواه الحاكم في " المسـتدرك " (٤/٥٥٧) وقـال : " هـذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه " ، وقال الذهبي : " عمران ضعيف لم يخرج له مسلم " وقال المنذري : " عمران ...استشهد به البخاري ، ووثقه عفان بن مسلم ، وأحسن عليه الثناء يحيى بن سعيد القطان ، وضعفه يحيى بن معين والنسائي " عون المعبود (١١/٣٧٥) وقال الذهبي في " الميزان " (٣/٢٣٦) : " قال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث ، وقال ابو داود : ضعيف " وقال ابن حجر في " تقريب التهذيب " (٢/٨٣) : " صدوق يهم ، ورمى برأي الخوارج " . وحسن الحديث الألباني في " صحيح الجامع " (٦/٢٢-٢٣) ح رقم (٦٦١٢) .
(٨) عترة الرجل : نسله ورهطه .
(٩) سنن أبي داود (١١/٣٧٣) ، وسنن ابن ماجة (٢/١٣٦٨) ، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٦/٢٢) ح رقم (٦٦١٠) .

٦- وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه "[١] .

٧- وعـن جابـر - رضـي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي : تعالى صل بنا ، فيقول : لا ، إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله هذه الأمة "[٢] .

٨- وعـن عـبدالله بـن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا تذهب ، أو لا تنقضـي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي "[٣] وفي رواية : " يواطئ اسمه اسمي واسم ابن اسم أبي "[٤] .

٩- وعـن أبـي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم "[٥] .

١٠- وعن جابر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " لا تزال طائفة من أمتي يقاتـلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال : " فينزل عيسى بن مريم - صلى الله عليه وسلم - فيقول اميرهم تعالى صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء . تكرمة الله لهذه الأمة "[٦] .

والأحاديث الواردة في هذا الموضوع كثيرة جداً بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، وقد نص على ذلك بعض العلماء[٧]

الثانية : ظهور المسيح الدجال :

كلمة " المسيح تطلق على شخصين : أحدهما صديق ، والثاني ضليل كذاب زنديق .

فالمسـيح الصديق هو : عبدالله ورسوله : عيسى بن مريم - عليه السلام - مسيح الهدى الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله تعالى .

---

(١) رواه أبـو نعيم في " أخبار المهدي " كما قال السيوطي في الحاوي (٦٤/٢) ورمز له بالضعف ، وكذلك المناوي في " فيض القدير " (١٧/٦) ، وقال الألباني في " صحيح الجامع الصغير " (٢١٩/٥) ح رقم (٥٧٩٦) " صحيح " وقال الشيخ عبدالعليم عبدالعظيم في رسالة علمية لنيل درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (ص٢٤١) قال : " إسناده حسن لشواهده " .

(٢) رواه الحـارث بن أبي اسامة في " مسنده " كما قال ابن القيم في " المنار المنيف " (ص١٤٧-١٤٨) ، وكذا في " الحاوي " للسيوطي (٦٤/٢) ، وقال ابن القيم : " هذا إسناد جيد " ، وصححه الشيخ عبدالعليم عبدالعظيم في رسالته " الكلام على أحاديث المهدي " (ص١٤٤) .

(٣) مسند أحمد (١٩٩/٥) ح (٣٥٧٣) ، ت. أحمد شاكر ، وقال : " إسناده صحيح " ، والترمذي ، وسنن أبي داود (٣٧١/١١) .

(٤) سـنن ابـي داود (٣٧٠/١١) ، قال الألباني : " صحيح " - صحيح الجامع الصغير (٧٠/٥-٧١) ح رقم (٥١٨٠) ، وانظر : رسالة الشيخ عبدالعليم عبدالعظيم (ص٢٠٢) .

(٥) صحيح البخاري - مع الفتح (٤٩١/٦) ، وصحيح مسلم - مع شرح النووي (١٩٣/٢) .

(٦) صحيح مسلم - مع شرح النووي (١٩٣/٢-١٩٤) .

(٧) مـنهم : ابـن القيـم : " المنار المنيف " (ص١٤٢) ، ابن حجر : فتح الباري (٤٩٣/٦-٤٩٤) السيوطي : الحاوي (٨٥/٢-٨٦) ، السفاريني : لوامع الأنوار ((٨٤/٢) . والبرزنجي : الإشاعة في اشراط الساعة (ص٨٧) ، (ص١١٢) ، عبدالمحسن العباد : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (ص١٧١-١٧٢) ، الشيخ عبدالعليم عبدالعظيم : الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل ، رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية ، استقصـى فيهـا مـا ورد عـن المهدي من أخبار ، وجملة ما ذكره في هذه الرسالة من الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة وغيرهم ست وثلاثون وثلاثمائـة روايـة (٣٣٦) مـنها اثنان وثلاثون (٣٢) حديثاً ، وأحد عشر (١١) أثراً ، ما بين صحيح وحسن ، الصريح منها في ذكر المهدي تسعة أحاديث ، وستة آثار ، والباقي فيها أوصاف وقرائن تدل على أنها في المهدي . وقد صحح أحاديث المهدي ابن تيمية : منهاج السنة النبوية (٢١١/٤) وابن القيم : المنار المنيف في الصحيح والضعيف (١٤٢) ، ابن كثير : النهاية (٣٢-١٢٤) وغيرهم .

والمسيح الضليل الكذاب : هو مسيح الضلالة الذي يفتن الناس في آخر الزمان بما يعطاه من الخوارق وهو المسيح الدجال .

وسمي الكذاب مسيحاً ، لأن إحدى عينيه ممسوحة ، أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يوماً . والراجح الأول(١) .

و " الدجال " معناه الكذاب المموه ، وأصل " الدجل " : الخلط ، يقال : دجل إذا لبَّس وموه . والدجال مبالغة لأنه يكثر منه الكذب والتلبيس(٢) ، وجمعه دجالون ، أو دجاجلة(٣)

فالمسيح الدجال : هو الأعور الكذاب ، وهو رجل من بني آدم ، أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – في أحاديث كثيرة أنه خارج في آخر الزمان لا محالة ، يلبسْ على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه ، ليضلهم ويفتنهم فيتبعه بعض الجهال ، ضعيفوا الإيمان ، وقد حذر منه جميع الأنبياء أممهم ، وأكثر نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – من وصفه حتى يعرفه المؤمنون إذا ظهر فيهم فيحذروه ويجتنبوه .

ذكره السيوطي في بعض مصنفاته(٤) ولم يذكر عليه أدلة ، وأنا ذاكرها – إن شاء الله تعالى – أو طرفاً منها .

١- عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " بينا أنا نائم أطوف بالكعبة(٥) فإذا رجل آدم سبط الشعر ، ينطف – أو يهراق – رأسه ماءً ، قلت : من هذا ؟ قالوا : ابن مريم ، ثم ذهبت ألتفت فإذا رجل جسيم أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة طافية ، قالوا : هذا الدجال ، أقرب الناس به شبهاً ابن قطن(٦) ، رجل من خزاعة(٧) .

٢- وعنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال : " إن الله تعالى ليس بأعور ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية "(٨) .

٣- وفي حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال – صلى الله عليه وسلم – : " ...وأما مسيح الضلالة فإنه أعور العين أجلى الجبهة ، عريض النحر وفيه دفأ(٩) "(١٠) .

٥- وفي حديث أنس – رضي الله عنه – قال – صلى الله عليه وسلم – : " ...وإن بين عينيه مكتوب كافر "(١١) ، وفي رواية

---

(١) انظر : القرطبي : التذكرة (ص٦٧٩) ، ترتيب القاموس المحيط (٢٣٩/٤) ، النهاية في غريب الحديث (٣٢٦/٤-٣٢٧) ، لسان العرب (٥٩٤/٢) .
(٢) النهاية (١٠٢/٢) .
(٣) لسان العرب (٢٣٦/١١) .
(٤) انظر : علم التوحيد – مخ – لوحة رقم (١٨،١٧) ، معترك الأقران (١٠١/٣) ، الحاوي (٢٩/١-٣١) .
(٥) هذه رؤيا منام ، فقد رأى النبي – صلى الله عليه وسلم – نفسه في المنام وهو يطوف بالكعبة ، ورؤيا الأنبياء وحي .
(٦) اسمه : عبدالعزي بن قطن بن عمرو الخزاعي ، وقيل من بني المصطلق من خزاعة ، وأمه هالة بنت خويلد ، وليس له صحبة ، فقد هلك في الجاهلية ، وما ورد أنه قال للنبي – صلى الله عليه وسلم – : أيضرني شبهه ؟ قال : لا أنت مسلم وهو كافر ، فهي زيادة ضعيفة من رواية المسعودي عند أحمد ، وقد اختلط عليه بحديث آخر . انظر تعليق أحمد شاكر على مسند أحمد (٣١/١٥، ٣٠) ، الإصابة (٢٣٩/٤) ، فتح الباري (٦/ ٤٨٨) ، (١٠٨/١٣) .
(٧) صحيح البخاري – مع الفتح (٩٠/١٣) ، وصحيح مسلم – مع شرح النووي (٢٣٧/٢) .
(٨) صحيح البخاري – مع الفتح (٩٠/١٣) ، وصحيح مسلم – مع شرح النووي (٥٩/١٨) .
(٩) الدفى : مقصود : الانحناء ، ورجل أدفى – بغير همز – فيه انحناء . النهاية (١٢٦/٢) ولسان العرب (٧٧/١) ، (٢٦٣/١٤-٢٦٤) .
(١٠) مسند أحمد – بتحقيق أحمد شاكر (٢٨/١٥-٣٠) وقال المحقق : " إسناده صحيح " ، وحسنه ابن كثير : النهاية (١٣٠/١) .
(١١) صحيح البخاري – مع الفتح (٩١/١٣) ، وصحيح مسلم – مع شرح النووي (٥٩/١٨) .

" ثم تهجاها (ك.ف.ر) يقرؤه كل مسلم "[1] وفي رواية : " يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب "[2].

٦ ـــ وفي حديث حذيفة ﷺ قال رسول الله ﷺ : " الدجال أعور العين اليسرى ... "[3]

ويلاحـــظ مـــن هذه الأحاديث أن في بعضها وصف عينه اليمنى بالعور وفي بعضها الأخر وصف عينه اليسرى أيضاً بالعور وكلاً الروايتين صحيحة . وينشأ من هذا اشكال حله الحافظ ابن حجر بترجيح رواية ابن عمر التي تذكر عور العين اليمنى ، لأنها متفق عليها في الصحيحين ، وهي أقوى – بهذه المثابة – من رواية مسلم وحدها ، لأن الحديث المتفق عليه عند الشيخين أقوى في الصحة من الذي روى في أحد الصحيحين دون الآخر .

أمـــا القاضـــي عياض – رحمه الله تعالى – فقد ذهب مذهباً آخر في الجمع وهو أن عيني الدجال كلتيهما عوراء معيبة ، لأن الروايات كلها صحيحة ، وتكون العين المطموسة والممسوحة هي العوراء الطافئة – بالهمز – أي مطفأة ، قد ذهب ضوؤها ، وهي العين اليمنى – كما في حديث ابن عمر – رضي الله عنهما وتكون العين اليسرى التي عليها ظفرة غـــليظة ، وهي الطافية – بلا همز – معيبة أيضاً فهو أعور العين اليمنى واليسرى معاً ، فكل واحدة منهما عوراء ، أي : معيـــبة ، فـــإن الأعور من كل شئ : المعيب لا سيما ما يختص بالعين ، فكلا عيني الدجال معيبة عوراء إحداهما عوراء بذهابها ، والأخرى عوراء بعيبها .قال النووي في هذا الجمع ، " وهو في نهاية من الحسن "[4] ورجحه القرطبي[5] .

<u>**مكان خروجه :**</u> ورد في حديث فاطمة بنت قيس الطويل الذي يسميه العلماء بحيدث الجساسة ، يقول النبي – صلى الله عليه وســـلم – : " ...ألا إنـــه في بحر الشام ، أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق ما هو ، من قبل المشرق ما هو (وأومأ بيده إلى المشرق) "[6] .

وعـــن أبـــي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " الدجال يخرج من أرض بالمشرق ، يقال لها : خراسان "[7] " .

– وعن أنس – رضي الله عنه – قال : قال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " يخرج الدجال من يهودية أصبهان ، معه سبعون ألفاً من اليهود "[8] .

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – : " وأما أين يخرج ؟ فمن قبل المشرق جزماً "[9] .

وقال ابن كثير – رحمه الله تعالى – : " فيكون بدء ظهوره من أصبهان ، من حارة يقال لها : اليهودية "[10] .

---

(١) صحيح مسلم – مع شرح النووي (١٨/٥٩) .
(٢) نفسه (١٨/٦١) .
(٣) صحيح مسلم (١٨/٦٠) مع شرح النووي .
(٤) شرح صحيح مسلم (٢/٢٣٥) .
(٥) التذكرة (ص٦٦٣) .
(٦) صحيح مسلم – مع شرح النووي (١٨/٨٣) .
(٧) سنن الترمذي (٦/٤٩٥) مع تحفة الأحوذي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣/١٥٠) ح رقم (٣٣٩٨) .
(٨) الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد (٢٤/٧٣) وصححه ابن حجر في فتح الباري (١٣/٣٢٨) .
(٩) فتح الباري (١٣/٩١) .
(١٠) النهاية (١/١٢٨) .

الدجال لا يدخل مكة ولا المدينة : ورد في الأحاديث الصحيحة أن الدجال عندما يظهر يسير في الأرض فلا يدع قرية إلا هبطها عدا مكة والمدينة .

- في حديث فاطمة بنت قيس - رضي الله عنها - ورد في كلام الدجال قال : " ...فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليّ كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة - أو واحداً - منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها "[١] .

- وفي مسند أحمد : " ...وإنه يمكث في الأرض أربعين صباحاً ، يبلغ فيها كل منهل ، ولا يقرب أربعة مساجد : مسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، ومسجد الطور ، ومسجد الأقصى "[٢] .

أتباع الدجال :

أكثر أتباع الدجال من اليهود كما ذكر في حديث أنس - رضي الله عنه - السابق ، وكذلك يتبعه كثير من العجم والترك ، وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنسا .

- عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة "[٣] .

- وقال - صلى الله عليه وسلم - : " يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة "[٤] قال ابن كثير : " والظاهر - والله أعلم - أن المراد هؤلاء الترك أنصال الدجال "[٥] .

- وفي حديث طويل لأبي أمامة ، يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " وإن من فتنته (يعني الدجال) أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان : يا بني : اتبعه فإنه ربك "[٦] .

وهذا من غلبة الجهل على الأعراب ، والنساء أسوأ حالاً من الأعراب في الجهل وسرعة التأثر بالفتن يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " ينزل الدجال في هذه السبخة بمرقناة[٧] فيكون أكثر من يخرج إليه النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى حميه وإلى أمه وابنته واخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه "[٨] .

أما فتنته : ففتنته عظيمة بسبب يدعو إليه من الكفر والشرك ،ويأتي على ذلك بأمور خارقة ليصدقه الناس في دعواه .

- قال النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يحذر الناس من فتنته : " معه جنة ونار ، فناره جنة ، وجنته نار "[٩] .

---

(١) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٨٣/١٨) .
(٢) الفتح الرباني (٧٦/٢٤) وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٣٤٣/٧) " ورجاله رجال الصحيح " .
(٣) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٨٥/١٨-٨٦) .
(٤) تحفة الأحوذي (٤٩٥/٦) من حديث أبي بكر الصديق ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٠/٣) .
(٥) النهاية (١١٧/١) .
(٦) سنن ابن ماجة (١٣٥٩/٢-١٣٦٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٣/٦-٢٧٧) .
(٧) (مرقناة) : واد بالمدينة يأتي من الطائف ويمر بطرق القدوم في أصل قبور الشهداء بأحد - معجم البلدان (٤٠١/٤) .
(٨) مسند أحمد - ت . أحمد شاكر (١٩٠/٧) رقم (٥٣٥٣) وقال المحقق : " إسناده صحيح " .
(٩) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٦٠/١٨-٦١) .

- وقـــال أيضاً : " لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما رأي العين ماء أبيض ، والآخر راي العين نار تأجج ، فإما أدركن أحد ، فليات النهر الذي يراه ناراً ، وليغمض ، ثم ليطأطئ رأسه ، فيشرب منه فإنه ماء بارد "(١) .

- وقـــال – صـــلى الله عـــليه وسلم – عن لبث الدجال في الأرض : " أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وســـائر أيامـــه كأيـــامكم " قالوا وما إسراعه في الأرض ؟ قال : " كالغيث إذا استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمـــنون بـــه ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم(٢) أطول ما كانت ذُرا(٣) ، وأسبغه ضروعاً(٤) وأمده خواصير ، ثم يأتي القوم فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس معهم شئ من أموالهم ، ويمر بالجربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل(٥) ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك "(٦) .

- وجـــاء فـــي رواية : أن هذا الرجل الذي يقتله الدجال من خيار الناس ، أو خير الناس . يخرج إلى الدجال من مدينة رســـول الله – صلى الله عليه وسلم – فيقول للدجال : " أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حديـــثه ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول : (أي الرجل) : والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه "(٧) .

وقد سبق معنا من حديث أبي أمامة الباهلي – رضي الله عنه – أن هذا الدجال : " من فتنته أن يقول للأعرابي : أرأيـــت إن بعثت لك أباك وأمك ، أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه ، فيقولان : يا بني اتبعه فإنه ربك "(٨) .

فهذا طرف من فتنته – نعوذ بالله من فتنته ومن جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ونسأل الله السلامة والعافية .

<u>الوقاية من فتنة الدجال :</u>

أرشـــدنا النبي – ﷺ– إلى ما يعصمنا من هذه الفتنة العظيمة ، فتنة المسيح الدجال ، فهو الرؤوف الرحيم الذي ما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه ، ومن هذه الشرور التي حذر أمته منها فتن الدجال .

ومن هذه التوجيهات :

١- معـــرفة الله تعـــالى بأســـمائه وصـــفاته ، وأنه تعالى موصوف بكل كمال منزه عن كل نقص ، وأنه تعالى له الأسماء الحســـنى والصـــفات العلى التي لا يشاركه فيها أحد من الخلق ، فإذا علم المؤمن ذلك عرف أن المسيح الدجال بشر يأكل

---

(١) نفسه (٦١/١٨) .
(٢) السارحة : هي الماشية .
(٣) ذرا : بضم الذال المعجمة وهي الأعمال والأسنمة .
(٤) أسبغه : بالسين المهملة والغين المعجمة أي " أطوله لكثرة اللبن ، وكذا أمده خواصر لكثرة امتلائها من الشبع – شرح النووي على صحيح مسلم (٦٦/١٨) .
(٥) يعاســـب الـــنحل : جمـــع يعسوب ،وهو ذكر النحل ، ويسمى كل سيد يعسوباً وإذا طار أمير النحل اتبعته جماعاتها – انظر مشارق الأنوار للقاضي عياض (٣٠٥/٢) ، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم (٦٧/١٨) .
(٦) صحيح مسلم – مع شرح النووي (٦٥/١٨-٦٦) .
(٧) صحيح البخاري (١٠١/١٣) – مع الفتح .
(٨) سبق تخريجه ، وهو عند ابن ماجة في سننه (١٣٥٩/٢-١٣٦٣) وصححه الألباني في " صحيح الجامع الصغير " (٢٧٣/٦-٢٧٧) ح رقم (٧٧٥٢) .

ويشـــرب ، والله تعـــالى منزه عن ذلك ، وأنه تعالى منزه عن العور والعيوب ، في حين أن الدجال أعور معيب والله عز وجل ليس كذلك - كما أن الله تعالى لا يمكن لأحد رؤيته في الدنيا لكن الدجال يراه الناس عند خروجه ، فيتبين من ذلك أنه كذاب في دعواه وأفعاله فلا يصدق ولا يتابع فيما يقوله ويدعيه .

٢- الـــتعوذ بـــالله تعالى من فتنته ، خاصة في الصلاة ، فقد قال : - صلى الله عليه وسلم - : " إذا تشهد أحدكم ، فليستعذ بالله من أربع يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال "[١] .

- وكان طاووس يأمر ابنه بإعادة الصلاة إذا لم يقرأ بهذا الدعاء فيها[٢] .

٣- حفظ آيات من سورة الكهف ، فقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقراءة فواتح سورة الكهف على الدجال ، وفي بعض الروايات خواتيمها .

- ففـــي حديـــث النواس بن سمعان ، يقول - صلى الله عليه وسلم - : " ... من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف "[٣] .

- وفي حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال " .

قال مسلم : قال " شعبة : من آخر سورة الكهف ، وقال همام : من أول الكهف "[٤] .

٤- الفـــرار من الدجال والابتعاد عنه ، قال - صلى الله عليه وسلم - : " من سمع بالدجال فلينأ عنه . فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات "[٥] .

إذاً فـــالذي ينبغي على المؤمن حين يسمع بهذا الدجال أن يبتعد عنه ، ولا يقترب منه ، ولا يقول أذهب لأرى ، ولا يقول أذهب لأقتله ، لأن الذي سيتولى قتله هو المسيح ابن مريم - عليه السلام - فقد قال - صلى الله عليه وسلم - : " يخرج الدجال في أمتي ... (فذكر الحديث وفيه) فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه"[٦] .

- وفـــي حديـــث النواس بن سمعان ، ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - نزو ل عيسى - عليه السلام - وقتله الدجال ، وفيـــه يقـــول : " فـــلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله"[٧] وبقتله تنتهي فتنته ، وقانا الله والمسلمين شر كل فتنة .

<u>**الثالثة :**</u> نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - :

ذكر السيوطي هذه العلامة ولم يفصل القول فيها فقال :

---

(١) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٥/٨٧) .

(٢) نفسه (٥/٨٩) . كأن طاوساً - رحمه الله - كان يرى وجوب قراءة هذا الدعاء في الصلاة بعد التشهد ، ولذا أمر ابنه بالإعادة .

(٣) صحيح مسلم - مع شرح النووي (١٨/٦٥) .

(٤) نفسه (٦/٩٢) .

(٥) الفتح الرباني (٢٤/٧٤) ، وسنن أبي داود (١١/٢٤٢) مع عون المعبود ، ومستدرك الحاكم (٤/٥٣١) وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح الاسناد على شرط مسلم ، ولم يخرجاه " وسكت عنه الذهبي ، وصححه الألباني في " صحيح الجامع الصغير (٥/٣٠٣) ح رقم (٦١٧٧) .

(٦) صحيح مسلم - مع شرح النووي (١٨/٧٥-٧٦) .

(٧) نفسه (١٨/٦٧-٦٨) .

" وآخر المئين فيها يأتي | عيسى نبي الله ذو الآيـات
يجدد الدين لهـذى الأمة | وفي الصلاة بعضنا قد أمَّه
مقرراً لشرعنا ويحكـم | بحكمنا إذ في السماء يعلمُ "(١)

وهذا تصريح منه بنزول عيسى – عليه السلام – في آخر الزمان يجدد الدين لأمة الإسلام ، بمعنى أنه يبين السنن وينشـرها ويذكر الناس بها ويدعوهم إليها ، ويبين البدع ويردها ويحذرهم منها ، وينشر العلم بين الناس ، وينصر أهله ، ويبعث فيهم الهمم القوية لطلب العلم ، والخروج من الجهل ، فإنه مع تقادم العهد بالناس فإن كثيراً منهم يغفل عن كثير من أمور الدين ، فينتشر الجهل وتكثر المخالفات الشرعية ، ويستخف الناس بارتكاب المعاصي والمنكرات ، وقول السيوطي : " وفـي الصلاة بعضنا قد أمه " إشارة إلى ظهور المهدي محمد بن عبدالله الفاطمي العلوي – رضي الله عنه – وقد مضى الكلام عنه مفصلاً .

والكلام هنا عن عيسى ابن مريم – عليه السلام – يقول السيوطي : " ونؤمن بنزوله في آخر الزمان ، ويقتل الدجال "(٢) .

فإنه إذا ظهر خليفة آخر الزمان المهدي المنتظر ، فيقود المؤمنين إلى الدعوة والجهاد ، عند ذلك يظهر الدجال فيتوجه المهدي بالمؤمنين لقتاله ، فينزل عيسى – عليه السلام – ويلتقي بالمهدي ويسيرون معاً للقاء الدجال فيدركه عيسى – عليه السلام – فيقتله عند باب لد(٣) بفلسطين .

– أمـا موضع نزوله – عليه السلام – فهو عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام . قال ابن كثير : " هذا هو الأشهر في موضـع نزوله أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق ، وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق فلعل هذا هو المحفوظ... وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى جانب الجامع الأموي بدمشق من شرقيه ، وهذا هو الأنسب والأليق "(٤) .

وذكر ابن كثير أنه في زمنه سنة إحدى وأربعين وسبع مئة جدد المسلمون منارة من حجارة بيض ، وكان بناؤها من أموال النصارى الذين حرقوا المنارة التي كانت مكانها ، ولعل هذا يكون من دلائل النبوة الظاهرة ، حيث قيض الله بناء هـذه المنارة من أموال النصارى لينزل عيسى بن مريم عليها ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل منهم الجزية ، ولكن من أسلم وإلا قتل ، وكذلك غيرهم من الكفار(٥) .

وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في صفة نزول عيسى ابن مريم – عليه السلام – : " إذا بعث الله المسيح ابـن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين(٦) ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه

---

(١) التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة (ص٧٥) ، وانظر : معترك الأقران (٣/١٠١) ، (٢/٦١٧) .
(٢) معترك الأقران (٢/٦١٧) .
(٣) (اللد) بلدة بفلسطين قرب بيت المقدس . معجم البلدان (٥/١٥) .
(٤) النهاية – الفتن والملاحم (١/١٤٤-١٤٥) .
(٥) السابق نفسه (١/١٤٥) .
(٦) روى بالدال المهملة والذال المعجمة ، والمهملة أكثر ، والمعنى : لا بس مهرودتين ، أي ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران – شرح النووي (٦٧/٨) وانظر : لسان العرب (٣/٤٣٥) ، النهاية (٥/٢٥٨) .

قطـر ، وإذا رفـع تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلـبه - أي يطـلب الدجـال - حتى يدركه بباب لد فيقتله ، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة "(١) .

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على نزول عيسى - عليه السلام - قال تعالى : (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومـك مـنه يصدون) إلى قوله تعالى : (وإنه لعلم للساعة...)(٢) أي : نزول عيسى - عليه السلام - علامة على قرب الساعة وقرئ : (وإنه لعَلَمٌ للساعة) بفتح العين واللام أي " علامة وأمارة على قيام الساعة "(٣) .

- وقـال جل وعلا : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)(٤) فهذه الآية الكريمة تـدل على أن فريقاً من أهل الكتاب سيؤمن بعيسى - عليه السلام - بعد نزوله ، وقبل موته ، لأنه رفع إلى السماء حياً ، ولم يزل كذلك حتى ينزل آخر الزمان فيؤمنون به الإيمان الحق الذي قرره دين الإسلام . وهذا أحد القولين في معنى الآية(٥) وهو اختيار ابن جرير حيث قال : " وأولى الأقوال بالصحة قول من قال : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى "(٦) وروى بسنده عن الحسن البصري أنه قال : " قبل موت عيسى ، والله إنه الآن حي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون "(٧) وصححه ابن كثير - رحمه الله تعالى -(٨) .

وهذا يؤيد ما قاله السيوطي من أن عيسى بن مريم - عليه السلام - سينزل آخر الزمان ويقتل الدجال ، وهو ما اتفق عليه علماء المسلمين .

يظهر بجلاء صحة حصول هذه الآية ، وهي نزول المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - آخر الزمان ، وهي من عقائد أهل السنة والجماعة الثابتة - كما تقدم - وبه يظهر صحة ما قاله جلال الدين السيوطي .

<u>الرابعة :</u> يأجوج ومأجوج :

ذكـرها السيوطي ولم يفصل فيها القول(٩) . ومما ذكره السيوطي فيهم أنه قال : " ونزوله (يعني المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام) قبل يأجوج ومأجوج ، فإنهم يخرجون في أواخر أيامه ، وأما طول يأجوج ومأجوج ففي أثر أخرجه ابـن المـنذر عـن ابن عباس موقوفاً أنهم شبر وشبران وثلاثة أشبار ، وفي حديث ضعيف مرفوع أخرجه الطبراني أنهم أصـناف صنف منهم طول الأرز (١٠) وصنف منهم يفترش بإذنه ويلتحف بالأخرى ، وأما خروجهم فمن خلف السد أقصى

---

(١) صحيح مسلم - مع شرح النووي (١٨/٦٧-٦٨) .
(٢) سورة الزخرف ، الآيات (٥٧-٦١) .
(٣) ابن جرير (٢٥/٩٠-٩١) ، القرطبي (١٦/١٠٥) وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وغيرهما
(٤) سورة النساء ، الآية (١٥٩) .
(٥) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠٤-٤٠٥) .
(٦) جامع البيان (٦/٢١) .
(٧) نفسه (١/١٨) .
(٨) انظر : تفسير القرآن العظم (٢/٤١٥) .
(٩) انظر : معترك الأقران (٣/١٠١) ، الحاوي (١/٣٧٩) .
(١٠) الأرز : بسكون الراء وفتحها : شجر الصنوبر .

بلاد الترك ، وفي الحديث أن مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان ، وأما مدة إقامتهم فيسيرة فإنهم يخرجون في زمن عيسى ، ويهلكون في زمنه "[١] .

هذا ما ذكره السيوطي وهو يتضمن عدة أمور :

١- الاعتقاد بخروجهم . ٢- مكان خروجهم .

٣- صفتهم وأصنافهم . ٤- مدة لبثهم في الأرض .

وهذه النقاط الأربع تحتاج إلى شئ من التحقيق فأقول وبالله تعالى التوفيق والاستعانة .

أولاً : اعتقاد خروجهم :

خروج يأجوج ومأجوج علامة من علامات الساعة الكبرى ، وقد دل على خروجهم الكتاب ، والسنة .

١- قال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين)[٢] .

يقول ابن كثير : " قد قدمنا أنهم (يعني يأجوج ومأجوج) من سلالة آدم - عليه السلام - بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث أب الترك ، والترك شرذمة منهم ... وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية "[٣] ثم ساق بعض الأحاديث .

٢- وقال تعالى : (ثم اتبع سبباً . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً . قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا . وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً)[٤] .

يقول ابن كثير عن السدين : " هما جبلان متناوحان[٥] بينهما ثغرة يخرج مها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيهم فساداً ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم - عليه السلام - كما ثبت في الصحيحين : " إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك . فيقول ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة . فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فيقال : إن فيكم أمتين ، ما كانتا في شئ إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج "[٦] "[٧] .

---

(١) الحاوي (٣٧٩/١) .
(٢) سورة الأنبياء ، الآيتان (٩٦-٩٧) .
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٦٧/٥) .
(٤) سورة الكهف ، الآيات (٩٢-٩٩) .
(٥) أي متقابلان .
(٦) صحيح البخاري (١٢٢،١٢٣/٦) كتاب التفسير ، تفسير سورة الحج ، كتاب الرقاق (١٣٧،١٣٨/٨) ، صحيح مسلم (١٣٩،١٤٠/١) كتاب الإيمان .
(٧) تفسير القرآن العظيم (١٩١/٥) .

ومن الأحاديث النبوية التي تكلمت عن خروج يأجوج ومأجوج :

١- عـن أم حبيبـة ، بنت أبي سفيان - رضي الله عنهما - عن زينب بنت جحش - رضي الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل عليها يوماً فزعاً يقول : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يـأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها) " قالت زينب بنت جحش : فقلت : يا رسول الله ، أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم ، إذا كثر الخبث "(١) .

٢- وفي حديث النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ...إذا أوحى الله إلى عيسى أني قـد أخـرجت عـباداً لي لا يُدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج . وهم من كل حدب ينسـلون ، فيمر أولئك على بحيرة طبرية فيشرون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماءٌ ، ويحصر نبي الله عيسـى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب إلى الله عيسى وأصحابه فيرسـل الله عـليهم الـنغف(٢) في رقابهم ، فيصبحون فرسى(٣) ، كموت نفس واحدة ، ثم يُهبط بنبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيـراً ، كأعـناق الـبخت(٤) فتحمـلهم ، فتطرحهم حيث شاء الله "(٥) وفي رواية بعد قوله : " لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخَمَر(٦) ، وهو جبل ببيت المقدس . فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض ، هلم فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم(٧) إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماء "(٨) .

٣- وفي حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقي ابراهيم وموسى وعيسى -عليهم السلام - فتذاكروا الساعة... إلى أن قال : " فردوا الحديث إلى عيسى فذكر قتل الدجال ، ثم قال :) ثم يرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، لا يمرون بماء إلا شربوه ، ولا بشئ إلا أفسدوه ، يجأرون إليّ فأدعو الله ، فيرسل السماء بالماء فيحملهم فيقذف بأجسامهم في البحر "(٩) .

وفي الباب أحاديث أخر كثيرة في معنى الذي أوردته منها .

٢- أمـا مكـان خـروجهم : فقد مضى كلام ابن كثير أنهم يخرجون من بين السدين اللذين ذكروا في القرآن وهما جبلان متقابلان يخرجون من ثغرة بينهما على بلاد الترك .

٣- وعـن صفتهم وأصنافهم : فقد ذكر السيوطي أنهم شبر وشبران وثلاثة أشبار ، وأن منهم صنف طول شجر الأرز مائة

---

(١) صحيح البخاري - مع الفتح (٣٨١/٦) ، (١٠٦/١٣) ، صحيح مسلم - مع شرح النووي (٢/١٨) .

(٢) (النَغَفُ) بالتحريك ، دود يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدها نغفة النهاية (٨٧/٥) .

(٣) (فرسى) بفتح الفاء ، أي قتلى ، الواحد فريس من فرس الذئب الشاة ، وافترسها إذا قتلها، النهاية (٢٢٨/٣) .

(٤) (البُخت) بضم الباء ، جمال طوال الأعناق ، وهي لفظة معربة ، مفردها بختية للأنثى ، وبختي للذكر ، النهاية (١٠١/١) .

(٥) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٦٨/١٨-٦٩) .

(٦) الخمر ، بفتح الخاء والميم ، هو الشجر الملتف الذي يستتر من فيه ، وقد جاء تفسيره في الحديث بأنه جبل ببيت المقدس .

(٧) النشاب : يطلق على النبل والسهام ، واحدته نشابة . لسان العرب (٧٥٧/١) .

(٨) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٧٠/١٨-٧١) .

(٩) مستدرك الحاكم (٤٨٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه أحمد شاكر مسند أحمد (١٨٩/٤) وضعفه الألباني ، في ضعيف الجامع (٢٠/٥) رقم (٤٧١٢) .

وعشرون ذراعاً ، وصنف منهم يفترش بأذن ويلتحف بالأخرى "(١) .

وقد ذكر ابن حجر بعض الآثار ولكنها روايات ضعيفة تدل على أنهم ثلاثة أصناف :

١- صنف أجسادهم كالأرز .

٢- وصنف أربعة أذرع في أربعة أذرع .

٣- وصنف يفترشون آذانهم(٢) .

كما ذكر السيوطي ، ولكن ابن كثير انكر هذه الروايات وقال : " إن من زعم أن هذه صفاتهم فقد تكلف ما لا علم له به ، وقال ما لا دليل عليه "(٣) مما يدل على أن هذه الأوصاف لا تصح لأنها وردت بروايات ضعيفة لا تنهض للاحتجاج ، وهي أشبه ما تكون بالخرافات .

والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء وأشداء لا طاقة لأحد بقتالهم ، ويبعد مع هذا أن يكون طول الواحد منهم شبر أو شبران أو ثلاثة .

٤- وعن مدة لبثهم في الأرض : فهي مدة يسيرة كما قال السيوطي فإنهم يخرجون في زمن عيسى ويهلكون في زمنه(٤) وهذا هو الذي دلت عليه الأحاديث المتقدمة .

الخامسة : طلوع الشمس من مغربها :

ذكرها السيوطي في تعديده لبعض أشراط الساعة(٥) .

ويدل على هذه العلامة - وهي طلوع الشمس من المغرب الكتاب والسنة .

قال تعالى : (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)(٦)

قال ابن جرير - رحمه الله - : " وأولى الأقوال بالصواب في ذلك ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ذلك حين تطلع الشمس من مغربها "(٧) .

وقال الشوكاني : " فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قادح فيه ، فهو واجب التقديم ، محتم الأخذبه "(٨) .

ومن السنة النبوية أدلة صحيحة على هذه الآية أو العلامة :

١- فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس

---

(١) الحاوي (٣٧٩/١) .

(٢) انظر : فتح الباري (١٠٧/١٣) .

(٣) النهاية (١٥٣/١) ، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٨) حديثاً رواه حذيفة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في وصف يأجوج ومأجوج ببعض هذه الصفات ، وعزاه للطبراني في الأوسط ، وفي اسناده يحيى بن سعيد العطار ، وهو ضعيف ، وقال فيه ابن حجر : "ضعيف جداً " انظر : فتح الباري (١٠٦/١٣) .

(٤) انظر : الحاوي (٣٩٧/١) ، والمقصود مدة خروجهم وشرهم المنتشر على الناس ، أما وجودهم فهم موجودون من زمن ذي القرنين .

(٥) انظر : السابق نفسه .

(٦) سورة الأنعام ، الآية (١٥٨) .

(٧) جامع البيان (١٠٣/٨) .

(٨) فتح القدير (١٨٢/٢) .

مـــن مغـــربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً "(١) .

٢- وعنه - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان ... (نذكر الحديـــث وفيه :) وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً "(٢) .

٣- وعـــنه - رضـــي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها... " الحديث(٣) .

٤- وفي حديث حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - في ذكر أشراط الساعة فذكر منها : " طلوع الشمس من مغربها "(٤) .

٥- وعن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها "(٥) .

٥- وعن أبي ذر - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال يوماً : " أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ " قـــالوا : الله ورسوله أعلم ، قال " إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقـــال لها : ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ، ولا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً ، حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش ، فيقال لها : ارتفعي ، أصبحي طالعة من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها " فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الله عليه وسلم : " أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً "(٦) .

وإذا طـــلعت الشمس من مغربها ، أغلق باب الإيمان والتوبة ممن لم يكن قبل ذلك مؤمناً ، فإنها آية عظيمة يراها كـــل مـــن كـــان في ذلك حياً في زمان ذلك التحول الخطير لمسيرها المعتاد ، وحينئذ تنكشف لهم الحقائق ، ويشاهدون من الأهـــوال ما يلوي أعناقهم إلى الإقرار والتصديق بالله وآياته وما أخبر الناس به ، وهذا الاقرار والتصديق لا ينفعهم حينئذ لأن حكمهم آنذاك حكم من عاين بأس الله تعالى . كما قال جل وعلا : (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون)(٧) .

قال ابن كثير - رحمه الله - : " إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان

---

(١) صحيح البخاري - مع الفتح (٣٥٢/١١) ، وصحيح مسلم - مع شرح النووي (١٩٤/٢) .
(٢) صحيح البخاري - مع الفتح (٨١/١٣-٨٢) .
(٣) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٨٧/١٨) .
(٤) نفسه (٢٧/١٨-٢٨) .
(٥) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٧٧/١٨-٧٨) ، وأحمد في المسند (١١٠/١١-١١١) ت أحمد شاكر .
(٦) صحيح مسلم (١٩٥/٢-١٩٦) مع شرح النووي ، ورواه البخاري مختصراً في صحيحه (٥٤١/٨) مع الفتح .
(٧) سورة غافر ، الآية (٨٥) .

مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخلطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبة "[١] .

يؤكـد هـذا المعـنى قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل "[٢] .

وقولـه – عليه الصلاة والسلام – : " إن الله عز وجل جعل بالمغرب باباً عرض مسيرة سبعين عاماً للتوبة ، لا يغـلق حـتى تطلع الشمس من قبله وذلك قول الله تبارك وتعالى : (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت...) الآية[٣] "[٤] .

وقولـه – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها "[٥] .

السادسة : ظهور الدابة :

اشار السيوطي إلى هذه العلامة في معرض كلامه عن أشراط الساعة[٦] .

وقـد وردت أدلـة على ظهور هذه الدابة في آخر الزمان تسم الناس على وجوههم بالكفر والإيمان ، فتجلو وجه المؤمن ، وتخم أنف الكافر . من هذه الأدلة :

١- قوله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)[٧] .

فإذا وقع القول عليهم أي : وجب الوعيد عليهم ، لتماديهم في العصيان والفسوق والطغيان ، وإعراضهم عن آيات الله ، وتـركهم تدبرها والنزول على حكمها ، وانتهائهم في المعاصي إلى ما لا ينجح معه فيهم موعظة ، ولا يصرفهم عن غيهم تذكرة ، يقول عز من قائل : فإذا صاروا كذلك أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أي دابة تعقل وتنطق ، والدواب في العادة لا كلام لها ولا عقل ، ليعلم الناس أن ذلك آية من عند الله تعالى "[٨] .

وقد وردت أدلة في السنة النبوية على ظهور الدابة منها :

١- عـن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : حفظت من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسـول الله – صـلى الله عليه وسلم – يقول : " إن أول الآيات خروجاً : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريباً "[٩] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٧١/٣) .

(٢) مسـند أحمـد ت. أحمـد شاكر (١٣٣/٣-١٣٤) وقال المحقق : " اسناده صحيح " وقال ابن كثير : " هذا إسناد جيد قوي " النهاية (١٧٠/١) ، وقال الهيثمي : " رجال أحمد ثقات " مجمع الزوائد (٢٥١/٥) .

(٣) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٥٨) .

(٤) الـترمذي في سننه مع تحفة الأخوذي (٥١٧/٩-٥١٨) وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " وقال ابن كثير في تفسيره (٣٦٩/٣) : " صححه النسائي " .

(٥) صحيح مسلم – مع شرح النووي (٧٦/١٧) .

(٦) انظر : الحاوي (٣٩٧/١) ، معترك الأقران (١٠١/٣) .

(٧) سورة النمل الآية (٨٢) .

(٨) انظر : القرطبي : التذكرة (ص٦٩٧) .

(٩) نفسه (٧٧/١٨-٧٨) .

٢- وفي حديث حذيفة بن أسيد في ذكر أشراط الساعة ، فذكر منها الدابة ، وفي رواية " دابة الأرض "[١] .

٣- وفـي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " بادروا بالأعمال ستاً : (وذكر منها) : دابة الأرض "[٢] .

٤- ومن حديث أبي هريرة - أيضاً - رضي الله عنه - قال النبي - صلى الله عليه وسلم - تخرج الدابة ومعها عصا موسـى - عليه السلام - وخاتم سليمان - عليه السلام - فتخطم الكافر[٣] - قال عفان أحد رواة الحديث - : أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا[٤] حتى إن أهل الخوان[٥] ليجتمعون على خوانهم ، فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر "[٦] .

- **مكان خروج الدابة :** في مكان خروجها خلاف بين العلماء على أقوال منها :

١- أنها تخرج من مكة المكرمة من أعظم المساجد .

٢- أن لهـا ثلاث خرجات ، فمرة تخرج في بعض البوادي ثم تختفي ، ثم تخرج في بعض القرى ، ثم تظهر في المسجد الحرام[٧] .

وهـناك أقوال أخرى غير ما ذكر ، غالبها يدور على أن خروجها يكون من الحرم المكي . وليس على هذا دليل صريح قاطع ، فالله تعالى أجل وأعلم [٨] .

---

(١) نفسه (١٨/٢٧-٢٨) .

(٢) نفسه (١٨/٧٨١) .

(٣) (تخطـم الكافر) : أي تسمه ، من خطمت البعير إذا كويته خطماً من الأنف إلى أحد خديه وتسمى تلك السمة الخطام ، ومعناه أن تؤثر في أنفه سمة يعرف بها . لسان العرب (١٢/١٨٨) ، وترتيب القاموس المحيط (٢/٨٩-٨٠) ، والنهاية (٢/٥٠) .

(٤) (تجلو وجه المؤمن) ، الجلي : انحسار مقدم الشعر ، والمعنى : تصقل وجهه وتبيضه . تحفة الأحوذي (٩/٤٤) .

(٥) (الخوان) : ما يوضع عليه الطعام عند الأكل . النهاية (٢/٨٩-٩٠) .

(٦) مسند أحمد - ت. أحمد شاكر (١٥/٧٩-٨٢) وقال المحقق : " إسناده صحيح " ، وسنن الترمذي (٩/٤٤) ، وقال : " حديث حسن " ومستدرك الحاكم (٤/٤٨٥-٤٨٦) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٣/٢٦) ح رقم (٣٤١٢) بسبب علي بن زيد بن جدعان ، ضعفه الألباني ، ووثقه أحمد شاكر فقال في تعليقه على المسند (٢/١٢٢) ح رقم (٧٨٣) " علي بن زيد بن جدعان قد سبق أننا وثقناه وهو مختلف فيه ، والراجح عندنا توثيقه وقد صحح له الترمذي أحاديث " .

(٧) جـاء في حديث حذيفة بن أسيد عند الحاكم : أن لها : " ثلاث خرجات " وذكر الحديث بطوله ، ثم قال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي في تلخيص المستدرك (٤/٤٨٤-٤٨٥) ، ورواه الطبراني والحاكم بسند فيه عمرو الحضرمي ، وهو ضعيف .

(٨) انظر : القرطبي : التذكرة (٦٩٧-٦٩٨) ، الإشاعة (ص١٧٦-١٧٧) ، لوامع الأنوار (٢/١٤٤-١٤٦) .

الفصل الثاني

الحيـــــــاة البرزخيـــــــة

المبحث الأول : معنى الحياة البرزخية وسؤال القبر ومن لا يسأل في قبره

الحيـــاة البرزخية أي المنسوبة إلى البرزخ ، والبرزخ في كلام العرب : الحاجز بين الشيئين[١] . قال تعالى : (...وجعل بينهما برزخاً...)[٢] أي حاجزاً[٣] .

والـــبرزخ فـــي الاصـــطلاح : الدار التي تعقب الموت إلى البعث قال تعالى : (... ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعـــثون)[٤] أي حاجز بين الموت والبعث ، فمن مات فقد دخل في البرزخ[٥] ، وقال رجل في حضرة الشعبي : رحم الله فلاناً فقد صار من أهل الآخرة ، فقال الشعبي : لم يصر من أهل الآخرة ولكنه صار من أهل البرزخ وليس من الدنيا ولا مـــن الآخـــرة[٥] . فالمقصود بالحياة البرزخية المدة بين الحياة الدنيا ، الحياة المادية الأولى ، والحياة الثانية التي تبدأ بقيام الـــناس من قبورهم وفي هذه الحياة البرزخية مرحلة من مراحل الجزاء الرباني بالثواب أو بالعقاب ، وقد يعبر عنها بعذاب القبر ونعيمه ، ويسبق هذا النعيم أو العذاب سؤال القبر من قبل الملكين .

كلام السيوطي عن عذاب القبر:

تعرض السيوطي لهذه الحياة البرزخية وما يدور فيها من سؤال وعقاب أو ثواب ، وصنف فيها مصنفاً كبيراً سماه " شـــرح الصـــدور بشرح حال الموتى والقبور " يقول السيوطي : " وإن سؤال الملكين منكر ونكير للمقبور حق "[٦] وكلام الســيوطي هـــذا صـــحيح قد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الإنسان المكلف إذا مات جاءه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما منكر ، ويقال للآخر النكير فيسألانه الأسئلة التالية :

١ - من ربك ؟ ٢ - ما دينك ؟

٣ - ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ أي سيدنا وحبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

أمـــا المؤمن فيجيب عليها بما آمن به في الدنيا من حق ، ثم يعرض عليه مقعده من الجنة ، بعد أن يعرض عليه مقعده من النار - لو لم يكن قد مات مؤمناً - وذلك تطميناً لقلبه ، ثم يفسح له في قبره مد بصره .

أمـــا المنافق والكافر فعندما يسأله الملكان في قبره تلك الأسئلة الثلاث فيقول : لا أدري ، فيقال له : لا دريت ولا تليت[٧] ثم يضرب بمطارق من حديد يصيح منها صيحة يسمعها من يليه من الملائكة والموتى غير الثقلين (الأنس والجن)

---

(١) القاموس المحيط مادة (برز) وانظر ترتيب القاموس المحيط (٢٤٨/١) ومختار الصحاح (ص ٤٢) .
(٢) سورة الفرقان بعض الآية (٥٣) .
(٣) انظر : الطبري : جامع البيان (٢٤/١٩ - ٢٥) ، وابن كثير في تفسيره (١٢٦/٦) تفسير الجلالين (٤٣٩) ، والسفاريني : لوامع الأنوار (٤/٢) .
(٤) سورة المؤمنون ، بعض الآية (١٠٠) .
(٥) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٠٠/١٢) .
(٦) علم التوحيد في لوحة رقم (٧) .
(٧) أي : لا دريت بنفسك ولا اتبعت من يدري ويعلم ، انظر : ابن حجر : فتح الباري (٢٣٩/٣) .

ثم يضيق عليه قبره تعذيباً له .

ثم استشهد السيوطي على ما ذكره من سؤال الملكين فقال : " قال - صلى الله عليه وسلم - : " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عن أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ لمحمد - صلى الله عليه وسلم - فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله : فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت . ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين " رواه الشيخان[١] وفي رواية لأبي داود : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : ربي الله : وديني الإسلام ، والرجل المبعوث رسول الله "[٢] ويقول الكافر في الثلاثة : لا أدري وفي رواية الترمذي : " يقال لأحدهما المنكر ، والآخر النكير "[٣] ا . هـ كلام السيوطي[٤] .

وقد جمع الحافظ ابن حجر بين روايات الحديث المتعددة أثناء شرحه للحديث في " فتح الباري " فكان مما ذكره - رحمه الله - أن الملكين أسودان أزرقان[٥] يقال لأحدهما : المنكر وللآخر النكير بالتعريف[٦] ، أو منكر ونكير بدون أداة التعريف (أل)[٧] . وذكر أيضاً عن بعض الفقهاء أن اسم اللذين يسألان المذنب منكر ونكير ، وأن اسم اللذين يسألان المطيع مبشر وبشير[٨] . ولم يستدل لهذا القول بدليل ، وقد صرح السيوطي بذلك فقال : " وذكر ابن يونس من أصحابنا أن ملكي المؤمن يقال لهما : مبشر وبشير "[٩] ولم يأت هو الآخر على ذلك بدليل ، مما يجعل هذا الكلام من ابن يونس لا يلتفت إليه[١٠] .

وبناء على هذه الأدلة من السنة الصحيحة يجب اعتقاد سؤال الملكين واعتقاد عذاب القبر ونعيمه ، فقد ذهب إلى موجب هذه الأدلة جميع أهل السنة والحديث يقول شارح الطحاوية : " وقد تواترت الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه

---

(١) البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٦٧) رقم (١٣٣٨) الفتح (٢٠٥/٣) ، باب (٨٦) رقم (١٣٧٤) الفتح (٢٣٢/٣) .
ومسلم في " صحيحه " (٢٢٠٠/٤) تاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١) ، باب (١٧) رقم {٧٠-(٢٨٧٠)} .

(٢) الحديث رواه أبو داود في " سننه " رقم (٤٨٢٧) وأحمد في " المسند " (٢٨٦/٤-٢٦٩) ، وأبو داود الطيالسي في " مسنده " رقم (٧٥٣) ، وعبدالرزاق في " مصنفه " رقم (٦٧٣٧) ، والآجري في " الشريعة " رقم (٨٥٩) والبيهقي في " الاعتقاد " (ص ١٣٣) وصححه العلامة ابن القيم في شرحه على سنن أبي داود وناقش علل أبي حاتم البستي وابن حزم على الحديث (٩٠/١٣) من عون المعبود .

(٣) إسناده حسن ، رواه الترمذي في " سننه " كتاب الجنائز (٣٧٤/٣) ح رقم (١٠٧١) وقال : " حديث حسن غريب " ، وابن أبي عاصم في " السنة " (٢/ ٤١٦-٤١٧) ح رقم (٨٦٤) ، وابن حبان في " صحيحه " انظر : " الموارد " (ص ١٧٩) ح رقم (٧٧٩) جميعهم من طريق عبدالرحمن بن إسحاق ... به ، وحسن الألباني إسناده في هامش كتاب السنة لابن أبي عاصم ، وانظر : السلسلة الصحيحة له ، ح رقم (١٣٩١) .

(٤) علم التوحيد - لوحة رقم (٧) .

(٥) انظر : الفتح (٢٣٧/٣) وهو في حديث الترمذي السابق في الحاشية (٢) .

(٦) انظر : الفتح (٢٣٧/٣) وهو في حديث الترمذي المتقدم .

(٧) انظر : الفتح (٢٣٧/٣) وهو في رواية ضعيفة عن أبي الدرداء موقوفة رواها ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٨/٣) من طريق شعبة عن يعلي بن عطاء عن تميم عن غيلان أن رجلاً جاء إلى أبي الدرداء فقال : علمني خيراً ينفعني الله به فذكره .

(٨) انظر : الفتح (٢٣٧/٣) .

(٩) علم التوحيد - لوحة رقم (٧) .

(١٠) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٨/٢) .

وسـلم - فـي ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلم في كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ، ولكن قد يأتي بما تحار فيه العقول "(١) .

ويـتحدث السفاريني عن الأمور التي تحدث بعد الموت فيقول : " منها سؤال الملكين منكر ونكير ، فالإيمان بذلـك واجب شرعاً لثبوته عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في عدة أخبار يبلغ مجموعها مبلغ التواتر وقد استنبط ذلك واستدل عليه بقوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)(٢) " ثم أورد الأدلة من السنة النبوية(٣) .

قال الإمام أحمد - رحمه الله - : " عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل "(٤) وقال الإمام أبو الحسن الأشعري - رحمـه الله - بعـد أن عـدد أصول أهل السنة والجماعة التي أجمعوا عليها : " وأجمعوا على أن عذاب القبر حق وأن الناس يفتنون في قبورهم بعد أن يحيون ويُسألون فيثبت الله من أحب تثبيته "(٥) .

وقال الإمام محمد بن حسين الآجري بعد أن سرد الأحاديث والآثار التي تدل على ثبوت عذاب القبر ونعيمه : " ما أسـوأ حـال من كذب بهذه الأحاديث ، لقد ضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً "(٦) وقال ابن عبدالبر بعد أن ذكر حديث الخسوف : " وأما قوله أوحى إليّ أنكم تفتنون في قبوركم ، فإنه أراد فتنة الملكين منكر ونكير حين يسألان العبد من ربك ؟ ومـا دينك ؟ ومن نبيك ؟ والآثار في هذا متواترة ، وأهل السنة والجماعة كلهم على الإيمان بذلك ولا ينكره إلا أهل البدع "(٧) وعقـد الشـيخ الأصبهاني في كتابه " الحجة في بيان المحجة " فصلاً بعنوان : " الرد على من أنكر عذاب القبر " ثم ساق فيه بعض الأحاديث لاثبات عذاب القبر(٨) .

وصـنف العلامة ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - كتاباً بعنوان " أهوال القبور " تحدث فيه في الباب السادس عن عذاب القبر ونعيمه فقال : " وقد دل القرآن على عذاب القبر في مواضع كثيرة " ثم ساق بعض الآيات الكريمة وأقوال المفسرين فيها ، كما ذكر كثيراً من الأحاديث الدالة على عذاب القبر ونعيمه(٩) .

والسـيوطي على عقيدة أهل السنة في وجوب الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين ولذلك قال : " باب فتنة

---

(١) (ص ٤٥٠ - ٤٥١) .

(٢) سـورة سـيدنا إبـراهيم - عليه السلام - الآية (٢٧) وورد الاستدلال بهذه الآية الكريمة على سؤال القبر عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - موقوفـاً بسند صحيح ، عند ابن أبي شيبة في " المصنف " وروى مرفوعاً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن البراء نفسه بألفاظ متقاربة ، رواه الـبخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) سورة ابراهيم - عليه السلام - باب (٢) ح رقم (٤٦٩٩) انظر الفتح (٣٧٨/٨) ومسلم في " صحيحه " (٢٢٠١/٤) ح رقم (٢٨٧١) .

(٣) انظر : لوامع الأنوار البهية (٥/٢) .

(٤) طبقات الحنابلة (٦٢/١) ، السفاريني : لوامع الأنوار (٢٣/٢) .

(٥) رسالة إلى أهل الثغر (ص ٢٧٩) .

(٦) الشريعة (١٢٨٧/٣) .

(٧) التمهيد : (١٨٦/١٢) .

(٨) (٤٤٩/١) .

(٩) انظر : (ص ٣٩ - ٨١) .

القبر ، وهي سؤال الملكين ، قد تواترت الأحاديث بذلك مؤكدة من رواية أنس والبراء ... "[١] ثم ذكر عدة الصحابة الذين رووا هذا فبلغوا ستة وعشرين صحابياً - رضي الله عنهم جميعاً[٢] - وبعد ذلك أردفهم برواياتهم جميعاً[٣] .

عذاب القبر لا يختص بمن يقبر :

نقل السيوطي عن القاضي قوله : " إن من لم يدفن ممن بقى على وجه الأرض يقع لهم السؤال والعذاب ، ويحجب الله أبصار المكلفين عن رؤية ذلك[٤] ، كما حجبها عن رؤية الملائكة والشياطين ، قال بعضهم : " وترد الحياة إلى المصلوب ونحن لا نشعر به ، كما أن نحسب المغمى عليه ميتاً ، وكذلك يضيق عليه الجو كضمة القبر ، ولا يستنكر شيئاً من ذلك من خالط الإيمان قلبه ، وكذلك من تفرقت أجزاؤه يخلق الله الحياة في بعضها أو كلها ويوجه السؤال عليها "[٥] وهذا ما قرره شارح الطحاوية فقال : " واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر[٦] ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء ، أو صلب أو غرق في البحر - وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور ، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مراده من غير غلو ، ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدي والبيان "[٧] .

من لا يُسأل في القبر :

فتنة القبر عامة لجميع المكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم[٨] ، وإلا الشهداء والمرابطين ونحوهم ممن جاءت النصوص دالة على نجاتهم من الفتنة . أما غير المكلفين من الصبيان والمجانين فقد اختلف فيهم ، فذهب جمع من أهل العلم إلى أنهم لا يفتنون ، منهم القاضي أبو يعلي ، وابن عقيل ، ووجهتهم أن المحنة تكون لمن كلف ، أما من رفع عنه القلم فلا يدخل في المحنة ، إذ لا معنى لسؤاله عن شيء لم يكلف به .

وذهب آخرون إلى أنهم يفتنون [٩]، وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صلى على طفل صلاة الجنازة فقال : " اللهم قه عذاب القبر وفتنة القبر " وهذا القول موافق لقول من قال : إنهم يمتحنون في الآخرة ، وأنهم مكلفون يوم القيامة كما هو قول أكثر أهل العلم وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره ، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد - رحمه الله

---

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص ١٧٠) ت . وتعليق يوسف بدوي .
(٢) انظر : نفسه .
(٣) انظر : نفسه (ص ١٧٠ - ١٩٧) .
(٤) ويحجب الله سمعهم كذلك عن سماع ذلك .
(٥) شرح الصدور (ص ١٩٨ - ١٩٩) .
(٦) وكذلك من استحق النعيم ناله ذلك ولو كانت حالته كحالة من ذكر .
(٧) ص (٤٥١ - ٤٥٢) .
(٨) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٥٧/٤) .
(٩) وهو قول أبي الكيم الهمداني ، وأبي الحسن بن عبروس ، ونقله عن أصحاب الشافعي ـ رحمه الله ـ

تعالى -[١] .

وتحـــدث السيوطي عمن لاتنالهم فتنة القبر فقال : " ورد في الأخبار الصحاح أن بعض الموتى لا ينالهم فتنة القبر ولا يأتيهم الفتانان ، وذلك على ثلاثة أوجه :

- مضاف إلى عمل . - ومضاف إلى حال بلاء نزل بالميت .

- ومضاف إلى زمان "[٢] . وكذا قال السفاريني [٣]

ثم روى السيوطي الأحاديث التي وردت في هذه المسألة :

أما ما ورد منها مضافاً إلى عمل : فالأحاديث التي تبين أن الشهداء والمرابطين في سبيل الله لا يفتنون في قبورهم من ذلك أن رجلاً قال : يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال :" كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة"[٤]

- وعن أبي أيوب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " من لقي العدو فصبر حتى يقتل أو يغلب ، لم يفتن في قبره "[٥] .

- وعـــن سلمان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ- يقول : " رباط يوم وليلة ، خير من صيام شـــهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن من الفتان "[٦] فهذه الأحاديث تدل عـــلى أن من مات مقتولاً وهو يجاهد في سبيل الله وكذلك من كان مرابطاً أنه لا يفتن في قبره لأنه مات على عمل عظيم ينصر به دين الله جل وعلا فكان جزاؤه أن يؤمنه الله تعالى من فتنة القبر جزاء ما قام به صابراً محتسباً .

- وعن المقدام بن معدي كرب الكندي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن للشهيد عند الله عز وجـــل (قال الحكم : ست خصال) أن يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ، ويأمن الفزع الأكبر ، ويحلى حليه الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه "[٧] .

---

(١) انظر السابق نفسه (٢٥٧/٤ - ٢٧٧) .

(٢) شرح الصدور (ص ٢٠٤) .

(٣) انظر : لوامع الأنوار (١١/٢ ، ١٢) ، التذكرة (٢٣٠/١) .

(٤) سنده صحيح ، رواه النسائي في " سننه " (٩٩/٤) وسنده كما يلي :
- ابراهيم بن الحسن ، ثقة ثبت - كما في الكاشف للذهبي (٣٥/١) .
- حجاج بن محمد المصيص الأعور ، أحد الثقات ، قال أحمد : " كان أحفظ وأصح حديثاً " كما في ميزان الاعتدال (٤٦٤/١) .
- ليث بن سعد ، ثبت - كما في الكاشف للذهبي (١٢/٣) . - معاون بن صالح الحضرمي الحمصي ، صدوق إمام ، كما في الكاشف (١٣٩/٣) .
- صفوان بن عمرو ، وثقوه ، قال عمرو بن علي : " ثبت في الحديث " ، ثم قال : " سمعت أبي يقول : ثقة ، وسئل أبي عن صفوان فقال : لا بأس به " - كما في الجرح والتعديل (٤٢٢/٢) .- راشف بن سعد الحمصي ، ثقة - كما في الكاشف (٢٣١/١) . - وجهالة الصحابي لا تضر مع صحة السند .

(٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٧/٥) : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه مصفى بن بهلول والد محمد ، ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .
ورواه الحاكم في " المستدرك " (١١٩/٢) وقال : " صحيح الاسناد ولم يخرجاه " وتعقبه الذهبي بأن معاوية ضعيف .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " كتاب الامارة ، باب فضل الرباط في سبيل الله ع وجل ح رقم (١٩١٣) ، والنسائي في " سننه " (٣٩/٦) ، والترمذي في " سننه " رقم (١٦٦٥) ، وأحمد في " المسند " (٤٤/٥-٤٤١) ، وابن حبان (٦٩/٧) ، الطبراني في " الكبير " (٦٠٧٧) ، البيهقي (٣٨/٩-٣٩) ، وابو نعيم (١٩٠/٥) ، وسعيد بن منصور (٢٤٠٩) .

(٧) رواه الترمذي في " سننه " (١٧/٣) وصححه ، وابن ماجه في " سننه " (١٨٤/٢) وأحمد (١٣١/٤) وإسناده صحيح ، ثم أخرجه أحمد (٢٠٠/٤) من حديـــث عـــبادة بن الصامت ومن حديث قيس الجذامي (٢٠٠/٤) واسناده صحيح أيضاً . انظر : الألباني : أحكام الجنائز وبدعها (ص ٣٥ - ٣٦) ، وانظر : صحيح ابن ماجه (٢٢٥٧) .

والشـــهيد قـــتل وهـــو يقاتل في سبيل الله ، فهو ميت على عمل بل هو من أجل الأعمال . وفي لفظ الترمذي : " يوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة من خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين "[١] .

وأما ما ورد منها مضافاً إلى بلاء نزل بالميت : أورد السيوطي في ذلك حديثاً عن جامع بن شداد قال : سمعت عبدالله بن يســـار يقول : كنت جالساً عند سليمان بن صرد ، وخالد بن عرفطة فذكر أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يشهدا جـــنازته ، فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من يقتله بطنه لم يعذب في قبره "[٢] فهذا حديث إسناده صحيح يصح الأستشهاد به ، أما ما أورده السيوطي منسوباً إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو قوله : " مـــن مات مريضاً مات شهيداً ، ووقى فتنة القبر ، وغدى وريح عليه برزقه من الجنة "[٣] فهو حديث اسناده واه أورده ابن الجوزي في الموضوعات[٤] .

أمـــا ما ورد منها مضافاً إلى زمان : أورد السيوطي في ذلك حديثاً عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنه – قال : قال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر "[٥] .

وأورده الألباني في " أحكام الجنائز " كعلامة من علامات حسن الخاتمة[٦] .

هل يسأل الأطفال في قبورهم ؟ :

تعـــرض السيوطي لهذه المسألة وأحال الكلام فيها على ابن القيم – رحمه الله – في كتابه " الروح " والذي حكى فيـــه عن الحنابلة في هذه المسألة قولين ذكرهما بقوله : " ومما كثر عليه السؤال عنه الأطفال ، هل يسألون ؟ وهذه المسألة ذكرها ابن القيم في كتاب " الروح " وحكى فيها قولين للحنابلة :

أحدهما : نعم ، لحديث أنه – صلى الله عليه وسلم – صلى على صبي فقال : " اللهم قه عذاب القبر "[٧] وهذا الذي جزم به القرطبي وقال : إن العقل يكمل لهم ليعرفوا بذلك منزلتهم وسعادتهم ، ويلهمون الجواب عما يسألون عنه[٨] .

---

(١) سنن الترمذي (١٧/٣) ، وانظر القرطبي : التذكرة (٢٣٣/١ – ٢٣٤) .

(٢) رواه النسائي في " سننه " (٩٨/٤) والترمذي في " سننه " رقم (١٠٦٤) ، وأحمد في " المسند " (٢٦٢/٤) وأبو داود الطيالسي رقم (١٢٨٨) وابن حبان (٢٥٨/٤) ، والطبراني في الصغير (١٠٨/١) وذكره الألباني في تخريج المشكاة رقم (١٥٧٣) وقال : " اسناد أحمد والطيالسي صحيح " .

(٣) اســـناده واه جداً ، رواه ابن ماجة في " سننه " رقم (١٦١٥) والبيهقي في اثبات عذاب القبر رقم (١٧١) وابو نعيم في الحلية (٢٠١/٨ – ٢٠٢) وهو فـــي تنزيه الشريعة (٣٦٣/٢) ، والقرطبي في التذكرة (٢٣٥/١) وانظر اللآلئ المصنوعة (٢٢١/٢) وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢١٦/٣ – ٢١٧) وقـــال ابـــن ابي حاتم في علل الحديث (٣٥٨/١) قال أبي : هذا خطأ إنما هو : " من مات مرابطاً " غير أن ابن جريج رواه هكذا واسناده فيه ابراهيم بن محمد بن ابي يحيى الاسلمي ، كذبه مالك ويحي القطان وابن معين وقال أحمد قدري معتزلي جهمي كل بلاء فيه ، وقال البخاري : جهمي تركه ابن المبارك .

(٤) انظر : (٢١٦/٣ – ٢١٧) .

(٥) رواه الترمذي في " سننه " رقم (١٠٧٤) وقال : " هذا حديث غريب " والبيهقي في " إثبات عذاب القبر " رقم (١٧٣) وقال المباركفوري في " تحفة الاحوذي " (١٨٨/٤) : " فـــالحديث ضعيف لانقطاعه لكن له شواهد " وقال الحافظ في " فتح الباري " بعد ذكر هذا الحديث في اسناده ضعف ، وأخرجه ابو يعلي مـــن حديث انس نحوه واسناده اضعف " وقال الالباني في " احكام الجنائز " (ص ٣٥) اخرجه أحمد (٦٥٨٢ – ٦٦٤٦) من طريقين عن عبدالله بن عمرو ، والترمذي من احد الوجهين وله شواهد عن انس وجابر بن عبدالله وغيرهما فالحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح " .

(٦) انظر (ص ٣٥) .

(٧) لم أجد فيما تحت يدي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – صلى على صبي فقال : " اللهم قه عذاب القبر " إنما الذي وجدته من كتب الحديث عند أحمد في المسند (٤٩١/٣)(٢٣/٦) أن النبي – صلى الله عليه وسلم – صلى على الميت ، ولم يذكر فيه صبي ، وعند النسائي جنائز (٧٧) انه صلى على جنازة ، وكذلك عند ابي داود جنائز (٥٦) .

(٨) شرح الصدور (ص ٢١٠) .

قلت (السيوطي) : وقد قال به الضحاك فأخرج ابن جرير عن جويبر قال : مات للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام فقال : (يا جابر) إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عقده ، فإن إبني يُجلس للسؤال[١] ، فقلت : عم يُسأل ؟ قال : عن الميثاق الذي أقربه في صلب آدم (عليه السلام)[٢] .

الثاني: لا ، لأن السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل ، فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا ؟ والجواب عن الحديث أنه ليس المراد فيه بعذاب القبر عقوبته ، ولا السؤال ، بل مجرد الألم بالهم والغم والحسرة والوحشة والضغطة التي تعم الأطفال وغيرهم ، وهذا القول هو الصحيح بل الصواب "[٣] وبهذا يبين السيوطي أن الأطفال والأنبياء ليس عليهم حساب ولا عذاب القبر ولا سؤال منكر ونكير ثم قال : " وقد جزم أصحابنا الشافعية بأن الطفل لا يلقن بعد الدفن وأن التلقين يختص بالبالغ هكذا ذكره النووي في " الروضة " وغيرها وهو دليل على أن الأطفال لا يسألون ، وقد أفتى به الحافظ ابن حجر "[٤] أما ما ذكره السيوطي من تلقين الميت بعد دفنه فلم يثبت في حديث صحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول ابن القيم – رحمه الله – في بيان هديه – صلى الله عليه وسلم – في دفن الميت : " ولم يكن يجلس يقرأ عند القبر ولا يلقن الميت كما يفعله الناس اليوم ، وأما الحديث الذي رواه الطبراني في " معجمه " من حديث أبي أمامة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – " إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره ، فليقم أحدكم على رأس قبره ثم ليقل : يا فلان فإنه يسمعه ولا يجيب ثم يقول : يا فلان بن فلانة، فإنه يستوي قاعداً ، ثم يقول : يا فلان بن فلانة ، فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله ، ولكن لا تشعرون ثم يقول : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنك رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وبالقرآن إماماً ، فإن منكراً ونكيراً يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول : انطلق بنا ما نقعد عند من لقن حجته ، فيكون الله حجيجه دونهما ، فقال رجل : يا رسول الله ! فإن لم يعرف أمه ؟ قال : فينسبه إلى حواء : يا فلان بن حواء "[٥] فهذا حديث لا يصح رفعه "[٦] وذكر عن الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – أنه قال : " ما رأيت أحداً فعل هذا إلا أهل الشام ... "[٧] ، وقال الإمام الأمير الصنعاني : " ...ويتحصل من كلام أئمة

---

(١) في جامع البيان (١١٢/٩) مُجلس ومسئول .

(٢) جامع البيان (١١٢/٩) ، وانظر الدر المنثور (٦٠٢/٩) .

(٣) شرح الصدور (٢١٠) ، وانظر الروح لابن القيم .

(٤) شرح الصدور (ص ٢١٠) .

(٥) هذا حديث منكر ، اخرجه القاضي الخلعي في الفوائد (٥٥/٢) عن ابي الدرداء هاشم بن محمد الأنصاري : ثنا عتبة بن السكن عن أبي زكريا عن جابر بن سعيد الأزدي قال : " دخلت على ابي أمامة الباهلي وهو في النزع فقال لي : يا أبا سعيد إذا أنا مت فاصنعوا بي كما امر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن نصنع بموتانا ، فإنه قال : " إذا مات الرجل منكم ... " فذكره ، قال الألباني في " الضعيفة " (٦٤/٢) رقم (٥٩٩) : " وهذا اسناد ضعيف جداً لم أعرف أحداً منهم غير عتبة بن السكن ، قال الدارقطني : " متروك الحديث " وقال البيهقي : " واه منسوب إلى الوضع " وذكره الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٤٥/٣) وقال : " رواه الطبراني في " الكبير " وفي اسناده جماعة لم اعرفهم " وقال الحافظ ابن حجر في " أمالي الأذكار " بعد تخريجه : فيما ذكره ابن علان في " الفتوحات الربانية " (١٩٦/٤) " حديث غريب وسند الحديث من الطريقين ضعيف جداً " وقال النووي في " المجموع " (٣٠٤/٥) بعد أن عزاه الطبراني : " واسناده ضعيف ، وقال ابن الصلاح : ليس اسناده بالقائم " . وكذلك ضعفه الحافظ العراقي في تخريج " الأحياء " (٤٢٠/٤) ، ويقول الألباني في " الضعيفة " (٦٥/٢) : " وجملة القول أن الحديث منكر عندي إن لم يكن موضوعاً " .

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد (٥٠٤/١) .

(٧) نفسه .

التحقيق أنه حديث ضعيف والعمل به بدعة ولا يغتر بكثرة من يفعله "(١) وعلى ذلك فتلقين الميت بعد دفنه كلام ساقط لا يعتد به

هل الموتى يصلون في قبورهم ويقرأون ؟ :

ذكر السيوطي هذه المسألة وأورد فيها عدة أحاديث منها :

- عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون "(٢) .

- وعنه أيضاً أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة أسرى به مر بموسى - صلوات الله عليه - وهو قائم يصلي في قبره "(٣) وفي قراءة الميت في قبره أورد السيوطي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : ضرب بعض أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خباءه على قبر(٤) ، وهو لا يحسب أنه قبر وإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " هي المنجية ، هي المانعة تنجيه من عذاب القبر "(٥) .

- وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " نمت فرأيت في الجنة " ولفظ النسائي : " دخلت الجنة فسمعت صوت قارئ يقرأ ، فقلت : من هذا ؟ قالوا حارثة بن النعمان فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كذاك البر ، كذاك البر ، كذاك البر " وكان أبر الناس بأمه(٦) .

يقول ابن رجب - رحمه الله - : " قد يكرم الله بعض أهل البرزخ بأعماله الصالحة في البرزخ وإن لم يحصل له بذلك ثواب ، لانقطاع عمله بالموت لكن إنما يبقى عمله عليه ليتنعم بذكر الله وطاعته ، كما تتنعم بذلك الملائكة وأهل الجنة في الجنة ، وإن لم يكن على ذلك ثواب ، لأن نفس الذكر والطاعة أعظم نعيم عند أهلها من جميع نعيم أهل الدنيا ولذتها ، فما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله وطاعته "(٧) .

المبحث الثاني : الكلام على مستقر الأرواح وتلاقيها وشئ مما يتعلق بها مستقر الأرواح :

عقد السيوطي لهذه المسألة باباً في كتابه " شرح الصدور " فقال : " باب مقر الأرواح ، قال الله تعالى : (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع)(٨) وقال تعالى : (... ويعلم مستقرها ومستودعها ...)(١) أحدهما :

---

(١) سبل السلام (١٦١/٢) .

(٢) قال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٢١١/٨) رواه ابو يعلي والبزار ورجال ابي يعلي ثقات ، وانظر : المطالب العالية لابن حجر (٢٦٩/٢) وعزاه السيوطي في " شرح الصدور " (ص ٢٥٥) للبيهقي وابن منده .

(٣) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٤٥/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٤٢) ح رقم {١٦٤ - (٢٣٧٥)} .

(٤) الخباء بيت من وبر أو صوف .

(٥) رواه الترمذي في " سننه " رقم (٢٨٩٠) وقال : " حديث حسن " والحاكم في " المستدرك " (٤٩٨/٢) وقال : " هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ورواه البيهقي في " اثبات عذاب القبر " رقم (١٦٥) وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٢٤٧/٦) الى ابن الضريس ، والطبراني ، والبيهقي في شعب الايمان .

(٦) رواه الحاكم في " المستدرك " (١٥١/٤) وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة " وقال الذهبي : " أخرجاه مختصراً " وأحمد في المسند (١٥٢،١٦٧/٦) ، وعزاه السيوطي في " شرح الصدور " الى النسائي والبيهقي في " الشعب " انظر (ص٢٥٩) .

(٧) أهوال القبور (ص ٣٩) وانظر : شرح الصدور (ص ٢٥٧-٢٥٨) ، وهذا الذي ذكره ابن الجوزي أحوال برزخية ليس للإنسان أن يقول فيها إلا بالكيفية التي وردت في النصوص الشرعية ، وليس في هذا مستند لأهل الخرافة الذين ينادون الموتى أو يدعونهم أو يلجأون إليهم ، فيرتكبون بذلك الشرك الأكبر .

(٨) سورة الانعام ، بعض الآية (٩٨) .

في الصلب والآخر بعد الموت "[٢] وهذا الذي ذكره السيوطي من تفسير الآية بأن أحدهما : في الصلب والآخر : بعد الموت، رواه ابن جرير في تفسيره[٣] ، ونقله عن ابن كثير في تفسيره[٤] .

وهذه المسألة – أعني مسألة مستقر الأرواح بعد الموت – مسألة عظيمة لا تتلقى إلا من السمع ، وليس للعقل فيها مجال ولا يقع في شأنها الإجتهاد بحال . وبناء على ما ورد بشأنها من الأحاديث الشريفة عن المعصوم – صلى الله عليه وسلم – اختلفت أقوال أهل العلم في تحديد مستقر الأرواح وأين تكون بعد الموت ، وحاصل كلامهم أنهم قسموها إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أرواح الأنبياء والمرسلين – عليهم جميعاً الصلاة والسلام – فهذه لا شك وبلا خلاف أنها في أعلى عليين[٥] . يقول ابن القيم – رحمه الله – : " ... فمنها أرواح في أعلى عليين ، في الملأ الأعلى ، وهم الأنبياء ، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي – صلى الله عليه وسلم – ليلة الإسراء "[٦] ويقول ابن رجب – رحمه الله – : " ... أما الأنبياء – عليهم السلام – فليس فيهم شك أن أرواحهم عند الله في أعلى عليين "[٧] ويدل على ذلك ما صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – من حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول وهو صحيح : " إنه لم يقبض نبيٌ قط حتى يرى مقعده من الجنة ، ثم يخير " ، فلما نُزِل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص ببصره إلى السقف ثم قال : " اللهم الرفيق الأعلى " قلت : إذاً لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به ، قالت : فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله : " اللهم الرفيق الأعلى "[٨] .

الثاني : أرواح الشهداء الذين صرحت الأدلة بأن أرواحهم في أجواف طير خضر معلقة بالعرش[٩] ، منها ما رواه مسروق قال : سألنا عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)[١٠] قال : " أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال[١١] : " أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا "[١٢] .

---

(١) سورة هود ، بعض الآية (٦) .

(٢) شرح الصدور (ص ٣٠٤) .

(٣) انظر : جامع البيان (٢٨٧/٧) ، (٢/١٢) .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم (٢٩٩/٣) ، (٢٣٩/٤) .

(٥) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٢٥-٣٢٦) .

(٦) الروح (ص ٢٦٢) ، ونقله عنه السفاريني في " لوامع الأنوار " (٥٤/٢) .

(٧) أهوال القبور (ص ٩٤) ، وانظر : شرح الطحاوية (ص ٤٥٤) .

(٨) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٨٤) رقم (٤٤٦٣) انظر : الفتح (١٥٠/٨) . ومسلم في " صحيحه " كتاب فضائل الصحبة (٤٤) باب (١٣) ح رقم (٨٧) – انظر صحيح مسلم (١٨٩٤/٤) .

(٩) انظر : شرح الطحاوية (ص ٤٥٤) والسفاريني لوامع الأنوار (٥٤/٢) .

(١٠) سورة آل عمران الآية (١٦٩) .

(١١) قال الإمام النووي : " وهذا الحديث مرفوع لقوله : إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال يعني النبي – صلى الله عليه وسلم – انظر : شرح صحيح مسلم للنووي (٣٤/١٣) .

(١٢) رواه مسلم في " صحيحه " (١٥٠٢/٣) كتاب الإمارة (٣٣) باب (٣٣) ح رقم {١٢١-(١٨٨٧)} .

وهـذا فـي حق بعض الشهداء لا كلهم فمن الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة من أجل ما عليه من الدين(١) ، فقد ورد عن عبدالله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي - ﷺ- فقال : يا رسول الله ماذا لي إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل ؟ قال : " الجنة " قال : فلما ولى قال رسول الله - ﷺ- : " إلا الدين ، سارني به جبريل - عليه السلام - آنفاً "(٢) .

الثالث : أرواح المكلفين من المؤمنين وغيرهم ، فهؤلاء قد تباينت أقوال العلماء حولهم ، وأرجح الأقوال في ذلك : أن أروح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكافرين في النار ، وهو قول الإمام أحمد - رحمه الله - فقد روى عنه ابنه عبدالله قوله : أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة(٣) .

وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حيث يقول : " وأرواح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكافرين في النار ، تنعم أرواح المؤمنين ، وتعذب أرواح الكافرين إلى أن تعاد إلى الأبدان "(٤) .

أما الفرق بين حياة الشهداء البرزخية في الجنة وحياة من عداهم من المؤمنين ، أشار إليه الحافظ ابن رجب بقوله : " والفرق بين حياة الشهداء وغيرهم من المؤمنين الذين أرواحهم في الجنة من وجهين :

أحدهما : أن أرواح الشهداء يخلق لها أجساد وهي الطير التي تكون في حواصلها ، ليكمل بذلك نعيمها ، ويكون أكمل من نعيم الأرواح المجردة عن الأجساد ، فإن الشهداء بذلوا أجسادهم في سبيل الله فعوضوا عنها بهذه الأجساد في البرزخ .

الثاني : أنهم يرزقون من الجنة ، وغيرهم لم يثبت له في حقه مثل ذلك(٥) قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (٦)

عرض المقعد على الميت كل يوم(٧) : استدل السيوطي على هذه المسألة بقوله تعالى : (... النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ...)(٨) قال ابن جرير في تفسيره : " عني بذلك : أنهم يعرضون على منازلهم في النار تعذيباً لهم غدواً وعشياً "(٩) ويقول ابن كثير : " وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ "(١٠) .

واستدل السيوطي كذلك بحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة "(١١) ، وأورد في هذا الباب أحاديث أخر .

---

(١) انظر : ابن القيم : الروح (٢٦٢) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٥٤) ، السفاريني لوامع الأنوار (٥٤/٢) ، والسيوطي : شرح الصدور (٣٠٤) .
(٢) صحيح مسلم (١٥٠١/٣) ح رقم (١٨٨٥) ، رقم (١٨٨٦) .
(٣) انظر : طبقات الحنابلة (١٨١/١) . وانظر : السيوطي : شرح الصدور (٣٢٠) .
(٤) مجموع الفتاوي (٣١١/٤) .
(٥) أهوال القبور (ص ١٢٣) .
(٦) سورة آل عمران ، بعض الآية (١٦٩) .
(٧) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٤٠) .
(٨) سورة غافر ، بعض الآية (٤٦) .
(٩) جامع البيان (٧٢/٢٤) .
(١٠) تفسير القرآن العظيم (١٣٦/٧) .
(١١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٨٩) ح رقم (١٣٧٩) الفتح (٣٤٣/٣) ، ومسلم في " صحيحه " (٢١٩٩/٤) كتاب الجنة (٥١) باب (١٧) ح رقم {٦٥ - (٢٨٦٦)} ، ولفظه " ... حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " .

ما يحبس الروح عن مقامها الكريم[١] :

قــد ســبق معنا في مسألة " مستقر الأرواح " حديث عبدالله ابن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ، ماذا لي إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل ؟ قال : " الجنة " قال : فلما ولى قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إلا الدين " سارني به جبريل – عليه السلام – آنفاً "[٢] وهو دال على أن روح الميت تحبس عن دخــول الجنة إذا كان عليه دين ، حتى ولو كانت روح شهيد . وقد أورد السيوطي حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قــال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه "[٣] . قال العلماء : معلقة : أي محبوسة عن مقامها الكريم[٤] .

وأورد السيوطي أيضاً من حديث جابر – رضي الله عنه – أن رجلاً مات وعليه دين ، ديناران ، فلم يصل عليه النــبي – صلى الله عليه وسلم – فتحملهما أبو قتادة فصلى عليه ، ثم قال له بعد ذلك بيوم : " ما فعل الديناران ؟ " قال إنما مات أمس ، فعاد عليه من الغد فقال : قد قضيتهما ، فقال : " الآن بردت عليه جلدته "[٥] .

وأورد السيوطي في ذلك أيضاً أحاديث غير ما ذكر للإستشهاد وقد رأيت أن ما ذكرته يغني عما أورده مختلفاً فيه

تلاقي أرواح الموتى وأرواح الأحياء في النوم[٦] :

ذكــر السيوطي تحت هذا الباب بعض الشواهد على تلاقي أرواح الموتى مع أرواح الأحياء حالة نومهم فذكر في الاســتدلال على ذلك قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرســل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[٧] وكلام المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة يدل لمــا ســاقه إليــه السيوطي من تلاقي الأرواح ، أما الإمام ابن جرير – رحمه الله – فقد قال : " يقول تعالى ذكره : ومن الدلائــل عــلى أن الألوهية لله الواحد القهار خالصة دون كل ما سواه أنه يميت ويحيي ويفعل ما يشاء ولا يقدر على ذلك شــيء سواه ، فجعل ذلك خبراً نبههم به على عظيم قدرته ، فقال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ...) فيقبضها عند فناء أجــلها ، ولانقضـــاء مدة حياتها ، ويتوفى أيضاً التي لم تمت في منامها ، كما التي ماتت عند مماتها (فيمسك التي قضى عليها الموت) ذكر أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام ، فيتعارف ما شاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجســادها ، أمسك الله أرواح الأموات عنده وحبسها وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى أجل مسمى وذلك

---

(١) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٤٦) .

(٢) حديث صحيح سبق تخريجه .

(٣) رواه الــترمذي ، برقم (١٠٧٨) ، (١٠٧٩) كتاب الجنائز ، وقال : " هذا حديث حسن " ورواه ابن ماجة ، برقم (٢٤١٣) ، والبيهقي في عذاب القبر رقم (١٥٠) و (١٥١) وأحمد في " المسند " (٥٠٨/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٧٦/٦) والدارمي (٤٩/٦) وأبو نعيم في " الحلية " (١٥/٩) .

(٤) انظر : شرح الصدور (ص ٣٤٦) .

(٥) رواه أحمد في " المسند " (٣٣٠/٣) ، والبيهقي في السنن (٧٤/٦ ، ٧٥) وفي " اثبات عذاب القبر " رقم (١٥٣) ، والحاكم في " المستدرك " (٥٨/٢) ، وقال في " مجمع الزوائد " (٣٩/٣) : " رواه أحمد والبزار ، وإسناده حسن " .

(٦) انظر : شرح الصدور (ص ٣٥١) .

(٧) سورة الزمر ، الآية (٤٢) .

عـند انقضـاء مدة حياتها "[١] ومعنى كلام الإمام ابن جرير أن الله تعالى ذكر قبضاً للأرواح التي توفاها بالموت ، وقبضاً مـثله كذلك للأرواح التي نام أصحابها الأحياء ، فتلتقي هذه بتلك ، فإذا أرادت الأرواح أن تعود إلى أجسادها ، أذن تعالى لـلأرواح التي لم يقض الموت على أصحابها وأمسك التي مات أصحابها وكذلك أمسك عنده التي حكم عليها بالموت أثناء نومها . وفي هذا إشارة إلى تلاقي الأرواح وتعارفها الذي ذكره السيوطي .

وأما العلامة ابن كثير – رحمه الله – فقال : " قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما شاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام ، كما قـال تعـالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل[٢] ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبـئكم بمـا كنـتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفـرطون)[٣] فذكـر الوفاتين : الصغرى ثم الكبرى وفي هذه الآية[٤] ذكر الكبرى ثم الصغرى ، ولهذا قال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى[٥] .

ويذكر العلامة ابن القيم – رحمه الله تعالى – قولين في تفسير هذه الآية الكريمة فأورد عن السدى في قوله تعالى : (... والتي لم تمت في منامها ...) قال : يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان ، قال : فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها ، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس ، وهذا أحد القولين في الآية ، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً والمرسلة من توفيت وفاة النوم ، والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفـس الميـت فيمسـكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة ، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى .

ولعل هذا الرأي مستند منيرى أن الأرواح مطلقة بعد الموت تذهب حيث شاءت ، وهو والله أعلم قول ضعيف ، لأنه خلاف ماذكر في مستقر الارواح .

كماأنه يؤدي إلى أن أرواح الشهداء تخرج من الحبشة ، أو تدخل إلى الجنة ، أرواح الأحياء ، ولذلك كان القول الآخر هو الأظهر في الآية وهو القول الآتي .

والقـول الـثاني في الآية : أن الممسكة والمرسلة في الآية كلتاهما توفيت وفاة النوم فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله .

واخـتار شـيخ الإسلام[٦] هذا القول ، وقال : عليه يدل القرآن والسنة قال : فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة نوم ، وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال بل هي

---

(١) جامع البيان (٢٤/٨ – ٩) .

(٢) وهذا ظاهر في أنه النوم – كما ورد عن السدى ومجاهد ، انظر : جامع البيان (٢١٤/٧) ، وتفسير القرآن العظيم (٢٦١/٣) .

(٣) سورة الأنعام ، الآيتان (٦٠ ، ٦١) .

(٤) أي : آية سورة الزمر رقم (٤٢) .

(٥) سورة الزمر ٤٢) وانظر : تفسير القرآن العظيم (٩٢/٧) .

(٦) يعني : ابن تيمية – رحمه الله تعالى – .

قسم ثالث "[١] وهذا الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية يدل على أن الأرواح ثلاثة أقسام :

١- الأرواح التي توفاها حين موتها . ٢- الأرواح التي أمسكها في نومها فلم يردها إلى أجسادها .

٣- الأرواح التي أرسلها بعد نومها فعادت إلى أجسادها لتستكمل رزقها وأجلها .

ذلك لأن التي توفاها حين موتها وانقضاء أجلها هي ممسكة عنده جل وعلا ، وأما الثانية التي أمسكها أثناء النوم ، فلو كان المقصود بالإمساك هي القسم الأول لكان في الكلام تكرار ، كأنه قال : فيمسك التي هي ممسكة عنده من قبل ، وفي هذا ما فيه من ركاكة المعنى وعدم استقامته .

ولكن ابن القيم لم يتابع شيخه في هذا الترجيح بل رجح القول الأول ، إلا ان القول الثاني هو الأظهر في معنى الآية ونصها ، أما تلاقي الأرواح فدليله لايمكن أن يعتمد عليه في القطع بذلك ،ولكن يستأنس بماذكر فقط ، ولا يمكن اعتماد ذلك دليلاً مؤكداً عليه .

ثم هنا أمر آخر ،وهو أن الله تعالى ذكر قبضاً عاماً يشمل المؤمنين والكافرين ، فهل أرواح الكفار تلتقي أيضاً مع إخوانهم من الكفار الأحياء ؟ مع أن أرواح الكفار معذبة ؟

ولهذا قلنا إن القول الأول لايدل عليه دليل قوي .

والله ــ جل ذكره ــ أجل وأعلى .

تأذي الميت بالنياحة عليه[٢]

أورد السيوطي بخصوص هذه المسألة خمسة أحاديث صالحة ، وخمسة أخرى لا تصلح للإستشهاد ، كما أورد أقوال العلماء في حكم تعذيب الميت بما نيح عليه .

والأصل في هذا الباب حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وابنه عبدالله - رضي الله عنه - .

- أما حديث عمر - رضي الله عنه - فهو أنه لما أصيب دخل عليه صهيب - رضي الله عنه - يبكي يقول : وا أخاه وا صاحباه فقال عمر - رضي الله عنه - : يا صهيب أتبكي عليّ وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه "[٣] وكذلك قال لابنته حفصة - رضي الله عنها -[٤] .

- وأما حديث ابنه - رضي الله عنهما - فعن عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة قال : " توفيت إبنة لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - بمكة وجئنا لنشهدها وحضرها ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم - وإني لجالس بينهما - أو قال : جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي ، فقال عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - لعمرو بن عثمان :

---

(١) الروح (ص ٥٧ - ٥٨) .

(٢) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٤) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٣٢) ح رقم (١٢٨٧) الفتح (١٥١/٣) ، ومسلم في " صحيحه " (٦٤١/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم (٩٢٧) .

(٤) رواه مسلم في " صحيحه " (٦٣٨/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم {١٦ - (٩٢٧)} .

ألا تنهى عن البكاء ؟ فإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه "[(١)] ولكن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – اعترضت على ما قاله عمر وابنه – رضي الله عنهما – قال ابن عباس – رضي الله عنهما – بعد ما روى حديث عمر السابق – قال : " فلما مات عمر – رضي الله عنه – ذكرت ذلك لعائشة – رضي الله عنها – فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه ، ولكن رسول الله – صلى الله علية وسلم – قال : " إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه ، وقالت : حسبكم القرآن (ولا تزر وازرة وزر أخرى)[(٢)] قال ابن عباس – رضي الله عنهما – عند ذلك : والله (هو أضحك وأبكى)[(٣)] قال ابن أبي مُليكة : والله ما قال ابن عمر – رضي الله عنهما – شيئاً[(٤)] .

وكذلك ورد اعتراضها على عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – عندما ذكر لها أنه يقول : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقالت : رحم الله أبا عبدالرحمن ، سمع شيئاً فلم يحفظه ، إنما مرت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جنازة يهودي ، وهم يبكون عليه فقال : " أنتم تبكون وإنه ليعذب "[(٥)] .

وقالت مرة عن ابن عمر : " وَهِل[(٦)] ، إنما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه . وإن أهله ليبكون عليه الآن "[(٧)] وقالت في رواية : " يغفر الله لأبي عبدالرحمن . أما إنه لم يكذب . ولكنه نسي أو أخطأ . إنما مر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على يهودية يبكى عليها فقال : " إنهم ليبكون عليها . وإنها لتعذب في قبرها "[(٨)] وإزاء هذه الأحاديث المثبتة لعذاب الميت ببكاء أهله عليه ، وما قابلها من اعتراض أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – تعددت أقوال العلماء في هذه المسألة على النحو التالي :

<u>أول الأقوال :</u> أن الأحاديث الواردة بإثبات تعذيب الميت بالنياحة عليه هي على ظاهرها مطلقاً ، وهو رأي عمر بن الخطاب وأبنه عبدالله – رضي الله عنهما – على ما ورد عنهما في الصحيحين وغيرهما[(٩)] ويحتمل أن يكون عمر – رضي الله عنه – كان يرى أن المؤاخذة تقع على الميت إذا كان قادراً على النهي ولم يقع منه . فلذلك بادر إلى نهي صهيب ، وحفصة – رضي الله عنهما –[(١٠)] .

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٣٢) ح رقم (١٢٨٦) انظر : الفتح (١٥١/٣) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (٦٤١/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم {٢٣ – (٩٢٨)} .

(٢) هذه بعض آية وردت في عدة مواضع من كتاب الله تعالى ، في سورة الأنعام (١٦٤) وفي سورة الاسراء (١٥) وفاطر (١٨) والزمر (٧) والنجم (٣٨) .

(٣) سورة النجم ، بعض الآية (٤٣) .

(٤) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٣٢) ح رقم (١٢٨٨) أنظر : الفتح (١٥١/٣) ، ومسلم في " صحيحه " (٦٤٢/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم (٩٢٩) .

(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (٦٤٢/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم {٢٥–(٩٣١)} من طريق حماد بن زيد عن هشام بن عروة عن أبيه .

(٦) بفتح الواو ، وفتح الهاء وكسرها ، أي : غلط ونسي .

(٧) رواه مسلم في " صحيحه " (٦٤٣/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم {٢٦ – (٩٣٢)} من طريق أبي أسامة عن هشام عن ابيه .

(٨) السابق نفسه رقم (٢٧) من طريق عبدالله بن أبي بكر ، عن أبيه ، عن عمرة بنت عبدالرحمن ، أنها سمعت عائشة . فذكرته .

(٩) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٨٥) ، وابن حجر : الفتح (١٥٣/٣) .

(١٠) انظر : فتح الباري (١٥٣/٣) .

الثاني : لا مطلقاً[١] ، وهذا يقابل القول الأول ، وذهب أصحابه إلى أنه يتعارض مع بعض أصول الشريعة المقررة في مثل قــول الله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى)[٢] ، وقد سبق معنا أنه قول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وحكاه الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - عن أبي هريرة - رضي الله عنه -[٣] .

الـثالث : أن الباء للحال[٤] ، بمعنى أنه يعذب حال بكائهم عليه ، والتعذيب بما له من ذنب ، لا بسبب بكائهم عليه . حكاه الخطــابي وقال ابن حجر : " ولا يخفى ما فيه من التكلف "[٥] ولكن ربما يستدل من قال هذا القول بحديث أم المؤمنين عائشــة - رضي الله عنها - الذي سبق نقله عنها . وهو عند مسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عنها . وعلى هذا يكون التعذيب خاصاً ببعض الموتى لا كل من بُكي عليه .

الرابع : أنه خاص بالكافر ، وهذا القول والذي قبله هو رأي أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -[٦] وعليه فتكون الألف والــلام فــي قولــه " الميــت " لميت معهود معين كما مر معنا أنها جنازة يهودي أو يهودية وقد جزم بهذا القول القاضي الباقلاني وغيره[٧] .

الخـامس : أنــه خــاص بمــن كان النوح من سنته وعادته[٨] ، وهو قول الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - فقد ترجم لأحــاديث الباب قائلاً : " باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته "[٩] .

السادس : أنه فيمن أوصى[١٠] به . كما قال القائل :

فــإن مُت فانعيني بما أنا أهــله ... وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد[١١]

وهــذا قول المزني وإبراهيم الحربي وآخرون من الشافعية وغيرهم . حتى قال أبو الليث السمرقندي : إنه قول عامة أهل العلم . وكذا نقله النووي عن الجمهور ، قالوا : وكان معروفاً للقدماء حتى قال : طرفة بن العبد ما قال في البيت السابق[١٢]

وأورد الحافظ ابن حجر على هذا اعتراضاً بأن التعذيب بسبب الوصية يستحق بمجرد صدور الوصية ، والحديث دال على أنه إنما يقع عند وقوع الإمتثال .

---

(١) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(٢) سورة الأنعام بعض الآية (١٦٤) .
(٣) انظر : الفتح (١٥٤/٣) .
(٤) انظر : شرح الصدور (ص٣٨٥) .
(٥) الفتح (١٥٤/٣) .
(٦) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(٧) انظر : الفتح (١٥٤/٣) .
(٨) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(٩) فتح الباري (١٥٠/٣) .
(١٠) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(١١) البيت من معلقة طرفة بن العبد البكري ، انظر معلقته ضمن " مجموع مهمات المتون " (ص ٧٩٥) .
(١٢) انظر : الفتح (١٥٤/٣) .

وأجاب عنه بأنه : ليس في سياق الحديث حصر ، فلا يلزم من وقوعه عند الإمتثال أن لا يقع إذا لم يمتثلوا[(١)] .

السابع : أنه فيمن لم يوصي بتركه ، فتكون الوصية بذلك واجبة إذا علم أن من شأن أهله أن يفعلوا ذلك[(٢)] .

وهو قول داود الظاهري وطائفة ، ولا يخفى أن محله ما إذا لم يتحقق أنه ليست لهم بذلك عادة[(٣)] .

الثامن : أن التعذيب بالصفات التي يبكون بها عليه ، وهي مذمومة شرعاً[(٣)] . أي بنظير ما يبكيه أهله به ، وذلك أن الأفعال التي يعددون بها عليه غالباً تكون من الأمور المنهي عنها فهم يمدحونه بها وهو يعذب بصنيعه ذلك وهو عين ما يمدحونه به ، وهذا قول الإمام ابن حزم - رحمه الله - وطائفة معه ، واستدل عليه بحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في قصة عيادة النبي - صلى الله عليه وسلم - سعد بن عبادة - رضي الله عنه - فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله . فقال : قد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله . فبكى النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما رأى القوم بكاء النبي - صلى الله عليه وسلم - بكوا " فقال : ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم ... " الحديث[(٤)] .

قال ابن حزم : " فصح أن البكاء الذي يعذب به الإنسان ما كان منه باللسان إذ يندبونه برياسته التي جار فيها ، وشجاعته التي صرفها في غير طاعة الله ، وجوده الذي لم يضعه في الحق ، فأهله يبكون عليه بهذه المفاخر وهو يعذب بذلك "[(٥)] ، ومن هذا ما كان يفعله أهل الجاهلية من إغارة بعضهم على البعض الآخر فيسرقون وينهبون ويقتلون ويسبون وكان أحدهم إذا مات بكته باكيته بتلك الأفعال المحرمة ، فمعنى الحديث أن الميت يعذب بذلك الذي يبكي عليه أهله به ، لأن الميت يندب بأحسن أفعاله وكانت محاسن أفعالهم ما ذكر وهي زيادة ذنب في ذنوبه يستحق العذاب عليها[(٦)] .

التاسع : أن المراد بالتعذيب توبيخ الملائكة له بما يندبه به أهله[(٧)] ، وذلك لما روى مرفوعاً : " ما من ميت يموت فتقوم نادبته تقول : واجبلاه وا سنداه أو شبه ذلك من القول إلا وكل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت "[(٨)] . وقد " أغمي على عبدالله بن رواحة ، فجعلت أخته عَمرة تبكي : واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً إلا قيل لي : أنت كذلك ؟ "[(٩)] .

العاشر : أن المراد بالتعذيب تألم الميت بما يقع من أهله من النياحة والبكاء والحزن وغيرها[(١٠)] ، وهذا اختيار الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - ورجحه القاضي عياض ومن تبعه ، ونصره شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة

---

(١) انظر : نفسه .

(٢) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .

(٣) انظر : الفتح (٣/١٥٤) .

(٤) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٤٤) ح رقم (١٣٠٤) ، انظر الفتح (٣/١٧٥) .

(٥) الفتح (٣/١٥٥) .

(٦) انظر : السابق نفسه .

(٧) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٨٥) ، وفتح الباري (٣/١٥٥) .

(٨) رواه الترمذي في " سننه " رقم (١٠٠٣) وقال : " هذا حديث حسن غريب " ، وابن ماجة رقم (١٥٩٤) .

(٩) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٤٤) رقم (٤٢٦٨،٤٢٦٧) انظر : الفتح (٧/٥١٦) .

(١٠) انظر : شرح الصدور (٣٨٦) .

من المتأخرين – رحم الله الجميع –[١] واستشهدوا لهذا القول بحديث قَيلة بنت مخرمة قالت : قلت يا رسول الله قد ولدته فقاتل معك يوم الربذة ثم أصابته الحمى فمات ونزل عليّ البكاء ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفاً وإذا مات استرجع ، فوالذي نفس محمد بيده إن أحدكم ليبكي فيستعبر إليه صويحبه . فيا عباد الله لا تعذبوا موتاكم "[٢] .

هذه جملة الأقوال في تفسير معنى التعذيب الذي ينال الميت ببكاء أهله عليه ، وكلها اجتهادات في محاولة فهم كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لمعرفة كيفية تلافي أهل الميت هذا التعذيب لئلا يلحقه شيء منه في قبره أو يوم القيامة . وبعد تأمل هذه الأقوال رأيت أن أقرب الأقوال للصواب قولان :

أحدهما : القول بأن الحديث محمول على من أوصى بالنوح عليه ، أو لم يوصى بتركه مع علمه بأن الناس يفعلونه عادة ، ولهذا قال : عبدالله بن المبارك : " إذا كان ينهاهم في حياته ففعلوا شيئاً من ذلك بعد وفاته لم يكن عليه شيء "[٣] . وهذا هو قول الجمهور كما حكاه النووي وأبو الليث السمرقندي[٤] .

والثاني : أن معنى " يعذب " أي يتألم بسماعه بكاء أهله ، ويرق لهم ويحزن ، وذلك في البرزخ ، وليس يوم القيامة ، وقد ذكرنا أنه اختيار الإمام ابن جرير الطبري ، ورجحه كل من ابن المرابط ، والقاضي عياض ، وطائفة معهما ، ونصره الإمام ابن تيمية والعلامة ابن القيم وغيرهما ، قالوا : " وليس المراد أن الله يعاقبه ببكاء الحي عليه ، والعذاب أعم من العقاب ، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم – : " السفر قطعة من العذاب "[٥] وليس هذا عقاباً على ذنب ، وإنما هو مقاساة ومعاناة وتألم . وقد يؤيد هذا قوله – صلى الله عليه وسلم – : " الميت يعذب في قبره بما نيح عليه "[٦] ، وكذلك قول عمر – رضي الله عنه – : " إن الميت ليعذب في قبره بما نيح عليه "[٧] ولكن مع هذين الحديثين اللذين يقرران أن الميت يعذب في قبره بسبب النياحة عليه ، ورد أيضاً أنه يعذب بسبب ذلك يوم القيامة ، فقد صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " من يُنح عليه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة "[٨] وهذا لا يمكن تأويله بأنه تألم وتأذى بما يفعله أهله عليه ، وإنما هو عذاب بمعنى العقاب يوم القيامة ، ولهذا فقد رأيت أن أرجح الأقوال جميعاً هو قول الجمهور ، ولا

---

(١) انظر : فتح الباري (٣/١٥٥) .

(٢) ذكره القرطبي في " التذكرة " (١/١٦٨) وقال : " إسناده لا بأس به " وأورده الحافظ ابن حجر في " الإصابة " (٤/٣٩٣) ، وأورده كذلك في فتح الباري (٣/١٥٥) وقال : " هذا حديث حسن الإسناد " .

(٣) الإمام العيني : عمدة القاري في شرح صحيح البخاري (٤/٧٩) .

(٤) انظر : فتح الباري (٣/١٥٤) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب العمرة (٢٦) باب (١٩) ح رقم (١٨٠٤) انظر الفتح (٣/٦٢٢) ، وانظر : ح رقم (٣٠٠١) ، (٥٤٢٩) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (٣/١٥٢٦) كتاب الإمارة (٣٣) باب (٥٥) ح رقم {١٧٩-(١٩٢٧)} .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (٢/٦٣٩) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) رقم (١٧) وابن حبان في " صحيحه " (٧٤٢) من حديث عمران بن حصين – رضي الله عنه – .

(٧) البيهقي (٤/٧٢-٧٣) وأحمد في "المسند" رقم (٣٨٦،٣٥٤،٣٣٤،٣١٥،٢٩٠،٢٨٩،٢٨٨،٢٦٨) من طرق عن عمر مطولاً ومختصراً ، وروى ابن حبان في " صحيحه " (٧٤١) قصة حفصة فقط .

(٨) مسلم في " صحيحه " (٢/٦٤٤) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم (٢٨) من حديث المغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – والبيهقي (٤/٧٢) ، وأحمد في "المسند" (٤/٢٥٥،٢٥٢،٢٤٥) .

منافاة بين هذا وبين القيد الآخر ، وهو قوله : (في قبره) بل يضم أحدهما إلى الآخر ، ويكون عذابه في قبره كالمقدمة لعذابه يوم القيامة ، وعلى هذا فالمعنى : أن الميت يعذب في قبره ، ويعذب كذلك يوم القيامة ، وبهذا يتم الجمع بين الأحاديث الواردة في ذلك .

وقد رأيت للحافظ ابن حجر – رحمه الله – جمعاً وجيهاً جداً قريباً مما قلته في توجيه قول الجمهور فقال : " ويحتمل أن يجمع بين هذه التوجيهات فينزل على اختلاف الأشخاص بأن يقال مثلاً : من كانت طريقته النوح فمشى أهله على طريقته ، أو بالغ فأوصاهم بذلك عذب بصنعه ، ومن كان ظالماً فندب بأفعاله الجائرة عذب بما ندب به ، ومن كان يعرف من أهله النياحة فأهمل نهيهم عنها فإن كان راضياً بذلك التحق بالأول وإن كان غير راض عذب بالتوبيخ كيف أهمل النهي ، ومن سلم من ذلك كله واحتاط فنهى أهله عن المعصية ثم خالفوه وفعلوا ذلك كان تعذيبه تألمه بما يراه منهم من مخالفة أمره وإقدامهم على معصية ربهم والله أعلم بالصواب "(١) . وهذا في غاية الوجاهة إلا أن الظالم يعذب بأفعاله الجائرة ندب أو لم يندب ، وسواء نيح عليه أم لم ينح عليه بذلك .

ما ينفع الميت في قبره(٢):

ذكر السيوطي تحت هذا العنوان مجموعة من الأحاديث منها:

١- عن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " يتبع الميت ثلاثة : فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله "(٣) .

٢- وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له "(٤) .

بعض فوائد تتعلق بالروح(٥):

ذكر السيوطي تحت هذا العنوان بعض المباحث التي تتعلق بالروح والتي لخص أكثرها من كتاب " الروح " لابن القيم . وجعل السيوطي الأصل في هذا الباب حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : بينما أنا أمشي مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في خِرَب(٦) المدينة : وهو يتوكأ(٧) على عسيب(٨) معه ، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه . فقال بعضهم لنسألنه ، فقام رجل منهم فقال : يا أبا

---

(١) فتح الباري (٣/١٥٥ – ١٥٦) .

(٢) انظر : شرح الصدور (ص ٣٩١) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٤٢) ح رقم (٦٥١٤) انظر : الفتح (١١/٣٦٢) . ومسلم في " صحيحه " (٤/٢٢٧٣) كتاب الزهد والرقائق (٥٣) باب (٥٣) ح رقم {٥ – (٢٩٦٠)} واللفظ له .

(٤) رواه البخاري في " الأدب المفرد " رقم (٣٨) ومسلم في " صحيحه " (٣/١٥٥٥) ح رقم {١٤ – (١٦٣١)} كتاب الوصية (٢٥) باب (٣) . واللفظ له

(٥) انظر : شرح الصدور (ص٤١٤) .

(٦) بكسر الخاء وفتح الراء جمع خَرِب ضد العامر ، انظر : فتح الباري (١/٢٢٤) وهذا لفظ البخاري في " صحيحه " كتاب العلم (٣) باب (٤٧) ح رقم (١٢٥) ووقع عنده كذلك في كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة الاسراء (١٧) باب (١٣) ح رقم (٤٧٢١) – حَرْث – بدل خرب ، وهو بمعنى الزرع أو النخل كما في صحيح مسلم (٤/٢١٥٣) ح رقم (٣٤) .

(٧) هكذا (يتوكأ) في كتاب العلم (٣) باب (٤٧) ح رقم (١٢٥) وفي كتاب التفسير ح رقم (٤٧٢١) (وهو متكيء) واللفظان عند مسلم أيضاً ح رقم (٣٢ – ٣٤) .

(٨) العسيب : بوزن عظيم ، هي الجريدة التي لا خوص فيها ، الفتح (٨/٤٠١) وفي رواية ابن حبان " ومعه جريدة " .

القاسم ، ما الروح ؟ فسكت ، فقلت : إنه يوحى إليه ، فقمت ، فلما انجلى عنه فقال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم[١] من العلم إلا قليلاً)[٢] ثم قال السيوطي : " اختلف الناس في الروح على فرقتين :

* فرقة أمسكت عن الكلام فيها لأنها سر من أسرار الله تعالى لم يؤت علمه البشر ، وهذه الطريقة هي المختارة "[٣] ولو أن السيوطي كان سكت عند هذا وأمسك كما أمسكوا عن البحث فيها لأراح نفسه وأراحنا معه ، لكنه عاد فقال : " وفرقة تكلمت فيها وبحثت عن حقيقتها قال النووي : وأصح ما قيل في ذلك قول إمام الحرمين : إنها جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر "[٤] .

أما أصحاب القول الأول الذين أمسكوا عن الكلام في الروح ، فقالوا : إن الحكمة في إبهام حقيقة الروح اختبار الخلق ليعرفهم عجزهم عن علم ما لا يدركون حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه جل وعلا . لأن المرء إذا لم يعرف حقيقة نفسه مع القطع بوجوده كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق من باب أولى[٥] . قال أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري استاذ الطائفة ، كما يلقبه ابن حجر : " الروح شيء استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، فلا تجوز العبارة عنه بأكثر من أنه موجود "[٦] .

وعلى هذا ابن عباس – رضي الله عنهما – وأكثر السلف[٧] ، وجرى عليه أيضاً ابن عطية وجمع من أهل التفسير[٨] .

ثم اختلفت هذه الفرقة ، إذا كان الله تعالى قد أخفى علم حقيقة الروح عن خلقه ، فهل علمها النبي – صلى الله عليه وسلم – ؟ على قولين :

– فقيل : قبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما يعلم الروح .

– وقيل : بل علمها ، وأطلعه الله عليها ، ولم يأمره أن يطلع عليها أمته وهو نظير الخلاف في علم الساعة[٩] .

* وأما الفريق الذي تكلم في الروح وبحث عن حقيقتها ، فقد اختلفت أقوالهم وتباينت آراؤهم فيها جمع هذه الأقوال ابن القيم وزيف بعضها ثم قال : " والسادس : أنه جسم لطيف مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون والنار في

---

(١) هذا اللفظ هكذا عند البخاري في " صحيحه " كتاب العلم (٣) باب (٤٧) ح رقم (١٢٥) الفتح (٢٢٤/١) ثم أردفها البخاري – رحمه الله – قال : " قال الأعمش : هكذا في قراءتنا " قال ابن حجر – رحمه الله – : " أي قراءة الأعمش ، وليست هذه القراءة في السبعة بل ولا في المشهور من غيرها ، وقد اغفلها ابو عبيدة في كتاب القراءات له من قراءة الأعمش " ا.هـ . أما في كتاب التفسير من صحيح البخاري فأورد لفظ القراءة السبعية (وما أوتيتم) ح رقم (٤٧٢١) وكذلك في كتاب " التوحيد " من نفس الصحيح ح رقم (٧٤٥٦) الفتح (٤٤٠/١٣) .

(٢) سورة الاسراء ، الآية (٨٥) .

(٣) شرح الصدور (ص ٤١٤) .

(٤) نفسه (ص ٤١٥) وانظره عند النووي في شرح صحيح مسلم (١٣٨/١٧) وعبارة إمام الحرمين : " الأظهر عندنا أن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة أجرى الله تعالى العادة باستمرار حياة الاجسام ما استمرت مشابكتها لها فإذا فارقتها يعقب الموت الحياة في استمرار العادة " الارشاد (ص ٣٧٧) .

(٥) انظر : شرح الصدور (ص ٤١٥) ، فتح الباري (٤٠٣/٨) .

(٦) فتح الباري (٤٠٣/٨ – ٤٠٤) ، وانظر : السيوطي : شرح الصدور (٤١٤) .

(٧) انظر : شرح الصدور (ص ٤١٤) .

(٨) انظر : فتح الباري (٤٠٤/٨) .

(٩) انظر : السابق (٤٠٣/٨) ، شرح الصدور (ص ٤١٥) .

الفحـــم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهـذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإدارية . وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار ، فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح . وهذا القول هو الصواب في المسألة ، وهــو الــذي لا يصــح غيره ، وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد "[١] ثم ساق أكثر من مائة دليل على هذا التعريف بحقيقة الروح . يقول السفاريني : " وذكر له مائة دليل وخمسة عشر دليلاً وأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا ، وابن حزم وأمثالهما "[٢] .

وهذا قريب جداً مما نقلته آنفاً عن إمام الحرمين الجويني ورأيته في الإرشاد . وإليه ذهب السيوطي حيث قال : " أكـــثر المســـلمين على أن الروح جسم وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة لوصفها في الآيات والأحاديث بالتوفي ، والقبض ، والإمساك ، والإرسال ، والتناول ، والإخراج ، والخروج ، والتنعيم والتعذيب ، والرجوع والدخول ، والرضـــا والإنتقال ، والتردد في البرزخ ، وأنها تأكل وتشرب وتسرح وتأوي ، وتعلق ، وتنطق ، وتعرف ، وتنكر ، إلى غيـــر ذلك مما هو من صفات الأجسام ، والعرض لا يتصف بهذه الصفات أيضاً فلا شك أنها تعرف نفسها وخالقها وتدرك المعقولات وهذه علوم ، والعلوم أعراض ، فلو كانت عرضاً والعلم قائم به ، لزم قيام العرض بالعرض وهو فاسد "[٣] .

<u>الروح محدثة مخلوقة :</u>

حـــكى السيوطي إجماع أهل السنة على ذلك فقال : " أجمع أهل السنة على أن الروح محدثة مخلوقة ولم يخالف في ذلك إلا الزنادقة ، وممن نقل الإجماع على حدوثها محمد بن نصر المروزي وابن قتيبة "[٤] ، ولمثل هذا ذهب السفاريني " في لوامع الأنـــوار " حيـــث قـــال : " أجمعت الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – على أن روح الإنسان محدثة مخلوقة مصنوعة مدبـــرة ، وهـــذا معلوم بالإضطرار من دين الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – كما يعلم بالإضطرار من ديـــنهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله تعالى وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصـــحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة "[٥] وقال ابن تيميـــة : " روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخـــلوقة غيـــر واحـــد مـــن أئمـــة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو أعلم زمانه بالإجماع والإختلاف أو من أعلمهم "[٦] .

وبعـــد التأكد من حصول الإجماع على أن الروح مخلوقة محدثة فليس لأحد أن يرفع عقيدته بمخالفة هذا الإجماع ، لأنه من المشاقة للرسول – صلى الله عليه وسلم – واتباع غير سبيل المؤمنين بل هو كفر وشرك وزندقة .

---

(١) الروح (ص ٣٩٢) .
(٢) لوامع الأنوار (٢/٢٩) .
(٣) شرح الصدور (ص ٤١٥-٤١٦) .
(٤) السابق نفسه (ص ٤١٩) .
(٥) لوامع الأنوار (٢/٣٣) .
(٦) مجموع الفتاوي (٤/٢١٦) .

الفصل الثالث : يوم القيامة

المبحث الأول : البعث

تعريف البعث :

البعث بعد الموت ركن من أركان الإيمان دلت عليها أدلة صريحة من الكتاب والسنة ، بل هو حقيقة اتفقت عليها كـلمة أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى[١] ، وقد أخبرت به جميع الأنبياء والرسل أممهم ، والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان العبد إلا بتحقيقها .

البعث في اللغة : يأتي ويراد به ثلاثة معان :

١- الإرسال : يقال بعثت فلاناً وابتعثته أي أرسلته[٢] .

٢- البعث من النوم : يقال بعثته من منامه إذا أيقظته[٣] .

٣- الإثارة : وهو أصل البعث ومنه قيل للناقة : بعثتها إذا أثرتها وكانت باركة[٤] .

البعث في الشرع : هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء[٥] .

يقول ابن كثير – رحمه الله – : " البعث : وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة "[٦] .

ويقــول أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي : " يعيد الله الرفات من أبدان الأموات ، ويجمع ما تفرق منها في الــبحار وبطــون السباع وغيرها حتى تصير بهيئتها الأولى ، ثم يجعلها حية فيقوم الناس كلهم بأمر الله جل ثناؤه أحياء ، صغيرهم وكبيرهم "[٧] .

ويقــول الــبيجوري : " الــبعث عبارة عن إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم "[٨] ويقول د . الأشقر : " المراد بالبعث المعاد الجسماني وإحياء العباد في يوم المعاد ، والنشور مرادف للبعث في المعنى ، يقال نشر الميت نشوراً إذا عاش بعـد المـوت ، وأنشره الله أحياه فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ويقوم الناس لرب العالمين "[٩] وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة وأحاديث شريفة من ذلك قول الله تعــالى في محكم التنزيل : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)[١٠] وبالنظر في المعنى اللغوي لكلمة البعث والمعنى الشرعي لها : نجد أن هناك ترابطاً

---

(١) انظر مجموع الفتاوي (٢٨٤/٤) .
(٢) انظر : تهذيب اللغة (٣٣٤/٢-٣٣٥) ، القاموس المحيط (١٦٨/١) .
(٣) انظر : القاموس المحيط (١٦٨/١) .
(٤) انظر : نفسه ، الراغب الاصبهاني : المفردات (ص٥٣،٥٢)
(٥) انظر : شرح الطحاوية (ص٤٥٦) ، والسفاريني : لوامع الأنوار (١٥٧/٢) .
(٦) تفسير القرآن العظيم (٢٠٦/٣) .
(٧) المنهاج في شعب الإيمان (٣٤٥/١) .
(٨) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد (ص١٧٠) .
(٩) اليوم الأخر – القيامة الكبرى (ص٥١) .
(١٠) سورة الحج ، الآيتان (٦،٧) .

ظاهـراً وذلك أن معاني البعث في اللغة الإثارة والإرسال هو نفس المعنى المراد بالإصطلاح الشرعي الذي يظهر من أن البعث هو إرسال الحياة أو إرسال الأرواح إلى الأموات وإثارتها من مرقدها فتقوم وتنبعث من جديد لتتهيأ لما يراد منها من الإنطلاق إلى الموقف العظيم للحساب ونيل الجزاء .قال تعالى : (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون)[١] .

ففـي هـذه الآيات الأربع الكريمة إثبات البعث من المرقد ، وخروج الأموات من الأجداث ، وحضورها بين يدي الرب جل وعلا ثم يكون الحساب والجزاء لكل نفس بما كسبت .

تكـلم السـيوطي عن البعث وقرر أن البعث حق وأن الإيمان به واجب فقال - رحمه الله - : " ... وأن الحشر للخـلق أجمـع بـأن يحييهـم الله بعـد فنائهم ، ويجمعهم للعرض والحساب للمعاد ، أي عود الجسم بعد الإعدام بأجزائه وعوارضـه كما كان ، حق ، قال تعالى : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً)[٢] (وإذا الوحوش حشرت)[٣] (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده)[٤] (كما بدأنا أول خلق نعيده)[٥] "[٦] .

وفـي قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور)[٧] يقول السيوطي : " عبارة عن البعث ، وجمع ما في الصحف ، وأُظهر محصلاً ، ومُيِّز خيره من شره "[٨] وهكذا يستمر السيوطي في بيان أدلة البعث من خلال كلامه على إعجاز القرآن فعند قوله تعالى : (نحن خلقناكم فلولا تصدقون)[٩] يقول السيوطي : " تحضيض على التصديق : إما بالخالق تعالى ، وإما بالبعث لأن الخلقة الأولى دليل عليها "[١٠] . وفي قوله تعالى : (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون)[١١] يقول السيوطي : " تحضيض على الذكر والإستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة "[٤] .

وفـي تقريـر مذهب أهل السنة والجماعة يقول السيوطي : " ومذهب أهل السنة أن الإعادة ممكنة عقلاً ، واقعة سـمعاً ، وهـل تعـاد الأجسـاد أم لا ؟ مذهب أهل السنة أنها تعاد ، لأن الوجود قسمان : إما متحيز ، أو قائم بالمتحيز ، فـالأرواح أن كـانت متحيزة فهي أجسام ، وإن لم تكن متحيزة فلا تستقل بنفسها ولا بد لها من أجسام تحل فيها فلا بد من إعادة الأجسام خلافاً للحكماء [١٢]وغيرهم "[١] .

---

(١) سورة يس ، الآيات (٥١،٥٢،٥٣،٥٤) .
(٢) سورة الكهف ، بعض الآية (٤٧) .
(٣) سورة التكوير ، الآية (٥) .
(٤) سورة الروم ، بعض الآية (٢٧) .
(٥) سورة الأنبياء ، بعض الآية (١٠٤) .
(٦) علم التوحيد -مخطوط- لوحة رقم (٨) .
(٧) سورة العاديات ، الآيتان (٩ ، ١٠) .
(٨) معترك الأقران (٤٦٩/٢) .
(٩) سورة الواقعة ، الآية (٥٧) .
(١٠) معترك الأقران (١٠٨/٣) .
(١١) سورة الواقعة ، الآية (٦٢) .
(١٢) أي : الفلاسفة .

منكر البعث كافر : يقرر السيوطي أن منكر البعث كافر ، وذلك من خلال استدلاله بقوله تعالى : (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[٢] يقول السيوطي : " في الآية دليل على أن منكر البعث كافر "[٣] وهو واضح من صريح قوله تعالى : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ولا يخلد في النار إلا الكافرون .

المبحث الثاني : الشفاعة

الشفاعة لغة : هي الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه ، وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى [٤].

واصطلاحاً : سؤال التجاوز عن الذنوب والآثام [٥]من الذي وقع الجناية في حقه [٦].

أثبت السيوطي شفاعة النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم القيامة فقال : " ... وأن الشفاعة حق وهي أنواع : أولاها وأعظمها : الشفاعة في فصل القضاء والإراحة من طول الموقف وهي مختصة بالنبي – صلى الله عليه وسلم – بعد تردد الخلق من نبي إلى نبي "[٧] وقال السفاريني : " والشفاعات المختصة به – صلى الله عليه وسلم – عدة : أولها وأعظمها وأعمها شفاعته – صلى الله عليه وسلم – لفصل القضاء بين الورى "[٨] وهذه الشفاعة العظمى تحصل في الموقف العظيم بأرض المحشر عندما ينتاب الناس التعب والكرب وتبلغ المعاناة منهم منتهاها فيلهم الله تعالى بعض عباده طلب الشفاعة من الرسل إلى الله تعالى لفصل القضاء وإراحة الناس ، فيتقدم هؤلاء لطلب الشفاعة أول ما يتقدمون إلى آدم – عليه السلام – فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح . فيذهبون إلى نوح – عليه السلام – ثم إلى إبراهيم ، ثم إلى موسى ، ثم إلى عيسى – عليهم جميعاً الصلاة والسلام – كلهم يقول نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري ، حتى يقول لهم عيسى – عليه السلام – اذهبوا إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – فيأتون رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – فيطلبون منه مثلما طلبوا من الأنبياء قبله ، فينطلق – صلى الله عليه وسلم – فيأتي تحت العرش فيقع ساجداً لله تعالى ، فيقال له : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع رأسه – صلى الله عليه وسلم – فيقول : أمتي يارب – ورد هذا في حديث طويل في الصحيحين[٩] .

---

(١) معترك الاقران (٢٩٨/٣) .
(٢) سورة الرعد ، الآية (٥) .
(٣) معترك الاقران (٥٢/٣) .
(٤) الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن (ص٢٦٣) .
(٥) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث (٤٥٨/٢) .
(٦) الجرجاني : التعريفات (ص١٢٧) .
(٧) علم التوحيد –مخطوط– لوحة رقم (١١) .
(٨) لوامع الأنوار (٢١١/٢) .
(٩) البخاري في "صحيحه" كتاب التفسير (٦٥) باب (٥) ح رقم (٤٧١٢) ، الفتح (٣٩٥/٨) ومسلم في "صحيحه" (٤٦٩/١) .

الثانية : الشفاعة لقوم ليدخلوا الجنة بغير حساب :

يقول السيوطي : " الثانية : الشفاعة في ادخال قوم الجنة بغير حساب "[١] وذلك لما امتازوا به من صفات إيمانية جعلتهم أهلاً لهذا الإكرام ، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " عرضت عليّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر والنبي يمر معه العشرة والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير قلت : يا جبريل : هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب ، قلت : ولم ، قال : كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : اللهم اجعله منهم ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : سبقك بها عكاشة "[٢] ومحل الشاهد من هذا الحديث هو دعاؤه – صلى الله عليه وسلم – لعكاشة بن محصن – رضي الله عنه – أن يجعله الله منهم ، فإن هذا الدعاء هو الشفاعة منه – صلى الله عليه وسلم – لعكاشة – رضي الله تعالى عنه –[٣]

الثالثة : الشفاعة لقوم استحقوا دخول النار ألا يدخلوها :

قال السيوطي : " الثالثة : الشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها "[٤] ذكر بعض العلماء هذا النوع الذي ذكره السيوطي ولكني لم أجد عندهم دليلاً يدل لهذا النوع من الشفاعة .

قال الإمام النووي – رحمه الله – : " الثالثة : الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – ومن شاء الله تعالى "[٥] .

وقال القرطبي نقلاً عن القاضي عياض : " الثالثة : في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا – صلى الله عليه وسلم – ومن شاء أن يشفع ويدخلون الجنة "[٦] ويظهر أن نقل القرطبي عن القاضي عياض ، هو نفسه ما ذكره الإمام النووي لأنه كثيراً ما ينقل في شرحه صحيح مسلم عن القاضي عياض وقال السفاريني : " ثالثها : شفاعته – صلى الله عليه وسلم – في قوم استوجبوا النار بأعمالهم فيشفع فيهم فلا يدخلونها "[٧] .

ويقول شارح الطحاوية : " النوع الثاني والثالث من الشفاعة : شفاعته – صلى الله عليه وسلم – في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار ألا يدخلوها "[٨] هكذا أقوالهم عارية عن الدليل تماماً ولم أر واحداً منهم قد أورد نصاً يدل عليه . ولذلك قال العلامة ابن القيم – رحمه الله – : "

---

(١) علم التوحيد .

(٢) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق (٨١) باب (٥٠) ح رقم (٦٥٤١) فتح الباري (٤٠٥/١١) ، ومسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان (١) باب (٩٤) ح رقم [٣٧٤-(٢٢٠)] انظر صحيح مسلم (١٩٩/١) .

(٣) انظر : النهاية : لابن كثير (٢٧٥/٢) ، القرطبي : التذكرة (ص٣٠١) ، السفاريني : لوامع الأنوار (٢٠٨/٢) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٥٧) .

(٤) السيوطي : علم التوحيد –مخطوط– لوحة رقم (١١) .

(٥) شرح صحيح مسلم (٤٤٣/١) .

(٦) التذكرة (٣٠١) .

(٧) لوامع الأنوار (٢١١/٢) .

(٨) شرح الطحاوية (ص٢٥٧) .

ويبقى نوعان يذكرهما كثير من الناس

أحدهما : في قوم استوجبوا النار فيشفع فيهم أن لا يدخلوها وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه ، وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول فلا يدخلون فلم أظفر بنص "[١] . ومن هنا يتبين أن هذا النوع لا دليل عليه .

الرابعة : الشفاعة لأهل الكبائر من الموحدين

يقول السيوطي : " الرابعة : الشفاعة في اخراج من أدخل النار من الموحدين "[٢] وهم أهل الكبائر من الأمة ، ومذهب أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة أن أهل الكبائر هم تحت مشيئة الله جل وعلا ، إن شاء عذبهم بمقتضى عدله ، وإن شاء غفر لهم برحمته وفضله ، وأن من دخل النار من أهل التوحيد فإنه يخرج منها بعد أن يعذب فيها المدة التي يشاؤها الله عز وجل تطهيراً له ، ثم يرحمه ويحسن إليه ويدخله الجنة وأن لا يخلد في النار مثل خلود أهل الكفر والشرك بالله تعالى .

وقد كانت هذه المسألة مسلمة بين الصحابة – رضوان الله عليهم – يثبتونها على ضوء ما جاء في كلام الله تعالى وكلام رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهذه بعض أقوال الأئمة التي تؤيد هذا :

١- قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " ما يزال الله يرحم المؤمنين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بشفاعة الأنبياء والملائكة حتى إنه تعالى في آخر الأمر يقول : من كان من المسلمين فليدخل الجنة قال فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين "[٣]

٢- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " إن أحاديث الشفاعة في أهل الكبائر ثابتة ومتواترة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد اتفق عليها السلف من الصحابة وتابعيهم بإحسان وأئمة المسلمين ، وإنما نازع في ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة "[٤]

٣- وقال السفاريني : " اتفق أهل السنة والجماعة على أن النار لا يخلد فيها أحد من اهل الإيمان والتوحيد كما ثبت ذلك في الأحاديث أنه يخرج من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ونحوه لكن لا بد أن يدخل النار من أهل التوحيد طائفة بذنبهم ، ويعاقبون على مقدار ذنبهم ثم يخرجون بشفاعة النبي – ﷺ- أو غيره ، أو برحمة أرحم الراحمين "[٥] .

وهذه الأقوال من العلماء مبنية على ما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – فعن جابر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم – : " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي "[٦] وهو يدل على الشفاعة الخاصة بأهل

---

(١) عون المعبود (٧٧/١٣) .

(٢) علم التوحيد – مخطوط – لوحة رقم (١١) .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٢/٤) ، والرازي : التفسير الكبير (١٥٤/١٩) .

(٤) مجموع الفتاوي (٣٠٩/٤) .

(٥) لوامع الأنوار (٧٧٣/٢) .

(٦) رواه ابو داود الطيالسي في "مسنده" (ص ٢٣٣) ح رقم (١٦٧) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص ٢٧١) ، والترمذي في "سننه" (٦٢٥/٤) ح رقم (٢٤٣٦) وقال : "حسن غريب من هذا الوجه ، مستغرب من حديث جعفر بن محمد " ، ورواه الحاكم في "المستدرك" (٦/١) وقال : "صحيح على شرط مسلم" ورواه ابو نعيم في "الحلية" (٢٠٠/٣-٢٠١) جميعهم من طريق محمد بن ثابت عن جعفر بن محمد عن أبيه . ورواه ابن ماجة في "الزهد" (١٤٤١/٢) ح رقم (٤٣١٠) ، والحاكم في "المستدرك" (٦٩/١) و (٣٨٢/٢) ، والبيهقي في "البعث والنشور" ح رقم (١) (ص ٥٥) ،

الكبائر التي يخرجون بها من النار بعد دخولهم فيها .

وعـن جابر أيضاً قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله – عز وجل – يخرج من النار قوماً بالشفاعة "(١) .

وعـن عمـران بن حصين – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " يخرج الله من النار قوماً بشفاعة محمد – صلى الله عليه وسلم – فيدخلون الجنة ، فيسميهم أهل الجنة الجهنميين "(٢) .

وعـن ابـي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أما أهل النار الذيـن هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون . ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال : بخطاياهم) فأماتهم إماتة حـتى إذا كانوا فحماً ، أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر(*) . فبثوا على أنهار الجنة . ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم . فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل "(٣) . وغيرها من الأحاديث .

ويـبين السـيوطي أن أصحاب الذنوب من أهل التوحيد إنما يجاوزون بذنوبهم بستة شروط فيقول في قوله تعالى : (ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)(٤) " هذا على عمومه في حق الكفار ، وأما المؤمنون فلا يجزون بذنوبهم إلا بستة شروط وهي

١- أن تكون ذنوبهم كباراً
٢- أن يموتوا قبل التوبة منها
٣- أن لا تكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها
٤- أن لا يُشفع فيهم
٥- أن لا يكونوا ممن استحق المغفرة بعمل كأهل بدر ، للحديث : " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "(٥)

جميعهـم من طريق الوليد بن مسلم ، عن زهير بن محمد ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، وقال الحاكم : "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" وقـال الذهـبي : "على شرط مسلم" ، وقال البيهقي : "حديث صحيح" ، ورواه الآجري في "الشريعة" (١٢١٢/٣) ح رقم (٧٧٨) وقال محققه : " هذا حديث إسناده حسن " .

(١) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق (٨١) باب (٥١) ح رقم (٦٥٥٨) أنظر : الفتح (٤١٦/١١) ، ورواه مسلم في "صحيحه" (١٧٨/١) ح رقم (١٩١) ، وابـن خـزيمة في "التوحيد" (ص ٢٧٧) وابن ابي عاصم في "السنة" (٤٠٤/٢) جميعهم من طريق حماد بن زيد ، عن عمرو بن دينار ، وكذا الآجري في "الشريعة" (١٢٣٠/٣) رقم (٧٩٨) .

ورواه مسلم في "صحيحه" (١٧٨/١) ح رقم (١٩١) ، وابن ابي عاصم في "السنة" (٤٠٤/٢) ح رقم (٨٤٠) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص ٢٧٧) والبيهقي في "الاعتقاد" (ص٩٠) ، والأجري في "الشريعة" (١٢٣١/٣) ح رقم (٧٩٩) جميعهم من طريق سفيان ، عن عمرو بن دينار ، ورواه احمد في "المسند" من طريق آخر عن جابر .

(٢) البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق (٨١) باب (٥١) رقم (٦٥٦٦) انظر : الفتح (٤١٨/١١) .

وابـو داود في "سننه" كتاب الشفاعة (عون المعبود ٧٢/١٣-٧٣) والترمذي في "سننه" في صفة جهنم (٧١٥/٤) ح رقم (٢٦٠٠) ، وابن ماجة في "سننه" كتاب الزهد (١٤٤٣/٢) ح رقم (٤٣١٥) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص٢٧٦) والبيهقي في "الاعتقاد" (ص٩١) ، والبغوي في "شرح السنة" (١٥/ ١٨٣) جميعهم من طريق الحسن بن ذكوان ، وهو ابو سلمة البصري صدوق يخطيء ، ورمي بالقدر ، وكان يدلسي ، من السادسة : انظر : تقريب التهذيب (١٦٦/١) والتهذيب (٢٧٦/٢) .

(*) الضبائر : هم الجماعات في تفرقة ، واحدتها : ضبارة ، مثل عِمارة وعمائر .

(٣) رواه مسلم في "صحيحه" (١٧٢/١) رقم (١٨٥) ، وابن ماجة في "سننه" كتاب الزهد (١٤٤١/٢) ح رقم (٤٣٠٩) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢، ٢٨٣ ، ٢٨٦) ، والبيهقي في "الاعتقاد" (ص٩٢) جميعهم من طريق ابي نضرة عن ابي سعيد وكذلك الأجري في "الشريعة" (١٢٣٢/٣) ح رقم (٨٠١) .

(٤) سورة الزلزلة ، الآية (٨) .

(٥) رواه البخاري في "صحيحه" رقم (٣٠٠٧) الفتح (١٤٣/٦) ، رقم (٤٢٧٤) الفتح (٥١٩/٧) ، رقم (٤٨٩٠) الفتح (٦٣٣/٨) ، ومسلم في "صحيحه" (١٩٤١/٤) ح رقم [١٦١-(٢٤٩٤)] .

٦- وأن لا يعفو الله عنهم . فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له "(١) .

الخامسة : الشفاعة لرفع درجات أهل الجنة

قال السيوطي : " الخامسة : الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها "(٢) ودليل هذا النوع من الشفاعة ما صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " اللهم اغفر لعبيد أبي عامر " ثم قال : " اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس ... " الحديث(٣) وكذا حديث أم سلمة – رضي الله عنها – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – دخل على أبي سلمة ، وقد شق بصره ، فأغمضه ، ثم قال : " إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فضج ناس من أهله فقال : " لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون " ثم قال : " اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفرلنا وله يارب العالمين ... " الحديث(٤) .

قال العلامة ابن القيم – رحمه الله تعالى – : " النوع الثاني : شفاعته – صلى الله عليه وسلم – لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب ورفعة الدرجات " ثم استدل لذلك بحديث أم سلمة المتقدم(٥) . ويقول الإمام النووي – رحمه الله تعالى – : " الخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها "(٦) .

وقال شارح الطحاوية : " النوع الرابع : شفاعته – صلى الله عليه وسلم – في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم "(٧) . وقد ورد في كتاب الله تعالى ما يدل على رفع الدرجات في الجنة كما في قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء)(٨) ولكن هذا لا يدخل في الشفاعة إنما هو تفضل من الله تعالى وإحسان منه إلى عباده حيث رفع ناقص العمل بكامل العمل من غير أن ينقص من أجر الكامل شيء ولكن يدل على جواز رفع درجة بعض المؤمنين في الجنة . والحمد لله على فضله وإحسانه .

السادسة : شفاعته – صلى الله عليه وسلم – في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب

قال السيوطي : " السادسة : الشفاعة في تخفيف العذاب عمن استحق الخلود في النار ، كما في حق أبي طالب "(٩) وهذه خاصة في حق أبي طالب بن عبد المطلب عم النبي – صلى الله عليه وسلم – نظراً لمواقفه مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من مساندته له في دعوته ، ومناصرته ، وحمايته والدفاع عنه ضد أذى قريش رغم أنه لم يسلم ومات على الكفر ، ويدل لذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – عندما سئل : هل نفعت أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك

---

(١) معترك الأقران (٤٦٨/٢) .
(٢) علم التوحيد -مخ- لوحة رقم (١١) .
(٣) رواه البخاري في "صحيحه" . انظر : الفتح (٤١/٨-٤٢) . واللفظ له ، ورواه مسلم في "صحيحه" (١٩٤٤/٤) ح رقم [١٦٥-(٢٤٩٨)] .
(٤) رواه مسلم في "صحيحه" (٦٣٤/٢) ح رقم [٧-(٩٢٠)] .
(٥) عون المعبود (٧٨/١٣) .
(٦) شرح صحيح مسلم (٤٤٣/١) .
(٧) (ص٢٥٧) وانظر : النهاية لابن كثير (٢٧٤/٢) ، لوامع الأنوار (٢١١/٢) .
(٨) سورة الطور ، الآية (٢١) .
(٩) علم التوحيد -مخ- لوحة رقم (١١) .

ويغضب لك قال : " نعم هو في ضحضاح[1] من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار "[2] .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " أهون أهل النار عذاباً أبو طالب – وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه "[3] وهذه الأحاديث تدل على أن أبا طالب مات على الكفر وأنه في النار ويخفف عنه من عذابها بشفاعة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – كما ثبت فيما سبق ، وذلك خلافاً للمغيرية من الشيعة الذين يزعمون أن أبا طالب في الجنة[4] ، وهو ضلال وانحراف نعوذ بالله تعالى من الهلاك والخذلان .

المبحث الثالث : الحساب

الحساب في اللغة : الإحصاء بالدقة التامة دون زيادة ولا نقصان قال الأزهري : " وإنما سمي الحساب في المعاملات حساباً لأنه يعلم به ما فيه كفاية ليس فيه زيادة ولا نقصان "[5] والحساب والحسابة عدل الشيء ويأتي الحساب بمعنى الكثرة ومنه " أحسبت الرجل أي أعطيته ما يرضي وقيل : معناه أعطيته حتى قال حسبي ، قال الله عز وجل : (...عطاءً حساباً)[6] أي كثيراً[7] .

وقال الراغب : " الحساب استعمال العدد ... والحسبان : ما يحاسب عليه فيجازي بحسبه ... والحسيب والمحاسب : من يحاسبك ثم يعبر عن المكافيء بالحساب "[8]

الحساب في الشرع : قال السفاريني عن الحساب أنه يراد به " توقيف الله عباده قبل الإنصراف من المحشر على أعمالهم ، خيراً كانت أو شراً تفصيلاً لا بالوزن ، إلا من استثنى منهم "[9] والمقصود بقوله : " لا بالوزن " أي : لا يكتفي بالمعرفة الإجمالية التي تحصل عن طريق الوزن فقط ، دون إيقافهم على تفصيل أعمالهم تفصيلاً دقيقاً .

ونقل السفاريني عن بعض العلماء قوله : " الحساب تعريف الله – عز وجل – الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك ، يدل على هذا قوله تعالى : (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه)[10] "[11] . ومن هذه الأقوال يمكن أن يقال : إن المراد بالحساب : " أن يوقف الحق تبارك وتعالى عباده بين يديه ، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها ، وأقوالهم التي قالوها ، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر ، واستقامة وانحراف ، وطاعة وعصيان ، وما يستحقون على ما قدموه من إثابة وعقوبة ، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين ، وبشمائلهم إن كانوا طالحين ، ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده ، وما يقولونه له ، وما يقيمه عليهم من حجج

---

(١) الضحضاح : مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين ، واستعير للنار .

(٢) رواه البخاري في "صحيحه" رقم (٦٥٦٤) الفتح (٤١٧/١١) ، ومسلم في "صحيحه" (١٩٤/١) رقم [٣٥٧-(٢٠٩)] .

(٣) رواه مسلم في "صحيحه" (١٩٦/١) ح رقم [٣٦٣-(٢١٣)] .

(٤) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٣١/١١) ، والتنبيه والرد للملطي (ص١٥٢) .

(٥) تهذيب اللغة (٣٣١،٣٣٣/٤) ، وانظر : القاموس المحيط (٥٦/١) .

(٦) سورة النبأ ، بعض الآية (٣٦) .

(٧) تهذيب اللغة (٣٣٣/٤) ، وانظر : تاج العروس (٢١٠/١-٢١٣) .

(٨) المفردات (ص١١٦-١١٧) .

(٩) لوامع الأنوار (١٦٥/٢) ، وانظر : الكواشف الجلية (ص٣٤٣) .

(١٠) سورة المجادلة ، بعض الآية (٦) .

(١١) لوامع الأنوار (١٦٥/٢) .

وبراهين ، وشهادة الشهود ووزن للأعمال . والحساب منه العسير ، ومنه اليسير ، ومنه التكريم ، ومنه التوبيخ والتبكيت ، ومنه الفضل والصفح ومتولي ذلك أكرم الأكرمين "[١] .

والأدلة على وقوع الحساب من القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرة جداً لا يتسع المقام لحصرها لكن نكتفي ببعضها هنا دلالة على المقصود يقول الله تعالى : (... واتقوا الله إن الله سريع الحساب)[٢] وفي بيان سرعة الحساب مع تمام العدل يقول تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب)[٣] (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[٤] ومن الآيات التي استدل بها السيوطي على وقوع الحساب وقيام العباد بين يدي الله جل وعلا قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان)[٥] قال السيوطي : " أي القيام بين يديه للحساب "[٦] وكذلك قال ابن جرير[٧] - رحمه الله - ، وابن كثير - رحمه الله -[٨] وقال القرطبي : " خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية "[٩] وهو أحد الأقوال التي ذكرها في الآية الكريمة .

وقال الإمام الشوكاني : " مقامه سبحانه هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب ، كما في قوله تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين)[١٠] . "[١١] .

وللإستدلال على وقوع الحساب من قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره)[١٢] يقول السيوطي : " المثقال هو الوزن ، والذرة النملة الصغيرة ، والرؤية هنا ليست برؤية بصر وإنما هي عبارة عن الجزاء ، وذكر الله مثقال الذرة تنبيهاً على ما هو أكثر منه من طريق الأولى ، كأنه قال : من يعمل قليلاً أو كثيراً . وهذه الآية هي في المؤمنين لأن الكافر لا يجازى في الآخرة على حسناته ، إذ لم تقبل منه واستدل أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يخلد مؤمن في النار لأنه لو خلد لم ير ثواباً على إيمانه وعلى ما عمل من الحسنات .

(ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[١٣] هذا على عمومه في حق الكفار ، وأما المؤمنون فلا يجزون بذنوبهم إلا بستة شروط وهي التي ذكرتها آنفاً عن السيوطي .

فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له "[١٤] .

---

(١) الأشقر : اليوم الآخر - القيامة الكبرى (ص١٩٣) .
(٢) سورة المائدة ، بعض الآية (٤) .
(٣) سورة غافر ، الآية (١٧) .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية (٤٧) .
(٥) سورة الرحمن ، الآية (٤٦) .
(٦) معترك الأقران (٣٥٠/٣) .
(٧) انظر : جامع البيان (١٤٥/٢٧) .
(٨) انظر : تفسير القرآن العظيم (٤٧٦/٧) .
(٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١١٥/١٧) .
(١٠) سورة المطففين ، الآية (٦) .
(١١) فتح القدير (١٤٠/٥) .
(١٢) سورة الزلزلة ، الآيو (٧) .
(١٣) سورة الزلزلة ، الآية (٨) .
(١٤) معترك الأقران (٤٦٨/٢) .

المبحث الرابع : الميزان

الميزان في اللغة : اسم للآلة التي تزن بها الأشياء والوزن هو معرفة قدر الشيء[١] .

وفي الشرع : هو ميزان حقيقي له لسان وكفتان توزن به السيئات والحسنات[٢] .

وقد أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة ، وأنه يميل بالأعمال ، وذكر الميزان عند الحسن فقال : له لسان وكفتان[٣] .

ويذكر السيوطي أن الميزان حق ، وأن الإيمان به واجب فيقول : " وأن الميزان حق ، وله لسان وكفتان لتعرف بها مقادير الأعمال بأن توزن صحفها به ، قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[٤] "[٥] .

ويؤكد السيوطي هذا المعنى في موضع آخر ، وذلك عند قوله تعالى : (فأما من ثقلت موازينه)[٦] فيقول : " هو جمع ميزان ، أو جمع موزون . وميزان الأعمال يوم القيامة له لسان وكفتان وعمود ، وتوزن فيه الأعمال ، والخفة والثقل متعلقة بأجسام إما صحف الأعمال أو ما شاء الله "[٧] .

ويذكر السيوطي أن المعتزلة خالفت أهل السنة في هذا فقالت عن الميزان إنه " عبارة عن العدل في الجزاء "[٦] ولكنه لم يرد هذا القول أو يبين بطلانه ، وقد حكى الإيجي في المواقف أن المعتزلة ينكرون الميزان لأن الأعمال أعراض لا يمكن وزنها[٨] ولكن ما ذكره القاضي عبدالجبار بن احمد في " أصوله الخمسة " يرد ما ذكره الإيجي فقد قال : " ولم يُرد الله تعالى بالميزان إلا المعقول منه المتعارف عليه بيننا دون العدل وغيره على ما يقول بعض الناس ، وكلام الله تعالى مهما أمكن حمله على الحقيقة لا يجوز أن يعدل به عنه إلى المجاز ، يبين ذلك ويوضحه أنه لو كان الميزان إنما هو العدل لكان لا يثبت للثقل والخفة فيه معنى فدل على أن المراد به الميزان المعروف الذي يشتمل على ما تشمل عليه الموازين "[٩]

وهذا الكلام من القاضي عبدالجبار واضح في أنه يثبت الميزان الذي يثبته أهل السنة وهو شيخ المعتزلة في وقته ، مما يتبين منه أحد الأمرين :

__الأول :__ إما أن يكون قد وقع خطأ في نقل مذهب المعتزلة عنهم ، فهذا تصحيح لهذا الخطأ ، لأن أهل السنة أهل العدل الوسط الذين ينقلون ما لهم وما عليهم ، وبهذا يكون المعتزلة قد أصابوا في هذه المسألة وجه الحق .

---

(١) انظر : المفردات (ص٥٢٢) .
(٢) انظر : لوامع الأنوار (١٨٤/٢) .
(٣) فتح الباري (٥٣٨/١٣) .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية (٤٧) .
(٥) علم التوحيد -مخ- لوحة رقم (١٠) .
(٦) سورة القارعة ، الآية (٦) .
(٧) معترك الأقران (٤٦٩/٢) .
(٨) انظر : (ص٣٨٤) .
(٩) شرح الأصول الخمسة (ص٧٣٥) .

الثاني : أن يكون القائل بأن الميزان هو العدل بعض المعتزلة لا جميعهم .

وقد مضى معنا بعض الآيات الكريمة في إثبات الموازين الموضوعة يوم القيامة لوزن الأعمال . وقد وردت السنة أيضاً بإثبات ذلك ، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ يقول : لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول أحضر وزنك . فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء "(١) .

وقد رجح القرطبي أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة وبها تخف(٢) ، ورجحه أيضاً السفاريني فقال : " والحق أن الموزون صحائف الأعمال ، وصححه ابن عبد البر وغيره ، وذهب إليه جمهور من المفسرين "(٣) .

المبحث الخامس : الصراط

الصراط في اللغة : الطريق الواضح(٤) .

وفي الشرع : جسر منصوب على متن جهنم بين الجنة وأرض المحشر عليه يمر الناس على قدر أعمالهم(٥) .

وقد أكد السيوطي على وجوب الإيمان بالصراط ، وأنه حق فيقول : " ... وأن الصراط ، وهو - كما في حديث مسلم - جسر يمر على ظهر جهنم أدق من الشعر وأحد من السيف ، حق "(٦) . واستشهد السيوطي على ثبوت الصراط بحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وفيه : " ويضرب جسر بين ظهراني جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم في ذلك اليوم إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم . وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان(٧) . هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله - عز وجل - تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق(٨) بعمله . ومنهم من يخردل(٩) ثم ينجو ، ... " الحديث(١٠) .

ومن الأدلة أيضاً حديث أبي سعيد الخدري الطويل وفيه : " ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل

---

(١) رواه الإمام احمد في "المسند" (٣/٢٧٣) بلفظ قريب من هذا ، ورواه الترمذي في "سننه" ح رقم (٢٧٨٩) ، وابن ماجة ح رقم (٤٣٠٠) وقال عنه الشيخ الألباني -رحمه الله- بأنه حديث صحيح ، وله سند آخر بمعناه ، انظر : صحيح الترمذي للألباني (٢/٣٣٣) . واستشهد به السيوطي في "علم التوحيد" (١٠) وعزاه الترمذي وذكر أنه حسنه ، وكذا في "معترك الأقران" (٢/٤٦٩) .

(٢) انظر : التذكرة (٣١٣) .

(٣) لوامع الأنوار (٢/١٨٧) .

(٤) انظر : لسان العرب (٧/٣٤٠) ، مختار الصحاح (ص١٥١) .

(٥) انظر : لوامع الأنوار (٢/١٨٩) .

(٦) علم التوحيد -مخ- لوحة رقم (١٠) .

(٧) نبت ذو شوك ، وهو من جيد مراعي الإبل تسمن عليه . النهاية (٢/٣٦٧) .

(٨) من يهلك بعمله .

(٩) قيل معناه : يقطع ، أي تقطعه الكلاليب فيهوي في النار ، وقيل : المخردل المصروع .

(١٠) رواه البخاري في "صحيحه" ح رقم (٦٥٧٣) الفتح (١١/٤٤٤) ، ومسلم في "صحيحه" (١/١٦٣) ح رقم [٢٩٩-(١٨٢)] .

الشـفاعة فيقولون : اللهم سلم سلم . قيل يا رسول الله : وما الجسر ؟ قال دحض مزلة(١) فيه خطاطيف وكلاليب وحسك(٢) تكـون بـنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمن كطرف العين ، وكالبرق وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل ، والركاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكدوس على وجهه في النار "(٣) .

- ومنها حديث حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - الطويل فيه :

" فيـأتون محمداً - صلى الله عليه وسلم - فيقوم ويؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً فيمـر أو لكـم كالـبرق ، قال : قلت : بأبي أنت وأمي أي شئ كمر البرق ؟ قال : الم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وشد الرجال(٤) تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم . حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجئ الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب(٥) معلقة مـأمورة بـأخذ مـن أمرت بأخذه ، فمخدوش ناج ، ومكدوس(٦) في النار "(٧) وما ذهب إليه السيوطي من وجوب الإيمان بالصراط ، وأنه حق هو مذهب أهل السنة والجماعة ، السلف وأئمة أهل السنة وهذا طرف من بعض أقوالهم :

١- قـال سلمان - رضي الله عنه - : يوضع الصراط يوم القيامة وله حد كحد الموس ، فتقول الملائكة : يا رب من يمر على هذا ؟ فيقول : من شئت من خلقي . فيقولون : يا ربنا ما عبدناك حق عبادتك(٨) .

٢- وقال الإمام أحمد - رحمه الله - : والصراط حق ، يوضع على شفير جهنم ويمر الناس عليه ، والجنة من وراء ذلك ، نسأل الله عز وجل السلامة في الجواز(٩) .

٣- وقـال الإمام ابن بطة العكبري : ثم الإيمان بالبعث والصراط وشعار المؤمنين يومئذ سلم سلم ، والصراط كما جاء في الحديث إنه أحد من السيف ، وأدق من الشعرة(١٠) .

وقد اتضح من الأدلة السابقة ، ومن أقوال الأئمة أمور منها :

أولاً : أن الإيمان بالصراط واجب . وأنه جسر منصوب على متن جهنم بين الجنة وأرض المحشر .

ثانياً : أنه ممر رهيب جداً ، يقف الرسل على جانبيه يدعون الله تعالى يقولون : يا رب سلم سلم . ولا يتكلم غيرهم .

ثالثاً : أن عليه كلاليب وخطاطيف وحسك مثل شوك السعدان معلقة به مأمورة بخطف من أمرت بخطفه من المارين عليه .

رابعاً : أنه مدحضة مزلة ، فهو على دقته وحدته منزلق شديد لا تثبت عليه الأقدام . إلا من كتب الله تعالى له الثبات وكان

---

(١) الدحض : الزلق . النهاية (١٠٤/٢) والدحض المزلة بمعنى واحد ، وهو الموضع الذي نزل فيه الأقدام ولا تستقر .
(٢) الحسك : جمع حسكة وهي شوكة صلبة من حديد ، النهاية (٣٨٦/١) .
(٣) رواه مسلم في "صحيحه" (١٦٧/١) ح رقم (١٨٣) .
(٤) (وشد الرجال) الشد : هو العدو البالغ والجري .
(٥) كلاليب : جمع كلوب ، وهو حديدة معوجة الرأس ، النهاية (١٩٥/٤) ،
(٦) مكدوس : أي مدفوع ، وتكدس الانسان إذا دُفع من ورائه فسقط .
(٧) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٦/١) ح رقم (١٩٥) .
(٨) اللالكائي : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، رقم (٢٢٢١) .
(٩) طبقات الحنابلة (٢٧/١) .
(١٠) الشرح والإبانة (ص٢٢١) ، صحيح مسلم (١٦٧/١) ح رقم (٣٠٢) من كتاب الايمان في آخر الحديث .

من أهل السعادة .

خامســاً : أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف كما قال أبو سعيد – رضي الله عنه – : " بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف "(١) وهذا لا يقال بالرأي بل لا بد أنه قد بلغه من قول النبي – صلى الله عليه وسلم – .

المبحث السادس : الجنة والنار

الجــنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين ، الخاضعين لشريعته ، المتبعين لرسله ، وهي دار النعيم والــثواب المقيــم أعد الله تعالى فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من دخلها فقد فاز الفوز العظيم ، وربح الربح الذي لا خسارة بعده .

والنار – أعاذنا الله منها – هي الدار التي أعدها الله تعالى للكافرين به المكذبين لرسله ، والمتمردين على شريعته ، فهي دار الخزي الأكبر والخسران العظيم .

والإيمان بالجنة والنار من أهم قضايا الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان مما لا يتم الإيمان إلا بها .

تحــدث الســيوطي عن الجنة والنار فقال : " ونعتقد أن الجنة والنار مخلوقتان اليوم قبل يوم الجزاء ، للنصوص الدالــة على ذلك "(٢) وما ذكره السيوطي من أن الجنة والنار موجودتان الآن هو معتقد أهل السنة والجماعة ، وهذه بعض أقوال أئمتهم :

١- قــال شارح الطحاوية : اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل على ذلك أهل السنة حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك ، وقالت : بل ينشئهما الله يوم القيامة ، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله ، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا ، وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة "(٣) .

٢- وقــال الإمام أحمد – رحمه الله – : " وأن الله خلق الجنة قبل الخلق وخلق لها أهلاً ونعيمها دائم ، ومن زعم أنه يبيد من الجنة شئ فهو كافر ، وخلق النار قبل خلق الخلق ، وخلق لها أهلاً وعذابها دائم "(٤) .

٢- وقال الإمام أبو الحسن الأشعري عن عقيدة أصحاب الحديث : " ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان "(٥) .

٣- وعقــد الآجــري في مصنفه القيم " الشريعة " كتاباً مطولاً عن الإيمان والتصديق بأن الجنة والنار مخلوقتان وقال : " اعلموا رحمنا الله وإياكم أن القرآن شاهد على أن الله عز وجل خلق الجنة والنار قبل أن يخلق آدم – عليه السلام – وخلق للجــنة أهلاً وللنار أهلاً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا لا يختلف في هذا من شمله الإسلام ، وذاق حلاوة طعم الإيمان دل على

---

(١) مسلم في " صحيحه " (١٦٧/١) ح رقم (١٨٣) ، وموضع الشاهد (ص١٧١) .
(٢) علم التوحيد – مخ – لوحة رقم (١٩) .
(٣) شــرح العقيــدة الطحاوية (٦١٤/٢-٦١٥) ، وانظر : مقالات الاسلاميين (١٦٨/٢) والابانة (ص٦٣) والبعث والنشور (ص١١٢) وما بعدها وحادي الأرواح (ص٣٥) وما بعدها ، لوامع الأنوار (٢٣٥/٢) وما بعدها .
(٤) طبقات الحنابلة (٣٤٤/١) .
(٥) مقالات الاسلاميين (٢٩٦/١) .

ذلـك القرآن والسنة فنعوذ بالله ممن كذب بهذا "[١] ثم أورد كثيراً من نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة يثبت بها ما ذكره .

٤- وقـال الإمـام ابن عبدالبر : " وفي الحديث أيضاً من ذكر الجنة والنار دليل على أنهما مخلوقتان ، وعلى ذلك جماعة أهل العلم وأنهما لا يبيدان من سائر المخلوقات وأهل البدع ينكرون ذلك "[٢] ومن الأدلة التي استدل بها أهل السنة على هذا المعتقد : أولاً : الأدلة من القرآن :

١- قوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين)[٣] .

٢- وقال تعالى : (إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون)[٤] .

٣- وقـال تعـالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى...)[٥] .

٤- وقال تعالى : (واتقوا النار التي أعدت للكافرين)[٦] .

٥- وقـال جـل وعلا : (...وكفى بجهنم سعيراً . إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً)[٧] .

٦- وقال تعالى : (...وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً)[٨] .

ثانياً : الأدلة من السنة :

١- حديـث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قيل يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهم مثل حرها "[٩] .

٢- وحديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - - قال : " اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء "[١٠] .

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن الله تعالى قد أخبرنا أنه أعد الجنة وما فيها من النعيم المقيم لأهل التقى والصلاح ، وأعـد الـنار وما فيها من العذاب لأهل الكفر والشرك والنفاق وإعداد الشئ تصريح بثبوته وتحققه ، وأنه مخلوق وموجود الآن ، كمـا أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه رأى الجنة والنار واطلع عليهما ، وعلى أهلهما ، وهذا ليس معناه

---

(١) (ص٣٨٧) .
(٢) التمهيد (٣/٣٢٠) .
(٣) سورة آل عمران الآية (١٣٣) .
(٤) سورة الدخان الآيتان (٥١-٥٢) .
(٥) سورة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بعض الآية (١٥) .
(٦) سورة آل عمران ، بعض الآية (١٣١) .
(٧) سورة النساء ، بعض الآية (٥٥) والآية (٥٦) .
(٨) سورة الفتح ، بعض الآية (٦) .
(٩) رواه البخاري في " صحيحه " ح رقم (٣٢٦٥) واللفظ له ، ومسلم في " صحيحه " (٤/٢١٨٤) ح رقم (٢٨٤٣) .
(١٠) رواه البخاري في " صحيحه " ح رقم (٦٥٤٦) ومسلم في " صحيحه " رقم (٢٧٣٧) .

إلا أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن كمعتقد أهل السنة وهو ما صرح به الجلال السيوطي .

تكميل في دوام الجنة والنار وأبديتهما :

لم يذكر السيوطي مسالة دوام الجنة والنار وأنهما أبديتان لا تفنيان ولا يلحقهما عدم ، ورأيت أن اذكر هذه المسألة لتكتمل عقيدة أهل السنة في هذا الحديث . وأقول في ذلك مستعيناً بالله تعالى : إن مقتضى النصوص أن الجنة تخلق خلقاً غير قابل للفناء وكذلك أهلها . فالجنة " خالدة لا تفنى ولا تبيد ، وأهلها فيها خالدون ، لا يرحلون عنها ولا يظعنون ، ولا يبيدون ولا يموتون "(١) وكذلك النار خالدة لا تفنى ولا تبيد(٢) ، وقد نقل ابن حزم - رحمه الله - اتفاق الأمة على ذلك ، فقال : " اتفقت فرق الأمة كلها عن أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها ، ولا للنار ولا لعذابها ، إلا الجهم بن صفوان "(٣) وقال : " ... وأن النار حق ، وأنها دار عذاب لا تفنى ولا يفنى أهلها بلا نهاية "(٤) ، والنصوص في هذا المعنى كثيرة وقد سماها الله تعالى دار الخلد . قال تعالى : (فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعلمون . ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون)(٥) . فمذهب أهل السنة والجماعة " أن النار خالدة لا تبيد ، وأهلها فيها خالدون ، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين ، أما الكفرة والمشركون فهم فيها خالدون "(٦) ومما يدل على دوام الجنة والنار وأبديتهما من القرآن :

١- قوله تعالى : (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار)(٧) .

٢- وقوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا)(٨) .

٣- وقوله تعالى : (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولم عذاب مقيم)(٩) .

٤- وقوله تعالى : (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم)(١٠) .

٥- وقوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار)(١١) والآيات الكريمة في إثبات هذا المعنى كثيرة جداً وأما أدلة السنة - وهي أيضاً كثيرة :

---

(١) الاشقر : القيامة الكبرى - الجنة والنار (ص١٤١) .
(٢) انظر : شرح الطحاوية (ص٤٧٦) .
(٣) الملل والنحل (٨٣/٤) .
(٤) مراتب الإجماع (ص١٧٣) .
(٥) سورة فصلت ، الآيتان (٢٧،٢٨) .
(٦) الأشقر : القيامة الكبرى الجنة والنار (ص٤١) .
(٧) سورة البقرة الآية (١٦٧) .
(٨) سورة النساء الآية (١٢٢) .
(٩) سورة المائدة الآية (٣٧) .
(١٠) سورة التوبة ، الآيتان (٢١،٢٢) .
(١١) سورة الرعد ، الآية (٣٥) .

١- قوله - صلى الله عليه وسلم - : " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، جئ بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ، ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم "(١) .

٢- وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " يدخل أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار : ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول : يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت ، كل خالد فيما هو فيه "(٢) .

٣- وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)(٣) "(٤) .

٤- وقوله - صلى الله عليه وسلم - في حديث الشفاعة الطويل : " ثم اشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة " قال الراوي : فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال : " فأقول : يارب ما بقى في النار إلا من حبسه القرآن " أي وجب عليه الخلود "(٥) .

قال البخاري - رحمه الله - " إلا من حبسه القرآن يعني قول الله تعالى : (...خالدين فيها...) "(٦) .

ومن كلام أئمة أهل السنة في هذا :

١- قال الإمام أحمد - رحمه الله - : " وقد خلقت النار وما فيها ، وخلقت الجنة وما فيها ، خلقهما الله عز وجل ، ثم خلق الخلق لهما ، لا يفنيان ولا يغني ما فيهما أبداً فإن احتج مبتدع بقوله : (كل شئ هالك إلا وجهه)(٧) ونحو هذا من متشابه القرآن قيل له : كل شئ مما كتب اله عز وجل عليه الفناء والهلاك هالك ، والجنة والنار خلقهما الله عز وجل للبقاء لا للفناء ولا للهلاك ، وهما من الآخرة لا من الدنيا "(٨) .

وقال أبو جعفر الطحاوي : " والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان "(٩) .

٢- وقال ابن ابي زمنين : " وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا يفنيان ولا يموت أهلوهما "(١٠)

---

(١) البخاري في " صحيحه " رقم (٦٥٤٨) الفتح (١١/٤١٥) . ومسلم في " صحيحه " (٤/٢١٨٩) ح رقم (٤٣) ، وأحمد في " المسند " (٢/ ١٢١،١٢٠،١١٨) كلهم من حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - .

(٢) البخاري في " صحيحه " ح رقم (٦٥٤٤) الفتح (١١/٤٠٦) ، ومسلم في " صحيحه " واللفظ له (٤/٢١٨٩) ح رقم (٤٢) عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنها - .

(٣) سورة الأعراف ، بعض الآية (٤٣) .

(٤) رواه مسلم في " صحيحه " (٤/٢١٨٢) ح رقم (٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - والنسائي في " سننه الكبرى " (٦/٣٤٥) ح رقم (١١١٨٤) ، والترمذي في " سننه " (٥/٣٧٤) ح رقم (٣٢٤٦) ، وأحمد في " المسند " (٢/٣١٩) ، (٣/٣٨،٩٥) .

(٥) البخاري في " صحيحه " كتاب التفسير - سورة البقرة ح رقم (٤٤٧٦) الفتح (٨/١٦٠) ، ورقم (٦٥٦٥) ، رقم (٧٤١٠،٧٤٤٠) ومسلم في " صحيحه " (واللفظ له) (١/١٨٠-١٨١) ح رقم (٣٢٢) وابن ماجة في " سننه " رقم (٤٣١٢) وأحمد في " المسند " (٣/٢٤٤-٢٤٥) .

(٦) التفح (٨/١٦٠) .

(٧) سورة القصص ، بعض الآية (٨٨) .

(٨) كتاب السنة (ص٤٧) .

(٩) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٦١٤) .

(١٠) أصول السنة (٢/٤٥٣) .

٣- وقال ابو عثمان الصابوني : " ويشهد أهل السنة ويعتقدون أن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما باقيتان لا تفنيان أبداً ، وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبداً ، وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها لا يخرجون أبداً "(١) .

٤- وقال ابن تيمية – رحمه الله – : " وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لايعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك ، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين ، كالجهم بن صفوان ومن افقه من المعتزلة ونحوهم ، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع سلف الأمة وأئمتها "(٢) .

٥- وقال العلامة ابن القيم – رحمه الله – : " ولما كان الناس على ثلاث طبقات : طيب لا يشينه خبث ، وخبث لا طيب فيه ، وآخرون فيهم خبث وطيب كانت دورهم ثلاثة : دار الطيب المحصن ، ودار الخبيث المحض ، وهاتان الداران لا تفنيان ، ودار لمن معه خبث وطيب ، وهي الدار التي تفني وهي دار العصاة ، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد ، فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض "(٣)

٦- ويقول شارح الطحاوية : " وقال بفناء الجنة والنار والجهم بن صفوان إما المعطلة ، وليس له سلف قط ، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ، ولا من أهل السنة ، وانكره عليه عامة أهل السنة ، وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده وهو وجود ما لا يتناهى من الحوادث ... وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار ... وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما بل بإبقاء الله لهما "(٤) .

المبحث السابع : رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة

أعظم نعيم يناله المؤمن في الجنة هو رؤية الله جل وعلا ببصره وهي ثابتة بالكتاب والسنة المتواترة ، واتفق على القول بحصولها جميع الصحابة والتابعين ، وجميع أئمة الإسلام المعروفين بالإمامة والديانة ، وكذلك أهل الحديث وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبين إلى أهل السنة والجماعة "(٥) .

وقد قرر السيوطي هذه المسألة في أكثر من موضع في مصنفاته واستدل لها بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة ، وأنكر على أهل البدع النفاة للرؤية . ومما قال في ذلك : " ...وأن رؤية المؤمنين له تعالى قبل دخول الجنة وبعده حق "(٦) .

---

(١) عقيدة السلف (ص٦٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٠٧/١٨) .

(٣) الوابل الصيب (ص٢٥) .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (٦١٢،٦٢٩/٢) ، وانظر : كتاب السنة لعبد الله ابن أحمد بن حنبل (١٣٠/١-١٣١) ، ومقالات الاسلاميين (٢٤٤/١) ، مراتب الاجماع (ص٤٢٦) ، حادي الأرواح (ص٤٢٦) ، لوامع الأنوار (٢٣٢/٢) .

(٥) انظر في ذلك : التوحيد لابن خزيمة (٥٤٨/٢) ، ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٣٣٧/٢) ابن القيم : حادي الأرواح (ص٤٠٢) ، ابن أبي العز في " شرح العقيدة الطحاوية " (ص٢٠٤) ، وأبو محمد عبدالرحمن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي المعروف بأبي شامة : ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري .

(٦) علم التوحيد – مخ – لوحة رقم (١٣) .

وقال السيوطي في موضع آخر : " يجب الإيمان برؤية المؤمنين له تعالى يوم القيامة ، كما هو مذهب أهل السنة "[١] .

ومما ذكره السيوطي من الأدلة التي استدل بها أهل السنة والجماعة على ثبوت الرؤية : وهي أدلة قرآنية فسرتها الأحاديث النبوية فمن ذلك :

١- قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)[٢] والنظر هنا بمعنى الرؤية والإبصار لاسيما مع اقترانه بالوجوه ، وهكذا قال جمهور أهل العلم ، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة ، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر ، يقول ابن كثير - رحمه الله - : " وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام "[٣] .

ويذهب إمام الحرمين - رحمه الله - : إلى أنه إنما يتوقع تردد النظر بين جهات المعاني إذا لم يقيد " بإلى " فإذا قيد به ، وعدى لم يفهم منه إلا الرؤية الحقيقة فتعين حمل الآية على الرؤية والإبصار [٤] .

ولا يجوز حمل النظر في الآية على نظر الاعتبار ، لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار ، وإنما هي دار اضطرار[٥] ، ولا يجوز نظر التعطف والرحمة ، لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم ، ولا يجوز نظر الانتظار ، لأنه ليس في شئ من أمر الجنة انتظار ، لأن الانتظار من تنقيص وتكدير ، والآية خرجت مخرج البشارة ، وأهل الجنة فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من العيش السليم ، والنعيم المقيم فهم ممكنون مما أرادوا ، قادرون عليه ، وإذا خطر ببالهم شئ أتوا به مع خطوره ببالهم ، وإذا كان ذلك كذلك لم يجز أن يقال : إن الله تعالى أراد بقوله (إلى ربها ناظرة) نظر الانتظار ، لأن ذلك مناف لما ذكر مما هو وارد في الأحاديث الصحيحة .

٢- ومن الأدلة القرآنية أيضاً :

قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ...)[٦] وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة ... رضي الله عنهم - والتابعين ومن بعدهم تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة . يقول ابن كثير - رحمه الله - : " وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكر الصديق ، وحذيفة بن اليمان ، وعبدالله بن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعبدالرحمن بن أبي ليلئ وعبدالرحمن بن سابط ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعامر بن سعد ، وعطاء ، والضحاك ، والحسن وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن اسحاق وغيرهم من السلف والخلف ، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - "[٧] .

---

(١) الكوكب الساطع - مخ - لوحة رقم (٤٣١-٤٣٢) .
(٢) سورة القيامة الأيتان (٢٢،٢٣) ، وانظر : علم التوحيد - مخ - لوحة (١٣) .
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٨٠) ، وانظر : الشوكاني : فتح القدير (٥/٣٣٨) .
(٤) انظر : الإرشاد (ص١٨١،١٨٢) .
(٥) انظر : شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي المعروف بأبي شامة : ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري (ص٣٤) وشرح العقيدة الطحاوية (٢٠٥) ، وفتح الباري (١٣/٤٢٥) .
(٦) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - بعض الآية (٢٦) .
(٧) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٢٩) ، وانظر أقوالهم عند اللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة " (٣/٤٥٥-٤٦٩) بأسانيدها ، وكذلك عند ابن القيم في " حادي الأرواح " (ص٤٠٦-٤٠٩) ، وابن جرير جامع البيان (١١/١٠٤-١٠٩) ، والسيوطي الدر المنثور (٤/٣٥٦-٣٦١) .

وقد أورد السيوطي عدة أحاديث في هذا منها :

١- حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال الناس يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول - صلى الله عليه وسلم - " هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ " قالوا : لا ، يا رسول الله . قال : " فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ " قالوا : لا يا رسول الله ، قال : " فإنكم ترونه كذلك "[١] .

٢- حديث صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله - تبارك وتعالى - تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : الم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم - عز وجل - " ثم تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (للذين أحسنوا الحسنى زيادة...)[٢] .

٣- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ... "[٣] .

يقول السيوطي : " وقد استدل الخطابي لوجوب اعتقادها بحديث البخاري "[٤] وذكر الحديث السابق وهو متفق عليه كما بينته ، قال : " فقوله : (ولقائه) فيه إثبات رؤية الله في الدار الآخرة "[٥] .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بعد ذكر كلام الخطابي : " وتعقبه النووي بأن أحداً لا يقطع بروية الله فإنها مختصة بمن مات مؤمناً ، والمرء لا يدري بم يختم له فكيف يكون ذلك من شروط الإيمان؟ وأجيب بأن المراد الإيمان بأن ذلك حق في نفس الأمر ، وهذا من الأدلة القوية لأهل السنة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة إذ جعلت من قواعد الإيمان "[٦] . وأرى أن ما أجاب به ابن حجر على اعتراض الإمام النووي في غاية الصواب والسداد . - رحمهما الله تعالى - ومن الآثار الواردة عن الصحابة - رضي الله عنه - الله عنهم - وهي مما استدل بها السيوطي على إثبات الرؤية ، ما ورد عن ابي بكر الصديق - رضي الله غنه - أنه فسر الزيادة الواردة في آية[٧] سورة سيدنا يونس - عليه السلام - بأنها رؤية الله جل وعلا ، وكذلك عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - [٨] .

وإذا كنا قد وقفنا على بعض الآيات الكريمات ، وبعض الأحاديث الشريفة التي تثبت رؤية الله تعالى ، وكذلك علمنا شيئاً مما ورد عن الصحابة - رضي الله عنه - من الآثار في ذلك فقد ورد عن التابعين كذلك روايات كثيرة في ذلك . قال الشوكاني - رحمه الله - : " وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله

---

(١) البخاري في " صحيحه " رقم (٨٤٣٧) الفتح (٤١/١٣) ومسلم في " صحيحه " (١٦٣/١) رقم (١٨٢) .
(٢) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - الآية (٢٦) .
(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الإيمان (٢) باب (٣٧) ح رقم (٥٠) الفتح (١١٤/١) وفي كتاب التفسير سورة لقمان (٣١) باب (٢) ح رقم (٤٧٧٧) الفتح (٥١٣/٨) ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب ألإيمان (١) باب (١٩ ح رقم (٩) صحيح مسلم (٣٩/١) ، وأحمد في المسند (٤٢٦/٢) .
(٤) الكوكب الساطع - مخ - لوحة رقم (٤٣١) .
(٥) نفسه ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (١١٨/١) ، وانظر كلام الإمام الخطابي في " أعلام الحديث " (١٨٢/١) له .
(٦) الفتح (١١٨/١) .
(٧) هي قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة...) بعض الآية (٢٦) .
(٨) رواه ابن جرير (١٠٥/١١) ، والقرطبي (٣٣٠/٨) والسيوطي : الدر (٣٥٨/٤) والكوكب (٤٣١) .

سبحانه وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يبق حينئذ لقائل مقال ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم . والله المستعان "[١] .

٣- ومن الأدلة القرآنية كذلك التي استدل بها السيوطي على رؤية المؤمنين ربهم - جل وعلا - وهو دليل لأهل السنة قوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)[٢] .

ففي هذه الآية دليل على أن الله تعالى يرى في القيامة وذلك بمفهوم المخالفة ، فإذا كان الكفار يحجبون عن رؤية ربهم ، فالمؤمنون لا يحجبون ، ويظهر هذا المعنى إذا انضمت هذه الآية إلى قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)[٣] ، فهناك وجوه ناظرة وهي وجوه المؤمنين ، ووجوه أخرى محجوبة عن النظر وهي وجوه الكافرين ، وذلك بإخبار الله - جل وعلا - فأخبر أن المؤمنين ينظرون ، وأخبر أن الكافرين عنه محجوبون . وقد روى مثل هذا المعنى أو قريب منه عن الإمام الشافعي - رحمه الله قال : " في هذه الآية دلالة على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة "[٤] وهذا كلام حق إذ لو حُجب أولياؤه فأي فضيلة لهم على أعدائه .

قال السيوطي : " وأما الكفار فلا يرونه لقوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون "[٥] ونقل عن العز بن عبدالسلام أنه قال : ولا الملائكة يرون الله تعالى ، قال لأن قول : (لا تدركه الأبصار)[٦] عام وقد استثنى منه المؤمنون فبقي على عمومه في الملائكة . ثم نقل السيوطي عن صاحب آكام المرجان أنه قال : " والجن أولى بالمنع منهم "[٧] واستدلال العز بن عبدالسلام بقوله تعالى : (لاتدركه الأبصار) فيه نظر ، ذلك لأن العلماء والمفسرين قالوا بأن المؤمنين يرون ربهم جل وعلا ولكنها ليست رؤية إحاطة وهذا معنى قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) أي لا تدركه إدارك إحاطة ، فهم يرونه ولكن الرؤية لا تحيط به ، كما قال تعالى : (ولا يحيطون به علماً)[٨] فهم يعلمونه ويعرفونه ولكنهم لا يحيطون به علماً[٩] . وليست الآية في حظر الرؤية أومنعها .

٣- ومن الآيات التي يستدل بها على إمكان الرؤية ، ولم يوردها السيوطي :

قوله تعالى حكاية عن موسى - عليه السلام - : (...قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك

---

(١) فتح القدير (٢/٤٤٢) .
(٢) سورة المطففين الآية ١٥) .
(٣) سورة القيامة الآيتان (٢٢،٢٣) .
(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/٤٦٨) رقم (٨٠٩) .
(٥) الكوكب الساطع - مخ لوحة رقم (٤٣٣) .
(٦) سورة الأنعام الآية (١٠٣) .
(٧) الكوكب الساطع - مخ - لوحة رقم (٤٣٣) وانظر السفاريني : لوامع الأنوار .
(٨) سورة طه ألاية (١١٠) .
(٩) انظر : شرح الطحاوية (ص٢٠٨) وما بعدها .

وأنا أول المؤمنين)[١] .

والاستدلال من هذه الآية الكريمة على الرؤية من وجوه :

الأول : أن موسى - عليه السلام - سأل ربه الرؤية ، ولو كانت ممتنعة لما سالها ، لأنه إن علم امتناعها فالعاقل لا يطلب المحال ، وإن جهلها فالجاهل بما يجوز وما لايجوز في حقه تعالى لا يستحق أن يكون نبياً .

الثاني : أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل ، واستقرار الجبل أمر ممكن عقلاً ، وما علق على الممكن ممكن ، إذ لو كان ممتنعاً لأمكن صدق اللازم بدون الملزوم وهو محال .

الثالث : أن الله تعالى لم ينكر عليه سؤاله ، في حين أنه تعالى أنكر على نوح - عليه السلام - عندما ساله نجاة ابنه وقال : (إني أعظك أن تكون من الجاهلين)[٢] .

الرابع : أنه تعالى قال : (لن تراني) ولم يقل : إني لا أرى ، أو لا تجوز رؤيتي ، أو لست بمرئي ، والفرق بين العبارتين ظاهر ، ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه آخر طعاماً ، فقال : : أطعمنيه فالجواب الصحيح أن يقول : إنه لا يؤكل ، أما إذا كان طعاماً فالصحيح أن يقال : إنك لن تأكله ، فدل ذلك على أنه طعام يمكن أكله ، فكذلك الآية دلت على أنه سبحانه يرى ، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته - جل وعلا - في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى[٣] .

يوضحه الوجه الخامس : وهو قوله تعالى : (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني)[٤] فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي الإلهي في هذه الدار فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف ؟

الوجه السادس : قوله تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا...) فإذا جاز أن يتجلى تعالى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته ؟

السابع : أن الله تعالى كلم موسى وناداه وناجاه ومن جاز عليه التكلم والتكليم ، وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه ، وقد جمع أهل البدع بين إنكارهما جميعاً[٥] .

وأما الأحاديث الدالة على ثبوت الرؤية فقد مضى منها طرف وهي كثيرة يقول شارح الطحاوية : " وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً ،ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قالها)[٦] .

ولكن السيوطي بعد إثبات الرؤية قال : " وتحصل (أي الرؤية) بأن ينكشف انكشافاً تاماً ، منزهاً عن المقابلة والجهة والمكان ، قال النووي : ولا يشترط في الرؤية تقابل الأشعة ولا مقابلة المرئي ، وإن جرت العادة بذلك فيما بين

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .

(٢) سورة سيدنا هود - عليه السلام - الآية (٤٦) .

(٣) انظر : شرح الطحاوية (ص٢٠٧) .

(٤) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٤٢) .

(٥) انظر : شرح الطحاوية (ص٢٠٧) .

(٦) نفسه (ص٢١٠) .

المخلوقين "[١] .

وهـــذا الكـــلام لا يوافق مذهب أهل السنة ، بل هو قول الأشاعرة الذين يثبتون الرؤية ، فهم يقولون : يُرى ولكن ليس في جهة ، لأنه تعالى منزه عن المقابلة والجهة .

وهذا يتضمن نفيهم لصفة العلو لله تعالى ، فهم بإثباتهم الرؤية مع نفيهم علوه جل وعلا وقعوا في التناقض الظاهر من جهة ، مع مخالفة مذهب السلف من جهة أخرى وذلك في أمرين :

أحدهما : قولهم إن الله تعالى يرى لا في جهة ، لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته ، وقالوا – كما سبق – ليس من شرط الرؤية المقابلة والجهة ، واحتجوا بالمرآة فإن الإنسان يرى نفسه فيها لا في جهة .

الـــثاني : أن بعض الأشاعرة – مع إقرارهم بالرؤية – أنكروا أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤية ربه – جل وعلا – ، لأنه – على زعمهم – لا مناسبة بين المحدث والقديم ، وهذا مخالف لمذهب السلف .

أمـــا الأمر الثاني : وهو إنكارهم التنعم والتلذذ برؤية الخالق جل وعلا فهو مبني علي إنكارهم أن الله تعالى يحب ويحب ، ولا شـــك أن نصوص الرؤية المتواترة دلت على أن المؤمنين يتنعمون ويتلذذون بالنظر إلى ربهم – جل وعلا – في الجنة وأن ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه سبحانه ، والنصوص التي دلت على الرؤية دلت في بعض رواياتها على ذلك ، فكيف يثبتون الرؤية وينكرون هذا ؟

وأما الأمر الأول : وهو قولهم بالرؤية بلا جهة :

فيمكن تلخيص الرد عليهم في هذه النقاط التالية :

١- أن النصـــوص الورادة في الرؤية – وهي كثيرة كما ذكرنا – دالة على أن رؤية المؤمنين ربهم إنما تكون إلى العلو ، وإذا كانت نصوص الرؤية متواترة فكذلك دلالتها على أنها في العلو ، وتشبيه الرؤية برؤية الشمس ليس دونها سحاب ، أو برؤية القمر ليلة البدر صحوا أو أن الله تعالى يكشف الحجاب من فوقهم صريحة بأنهم يرونه تعالى في علوه[٢] .

٢- أن هذا المعنى الذي ذكرناه في النقطة الأولى ثبت بإجماع السلف والأئمة ونصوصهم في ذلك متواترة[٣] .

٣- أن الأشـــاعرة – مـــع كونهـــم أقـــرب إلى الحق من المعتزلة لأنهم أقروا بالرؤية ، وإن كانوا قد نفوا العلو ، بخلاف المعـــتزلة الذيـــن نفوا الأمرين – إلا أنهم بصنيعهم هذا تناقضوا لأن إثباتهم الرؤية يستلزم إثبات العلو ، كما أن نفيهم العلو يقتضي نفيهم الرؤية أيضاً ، فيلزمهم أحد أمرين : إما نفي الرؤية فيلحقوا بالمعتزلة ، وإما إثبات العلو فيلحقوا بأهل السنة ، ويسلموا من التناقص ، وأحد الأمرين لازم لهم .

٤- أن بعض محققي الأشاعرة كالرازي ، والغزالي – في بعض أقواله – رأوا أن الالزام السابق لازم لهم ، ومن ثم صـــرحوا بأن المقصود بالرؤية – التي أثبتوها – زيادة انكشاف بخلق مزيد من الإدراك لهم ، وهو تفسير بنوع من العلم،

---

(١) الكوكب الساطع – مخ – لوحة (٤٣٢) .

(٢) انظر : ابن تيمية : نقض تأسيس الجهمية (٢/٤٠٩–٤١١) ، (ص٤١١–٤١٥) .

(٣) انظر : السابق (٤١٥–٤٢٠) ، كذلك مجموع الفتاوى (١٦/٨٢–٨٩) .

ومن ثم أقروا بأن الخلاف بينهم وبين المعتزلة لفظي أو قريب من اللفظي .

٥- أما دليل المرآة فهو باطل لأن الذي في المرآة الخيال والصورة وليس الذات نفسها .

وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – ردوداً أخرى عديدة يبين فيها أن قول الأشاعرة بالرؤية مع نفـي العلو في غاية التناقض ، وجميع أجوبتهم ومحاولاتهم لإزالة هذا التناقض لم تفلح إلا بأن تفسر الرؤية بما يقربها إلى مذهب المعتزلة ، وهذا ما استقر عليه مذهبهم كما في شرح المواقف(١) .

قـال شـارح الطحاويـة : " وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئي بالمرئي ، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه ، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟ ومن قال : يـرى لا فـي جهة – فليراجع عقله !!فإما أن يكون مكابراً لعقله وفي عقله شئ ، وإلا فإذا قال : يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولاتحته ، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة "(٢) .

وبهذا يتبين ثبوت الرؤية بالأدلة القاطعة ، ولا وجه مطلقاً لمن انكرها أو نفاها بناء علىشبهات في عقله .

وهـذه الـرؤية إنما تحصل في الموقف قبل الجواز على الصراط ، وهذا الجواز إنما يحصل قبل دخول الجنة ، وهذا هو الذي قصد إليه السيوطي ، وصرح به شارح الطحاوية . ولذلك فإن الرؤية لأهل المحشر قد وقع فيها خلاف بين العلماء ، أعني فيمن يرى الله تعالى في ذلك الموقف على ثلاثة اقوال :

أحدها : أنه تعالى لا يراه إلا المؤمنون خاصة دون غيرهم .

الثاني : أنه يراه أهل الموقف جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب جل وعلا – عن الكفار ، ولا يرونه بعد ذلك .

الثالث : يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار(٣) .

هذا الخلاف حاصل بين علماء أهل السنة ، والصحيح أن الله تعالى يتجلى لأهل الموقف أي للخلق عامة ، كما هو سياق حديث ابي هريرة – رضي الله عنه – الذي ذكرته آنفاً(٤) .

قال العلامة ابن القيم – رحمه الله – : وقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصـات القيامة بل والكفار أيضاً كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة "(٥) وهل يراه الملائكة – أم لا ؟ فيه قولان :

أحدهمـا : لا يرونه ، نقله السيوطي عن العز بن عبدالسلام – رحمه الله – وتابع العز في ذلك صاحب " آكام المرجان في أحكام الجان "(٦) .

---

(١) انظر : (٨/١١٥-١١٦) .

(٢) (ص٢١١) .

(٣) انظر : ابن القيم : حادي الأرواح (ص٢٨٠) ، وشرح الطحاوية (ص٢١٢) .

(٤) انظـر : السفاريني : لوامع الأنوار (٢/٢٤٩) ، وكذلك : " لوائح الأنوار السنية " ولواقح الأفكار السنية " للسفاريني نفسه (١/٢٧٠-٢٩٨) ، وحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ (ص ١٠٥) وهو في الصحيحين .

(٥) حادي الأرواح (ص٢٨٠) .

(٦) هو لمؤلفه : الشيخ الإمام القاضي بدر الدين الشبلي .

قال السيوطي : " قال العز بن عبدالسلام : ولا الملائكة (يعني لا يرونه تعالى) لأن قوله : (لا تدركه الأبصار ...)[١] عـام ، وقـد استثنى منه المؤمنون ، فيبقى على عمومه في الملائكة ، قال صاحب آكام المرجان " : والجن أولى بالمنع منهم "[٢] ، وقال السيوطي ايضاً : " وذكر الشيخ عز الدين بن عبدالسلام ... ما يدل على أن مؤمني الجن إذا دخلوا الجـنة لا يرون الله ، وأن الرؤية مخصوصة لمؤمني البشر فإنه صرح بأن الملائكة لا يرون الله في الجنة ، ومقتضى هذا أن الجن لا يرونه "[٣] . وقال ايضاً : " ذهب الشيخ عز الدين بن عبدالسلام إلى أنهم لا يرون ربهم لأنهم لم يثبت لهم ذلك كما ثبت للمؤمنين من البشر : وقد قال تعالى (لا تدركه الأبصار...)[٤] خرج منه مؤمنوا البشر بالأدلة الثابتة ، فبقى عـلى عمومـه فـي الملائكة ، ولأن للبشر طاعات لم يثبت مثلها للملائكة كالجهاد والصبر على البلايا والمحن الرزايا ، وتحمـل المشاق في العبادات لأجل الله ، وقد ثبت أنهم يرون ربهم ويسلم عليهم ويبشرهم بإحلال رضوانه عليهم ويبشرهم بإحلال رضوانه عليهم أبداً ، ولم يثبت مثل هذا للملائكة . انتهى . وقد نقله عنه جماعة من المتأخرين ولم يتعقبوه بنكيره ، مـنهم : الإمام بدر الدين الشبلي صاحب " آكام المرجان في أحكام الجان " والعلامة عز الدين ابن جماعة في " شرح جمع الجوامع "[٥] .

وقـد خـالف السيوطي كلام كل من العز ، والشبلي ، وعز الدين بن جماعة فقال : " قلت : قد ثبت أن الملائكة يـرون الله " وقـال أيضاً : " ولكن الأقوى أنهم يرونه ، فقد نص على ذلك إمام أهل السنة والجماعة الشيخ أبو الحسن الأشعري قال في كتابه " الإبانة في أصول الديانة " ومنه نقلت ما نصه : " أفضل لذات الجنة رؤية الله تعالى ثم رؤية نبيه - صلى الله عليه وسلم - فلذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين ، وملائكته المقربين وجماعة المؤمنين والصديقين النظر إلى وجهه - عز وجل - " انتهى .

وقد رد السفاريني - كذلك - قول من أنكر رؤية الملائكة ربهم - جل وعلا - فقال : " وهذا خلاف التحقيق "[٦] .

كمـا ذكر السيوطي أن من القائلين برؤية الملائكة ربهم - جل وعلا - العلامة ابن القيم ، وقاضي القضاة جلال الدين البلقيني ثم رجحه السيوطي قائلاً : " وهو الأرجح بلا شك "[٧] . ثم قال : " ومنهم من قال : إن جبريل - عليه السلام - يـراه دون سـائر الملائكـة ، ومشـى عليه أبو اسحق إسماعيل الصفار البخاري من الحنفية : فإني رأيت في اسئلته المشـهورة ما نصه : سئل عن الملائكة هل يرون ربهم ؟ فأجاب : اعتماد والدي الشهيد أنهم لا يرون ربهم سوى جبريل فإنه يرى ربه مرة واحدة ، ولا يرى أبداً انتهى "[٨] ثم أكد السيوطي ما رجحه قائلاً : " والصواب العموم " .

---

(١) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٠٣) .
(٢) الكوكب الساطع - مخ - لوحة رقم (٤٣٣) .
(٣) لقط المرجان (ص٩٣) .
(٤) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٠٣) .
(٥) الحاوي للفتاوى (١٩٩/٢) .
(٦) لوامع الأنوار (٢٤٧/٢) .
(٧) الحاوي (٢٠٠/٢) .
(٨) نفسه السابق .

والقول الثاني : نعم يرونه ، وقد سبق الكلام عنه .

هل يرى النساء ربهن في الجنة ؟ :

صنف السيوطي في هذه المسألة رسالة سماها : " تحفة الجلساء برؤية الله للنساء " وهي مطبوعة ضمن " الحاوي للفتاوي " جمع فيها راي كل من المثبتين والنافين ، قال السيوطي في مقدمة رسالته : " رؤية الله تعالى يوم القيامة في الموقف حاصلة لكل أحد الرجال والنساء بلا نزاع ، وذهب قوم من أهل السنة إلى أنها تحصل فيه للمنافقين ايضاً ، وذهب آخرون منهم إلى أنها تحصل للكافرين أيضاً ثم يحجبون بعد ذلك ليكون عليهم حسرة ... وأما الرؤية في الجنة فأجمع أهل السنة أنها حصلة للأنبياء والرسل والصديقين من كل أمة ورجال المؤمنين من البشر من هذه الأمة واختلف بعد ذلك في صور إحداها : النساء من هذه الأمة وفيهن ثلاثة مذاهب للعلماء "[1] .

حكى السيوطي هذه المذاهب وحكاها باختصار عن الإمام ابن كثير - رحمه الله - فقال معدداً هذه المذاهب الثلاثة :

أحدها : أنهن لا يرين الله تعالى ، لأنهن مقصورات في الخيام [2] ، ولأنه لم يرد في أحاديث الرؤية تصريح برؤيتهن " هي زيادة من كلام الجلال السيوطي فقد مال ابن كثير- رحمه الله - : " وقد حكى بعض العلماء خلافاً في النساء هل يرين الله - عز وجل - في الجنة كما يراه الرجال ؟ فقيل لا ، لأنهن مقصورات في الخيام وقيل بلى "[3] .

والثاني : أنهن يرين الله تعالى أخذاً من عمومات النصوص الواردة في الرؤية[4] ، وقال ابن كثير : " وقيل : بلى ، لأنه لا مانع من رؤيته تعالى في الخيام وغيرها ، وقد قال الله تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون)[5] وقال تعالى : (هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون)[6] وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إنكم سترون ربكم عز وجل كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا علىصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا[7] " وهذا عام في الرجال والنساء والله أعلم .

والثالث : أنهن يرين ربهن في مثل أيام الأعياد ، فإنه تعالى يتجلى في مثل ايام الأعياد لأهل الجنة تجلياً عاماً فيرينه في مثل هذه الحال دون غيرها . وقال ابن كثير : " وقال بعض العلماء قولاً ثالثاً وهو أنهن يرين الله في مثل أيام الأعياد ، فإنه يتجلى في مثل أيام الأعياد لأهل الجنة تجلياً عاماً فيرينه في مثل هذه الحال دون غيرها . وهذا القول يحتاج إلى دليل خاص عيه والله أعلم "[8] .

ولم يذكر العلامة ابن كثير - رحمه الله - من قائل هذا القول الثالث ولعله لم يذكره لضعف قوله وأنه يفتقر إلى

---

(١) الحاوي (٢/١٩٨) .

(٢) نفسه (٢/١٩٩) ، وانظر ابن كثير : النهاية (١٢/١٨٤) .

(٣) النهاية (١٢/١٨٤) .

(٤) الحاوي (٢/١٩٩) .

(٥) سورة المطففين الآيتان (٢٢،٢٣) .

(٦) سورة يس الآية (٥٦) .

(٧) صحيح البخاري ح رقم (٧٤٣٤) .

(٨) النهاية (١٢/١٨٤) .

دليل يعضده ، ولكن السيوطي ذكره عن العلامة زين الدين ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - نقلاً عن الطائف المعارف " قال : " كل يوم كان للمسلمين عيداً في الدنيا فإنه عيد لهم في الجنة ، يجتمعون فيه على زيارة ربهم ، ويتجلى لهم فيه ، ويوم الجمعة يدعى في الجنةيوم المزيد ، ويوم الفطر والأضحى يحتمع أهل الجنة فيها للزيارة ، وروى أنه يشارك النساء الرجال فيهما ، كما كن يشهدن العيدين مع الرجال ، دون الجمعة ، فهذا العموم أهل الجنة ، فأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم كل يوم مرتين بكرة وعشياً " . ونقله عنه أيضا السفاريني في " لوامع الأنوار " .

ورجح في " لوائح الأنوار السنية " أن رؤيته تعالى ثابتة لكل من دخل الجنة . فقال : " والتحقيق ثبوت رؤتيه تعالى لكل من دخل الجنة "[١] واستدل له بما أخرجه الآجري - رحمه الله - عن عكرمة - رضي الله عنه - قال : قيل لابن عباس - رضي الله عنهما - كل من يدخل الجنة يرى الله تعالى ؟ قال : " نعم " . ولكن هذا الأثر ضعيف [٢].

وقد تناول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - هذه المسألة بالتفصيل ورجح فيها أن النساء المؤمنات يرين الله تعالى " وأن الدليل على أنهن يرين أن النصوص المخبرة بالرؤية في الآخرة للمؤمنين تشمل النساء لفظاً ومعنى ولم يعارض هذا العموم مايقتضي إخراجهن من ذلك فيجب القول بالدليل السالم عن المعارض المقاوم .[٣]

رؤيته تعالى في الدنيا

أتفقت الأمة على أن الله تعالى لايراه أحد في الدنيا بعينه[٤] ، لقول النبي ـ ﷺ ـ : " تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت "[٥] ولم يتنازعوا في ذلك . ولكن التنازع وقع في رؤية نبينا محمد ـ ﷺ ـ خاصة ، على ثلاثة أقوال :

القول الأول : إثبات رؤيته ـ ﷺ ـ ربه ـ جل وعلا ـ وهو قول الحبر عبد الله بن عباس ـ ﷺ ـ وسائر أصحابه ، وجزم به كعب الأحبار [٦] ،والزهري ، وصاحبه معمر [٧] ، وهو المروي عن الحسن[٨] [٩] .

وجزم به إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة ، عن عروة بن الزبير ، وذكر أنه كان يشق عليه إذا ذكر له إنكار أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وأطنب كثيراً من الاستدلال له بمايطول ذكره [١٠] .

وهو قول الأشعري ، وغالب أتباعه ، وهو ظاهر ما ذهب إليه الإمام أحمد [١١] ،وقال السيوطي : " وهو الصحيح [١٢]

وعمدة أصحاب هذا القول هو قول الله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبد ه ماأوحى .

---

(١) (٢٩٧/١) .

(٢) كما قاله محقق كتاب " الشريعة " د. عبد الله بن عمر الدميجي . انظر (٩٩٣/٢) .

(٣) انظر مجموع الفتاوي (٦/ ٤٠١ ـ ٤٦٠) في ستين صفحة من التحقيق والكلام البليغ الرصين .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢١٣) ، لوامع الانوار (٢٥١/٢) .

(٥) صحيح مسلم (٢٢٤٥/٤) ح رقم (٢٩٣٠) .

(٦) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ، أبو إسحاق ، تابعي ، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن ، أسلم في زمن أبي بكر رضي الله عنه ـ ت (٣٢هـ) انظر : تذكرة الحفاظ (٤٩/١) ، حلية الأولياء (٣٦٤/٥) ثم (٣/٦) ، الأعلام (٢٢٨/٥) .

(٧) معمر بن راشد بن ابي عمرو الأزدي ، فقيه حافظ للحديث ، من أهل البصرة ت (١٥٣هـ) ، انظر : ميزان الاعتدال (١٨٨/٣) ، تذكرة الحفاظ (١٧٨/١) ، الاعلام (٢٧٢/٧) ، وانظر نسبة القول إليه عند النووي في شرح مسلم (٥/٣).

(٨) هو البصري ، ابن يسار ، أبو سعيد ، ت (١١٠ هـ) . انظر : ميزان الاعتدال (٢٥٤/١) ، حلية الأولياء (١٣١/٢) ، الأعلام (٢٢٦/٢) .

(٩) انظر ابن حجر : فتح الباي (٦٠٨/٨) ، والنووي : شرح صحيح مسلم (٣ / ٤) .

(١٠) انظر : التوحيد وإثبات صفات الرب ـ عزوجل ـ (٤٧٧/٢ ـ ٥٦٣) ، الفتح (٦٠٨/٨) .

(١١) انظر : لوامع الأنوار (٢٥١/٢) .

(١٢) الكوكب الساطع (لوحة ٤٣٢) ، وشرح النووي (٣ / ٤) .

ماكذب الفؤاد مارأى ، أفتمارونه على مايرى ، ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [(١)] وأرجعوا الضمائر في هذه الآيات الكريمة إلى الله ـ جل وعلا ـ ، فقالوا : ثم دنا الرب ـ تعالى من محمد ـ ﷺ ـ فتدلى ، فكان محمد ﷺ من ربه عزوجل قاب قوسين ، أو أدنى من ذلك ، فأوحى الله إلى عبده محمد ﷺ وحيه ، ماكذب فؤاد محمد محمداً الذي رأى ،ولكنه صدقه ، وكان الذي رآه محمد ـ ﷺ هو الله تعالى ، أفتجادلون أيها المشركون محمداً على مايرى ممآراه الله من آياته ، ولقد رأى محمد ﷺ ربه عزوجل مرة أخرى عند سدرة المنتهى [(٢)] .

واستدلوا كذلك :

٢ـ بمـاروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : " أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ،والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ﷺ [(٣)] .

٣ـ وعنه أيضاً قال : " رأى محمد ﷺ ربه " [(٤)] .

٤ـ وعنه ـ أيضاً ـ في قوله تعالى : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾[(٥)] قال : " رآه بفؤادة مرتين [(٦)] .

٥ـ وعنه ـ في قوله تعالى : ﴿ وماجعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ [(٧)] " رؤيا عن اريها النبي ـ ﷺ ـ ليلة أسرى به [(٨)]

ومـن هـنا حمل ابن خزيمة ماورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الرؤيا وقعت مرتين : مرة بعينه ، ومرة بقلبه[(٩)]

فتحصل مماورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ روايات :

ـ منها مايثبت رؤيا مطلقة .

ـ ومنها مايثبتها رؤية عين .

ـ ومنها مايثبتها رؤية بالفؤاد أو القلب .

ومادامت الروايات منها المطلق ومنها المقيد فيجب حمل مطلقها على مقيدها[(١٠)]

أما حملها على رؤية البصر بالعين فهو بعيد لأمور منها :

الأول : أن الـرواية الـواردة برؤية العين ، لم تصرح بالمرئي ، بل قد صرحت بعض الروايات بأن المرئي هو مارأى رسول الله ﷺ في طريقه إلى بيت المقدس ـ كما ذكر ذلك ابن تيمية [(١١)] ، وابن حجر [(١)] .

[(١)] سورة النجم الآيات (٨ ـ ١٣) .

[(٢)] انظـر : ابن جرير : جامع البيان (٤٤/١٧ ـ ٥٢) ، ابن كثير (٤٢٣/٧ ـ ٤٢٥) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٥٩/١٧، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢) ، والرازي : التفسير الكبير (٢٨٦/٢٨) ، ووصف الرازي ذلك التفسير بأنه ضعيف سخيف ، وانظر : أيضاً : الشوكاني : فتح القدري (٥/ ١٠٦) ، ابـن خـزيمة : الـتوحيد (٤٩٢/٢) ، ، ابـن حجر : فتح الباري (٦٠٨/٨) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص٢١٣) ، ت الألباني ، السفاريني : لوامع الأنوار (٢٥٠/٢) ، وشرح النووي على صحيح مسلم (٣ / ٤) .

[(٣)] رواه عـبدالله بـن أحمـد في السنة (١٤٥) ، الأجرى في " الشريعة " (٤٩١) ، وابن ابي عاصم في السنة " (١٩٢/١) تحقيق الألباني ، وقال الألـباني : " إسناده صحيح على شرط البخاري " والحاكم في مستدركه (٦٥١/١) وصححه ، ووافقه الذهبي ،وذكر ابن حجر أن النسائي أخرجه بسند صحيح (الفتح ٦٠٨/٨) ،وابن خزيمة في " التوحيد (٤٧٩/٢) .

[(٤)] أخـرجه الآجـري فـي " الشـريعة " (ص ٤٩١) ، وابن أبي عاصم في " السنة " (١٨٩/١) ، وقال الالباني : " إسناده صحيح وهو موقوف " واللالكائي في " شرح اعتقاد أهل السنة " (٥١٥/٣) ،وابن خزيمة في " التوحيد " (٤٨٦/٢) وصحح إسناده المحقق .

[(٥)] سورة النجم الآية (١٣) .

[(٦)] مسلم في صحيحه (١٥٨/١) ح رقم (١٧٦) .

[(٧)] سورة الاسراء الآية (٦٠) .

[(٨)] رواه الـبخاري فـي " صـحيحه " فـي ثلاثـة مواضـع : كـتاب مـناقب الأنصـار ، ح رقـم (٣٨٨٨) فـتح (٢٠٢/٧) ، وكتاب التفسير ـ سورة الاسراء ـ ح رقم (٤٧١٦) فتح (٣٩٨/٨) ، كتاب القدر ، ح رقم (٦٦١٣) فتح (٥٠٤/١١) .

[(٩)] انظر : فتح الباري (٦٠٨/٨) ، والتوحيد (٥٠٨/٢) .

[(١٠)] انظر : الفتح (٦٠٨/٨) .

[(١١)] مجموع الفتاوي (٦ / ٥١٠) .

الـــثاني : أن لفـــظ " رؤيا " بالألف ، إنما يطلق على رؤيا المنام ،وأما التي في اليقظة فيقال : " رؤية " بتاء التأنيث التي تدل على الرؤية البصرية ، وقد أنكر بعض العلماء اطلاق " رؤيا " على رؤية العين منهم الحريري[٢] وغيره[٣]

الثالث : ذكر الإمام ابن حجر أن ابن مردويه أخرج من " طريق عطاء عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : " لم يره رسول الله ــ ﷺ ــ بعينه ، إنما رآه بقلبه " [٤] وهذا صريح في نفس الرؤية البصرية ٠

فلم يبق الإحمل الروايات المطلقة على المقيدة برؤية القلب أو الفؤاد ، يؤيد هذا ماثبت وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " رأى ربه بفؤاده مرتين " [٥] ٠

ولكن يعكر على هذا إنكار عائشة ــ رضي الله عنها ــ فقد ثبت من حديث الشعبي [٦] عن مسروق [٧] قال : سألت عائشـــة : هـــل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت " : سبحان الله ! لقد قف[٨] شعري لماقلت " ، قال مسروق : قلت لعائشة فـــأين قوله : (ثم دنا فتدلى ٠ فكان قاب قوسين أو أدنى ٠ فأوحى إلى عبده ماأوحى) قالت إنما ذاك جبريل ــ ﷺ ــ ٠٠٠) [٩] ٠

وأجاب الإمام النووي ــ وهو من المثبتين ــ عن ذلك فقال : " ولا يقدح في هذا حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ لأن عائشـــة لـــم تخـــبر أنها سمعت النبي ﷺ يقول : لم أر ربي ، وإنما ذكرت ماذكرت متأوله لقوله تعالى : ﴿ وماكان البشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أويرسل رسولاً ٠٠٠) [١٠] ولقوله تعالى : ﴿ لاتدركه الأبصار ﴾ [١١] والصـــحابي إذا قـــال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة ، وإذا صحت الروايات عن ابن عباس في إثبات الرؤية وجـــب المصير إلى إثباتها ، فإنها ليست مما يدرك بالعقل ، ويؤخذ بالظن وإنما يتلقى بالسماع ، ولايستجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد ، وقد قال معمر بن راشد ، حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس : ماعائشـــة عندنا بأعلم من ابن عباس وغيره ، وإثبات هذا لايأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لاينبغي أن يتشكك فيه ، ثم إن عائشة ــ رضي الله عنها ــ لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها فيه حديث لذكرته ، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات ٠٠٠ " [١٢] ٠

وتعقبه الامام ابن حجر فقال : " وهو عجيب ، فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ (يعني النووي) فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق في الطريق المذكورة قال مسروق : وكنت متكئاً فجلست ،

---

[١] الفتح (٨ / ٣٩٨) ٠

[٢] هـــو / أبـــو محمد ، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري ، البصري ، صاحب مقامات الحريري ، ت : بالبصرة (٥١٦ هـــ) ، انظر : وفيات الأعيان (٤١٩/١) ، مفتاح السعادة (١٧٩/١) ، الاعلان (١٧٨/٥)

[٣] انظر : الفتح (٨/ ٦٠٨) ٠

[٤] انظـــر : فـــتح الـــبارى (٦٠٨/٨) ، ولم أعثر عليه ، ولكن روى ابن خزيمة في كتاب التوحيد عن ابي ذر قال : " رآه بقلبه ،ولم يره بعينه " وقال محققـــة : " إســـناده صحيح ، ورجاله ثقات " (٢/ ٥١٧) ، ورواه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (٥٧٤/٣) رقم (٩١٤) ، وروى ابن خـــزيمة أيضـــاً بسنده عن إبراهيم التيمي قال : " رآه بقلبه ولم يره ببصره " وقال محقق كتاب التوحيد : إسناده صحيح ، رجاله ثقات وهو مرسل " انظر : التوحيد(٢/ ٥١٧) ٠

[٥] رواه مسلم في " صحيحه " (١٥٨/١) ح رقم (١٧٦) ٠

[٦] عامـــر بن شراحيل الشعبي ، أبو عمرو تابعي ثقة ، ت (١٠٣ هـــ) انظر : تهذيب التهذيب (٦٥/٥) ،الوفيات (٢٤٤/١) ، حلية الأولياء (٤/ ٣١٠) ، الأعلام (٢٥١/٣) ٠

[٧] مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي ، أبو عائشة ، تابعي ثقة ، ت(٦٣هـــ) أنظر الاصابة (ت٨٤٠٨) ، وتهذيب (١٠٩/١٠) ، الاعلام (٣١٥/٧) ٠

[٨] قولها (سبحان الله) معناه : التعجب من جهل مثل هذا ،وكأنها تقول : كيف يخفى عليك مثل هذا ٠

وقولهـــا : (قف شعري) أي قام شعري من الفزع لكوني سمعت مالاينبغي أن يقال ، والقفه كهيئة القشعريرة ، انظر : شرح النووي (١٠/٣) ، وفتح الباري (٦٠٧/٨) ٠

[٩] صحيح مسلم (١٦٠/١) ح رقم (٢٨٩ ، ٢٩٠) من كتاب الايمان ٠

[١٠] سور الشورى الآية (٥١) ٠

[١١] سورة الأنعام ، الآية (١٠٣) ٠

[١٢] شرح النووي على صحيح مسلم (٣ / ٥) ، وانظر : فتح الباري (٦٠٧/٨) ٠ وابن خزيمة : التوحيد (٥٥٦/٢ ــ ٥٥٧) ٠

فقـلت : يـا أم المؤمـنين أنظريني ولاتعجليني ، ألم يقل الله عزوجل : (ولقد رآه بالأفق المبين) [١] (ولقد رآه نزلة أخرى) [٢] فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : " إنما هو جبريل " [٣] .

وإذا كـانت عائشـة ـ رضي الله عنها ـ قد أنكرت الرؤية البصرية ونفتها ، فإنها في الوقت نفسه لم تنف الرؤية القلـبية ، التي قد صحت بها الروايات عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كما أن كلام الامام النووي ـ رحمه الله ـ يتجه بشدة في كون ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ معه زيادة علم ، وهو مثبت والمثبت مقدم على النافي ، كما انه لايظن بابن عباس أن يقول ذلك من باب الظن ، أو من باب الاجتهاد ، ولابد أن يكون قد أخذ هذا عن النبي ـ ﷺ ـ .

القول الثاني : إنكـار رؤيته ـ ﷺ ـ ربه في الدنيا ، ومنعه ، وهذا القول هو المشهور عن عبدالله بن مسعود ، وأبـي هريـرة ـ رضي الله عنهما ـ وأنكرته عائشة ـ بشدة ،ووصفت القائل بذلك ، بأنه قد أعظم على الله الفرية ، وقال جماعة بقولها ، واختلف عن ابي ذر ـ رضي الله عنه ـ [٤] .

وقـال بإنكـار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين ، بل نقل الإمام الدرامي إجماع الصحابة على ذلك [٥] وفي هذا نظر لوجود مخالف من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ .

كمـا تقدم من القول الأول ، ويؤيد أصحاب هذا القول أنه لم يرد نص بأنه – صلى الله عليه وسلم – رأى ربه بعيني رأسه بل ورد ما يدل على نفي الرؤية ، وهو حديث أبي ذر – رضي الله عنه – قال : سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هـل رأيت ربك ؟ فقال : " نور أني أراه " [٦] وفي رواية " رأيت نوراً " [٧] وورد أنه – ﷺ – قال : " حجابه النور " وفـي روايـة : وفـي رواية : " النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " [٨] ومعنى قوله – صلى الله عليه وسلم – لأبي ذر – رضي الله عنه – " رايت نوراً " أنه رأى الحجاب ، ومعنى قوله : " نور أنى اراه " أي الـنور الـذي هو الحجاب يمنع من رؤيته فأنى اراه ، أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته ؟ وهذه الروايات صريحة في نفي الرؤية [٩] ، ويؤيده ما ورد عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال " تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربـه حتى يموت " . وورد عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت : " من حدثك أن محمداً رأي ربه فقد كذب " ، ولما دخل عليها مسروق فقال : يا أمتاه هل رأي محمد – صلى الله عليه وسلم – ربه ؟ قالت : لقد قف شعري مما قلت " يعني قـام شـعر راسـي من الفزع لما حصل عندها من هيبة الله تعالى ، واعتقدته من تنزيهه عز وجل واستحالة وقوع ذلك . وحكى السيوطي إنكار عائشة قول ابن عباس – رضي الله عنهم – وهو مع ترجيحه القول الأول ، وهو قول ابن عباس – رضـي الله عـنه – لـم يـتعرض للجواب على إنكار أم المؤمنين ، كما أورد حديث ابي ذر – رضي الله عنه – المتقدم برواياته وسكت [١٠] .

---

(١) سورة التكوير ، الآية (٢٣) .

(٢) سور النجم ، الآية (١٣) .

(٣) صحيح مسلم (١٥٩/١) ح رقم (١٧٧) .

(٤) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٣ / ٤) ، وفتح الباري (٨/ ٦٠٨) ، شرح الطحاوية .(ص٢١٣) ، لوامع الأنوار (٢٥٢/٢) .

(٥) انظر : مجموع الفتاوي (٦/ ٥٠٧) ، وشرح الطحاوية (ص٢١٤) .

(٦) صحيح مسلم (١٦١/١) ح رقم (١٧٨) .

(٧) نفسه .

(٨) نفسه ح رقم (١٧٩) .

(٩) شرح العقدية الطحاوية (ص٢١٤) .

(١٠) الكوكب الساطع – مخ – لوحة رقم (٤٣٢) .

ورجـح شيخ الإسلام ابن تيمية رأي أم المؤمنين عائشة ومن وافقها ، وأجاب عن قول الإمام أحمد بإثبات الرؤية فذكـر أن مـا نقل عن الإمام أحمد - رضي الله عنه - من إثبات رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لربه إنما يعني رؤيـة المـنام ، فإنـه سـئل عن ذلك فقال : نعم رآه ، فإن رؤيا الأنبياء حق ، ولم يقل رآه بعين راسه " ... وابن عباس - رضي الله عنه - لم يقل إنه - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه بعيني رأسه يقظة ، ومن حكى عنه ذلك فقدوهم ، وهذه نصوصه موجودة ليس فيها شئ من ذلك ، ... ولفظ الإمام أحمد كلفظ ابن عباس[١] وأهل السنة متفقون على أن الله تعالى لا يـراه أحد بعينه في الدنيا لا نبي ولا غير نبي ، ولم يقع النزاع إلا في نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة[٢] ، مـع أن الأحاديث المعروفة ليس في شئ منها أنه رآه بعيني رأسه ، وعليه اعتمد احمد في إحدى الروايتين حيث قال : إنه رآه ، ولم يقل بعيني رأسه[٣] .

وقد جمع بعض العلماء بين رأى ابن عباس - رضي الله عنه - في الاثبات ، ورأي عائشة بالانكار ، وحمل كل واحـد مـنهما على معنى مخالف للآخر ، قال السفاريني : " ويمكن الجمع بين اثبات ابن عباس ونفي عائشة - رضي الله عـنهم - بأن يحمل نفيها على رؤية البصر ، وإثبات على رؤية القلب "[٤] وبهذا يندفع الاشكال بين الفريقين . أو أن يحمل الاثبات على رؤية المنام كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد .

والقول الثالث : الوقف عن القطع بالنفي أو الإثبات في هذه المسألة ، وقد رجح هذا جماعة منهم القرطبي في المفهم في شـرح صحيح مسلم ، فإنه قال : الوقف في هذه المسألة أرجح ، " وعزاه لجماعة من المحققين ، وقواه بأنه ليس في الباب دليـل قاطع ، وغاية ما استدل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل ، قال : وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية ، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي "[٥] .

وإنـني لأرى - فـي حدود علمي القاصر - أنه لا مسوغ للتوقف في هذه المسألة ما دام أنه يحصل الجمع بين الـرأيين المثـبت والـنافي لأنه من المتفق عليه بين أهل العلم أنه إن أمكن الجمع بين الأدلة المتعارضة فهو المعول عليه إعمالا للنصوص وعدم تعطيل شق منها سيما وأن أدلة الرأي الثاني الذي ينفي الرؤية أدلة صحيحة قوية ، وأن ما ورد من أقوال أصحاب الرأي الأول لا تقوى على معارضتها ، فالأولى إذاً إن لم يرجح القول الثاني لقوة أدلته أن يصار إلى الجمع بينهما ، طلباً للتوفيق والائتلاف ، بدلاً من التفرقة والاختلاف وهو ما سبقني إليه ابن تيمية و الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في " فتحه "[٦] ونقله عنه السفاريني[٧] - رحمه الله - ومن استنار قلبه لاقتفاء الآثار ، وخلع ربقة التقليد التي هي مثار التغبير في وجوه الأخبار علم أن السلامة في التسليم ،وفوق كل ذي علم عليم - والله تعالى أجل وأعلم .

---

(١) انظر : مجموع التفاوى (٥٠٨/٦) .

(٢) نفسه (٤٩٠/٥) ، وانظر : ابن القيم : زاد المعاد (٣٤/٣) .

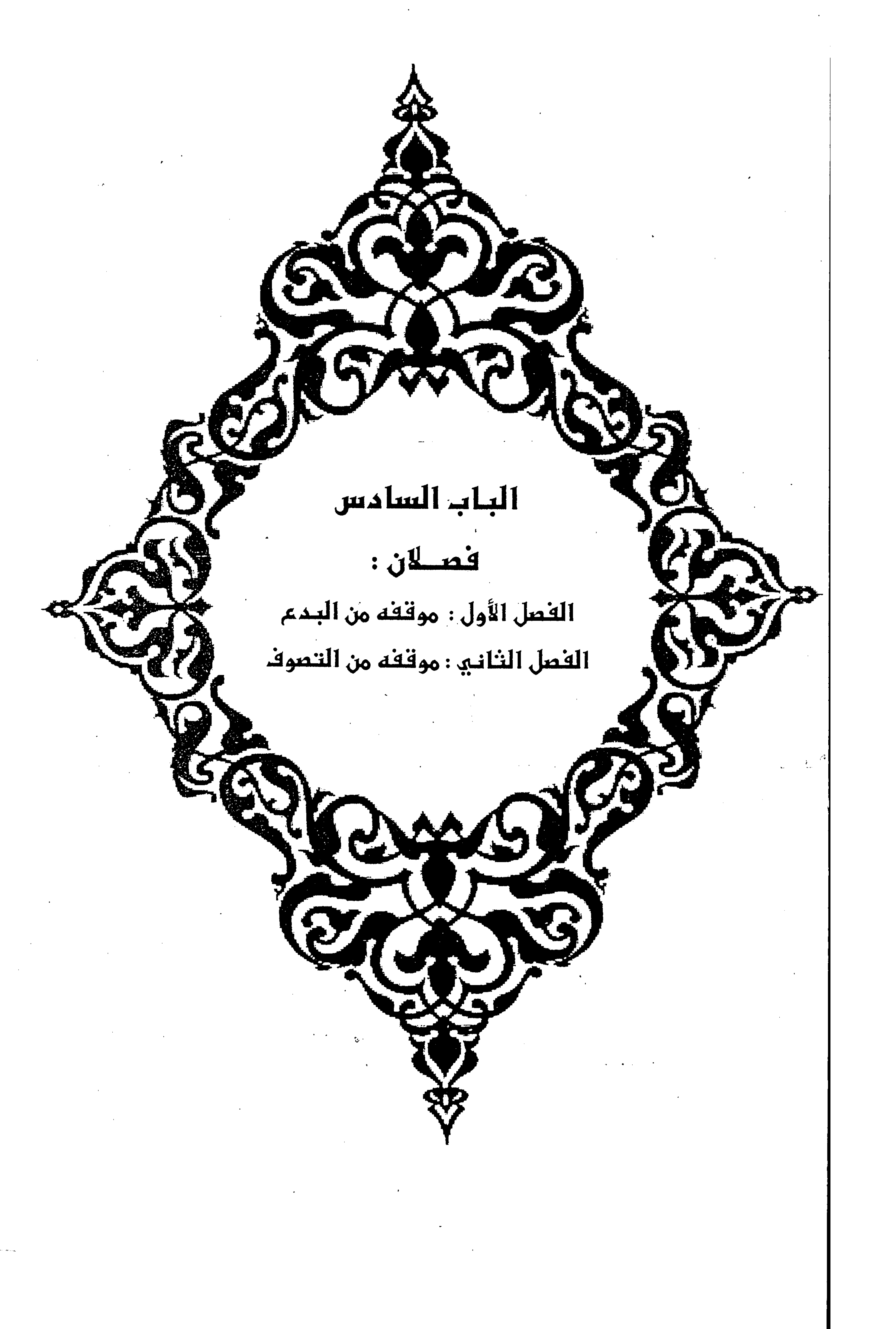
(٣) انظر : نفسه (٥٠٨،٥٠٩/٦) ، وانظر : السفاريني (٢٥٤/٢) .

(٤) لوامع الأنوار (٢٥٤/٢-٢٥٥) .

(٥) فتح الباري (٦٠٨/٨) ، ونقله في لوامع الأنوار (٢٥٦/٢) .

(٦) انظر : (٦٠٨/٨) .

(٧) انظر : لوامع الأنوار (٢٥٤/٢-٢٥٥) .



الباب السادس

فصلان :

الفصل الأول : موقفه من البدع

الفصل الثاني : موقفه من التصوف

الفصل الأول :موقفه من البدع

المبحث الأول

تعريف البدعة

البدعة في اللغة : البدعة اسم هيئة من الإبتداع ، كالرفعة من الإرتفاع ، وهي : كل شئ احدث على غير مثال سابق سواء كان محمودا اومذموما .

والـبِدْع: بكسر الباء : الأمر الذي يكون أولا ، ومنه قوله تعالى (قل ماكنت بدعا من الرسل...)[1] أي :لست اول من جـاء بالوحي من عند الله تعالى وحمل الرسالة إلى الناس ، بل قد ارسل قبلي مبشرون ومنذرون ،فلست مبتدعا(اسم مفعول) لم يتقدمني رسول[2].

ويجوز ان يكون بمعنى مبتدع (اسم فاعل) فيكون معنى الآية :ماكنت مبتدعا فيما اقوله وادعو إليه من الرسالة ،ولست مخترعا لها ، بل هي من عند الله [3].

(والـبديع): من اسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، فيكون بمعنى مبدع ، أو من خلق أي : بدأه [4]. والله تعالى بديـع السماوات والأرض ، أي خالقها ومبدعها، ، وهو ايضا الخالق المخترع لا على مثال سابق ، وهو من بدع لا من ابدع ، فعيـل بمعـنى فاعل ، مثل قدير بمعنى قادر . وهو صفة من صفاته تعالى ـــ ايضاـــ لأنه بدأ الخلق على غير مثال تقدمه على ما أراد[5].

والبديع من الحبال : الذي ابتدئ فتله ، و لم يكن حبلا ، فنكث[6]ثم غزل وأعيد فتله[7] وركي [8][9] بديع : حديثة الحفر.

وابتدع وتبدع: اتى ببدعة ، قال تعالى :(...ورهابنية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ...)[10]وبدعه تبديعا : نسبة إلى البدعة [11] .

والملاحـظ مماسبق أن غالب ماتدور عليه مادة " بدع " معنى الإحداث والاختراع والإنشاء لشيء لم يكن موجوداً قبل إحداثه .

البدعة في الاصطلاح : اختلفت أقوال العلماء في تحديد معنى البدعة في الشرع وتنوعت تعبيراتهم بشأنها ، فمنهم من توسع في عبارته فاتسع عنده مدلول البدعة وماينذرج تحت مفهومها .

ومنهم من ضيق هذا المدلول وماينذرج تحته من الصور والأحكام .

ويمثل الاتجاه الأول :

١ ـــ الإمـام أبـو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي ـــ رحمه الله تعالى ـــ فإنه قسم البدعة إلى حسنة وسيئة ، أو محمودة ومذمومة وهي على هذا تشمل كل حادث بعد عصر رسول الله ﷺ ـــ وعصر خلفائه الراشدين :

---

(١) سورة الأحقاف ،بعض الآية (٩)

(٢) انظر : الراغب : المفردات(ص٣٩)

(٣) المصدر السابق .

(٤) انظر : لسان العرب (٦/٨)

(٥) المصدر السابق(٨/٦-٧)، الراغب : المفردات (ص٣٨)

(٦) لسان العرب (٧/٨).

(٧) السابق نفسه ، وترتيب القاموس المحيط(٠٣٢/١).

(٨) ركي بديع : حديثة الحفر

(٩) الركي : البئر

(١٠) سورة الحديد، بعض الآية (٢٧)

(١١) ترتيب القاموس المحيط (٢٣١/١) ، ولسان العرب (٦/٨) .

قال حرملة بن يحيى : سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول : " البدعة بدعتان : بدعة محمودة وبدعة مذمومة ، فما وافق السنة فهو محمود ، وماخالف السنة فهو مذموم " [١]

وقال الربيع : قال الشافعي — رحمه الله تعالى :

المحدثات من الامور ضربان :

أحدهما : ماأحدث يخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً ، فهذه البدعة الضلالة.

والثاني : ماأحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا ، فهي محدثة غير مذمومة[٢] ، وقد استند في كلا التعبيرين إلى قول عمر بن الخطاب — ﷺ — في صلاة التراويح : " نعم البدعة هذه " [٣] .

٢ — وكذلك الغزالي — رحمه الله تعالى — يقول عن الأكل على السفرة : " ومايقال انه أبدع بعد رسول الله — ﷺ — فليس كل ماأبدع منهياً عنه ، بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الابتداع قد يجب في بعض الأحيان إذا تغيرت الأسباب "[٤] .

٣ — ويقول ابن الأثير — رحمه الله تعالى — : " البدعة بدعتان : بدعة هدى — وبدعة ضلال[٥] ... فما كان في خلاف ماأمر الله به ورسوله — ﷺ — فهو في حيز الذم والإنكار ، وماكان واقعاً تحت عموم ماندب الله إليه وحض عليه أو رسوله فهو في حيز المدح ،ومالم يكن له مثال موجود كنوع من السخاء والجود وفعل المعروف فهو من الافعال المحمودة ، ولايجوز أن يكون ذلك في خلاف ماورد الشرع به ، لأن النبي — ﷺ — قد جعل له في ذلك ثواباً فقال : " من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها." وقال في ضده :" من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها "[٦] ... وذلك ما كان في خلاف ماأمر الله به ورسوله — ﷺ — "[٧] . ثم مثل البدعة الحسنة بقول عمر في صلاة التراويح : " نعمت البدعة هذه " ثم قال :" وهي على الحقيقة سنة لقوله — ﷺ — " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين "[٨] ،وقوله : " اقتدوا بالذين من بعدي ابي بكر وعمر " [٩] وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر " كل محدثة بدعة " على ماخالف الشريعة و لم يوافق السنة " [١٠] .

٤ — وقال الشيخ عبدالحق الدهلوي في شرح المشكاة" اعلم ان كل ماظهر بعد رسول الله — ﷺ — بدعة وكل ماوافق اصول سنته وقواعدها اوقيس عليها فهو بدعة حسنة ، وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة "[١١] .

---

(١) أبو شامة: الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص١٢) ،وانظر : فتح الباري (١٠/١٧) وقال " أخرجه أ[و نعيم بمعناه من طريق إبراهيم بن الجنيد عنه " انظر الحلية (١١٣/٩) بسند صحيح إلى الشافعي رحمه الله .

(٢) المصدران السابقان ،وذكره السيوطي في " الحاوي " (١٩٢/١) وعزاه للبيهقي في " مناقب الشافعي " وهو فيه (٤٦٨/١— ٤٦٩) بسند صحيح .

(٣) صحيح البخاري رقم (٢٠١٠) الفتح (٢٥٠/٤) ، وموطأ مالك (ص٩١) ، وسنن البيهقي (٤٩٣/٢)

(٤) إحياء علوم الدين (٣/٢) ط عيسى الحلبي .

(٥) النهاية (٢٩/١) ، لسان العرب (٦/٨) .

(٦) صحيح مسلم (٨٠٤/٢ — ٧٠٥) رقم (١٠١٧) ، (٢٠٥٩/٤) بنفس الرقم .

(٧) النهاية (٢٩/١) ، لسان العرب (٦/٨) .

(٨) سنن ابي داود) ٢٠٠/٤) عن أحمد بن حنبل ، وسنن الترمذي (١٥٠/٤) وقال حسن صحيح ، وصححه الحاكم في المستدرك (٩٦/١ 9)ووافقه الذهبي .

(٩) جاء الحديث بهذا اللفظ ، وفي لفظ آخر :" إني لا ادري ماقدر بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي أي بكر وعمر " وهو من حديث حذيفة بن ا ليمان — ﷺ — في سنن الترمذي (٢٧١/٥ — ٢٧٢) وقال : حديث حذيفة بن اليمان — ﷺ — في سنن الترمذي (٢٧١/٥ — ٢٧٢) وقال : حديث حسن ، وفي سنن ابن ماجة (٧٣/١) ، ومسند أحمد (٣٨٢/٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٧٢/١) .

(١٠) ابن الأثير : النهاية (٢٩/١) ، لسان العرب (٦/٨) .

(١١) كشاف اصطلاحات الفنون(١٩١/١)بدع.

٥- وإلى هذا الإتجاه مال الشيخ عز الدين بن عبدالسلام والنووي وابوشامة [١]، وصرح به السيوطي في الحاوي [٢] ، ورسالة الإتباع [٣] .ففي جواب له على نص سؤال ورد إليه عن حكم عمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول قال : "عندي أن اصل عمل المولد الذي هو اجتماع الناس وقراءة ماتيسر من القرآن ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبي ﷺ وما وقع في مولده من الآيات ثم يمد لهم سماط يأكلون وينصرفون من غير زيادة على ذلك هومن البدع الحسنة التي يثاب عليها صاحبها"[٤]

ثم ذكر ان البدعة "لاتنحصر في الحرام والمكروه بل قد تكون ايضا مباحة ومندوبة وواجبة "[٥] ، ثم ايد كلامه بما نقله عن النووي ، وعز الدين ابن عبدالسلام والذي قد اشرنا إليه قبل ، وعلى ذلك فالبدعة فيما يرى هؤلاء الناس ومن وافقهم هي : "فعل لم يعهد في عهد النبي ﷺ ، و لم يكن له اصل يقاس عليه في الشرع فإذا كان له اصل يشار إليه في الشرع فلا بأس عندهم به في الزمان والكيفية والمقدار ولذلك فإن اصحاب هذا الإتجاه لايرون ان الإحتفال بالمولد النبوي بدعة ، والحق عندنا خلاف ذلك .

- **اما الإتجاه الثاني والذي يضيق مفهوم البدعة ومدلولها وما يندرج تحتها من الصور والأحكام فينقسم إلى قسمن:**

القسم الأول : لاتقيد البدعة فيه بشئ سوى مخالفة السنة.

القسم الثاني : وتتقيد فيه البدعة مع ذلك بنسبتها إلى الدين ،وجعلها من جنس ما يتقرب به إلىالله من الشرع ، ويمثل القسم الأول بعض العلماء الذين تنوعت عباراقم على مدلول واحد ومنهم :

١- ابـن رجب الحنبلي ، حيث يقول : "والمراد بالبدعة مااحدث مما لااصل له في الشريعة يدل عليه ، اما ماكان له اصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا ، وإن كان بدعة لغة"[٦]

٢- ويقـول الحافظ ابن حجر :" والبدعة :اصلها ما احدث على غير مثال سابق، وتطلق في الشرع في مقابل السنة فـتكون مذمومـة "[٧] ، ويقول ايضا: " والمحدثات جمع محدثة والمراد بها ...ما أحدث وليس له اصل في الشرع ،ويسمى في عرف الشرع بدعة ، وما كان له اصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة "[٨].

٣- ويقـول ابن حجر الهيثمي " وهي ـ أي البدعة ـ لغة : ماكان مخترعا .. وشرعا : ما أحدث على خلاف امر الشرع ودليله الخاص والعام"[٩].

٤- وقال الزركشي : "البدعة في الشرع موضوعة للحادث المذموم"[١٠] .

ومـؤدى هـذه الأقوال والعبارات ان البدعة شرعا كل حادث مذموم ،وليست كل حادث على الإطلاق، أو كل حادث مخالف بشرط نسبته إلى الدين.

امـا القسـم الثاني : فيتمثل في رأي الإمام ابي اسحاق ابراهيم الشاطبي ـ رحمه الله ـ ومن وافقه ،ويتجه هذا الرأي إلى تعـريف البدعة بالمحدث المخالف للسنة الذي يتخذ دينا قويما وصراطا مستقيما سواء اقتصرنا في تعريف البدعة على ماكان كذلك في العبادات فقط ، أو جعلناه شاملا لما كان كذلك في العبادات والعادات معا.

---

(١) انظر: العز بن عبدالسلام :قواعد الأحكام(٢/٢٠٤)،وشرح النووي على صحيح مسلم (٦/١٥٤-١٥٥) والسيوطي :الحاوي (١/١٩١).

(٢) انظر : (١/١٩١).

(٣) انظر: (ص٢٦)

(٤) الحاوي للفتاوي (١/١٨٩)

(٥) المصدر السابق (١/١٩٢)

(٦) جـامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم (٢/١٢٧) ت: شعيب الأرناؤوط ،ابراهيم باجس ، مؤسسة الرسالةط١٤١١/١ هـ ـ ١٩٩١م ، بيروت ـ لبنان .

(٧) فتح الباري (٥/١٥٦)

(٨) المصدر السابق (٩/١٧)

(٩) التبيين بشرح الأبعين (ص٢٢١)

(١٠) انظر :الشيخ على محفوظ :الإبداع في مضار الإبتداع (ص٣١) نقلا عن الزركشي.

قال الشاطبي : "البدعة : طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى".[١].

وقال في موضع آخر :"البدعة : طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية ، يقصد عليها مايقصد بالطريقة الشرعية"[٢].

وقد شرح الشاطبي نفسه تعريفيه السابقين بما يبين مراده فبين انه يقصد بقوله : طريقة : مارسم للسلوك عليه ، وقوله : في الدين : قيد لإخراج الطريقة في الدنيا ، كإحداث الصنائع ، والبلدان التي لاعهد بها فيما تقدم ،وقوله :مخترعة :لااصل لها في الشريعة ، ولا تعلق لها بها كعلم النحو والتصريف ، ومفردات اللغة ،واصول الدين والفقه .

وقوله : تضاهي الطريقة الشرعية : أي تشبهها من ان تكون كذلك ، بل هي مضادة لها من جهة وضع الحدود كالإقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف بلا علة أومن جهة التزام الكيفيات والهيئات المعينة ، كالذكر بهيئة الإجتماع على صوت واحد، واتخاذ يوم ولادة النبي صلى الله عليه وسلم عيدا ، او التزام عبادات معينة في اوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة كالتزام صيام يوم النصف من شعبان ، وقيام ليلته ، وسواء في ذلك ألبّس صاحبها على الناس بماابتدعه او التبست البدعة عليه بالسنة ، مادام مصرا عليها مع معرفته ببدعتها أواخباره بهذا الإبتداع.

وقوله : يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى : قيد لإخراج العادات من البدع ، وبيان ان ما ابتدع من الأمور الزائدة عل المشروع والمنسوبة إلى الشرع مقصود بها المبالغة في التعبد ، اوتجديد النشاط إلى العبادة[٣].

هذا كلام الشاطبي وقد نقلته ملخصا .

ومن الواضح ان الشاطبي استند إلى ادلة كثيرة لتأييد رأيه ، وقد وردت هذه الأدلة في ذم البدعة والمبتدعة ومن تابعهم وليس فيهـا استثناء البته ،وليس فيها ان من البدع ماليس سيئا ،وقد ورد في مجمل هذه الأدلة ما يقتضي تخصيص البدعة عن غيرها من المعاصي ، ومن اهم هذه المخصصات ما يلي:

١- ان البدعة لايقبل معها عمل ، فقد روى عن حذيفة — رضي الله عنه — قال: "لايقبل الله لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولاحجا ولاعمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين "[٤].

وقد حكى الأوزاعي القول بذلك عن بعض اهل العلم ،وقال به اسد بن الفرات ،وايوب السختياني،وهشام ابن حسان[٥].

وقد قال ابن عمر — رضي الله عنهما — في القدرية : والذي يحلف به ابن عمر ، لو أن لأحدهم مثل احد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر"[٦].

وقال — صلى الله عليه وسلم — في الخوارج :"يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية "[٧].

وقال فيمن احدث بالمدينة :"لايقبل منه صرف ولا عدل " [٨] وإذا ثبت في بعض المبتدعة حكم ما ، ثبت في جميعهم ، او ترجح شمول هذا الحكم للجميع ، وذلك على قدر غلظ كل بدعة ومقدارها في ا لمخالفة والجرم .

٢- ان صاحب البدعة ملعون عل لسان الشرع ، فقد لعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تارك السنة ، وصاحب البدعة قد شاركه ، لأن البدعة ما قامت إلا بترك سنة في مقابلها ، قال — صلى الله عليه وسلم — :"ستة لعنتهم ، لعنهم الله ، وكل نبي مجاب : المكذب بقدر الله ،والزائد في كتاب الله ، والمتسلط بالجبروت يذل

---

[١] الإعتصام (٣٧/١) بتقديم العلامة : السيد محمد رشيد رضا .

[٢] المصدر السابق نفسه.

[٣] انظر الإعتصام (٣٧/١-٤٥)

[٤] سنن ابن ماجه (٩١/١)ت: عبد الباقي سرور ،ورجال اسناده ثقات غير محمد بن محصن العكاشي ، كذبوه ،وقال ابن حبان : يكتب حديثه للإعتبار

[٥] عزت علي عطية : البدعة وموقف الإسلام منها (ص٦٥)

[٦] صحيح مسلم (٢٥٦/١) مع شرح النووي ،وابو داوود (٢٧٧٢) ترتيب الساعاتي .

[٧] صحيح البخاري (٥٢/٨) صحيح مسلم (٧٤٦/٢)

[٨] صحيح البخاري (١٩/٣) صحيح مسلم (١٤٠/٩) مع شرح النووي ، وسنن ابي داود (٣١٨/١)ترتيب الساعاتي .

مـــن اعز الله ،ويعز من اذل الله ،والمستحل لحرم الله ،والمستحل من عترتي ما حرم الله ، والتارك لسنتي "[١] ،

ويؤيـــد ذلك قوله تعالى (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدي القوم الظالمين ، اولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين).[٢]

وقولـــه عـــز وجل : (إن الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)[٣].

وصـــاحب الـــبدعة يشارك في وقوع اللعن عليه كل من كفر بعد ايمانه ، وكل من كتم ما بينه الله تعالى في كتابه من جهة مضادة الشرع الحكيم فيما شرع .

اما الأول : وهو الكافر بعد ايمانه فقد ضاد الشرع بجحده جحدا تاما.

واما الثاني : وهو كاتم الشريعة عاندها بإخفاء ما يجب ان يظهر ويبين للناس

وكذلك المبتدع شارك كلا الطائفتين وضاد الشريعة بأن وضع من عنده الوسيلة لترك مابينه الشرع وكتم ما أظهره الله تعالى وبينه من السنن والهدى ، ونصيبه من ذلك على قدر جرمه وابتداعه ولن يظلمه ربه مثقال ذرة .

٣- ان البدع مظنة العداوة والبغضاء بين اهل الإسلام لأنها سبب التفرق واساس الإختلاف ،ففي حديث العرباض بن ســـارية ـــ ﷺ ـــ قـــال :" وعظنا رسول الله ـــ ﷺ ـــ موعظة بليغة ذرفت [٤] منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يارسول الله كأن هذه موعظة مودع فأوصنا ، أوقال :فماذا تعهد إلينا ؟فقال: " اوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاع ، وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ،تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ[٥] وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة "[٦].

فـــدل الحديث على ان ظهور البدع سبب للتفرق والإختلاف الكثير بين الناس ولا عاصم للأمة من ذلك بعدالله تعالى إلا التمســـك بالسنة ، ولذلك قال ـــ ﷺ ـــ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ..."وما ذلك إلا بترك السنن وإهمالها ، وفعـــل البدع وإحيائها ، ثم اردف ذلك بقوله : "فعليكم بسنتي " فهي المانع والحاجز عن هذا الإختلاف والتفرق والتحزب ،وذهاب كل فرقة وكل حزب من الأحزاب مذهبا يضاد مذاهب غيره ، والواقع شاهد على ذلك.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣٦/١) من حديث عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ ، (٩٠/٤) وقال : صحيح لا اعرف له علة ، وتعقبه الذهبي بأنه منكر بمرة .. وقال المناوي في فيض القدير : لكنه ـــ أي الذهبي ـــ خرجه في "الكبائر " من حديث عائشة ، ثم قال :اسناده صحيح ، واورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦/١) من رواية الطبراني في الكبير عن عائشة ، ولم ينتقد فيه إلا عبدالرحمن بن موهب ، وقال : وثقه ابن حبان ،وقال ابو حاتم : صالح الحديث ،وبقية رجاله رجال الصحيح ، وقال المنذري في "الترغيب" (٣٦/١): رواه الحاكم وابن حبان والطبراني ،وقال الذهبي في "الميزان" (٤٥٤/٢) في ترجمة عبدالله بن عبدالرحمن بن موهب : "روى عن يحيى ـــ أي ابن معين ـــ ضعيف ، وروى عنه ايضا انه قال عنه : ثقة ،وقال ابـــو حاتم : صالح الحديث ، وقال ابن عدي : وهو حسن الحديث يكتب حديثه ، وللحديث شواهد أوردها الهيثمي في المجمع (١٧٦/١) وعلى ذلك فالحديث حسن لغيره ، ورواه الترمذي (٣١٨/٨) انظر : شرح ابي بكر بن العربي .

(٢) سورة آل عمران الآيتان (٨٦ ، ٨٧)

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٥٢)

(٤) ذرفت : سالت

(٥) جمع ناجذة :أي الضرس الأخير ،أو السن عموما

(٦) ســـنن أبي داوود (٢٠٠/٤) ، ســـنن الـــترمذي(١٥٠/٤)وقـــال الترمذي : حسن صحيح والحاكم في المستدرك (٩٦/١) وصححه ، ووافقه الذهبي،واحمـــد في المســـند (١٨٩/١) ترتيب الساعاتي ، وابن حبان (١٣٩/١)،والدرامي (٤٤/١-٤٥)،وابن ماجه (١٦/١) وعند زيادة :"فإنما المؤمـــن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد" وقال الحاكم عن هذه الزيادة : إنها زيادة شاذة او منكرة ، وافادت رواية الترمذي وابن ماجه ان الصلاة كانت صلاة الصبح ، فقد وعظهم النبي صلى الله عليه وسلم ـــ بعد اداء الصلاة هذه الموعظة.

قال السيوطي في هذا التفرق والإختلاف :"اهل الفرق الضالة ست ،وقد انقسمت كل فرقة منها اثنتي عشرة فرقة ، فذلك اثنتان وسبعون فرقة هم الذين اخبر النبي — ﷺ — أنهم في النار"[١].

٤- انما سبب للطرد عن حوض النبي صلى الله عليه وسلم كما يدل على ذلك حديث ابي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال ناس يارسول الله كيف تعرف من يأتي من بعدك من امتك ؟ قال : ارأيتك لو كان لرجل خيل غر محجلة [٢]في خيل دهم [٣]بهم ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : فإنهم ياتون يوم القيامة غرا محجلين من الضوء وانا فرطهم على الحوض ، فليذادن [٤] رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم ألا هلم ، ألا هلم ،ألا هلم ، فيقال إنهم قد بدلوا بعدك ،فأقول : فسحقا ، فسحقا ،فسحقا [٥].

فظهور الغرة والتحجيل دليل على انهم من امة الإسلام ولكنهم طردوا عن حوضه — صلى الله عليه وسلم — لبدعتهم وتبديلهم [٦].

قال ابن عبد البر : "كل من احدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض كالخوارج والروافض وسائر اصحاب الأهواء"[٧] .

٥- ان على مبتدعها اثم من عمل بها إلى يوم القيامة ، قال تعالى (.. ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم)[٨].

وللأحاديث الدالة عل ذلك ومنها : قوله — صلى الله عليه وسلم — "مامن نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل "[٩].

وغير ذلك من الأمور التي تجعل البدعة في حيز الأمور المذمومة ، وعلى ذلك يمكن القول بأنه لادليل على قول من قال : إن البدع منها قسم حسن ، فلم ترد لفظة البدعة على لسان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلا على سبيل الذم، والأحاديث التي سيقت في الإستدلال عليه لا تفيد إلامن ناحية المفهوم ولا تدل دلالة صريحة على استعمال لفظ البدع فيما هو حسن أو فيما يوافق الشرع. — أما كلام عمر — رضي الله عنه — :"نعمت البدعة هذه" فليس فيه أن لفظ البدعة بمجرده يطلق في الشرع على ماهو حسن وكل ما يفيده مثل هذا الكلام هو ان البدعة في نظر الشرع إذا اطلقت عن التقييد بوصف اواضافة او غيرهما لا تدل على ما هو مخالف للشرع ، ولايقصد بها غير ذلك فيه.

امـا اذا قصد بها مايتناوله لفظ " بدعة " من ناحية اللغة ، وهومطلق المحدث حسنا كان او سيئا ، وعبر بها عما هو موافق للشرع فلا بد من وصفها او تقييدها بما يفيد حسنها صراحة أو بالمفهوم ، تميزا لها عن مطلق البدعة .

---

(١)الأمر بالإتباع والنهي عن الإبتداع (ص٢٨)وهذا التفرق والإختلاف بسبب البدع والإبتداع ، والحديث الذي اشار إليه السيوطي رواه ابن ماجه (٤٧٩/٢) وابنابي عاصم في "السنة "(٦٣) واللالكائي في "شرح السنة"(٢٣/١)رقم (١)، من طريقين عن عباد بن يوسف : حدثني صفوان بن عمرو، عن راشد ابن سعد عن عوف بن مالك مرفوعا قال الألباني "وهذا اسناد جيد ، رجاله ثقات معروفون غير عباد بن يوسف ،وهو الكندي الحمصي، وقد ذكره ابن حبان في "الثقات" ووثقه غيره ،وروى عنه جمع ، وللحديث شواهد تقوم ببعضها برقم (٢٠٣)انظر السلسلة الصحيحة (١٢/١)رقم (٢٠٣)،(١٤/١) رقم (٢٠٤)،(٤٨٠/٣)،رقم (١٤٩٢)

(٢)غر محجلة : أي في جباههم وقوائمهم بياض

(٣)خيل دهم : سود لايخالط سوادهم شئ من الألوان

(٤)أي : ليدفعن ويطردن

(٥)الموطأ (ص٤٤)ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٧ — ١٣٩) واحمد بنحوه (١ / ١٩٥) ساعاتي ، وابن ماجه رقم(٤٣٠٦) والنسائي (٩٤/١— ٩٥)

(٦)انظر : الشاطبي :الإعتصام (٧٦/٢)

(٧)المصدر السابق

(٨)سورة النحل ، الآية (٢٥)

(٩)صحيح البخاري (٤/٩) وصحيح مسلم (١٦٦/١١) مع شرح النووي، والترمذي (٤٣٦/٧) مع تحفة الأحوذي ،ومسند احمد (٣٨٣/٣) ، (٤٣٠/٣)

- كمـــا ان اطلاق القول بأن البدع منها ما هو حسن يمكن ان يكون بابا مفتوحا على مصراعيه لكل مبتدع ليقول هـــذه بدعة حسنة فيلصق بالدين كل ما يريد ابتداعه واختراعه ، فتفشوا البدع وتنطمس معالم الدين بالكلية ،قال الشهاب الخفاجي :"البدعة إذا اطلقت يراد بها السيئة "[١].

وقال ابن الأثير :" واكثر مايستعمل المبتدع عرفا في الذم "[٢]

لكن الإمام النووي ــ رحمه الله تعالى ــ جعل البدعة خمسة اقسام:

واجبة ،ومندوبة ، ومحرمة ، ومكروهة ،ومباحة ثم قال :" فمن الواجبة نظم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين ، وشـــبه ذلك ، ومن المندوبة تصنيف كتب العلم ، وبناء المدارس والربط وغير ذلك ، ومن المباح التبسط في الوان الأطعمة وغير ذلك ، والحرام والمكروه ظاهران ، وقد اوضحت المسألة بأدلتها المبسوطة في تهذيب الأسماء واللغات..."[٣]

وفي تقسيمه هذا ــ رحمه الله تعالى وعفا عنه ــ نظر ، لأنني قد قدمت ان البدعة إذا اطلقت انصرفت إلى المعنى المذموم ، ومجرد تسميتها بدعة تكفي في ذمها وذم فاعلها والداعي إليها والعامل بها ، ولم يرد في النصوص الشرعية ــ كما سبق ــ مـــا يـــدل عـــلى هذا التقسيم ، وهذا هو الرأي الذي انتصرله الإمام الشاطبي وأيده بالأدلة ، واتجه إليه الحافظ ابن حجر العســـقلاني ، وابن حجر الهيثمي المكي ، والزركشي وغيرهم ، وقد استند اصحاب هذا الإتجاه كما سبق ــ إلىنصوص كـــثيرة تخصـــص البدعة باحكام مذمومة دون غيرها من المخالفات مثل كون صاحبها متوعد بأنه لايقبل منه عمل ، وان صـــاحبها مـــتوعد في لسان الشرع ، وانها سبب العداوة والبغضاء والتفرق والإختلاف بين المسلمين وأنهاسبب للطرد عن حوض النبي ــ ﷺ ــ فأهل البدع يذادون عن حوضه ــ ﷺ ــ ويبعدون عنه ، بسبب ما احدثوه من البدع ، وغير ذلك مما تختص به البدعة فلا تكون ابدا إلا سيئة مذمومة لايجوز فعلها ،بل يجب البعد عنها وعن مواطن تحيا فيه البدع ، كما يجب البعد عن اهلها ومجانبتهم وعدم مجالستهم او توقيرهم ، لأنهم معاندون ببدعتهم لسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد ورد سؤال على الشيخ عبدالعزيز بن باز ــ يرحمه الله ــ يقول فيه السائل : "فصل الشيخ النووي ــ رحمه الله تعالى ــ في شرحه البدعة إلى خمسة أقسام : الأول : بدعة واجبة ، ومثالها نظم ادلة المتكلمين على الملاحدة ،والثاني :المندوبة: ومثالها تصنيف كتب العلم ، والثالث:المباحة ، ومثالها : البسط في الوان الطعام ، والرابع والخامس : الحرام والمكروه وهما واضحان والسؤال : يقول الرسول ــ ﷺ ــ " كل بدعة ضلالة " أرجو توضيح ذلك مع مايقصده الشيخ النووي ــ رحمه الله ــ"[٤]

فأجاب الشيخ ابن باز ــ رحمه الله ــ :" هذا الذي نقلته عن النووي ــ رحمه الله ــ في تقسيم البدعة إلى خمسة اقسام قد ذكره جماعة اهل العلم ، وقالوا : إن البدعة تنقسم إلى اقسام خمسة : واجبة،ومستحبة ، ومباحة ،ومحرمة،ومكروهة.

وذهب آخرون من اهل العلم إلى ان البدعة كلها ضلالة ،وليس فيها تقسيم ، بل كلها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ــ "ضـــلالة " قـــال عليه الصلاة والسلام :" كل بدعة ضلالة " هكذا جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ منها مارواه مسلم في الصحيح عن جابر بن عبدالله الأنصاري ــ رضي الله عنهما ــقال : كان النبي ــ ﷺ ــ يخطب يوم الجمعة فيقول في خطبته :" أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ــ ﷺ ــ وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ".[٥]

وجاء في هذا المعنى عدة احاديث مثل حديث عائشة ، وحديث العرباض بن سارية ، واحاديث اخرى ، وهذا هو الصواب ، أنهـــا لاتنقســـم إلى هذه الأقسام التي ذكرها النووي وغيرها ، بل كلها ضلالة، والبدع تكون في الدين لافي الأمور المباحة

---

[١] شرح الشفا (٣/٣٣٩)

[٢] النهاية في غريب الحديث ــ مادة (بدع) ، وانظر لسان العرب (٨/٦)

[٣] شرح صحيح مسلم (٦/١٥٤-١٥٥)

[٤] فتاوى نور على الدرب (٢/٣٤١) من اجوبة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ، مفتي عام المملكة العربية السعودية ــ إعداد أ،د عبدالله بن محمد الطيار ، والشيخ محمد بن موسى بن عبدالله الموسى ، ط/١٤١٨هـــ ـــ١٩٩٧م ــ دار الوطن ــ الرياض.

[٥] صحيح مسلم (٢/٥٩٢)رقم (٨٦٧)

،فتــنوع الطعام على وجه جديد لايعرف في الزمن الأول لايسمى بدعة من حيث الشرع ، وإن كان بدعة من حيث اللغة لأن البدعة في اللغة هي الشئ المحدث عل غير مثال سابق ، كما قال عز وجل :(بديع السموات والأرض)[١]
يعني انه مبتدعها وموجدها على غير مثال سابق ، لكن لايقال بدعة إلا لما كان في التعبد في الأعمال الشرعية ، فهذا كله فيه ضـــلالة ، ولا يقال فيه أنها اقسام واجب وسنة إلى آخره ، وهذا هو الحق ، وهذا هو الصواب الذي ارتضاه جماعة من اهل العلم وقرروه وردوا على من خالف ذلك.

وكذلك تأليف الكتب وتنظيم الأدلة للرد على الملحدين والخصوم لايسمى بدعة، بل هذا مما امر الله به ورسوله ، فهو طاعة لله وليـــس بدعة ، فالكتاب العزيز جاء بالرد على خصوم الإسلام ، واعدائه في آيات عظيمات ، وجاءت السنة بذلك في الـــرد على خصوم الإسلام ، واعدائه في آيات عظيمات ، وجاءت السنة بذلك في الرد على خصوم الإسلام بماظهر لهم من كتاب الله وسنة رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ واوضحوا الأدلة ونوعوها ،وكل هذا لايسمى بدعة في الشرع ، بل هو قيام بالواجب وجهاد في سبيل الله ، وليس ببدعة في حكم الشرع ، وهكذا بناء المدارس والربط والقناطر وغير هذا مما ينفع المســـلمين لايســـمى بدعة من حيث الشرع ، فهو امر مأمور به ، لأن الشرع امر بالتعليم ، والمدارس تعين على التعليم ، وكذلك ما يتعلق بالربط للفقراء ، فالشرع أمر بالإحسان إلى الفقراء والمساكين فإذا بنى لهم مساكن سميت بالربط فهذا مما امر الله به ، وكذلك القناطر على الأنهار ، كل هذا مما ينفع المسلمين وليس ببدعة بل هو مشروع ، وتسميته بدعة يكون من جنس ما تقدم من حيث اللغة العربية ،كما قال عمر ـــ ﷺ ـــ في التراويح لما جمع الناس على امام واحد ليصلي بهم التراويح كل ليلة ، قال : نعمت البدعة هذه ، يعني من حيث اللغة وإلا فالتراويح سنة مؤكدة فعلها النبي صلى الله عليه وسلم وحث عليها ورغب فيها ، فليست بدعة بل هي سنةٌ مؤكدة ولكن سماها عمر بدعة من حيث اللغة لأنها فعلت على غير مثال سابق لأنهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون اوزاعا في المسجد ، ليسوا على امام واحد هذا يصلى معه اثنان ، وهذا يصـــلى معــه ثلاثة وهذا يصلي معه اكثر وصلى النبي صلى الله عليه وسلم ـــ ثلاث ليال ثم ترك ، وقال :" اني اخشى ان تفرض عليكم صلاة الليل " [٢] فتركها خوفا على امته ان تفرض عليهم .

فالحاصل ان قيام رمضان سنة مؤكدة ، وليست بدعة [٣]من حيث الشرع ، وإن سماها عمر ـــ رضي الله عنه ـــ بدعة من حيث اللغة.

والخلاصة ان الصواب ان كل ما احدثه الناس في الدين مما لم يشرعه الله فإنه يسمى بدعة وهو بدعة ضلالة ولا يجوز فعلها ولا يجـــوز تقسيم البدع إلى واجب وإلى سنة وإلى مباح ...إلى آخره فهذا خلاف القاعدة التي بينها النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وفي هذا خطر عظيم ، كأن القائل يرد على النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ، فالنبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يقـــول :" كل بدعة ضلالة " وهذا يقول : لا ، بل هي اقسام ، فهذا خطر عظيم وسوء ادب مع الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فالواجب على اهل العلم ان يتأدبوا مع رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وان يحذروا الشئ الذي قد يخدش في حق من فعل ما يخالف السنة ، وإن كان العلماء ـــ رحمة الله عليهم ـــ الذين قالوا ذلك لم يقصدوا الرد على رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ـــ حماهم الله من ذلك ـــ ولكن قد يحتج عليهم بذلك من يظن بهم السوء من اعداء الله ، وقد يظن ذلك بعض الجهلة .

فالحاصل ان التقسيم إلى بدعة مستحبة وواجبة ...إلى آخره ليس هو الصواب بل الصواب خلافه[٤].

---

(١)سورة البقرة بعض الآية (١١٧)

(٢)صحيح البخاري ، رقم (٧٢٩)الفتح (٢/٢١٣) وانظر الأرقام :(٩٠٢٤,١١٢٩,٢٠١١,٢٠١٢,٥٨٦) وصحيح مسلم (١/٥٢٤) رقم (٧٦١)

(٣)الأولى : أن يقال : وليس الإجتماع لصلاتها في جماعة بدعة ، لأن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ لم يقصد إلى ان قيام رمضان بدعة من اساسها ، إنما قصد احتماع الناس على امام واحد

(٤)عبدالعزيز بن باز : فتاوى نور على الدرب (١/٣٤١-٣٤٤)

وقـــد ذكـــر الإمام الشاطبي ايضا هذا التقسيم ونسبه إلى الإمام القرافي ـــ رحمه الله ـــ ورد على ذلك التقسيم وشنع على قائله[١].

وبين الشاطبي ان هذا التقسيم لايدل عليه عقل ولا نقل ، وهذا نص كلامه ـــ رحمه الله ـــ قال : " ومما يورد في هذا الموضع ان العـــلماء قســـموا البدع بأقسام احكام الشريعة الخمسة ، ولم يعدوها قسما واحدا مذموما فجعلوا منها ما هو واجب ومندوب ومباح ومكروه ومحرم ، وبسط ذلك القرافي بسطا شافيا ، واصل ما أتى به من ذلك شيخه عز الدين بن عبدالسلام ، وها أنا آتي به على نصه "[٢].

ثم نقل كلام الإمام القرافي ثم قال : " والجواب ان هذا التقسيم امر مخترع لا يدل عليه دليل شرعي بل هو في نفسه متدافع ، لأن مـــن حقيقة البدعة ان لايدل عليها دليل شرعي لا من نصوص الشرع ولا من قواعده ، إذ لو كان هنالك ما يدل من الشـــرع على وجوب او ندب او إباحة لما كان ثم بدعة ولكان العمل داخلا في عموم الأعمال المأمور بها او المخير فيها ، فالجمع بين عد تلك الأشياء بدعا وبين كون الأدلة تدل على وجوبها أو ندبها أو إباحتها جمع بين متنافيين ، أما المكروه منها والمحرم فمسلم من جهة كونها بدعا لا من جهة اخرى ، إذ لو دل دليل على منع أمر او كراهته لم يثبت ذلك كونه بدعة ، لإمكـــان أن يكون معصية ، كالقتل والسرقة وشرب الخمر ونحوها، فلا بدعة يتصور فيها ذلك التقسيم البتة ، إلا الكراهية والتحريم حسبما يذكر في بابه"[٣].

ثم بـــين الشاطبي ان هذا التقسيم غير صحيح ،والتمس للعز بن عبدالسلام عذرا في انه ذكر المصالح المرسلة عل انها بدع من جهة أنها لم تدخل اعيانها تحت النصوص المعينة وإن كانت تلائم قواعد الشرع ، ولكنه سماها بدعا في اللفظ، ثم قال الشاطبي :" امـــا القـــرافي فـــلا عذر له في نقل تلك الأقسام على غير مراد شيخه ، ولا على غير مراد الناس ، لأنه خالف الكل في ذلك التقسيم فصار مخالفا للإجماع "[٤] .

ورأى الإمام الشاطبي ـــ رحمه الله ـــ هو الذي ظهر لي رجحانه فالبدع كلها ضلالة ،وكلها مذمومة ليس فيها ما هو واجب أو مستحب اومندوب ،بل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "كل بدعة ضلالة ".

اما السيوطي ، فقد صنف رسالة بعنوان " الأمر بالإتباع والنهي عن الإبتداع "[٥].

أورد في مقدمـــتها عـــددا من الآيات وبعض الأحاديث والآثار التي تأمر وتحث على لزوم السنة ، وإحياء ما اندرس منها ، والتحذير من البدع والإنجرار إلى شئ منها[٦] .

ثم اردف ذلك بفصل في الحث على لزوم جماعة المسلمين ، وعدم التفرق والإختلاف في الدين ، وبين فيه ان الفرق المبتدعة كلها في النار إلا من كان على مثل ماكان عليه النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأصحابه ـــ رضي الله عنهم ـــ ، بعد ذلك عقد السيوطي فصلا في بيان خطر إتباع الهوى والإبتداع في الدين [٧] فبين فيه ـــ رحمه الله ـــ أن اتباع الهوى سبب للضلال عن طريق الهدى والرشاد كما قال جل وعلا : (ومن اضل من اتبع هواه بغير هدى من الله) [٨] وقال عز وجل : (... ولا

---

(١) انظر : على محفوظ : الإبداع في مضار الإبتداع (ص٣٠)

(٢) الشاطبي : الإعتصام (١/١٨٨)

(٣) الإعتصام : (١/١٩١-١٩٢)

(٤) المصدر السابق (١/١٩٢)

(٥) مطبوع بتحقيق ودراسة مصطفى عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية ـــ بيروت ، عندي الطبعة الأولى ١٤٠٨هـــ ـــ ١٩٨٨هـــ

(٦) انظر : رسالة الأمر بالإتباع (ص٧-١٤)

(٧) انظر : المصدر السابق (١٥-٢٣)

(٨) سورة القصص ، الآية (٥٠)

تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) [١] وقال — صلى الله عليه وسلم — " من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد " وفي رواية: "من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد"[٢].

وقال — ﷺ — :" من رغب عن سنتي فليس مني"[٣].

وقال — ﷺ — :"أنا فرطكم على الحوض ،وليختلجن [٤]رجال من دوني ،فأقول : يارب أصحابي ،فيقال : إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك [٥].

ثم اورد السيوطي بعد ذلك آثارا كثيرة تدور كلها على هذا المعنى في التحذير من البدعة وأهلها ، والبعد عنهم وعن مجالستهم اوتكليمهم ، مما يبين خطر هذا الأمر على الأمة عموما .

ثم سأل الله تعالى ان يرزقه الإتباع وإحياء السنن ، وأن يجنبه البدع والأهواء في السر والعلن ، ونحن نسال الله تعالى ذلك بمنه وكرمه .

---

(١) سورة ص ، بعض الآية (٢٦)

(٢) صحيح البخاري (٣/٢٤١)رقم (٢٦٩٧) ومسلم في صحيحه رقم (١٧١٨) واحمد في المسند(٦ / ٧٣ ، ٢٤٠ ، ٢٧٠) وأبو داود رقم (٤٦٠٦) وابن ماجة (١٤) وابن حبان (٢٦ ، ٢٧) .

(٣) صحيح البخاري قم (٥٠٦٣) الفتح (٩ /١٠٤) صحيح مسلم (٢/١٠٢٠) رقم (١٤٠١) ، والنسائي في سننه ، كتاب النكاح باب (٤) ، واحمد في المسند (٢/١٥٨)(٣ / ٢٤١، ٢٥٩) ،(٥/٤٠٩) والدرامي في سننه (٢/١٣٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/٧٧) وابن خزيمه في صحيحه (١٩٧) .

(٤) الخلج : هو المر السريع بحركة مضطربة .

(٥) صحيح البخاري (٨/١٤٨، ١٥٠)،(٩/٥٨) ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل ح رقم (٢٦،٢٥ ، ٣٢) ، واحمد في المسند (١ / ٢٥٧ ، ٣٨٤ ، ٤٠٦ ، ٤٢٥ ، ٤٣٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥) (٢/ ٤٠٨) ، (٤/ ٣١١ ، ٣٥١) ، (٥/ ٤١) .

المبحث الثاني

الفرق بين السنة والبدعة

يعقد السيوطي فصلا للتفريق بين السنة والبدعة فيقول : " اعلم رحمك الله تعالى أن السنة في اللغة: الطريق ، ولاريب في أن أهل النقل والأثر ،المتبعين آثار رسول الله ــ ﷺ ــ وآثار الصحابة هم أهل السنة لأنهم على تلك الطريق التي لم يحدث فيها حادث ، وإنما وقعت الحوادث والبدع بعد رسول الله ــ ﷺ ــ وأصحابه .

والبدعة : عبارة عن فعلة تصادم الشريعة بالمخالفة ، أو توجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان "[١].

وقد مضى معنا تعريف البدعة وأقوال العلماء فيها ، والسيوطي في تعريفه البدعة موافق لما نقلناه عن الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ وهو ــ أعني السيوطي ــ قد نقل كلام الشافعي ويتضح من ذلك انه يذهب الى التعريف الأول الموسع في مدلول البدعة ، ولذلك رأيته يقسمها إل حسنة ومذمومة ، وقد رجحت فيما سبق رأي الإمام الشاطبي في ان البدعة لم تذكر في كلام النبي ــ ﷺ ــ إلا مذمومة ، ولذلك فإن تقسيمها إلى حسنة وسيئة رأي مرجوح [٢]

امـا السنة فقد ذكر السيوطي تعريفها اللغوي و لم يذكر تعريفها الشرعي ، وإنما أعقب التعريف اللغوي ببيان من هم أهل السنة .

اما تعريف السنة في الشرع:

فهو يختلف باختلاف المباحث التي تناولتها ، والفنون التي اوردت تعريفها :

١- فالأصوليون : يطلقون السنة على ماصدر عن النبي ــ ﷺ ــ من قول أو فعل أو تقرير [٣]،وبعضهم يدخل فيها ما هم به الرسول ــ ﷺ ــ أو اشار إليه [٤] وإن لم يتواتر عند الجمهور [٥] ،ويخصون ذلك بغير القرآن الكريم ، وقد يدخل فيها بعضهم سنة الخلفاء الراشدين ــ رضي الله عنهم ــ ويدخل فيها بعضهم سنة الصحابة .

٢- والمحدثـون : يعرفونها بأنها : ما اضيف إلى النبي ــ ﷺ ــ من قول او فعل اوتقرير او صفة خلقية او خلقية ،وما يتصل بالرسالة من احواله الشريفة قبل البعثة ونحو ذلك [٦].

٣- وللفقهاء عدة تعريفات للسنة ، ارى اشملها واوضحها ما قاله : ابو الحسنات اللكنوي : " مافي فعله ثواب ، وفي تركه عتاب لاعقاب".

وقد احترز بقوله : " في تركه عتاب" عن الفعل الذي فعله ثواب وليس في تركه عتاب ولا عقاب .

وبقوله : "ولاعقاب " عن الفرض الواجب [٧] ، والمراد بالعتاب الملامة ونحوها وبالعقاب النار .

وفي مجال بحثنا هذا ــ تطلق السنة على مايقابل البدعة ، استنادا إلى المقابلة بينهما في عدة احاديث منها حديث العرباض بن سارية ــ رضي الله عنه ــ وفيه " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين " في مقابلة" وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ..."الحديث [٨].

---

(١)الأمر بالإتباع والنهي عن الإبتداع (٢٤)

(٢)انظر : المبحث السابق

(٣)عـبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري المشهور بحر العلوم : فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٩٧/٢) ،وانظر : د، مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (ص٤٧)

(٤)جمال الدين ابو محمد عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي : نهاية السول شرح منهاج الأصول (٦١٨/٣) ت ، محمد بخيت ،وانظر : فتح الباري (٣/ ١٧).

(٥)انظر : شرح الورقات بهامش تنقيح الفصول (ص١٠٤)

(٦)انظر :الشيخ محمد محمد ابو زهو : الحديث والمحدثون (ص١٠) ، قواعد التحديث (ص٣٥-٣٨) ،السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (ص٤٨).

(٧)ابو الحسنات محمد عبد العلي بن محمد عبد الحليم بن محمد امين اللكنوي تحفة الأخيار في احياء سنة سيد الأبرار (ص٩) ط: المصطفاني ــ الهند.

(٨)سبق تخريجه ، وقد صححه الترمذي (١٥٠/٤)

وحديث :"من احيا سنة من سنتي قد اميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل اجر من عمل بها من الناس ، ،لاينقص من اجور الناس شيئا ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لايرضاها الله ورسوله فإن عليه مثل اثم من عمل بها من الناس لاينقص من آثام الناس شـيئا[١]والشاهد منه قوله " من احيا سنة " "ومن ابتدع بدعة .." ونحو ذلك من الأحاديث ، فيقال فلان صاحب سنة إذا كـان عملـه دائمـا على وفق ما عمل النبي ـ ﷺ ـ سواء كان ذلك مما نص عليه الكتاب العزيز ، او كان مما ورد في الأحـاديث النبوية الصحيحة ، وفلان صاحب بدعة : إن كان على خلاف ذلك ، وعلى ذلك تشمل السنة كل ما تشتمل عليه الشريعة من قرآن وغيره مما ورد عنه ـ ﷺ ـ وقد تشمل ما استند إلى الشريعة عن طريق اقرته كاجتهاد صحيح.

يقول الشيخ خضر حسين :" وتطلق ـ أي السنة ـ على ما يقابل البدعة ،فيراد بها ماوافق القرآن او حديث النبي ـ ﷺ ـ من قول او فعل أو تقرير ،وسواء كانت دلالة القرآن أوالحديث علىطلب الفعل مباشرة أو بوسيلة القواعد المأخوذة منهما ، وينتظم في هذا السلك عمل الخلفاء الراشدين، والصحابة الأكرمين للثقة بأنهم لايعملون إلا على بينة من امر دينهم"[٢]

وعـلى هـذا يمكن ان يقال بما قاله الإمام ابن حزم ـ رحمه الله : " السنة هي الشريعة نفسها ،واقسامها في الشريعة فرض أوندب أو إباحة أوكراهة أو تحريم ، كل ذلك قد سنه الرسول ـ ﷺ ـ عن الله عز وجل"[٣]، وهذا تقسيم عجيب من ابي محمـد بن حزم ـ رحمه الله ـ فإنني ـ على حد علمي القاصر ـ لم أجد من قال إن هناك سنة مكروهة ، او سنة محرمة ،فـلم يسـتعمل لفـظ السنة على اطلاق إلا فيما هو ممدوح عملا واعتقادا ، فيقال : أهل السنة ، ولا يقال : اهل السنة المفروضة اوالمندوبة ، اوالمباحة ، ويقال ايضا ;هذا رجل صاحب سنة ، إذا كان ممدوح السيرة في القول والعمل والإعتقاد ، فهذا شئ.

والشئ الآخر انه على كلام ابن حزم ـ رحمه الله ـ يمكننا ان نقول ان الخوارج والشيعة والمعتزلة اهل سنة مكروهة أومحرمة ،وهذا لم يقله احد من الإئمة ـ على ما أعلم ـ بل يقال عنهم :اهل البدع والأهواء .

والشئ الثالث :ان المكروه والمحرم يدخل في باب المعاصي لا في باب السنن ولا في باب البدع .

والذي يظهر لي ـ والله تعالى اعلم ـ أن كلام ابن حزم لايستقيم في معنى السنة إلا في المعنى اللغوي العام الذي هو مطلق الطريقة ممدوحة كانت اومذمومة ، ونكون بذلك قد عدنا من حيث بدأنا ، و لم نجن من وراء تعريف ابن حزم ثمرة يستفاد منها .

ولكـنني اقول :أنه على ضوء ماسبق من كلام العلماء والأئمة يمكن استنباط معنى السنة بأنها : قول النبي ـ ﷺ ـ وفعله وتقريره وتركه.

وان التمسك بالسنة :هو متابعة النبي ـ ﷺ ـ في قوله وفعله وتقريره وتركه مالم يقم دليل على خصوصيته ـ ﷺ ـ بشئ من ذلك دون زيادة .

فقولـه ـ ﷺ ـ سنة ،سواء كان في الصلوات أو الأذكار أو الأدعية ونحوها ،ومتابعته فيها التمسك بنصها ولفظها من غير تعمد زيادة عليها فتعمد ا لزيادة على الأذكار والأدعية بأوراد يلتزمها العبد صباحا ومساءا يضاهي بها أدعية المصطفى ـ ﷺ ـ والمداومة عليها باعتبارها دين يقرب إلى الله تعالى، كما يفعل ذلك اصحاب الطرق الصوفية المختلفة فيؤلف شيخ الطريقة حـزبا او وردا من الأدعية المليئة بالغلو في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو الغلو في مشايخهم فهذه هي البدع ، وذلك لأنها زيادة على المشروع بغير دليل .

وفعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك ، فصلاته وصيامه، وحجه واعتماره واكله ،وشربه ، وركوبه ومشيه ،ووضوؤه وغسله ، ونحوذلك من الأفعال هي سنته وطريقته ،والتمسك بها من غير زيادة متعمدة هو متابعة السنة ، فمن تعمد الزيادة بقصد القربة على ماهو مشروع فقد اعتدى وابتدع .

---

(١) سنن ابن ماجه (٧٦/١)

(٢) رسائل الإصلاح (٨٣/٣ـ ٨٤) ط القدس (١٣٥٨هـ ـ ١٩٩٣ م) .

(٣) الإحكام في اصول الإحكام (٤٣/١).

وكذلـــك تـــركه — ﷺ — إذا تـــرك امرا فلم يفعله مع توفر الداعي وعدم المانع ، وذلك كتركه الإحتفال بمولده ،وتركه الإحتفال بليلة النصف من شعبان ، وتركه الإحتفال بالإسراء والمعراج في السابع والعشرين من شهر رجب، كل هذا تركه ســـنة لأنـــه — ﷺ — تـــركه مع توفر الداعي والمقتضي وهوتحصيل الثواب والقرب من الله عز وجل وزيادة الأجر ورفعة الدرجات ،و لم يوجد سبب مانع يمنع من ذلك ،فكان الترك هو السنة ،والفعل هوالبدعة ، ولا يقال : إنه — ﷺ — لم يفعل ذلك ولا الصحابة — رضي الله عنهم — لأنهم كانوا منشغلين بالدعوة والجهاد ، لايقال ذلك لأنه — ﷺ — واصحابه مع قيامهم بالدعوة والجهاد في سبيل الله على اتم واكمل وجه ،ومع ذلك كانوا يحتفلون بعيد الفطر ،وعيد الأضحى ويفرحون بمناسبتهما ويتوسعون فيهما بالخير والنفقات وغير ذلك من مظاهر الاحتفال في ذينك اليومين فدل ذلك على سنية الاحتفال بالعيدين ، وسنية ترك الاحتفال بما سواهما مما ذكرنا قبلهما.

أما الفعل والترك اللذين يظهر فيهما دليل على الخصوصية له — ﷺ — فإنهما ليسا بسنة في حق الأمة وذلك كصيام الوصال ، وجمعـــه بين اكثر من أربع زوجات وتركه أكل الضب مع إقراره خالد بن الوليد في أكله،وكذلك امتناعه عن أكل الثوم والبصل — ﷺ — وعلل ذلك بأنه يناجي الملائكة ، ونحو ذلك فهو خصوصية له — ﷺ — .

فإذا فعل العبد فعله ، وقال بقوله ،وترك ماترك ،من غير زيادة يضاهي بها الشرعية فهو المتبع للسنة .

المبحث الثالث

اقسام البدع عند السيوطي

تقدم معنا ان السيوطي يقسم البدعة إلى حسنة وقبيحة وبينا الراجح في هذا التقسيم .

ثم يقسم السيوطي البدع القبيحة إلى قسمين :

الأول: بدع في العقائد تؤدي إلى الضلال والخسران.

الثاني : بدع في الأفعال .

ثم يقـول السيوطي :" ولسنا نحن هنا بصدد بيانها — يعني القسم الأول — ولكن من لزم السنة والجماعة — ،واعرض عن اصول هذه البدع وفروعها كان في الفرقة الناجية بفضل الله تعالى "(١).

ثم يقسم السيوطي القسم الثاني إلى قسمين :

١- قسم تعرف العامة والخاصة أنه بدعة محدثة ، إما محرمة وإما مكروهة .

٢- وقسم يظنه معظمهم عبادات ، وقربات ، وطاعات(٢).

ثم يأخذ السيوطي في بيان كلا القسمين الأخيرين.

القسم الأول

ما يعرف العامة والخاصة أنه بدعة محدثة إما محرمة وإما مكروهة

١- النظر إلى النساء الأجانب والخلوة بهن وسماع كلامهن:

وذكـر السـيوطي ان هذا مما وقع فيه طائفة " من جهال العوام النابذين لشريعة الإسلام ، التاركين الإقتداء بأئمة الدين ، وهوما يفعله طائفة من المنتمين إلى الفقر،الذي حقيقته الافتقار من الإيمان من مؤاخاة النسوان الأجانب والخلوة بهن ، وهذا حرام بإتفاق المسلمين ، ومستحل هذا كافر ،وفاعله على طريق التهاون به عاص ،ضال ، مضل، مارق من الدين ، ومفارق لجماعة المسلمين ، أبعدالله فاعله ،فإن النظر إلى النساء الأجنبيات ،والخلوة بهن ،وسماع كلامهن ، حرام على كل بالغ ماخلا ذي الـرحم المحرم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وليس هذا موضع استقصاء الدليل عليه ،وإنما المراد تبيين البدع والتحذير منها ، وليس هذا يخفى على مسلم"(٣).

أمـا النظر إلى الأجنبيات ، والخلوة بهن فمتفق على تحريمه بين العلماء ، إلا ماكان نظرا من الرجل إلى امرأة بقصد خطبتها فالنظر هو رائد الشهوة ورسولها ، وحفظه أصل حفظ الفرج ، فمن اطلق نظره أورد نفسه موارد الهلاك ، ولا جرم امر ربنا جـل وعلا بغض البصر عن النظر إلى النساء الأجنبيات ، قال تعالى(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ذلـك أزكـى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون) (٤)فغض البصر وسيلة لحفظ الفرج ،كما أن اطلاق النظر وسيلة للوقوع في معصية الزنى.

ورد عن جابر بن عبدالله البجلي — ﷺ — أنه قال :سألت النبي — ﷺ — عن نظرة الفجاءة فأمرني بأن أصرف بصري(٥).

وقال — ﷺ — لعلي بن ابي طالب — ﷺ — "ياعلي لاتتبع النظرة النظرة ،فإنما لك الأولى وليست لك الثانية "(١)وقال — ﷺ — :" الـنظرة سهم مسموم من سهام ابليس "(٢) ، وقال — ﷺ — "..غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم "(٣)، وقال

---

(١) الأمر بالإتباع (ص٢٨)

(٢) المصدر السابق

(٣) الأمر بالإتباع (ص٢٩)

(٤) سورة النور ، الآية (٣٠)

(٥) صحيح مسلم (٣/١٦٩٩—١٧٠٠)ح رقم (٢١٥٩)

ايضا :" إياكم والجلوس على الطرقات " قالوا : يارسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله — ﷺ — " إن أبيستم فأعطوا الطريق حقه"، قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : "غض البصر ، وكف الأذى ،ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر "[٤].

فالنظر اصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فإن النظرة تولد الخطرة ، والخطرة تولد الفكرة ، والفكرة تولد الشهوة ثم تولد الشهوة إرادة ، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع مانع ،ولذلك كان الصبر على غض البصر ايسر من الصبر على ألم ما بعده قال القائل :

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة بلغت في قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر

يسر مقلته ماضر مهجته لامرحبا بسرور عاد بالضرر[٥]

والأحاديث والآثار كثيرة في الترهيب من النظر إلى النساء وهي بمجوعها تدل على تحريم النظر إليهن ،وأن فاعله آثم .

وأما الخلوة بالأجنبيات فهو كذلك من الأمور المنهي عنها كما قال السيوطي ، فقد ورد عن النبي — ﷺ — قوله :" إياكم والدخول على النساء " فقال رجل من الأنصار :أفرأيت الحمو[٦] قال :"الحمو الموت"[٧].

وقال — صلى الله عليه وسلم — أيضا :" لايخلون رجل بإمرأة إلا مع ذي محرم"[٨].

فهذه الأمور كما قال السيوطي" حرام بإتفاق المسلمين "[٩]، لكنه — رحمه الله تعالى — هول تهويلا شديدا في الحكم على مرتكب هذه الأفعال كما ذكرته عنه حيث قال :" وفاعله على طريق التهاون بها عاص ،ضال ، مضل ،مارق من الدين ،مفارق لجماعة المسلمين أبعد الله فاعله..."[١٠].

---

(١) اخرجه الترمذي رقم (٢٧٧٧) وابو داوود (٢١٤٩) واحمد في المسند (٣٥١/٥، ٣٥٣ ، ٣٥٧) والحاكم (١٩٤/٢)وصححه ،ووافقه الذهبي ، من طريق شريك عن أبي ربيعة عن أبي بريدة عن أبيه رفعه ، قال الترمذي " هذا حديث حسن غريب ، لانعرفه إلا من حديث شريك " ، وله شواهد من حديث على اخرجه الدارمي (٢٩٨/٢) من طريق محمد بن اسحاق عن محمد بن ابراهيم التيمي عن سلم بن أبي الطفيل عن علي .

(٢) اخرجه الحاكم (٣١٤/٤)والقضاعي في مسند الشهاب (١٩٥/١) من طريق محارب بن دثار عن صلة بن زفر عن حذيفة ، قال الحاكم : صحيح وتعقبه الذهبي بقوله :اسحاق بن.عبدالواحد واه ، وعبدالرحمن الواسطي ضعفوه ، وله شاهد من حديث ابن عمر اخرجه القضاعي (١٩٦/١) وعزاه الهيثمي في المجمع (٦٣/٨) للطبراني ، وقال فيه عبدالله بن اسحاق الواسطي ، وهو ضعيف وله شاهد من حديث ابن مسعود اخرجه الطبراني (١٠٣٦٢) من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابن مسعود.

(٣) اخرجه احمد في المسند (٣٢٣/٥) ، والحاكم (٣٥٨/٤-٣٥٩) من طريق عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبدالله عن عبادة بن الصامت بلفظ :" اضمنوا لي ستا من أنفسكم اضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ،وأوفوا إذا وعدتم ،وأدوا إذ ا ائتمنتم واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ،وكفوا أيديكم " قال الحاكم :صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي بقوله : فيه ارسال ، المطلب بن عبدالله لم يسمع من عبادة ، وعزاه الهيثمي في المجمع (٢١٨/٤) للطبراني وقال : ورجاله ثقات إلا ان المطلب لم يسمع من عبادة.

(٤) صحيح البخاري رقم (٦٢٢٩) الفتح (٨/١١) وصحيح مسلم (١٦٧٥/٣) ح رقم (٢١٢١) ،(١٧٠٤/٤) واحمد في المسند (٣٦/٣-٦١) من طريق زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار عن ابي سعيد الخدري — رضي الله عنه.

(٥) انظر : ابن ا لقيم : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي(ص٢٢٣ — ٢٢٤) ت: أبي حذيفة عبيدالله بن عالية — دار الكتاب العربي ط ٤/ ١٤١٥هـ — ١٩٩٢م.

(٦) الحمو : قريب الزوج كأخيه وابن اخيه وابن عمه

(٧) صحيح البخاري رقم (٥٢٣٢) الفتح (٣٣٠/٩) ، صحيح مسلم (١٧١١/٤) رقم (٢١٧٢)، والترمذي — كتاب الرضاع — ، باب (١٦) والدارمي — كتاب الإستئذان — ، باب (١٤) ، واحمد في المسند (٤ / ١٤٩ ، ١٥٣) ،(٣٣٩/٣).

(٨) صحيح البخاري رقم (٥٢٣٣) الفتح (٣٣٠/٩) ، صحيح مسلم (٩٧٨/٢) رقم (١٣٤١) ، واحمد (٢٢٢/١) ، (٣٣٩/٣).

(٩) الأمر بالإتباع (ص٢٩)

(١٠) المصدر السابق

فقولـه : ضال،مضـل ، مـارق من الدين ، مفارق لجماعة المسلمين ، ،أحكام شديدة لاتليق إلا بأصحاب البدع الكبار كـالخوارج والمعـتزلة ونحوهم ، أما الذي ينظر إلى النساء فهوبلاشك عاص وكان يكفيه ان يقول : هو عاص لله ، آثم ، مرتكب للحرام ،معرض نفسه للعقوبة إن لم يتب إلى الله ،ونحو ذلك ،وهذا ليس تهوينا من هذه المعصية ، وإنما ينبغي للعالم ان يكون منضبطا بضوابط الأحكام الشرعية ، ولا يلقى الأحكام جزافا.

٢- معاشرة الأحداث:

قـال السيوطي :" ومن ذلك معاشرة الأحداث ،وقد كان السلف يبالغون في الإعراض عن المرد[١] وصحبة الأحداث اقوى حبائل الشيطان"[٢] .

ثم نقل أقوالا عن جمع من السلف في التحذير من ذلك وكل مانقله من هذه الأقوال ذكره ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب "تلبيس ابليس"[٣]،وفي كتاب " ذم الهوى"..

ثم قال السيوطي :" واعلم ان كل من فاته العلم تخبط ، فإن حصل له العلم وفاته العمل كان أشد تخبطا ، ومن استعمل أدب الشـرع مـثل قوله تعالى :(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)[٤] فمتى غض بصره في البداية سلم مما يصعب عليه أمره في النهاية ، فقد ورد النهي عن مجالسة المردان ، وأوصى العلماء بذلك ،فلايغتر مغتر فيكون العطب عليه أسرع والهلاك أقرب من حاجبيه إلىعينيه"[٥].

٣- السماع والرقص والوجد:

يقول السيوطي :" وفاعل ذلك ساقط المروءة ،مردود الشهادة ، عاص لله ورسوله"[٦] .

ثم اورد السيوطي مجموعة من الأدلة تدل على ذم الغناء والتحذير منه ، فمن ذلك:

١- قولـه تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ..)[٧] وفسر ابن مسعود لهو الحديث بأنه الغناء[٨] وحلف على ذلك بقوله :" والله الذي لاإله إلا هو " ثلاث مرات ،وهو قول ابن عباس وعكرمة ، ومجاهد والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ،ومكحول ، وعمرو بن شعيب ،وعلي بن بذيمة[٩].

٢- وقوله تعالى :" أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ،وانتم سامدون) (١٠).

قال ابن عباس :"الغناء "[١١].

---

(١) المـرد : نقـاء الخدين من الشعر ، ونقاء الغصن من الوق ،والأمرد :الشاب الذي بلغ خروج لحيته وطر شاربه و لم تبد لحيته ، والمرد جمع ،لسان العرب (٤٠١/٣)

(٢) الأمر بالإتباع (ص٢٩)

(٣) انظر : (ص ٢٦٤ ـ ٢٧٧) ، وانظر : ابن القيم : إغاثة اللهفان (١٢٦/٢ ، ١٤٣ ، ١٤٨)

(٤) سورة النور ، بعض الآية (٣٠)

(٥) الأمر بالإتباع (ص٣١)

(٦) الأمر بالإتباع (ص٣٢)

(٧) سورة لقمان ، بعض الآية (٦)

(٨) انظـر: ابن جرير : جامع البيان (٦١/١١) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٣٣/٦-٣٣٤) والسيوطي : الدر المنثور (٥٠٤/٦ـ ٥٠٦) ، وهـذا أحد الأقوال في تفسير الآية ، قال ابن جرير: "وأما الحديث فإن أهل التأويل اختلفوا فيه ، فقال بعضهم ، :هوالغناء والاستماع له .. وقال آخـرون : عـني بالـلهو الطبل.. وقال آخرون:عني بلهوا الحديث : الشرك .. والصواب من القول في ذلك أن يقال : عني به كل ما كان من الحديـث ملهيا عن سبيل الله ، مما نهى الله عن استماعه أورسوله ، لأن الله تعالى عم بقوله :" لهو الحديث" و لم يخص بعضا دون بعض فذلك على عمومه حتى يأتي مايدل على خصوصه،والغناء والشرك من ذلك".

(٩) انظر :تفسير ابن كثير (٣٣٤/٦).

(١٠) سورة النجم الآيات (٥٩/ ٦١)

(١١) تفسير ابن جرير (٨٢/٢٧)

وقال مجاهد : " يقول أهل اليمن : سمد فلان إذا غنى"[١].

وقـد فسر السمود أيضا باللهو، وفسر السمود في الناس : بالغفلة والسهو ، قال ابن الأعرابي :"السامد : اللاهي ، والسامد :القائم ، والسامد : المتحير بطرا وأشرا ، والسامد :الغبي[٢]وقال ابن الأثير :" السامد : المنتصب إذا كان رافعا رأسه ناصبا صدره .. وسمد سمودا : رفع رأسه تكبرا، وكل رافع رأسه فهو سامد"[٣].

فالسمود يجمع هذه المعاني ، ومن معانيه الغناء ،والغناء يدخل في اللهو واللغو ،والسهو والغفلة .

٣- وقوله تعالى: (واستفزز من استطعت منهم بصوتك ..)[٤].

قال مجاهد :" هوالغناء والمزامير "[٥] وهو قول الحسن البصري — رحمه الله —[٦]

وهذه الأدلة التي ذكرها السيوطي وغيرها تدل على قبح الغناء وذمه ، والعلماء إزاء هذه الأدلة على ثلاثة أقوال في الغناء.

١- منهم من حرمه .

٢- منهم من أباحه من غير كراهة.

٣- ومنهم من كرهه مع الإباحة .

حكى هذه الأقوال الثلاثة الإمام ابو الفرج ابن الجوزي في "تلبيس ابليس"[٧]

وذهب ابن القيم رحمه الله تعالى إلى تحريمه[٨] ،وصرح السيوطي بتحريمه لكن قيده بأوصاف إذا تحققت فيه كان محرما كما قـال — رحمـه الله — فقد قال:" واعلم وفقك الله لطاعته أن الأشعار التي ينشدها المغنون اليوم يصفون فها المستحسنات والخمر ، والقد والعين وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ، ويثير كامنها من حيث اللهو وهو حرام"[٩].

لكن قوله " يصفون فيها المستحسنات " ليس قيدا أو شرطا يكون سببا في التحريم ،بمجرده ، فوصف المستحسنات مما خلقه الله تعالى في الطبيعة من الخضرة والشمس والنسائم العليلة أوقات السحر ، ، والنعم التي امتن الله تعالى بها على عباده من المياه العذبة والفواكه والدواب كالظباء والقطا ونحو ذلك ليس فيه مايدعو إلى التحريم لمجرد كونها من المستحسنات إلا إذا كان قصـد السيوطي لهذه المستحسنات ، المستحسنات من أوصاف النساء والفتيات والغانيات ، ووصف أعضائهن ،بما يثير الشهوة ويحرك الغرائز ،ويجريء العامة على الفاحشة.

كقول من قال :

لم تبق زاوية بجسم جميـــــلة إلا وقد مرت به عربـــاتي

لم يبق نهد أبيض أو احـــــمر إلا وقد زرعت به رايـــاتي

---

[١] انظر لسان العرب :"(٢/٢١٩) ، وابن جرير (٢٧/٨٢) ،وتفسير ابن كثير (٧/٤٤٣) ، والدر المنثور (٢٧/٦٦٧)

[٢] لسان العرب (٣/٢١٩) ،

[٣] لسان العرب (٣/٢١٩)

[٤] سور الإسراء، بعض الآية (٦٤)

[٥] الأمـــر بالإتباع (٣٢) ، وتفسير ابن جرير (١٥/١١٨) ، وتفسير ابن كثير (٥/٩١) ، وانظر ابن القيم : إغاثة اللهفان (١/٢٥٥— ٢٥٦) ،وابن الجوزي "تلبيس إبليس " (ص٢٢٨)، (ص٢٣٢) ، الدر المنثور(١٥/٣١٢) قال ابن جرير :" اختلف أهل التأويل في الصوت الذي عناه جل ثناؤه بقوله : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) فقال بعضهم :عنى به صوت الغناء واللعب .. وقال آخرون : عنى به (واستفزز من استطعت منهم) بدعـــائك إيـــاه إلى طاعـــتك ومعصية الله .. وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : إن الله تبارك وتعالى قال لإبليس : واستفزز من ذرية آدم من اســـتطعت أن تســـتفزه بصوتك ، ولم يخصص صوتا دون صوت فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته وخلافا للدعاء إلى طاعة الله فهو داخل في معنى صوته" ، تفسير ابن جرير (١٥/١١٨)

[٦] انظر :ابن القيم :اغاثة اللهفان (١/٢٥٦)

[٧] انظر : (ص٢٢٣).

[٨] انظر : إغاثة اللهفان (١/٢٢٤-٢٦٨)

[٩] الأمر بالإتباع (ص ٣٣)

فصلت من جسد النساء عباءة   وبنيت اهراما من الحلمات [١]

فهذا قول خبيث يوحي للعامة وأشباه العامة — ممن لم يؤته الله تعالى حظا من العلم الشرعي الذي يعضده تقوى الله تعالى والخشية من عقابه — يوحي لهؤلاء بالجرأة على محارم الله تعالى سيما إن كان قائله من الذين نالوا حظا من الشهرة بين أوساط العامة والمثقفين ، واصبح يشار إليه بالبنان وتنشر أشعاره الساقطة في بعض المطبوعات السيارة.

وكقول القائل :

فأشهد عند الله أني أحبها   فهذا لها عندي فما عندها ليا

أعد الليالي ليلة بعد ليلة   وقد عشت دهرا لاأعد اللياليا

أراني إذا صليت يممت نحوها   بوجهي وإن كان المصلي ورائيا[٢]

فهذا في غاية السفه والضلال،وإن وقع مثله في الغناء فهو حرام قطعا لأنه جعل قبلته معشوقته.

ومثله كذلك من جعل مكان محبوبته كعبة يطوف حولها في قوله السمج:

هذه الكعبة كنا طائفيها   والمصلين صباحا ومساء

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها   كيف بالله رجعنا غرباء[٣]

فهذا ساجد وعابد لغير الله جل وعلا ، وإن كان يعتذرعنه بأنه لايقصد الإشراك بالله ، ولكنه قبيح المعنى سئ اللفظ.

وكقول القائل:

فلما أن خلا المغني وبتنا   عراة بالعفاف مؤزرين

قضينا الحج ضماواستلاما   ولم نشعر بما في المشعرين[٤]

فانظر إلى جرأته على ارتكاب الحرام وتزيينه لغيره ، واقتراف الإثم في المشاعر المقدسة.

فهذا ونحوه من الأشعار والغناء يشتمل على حكاية الفسق والمجون والخلوة بالمحرمات والفواحش ، مع مايضاف إليه من مدح الخمر والسكر والخلاعة لاشك في تحريمه ،وتشتد حرمته إذا غناه امرأة او مخنث.

أما ذكر المحاسن الخلقية التي تدعوا إلى التعفف والتصون ،والخوف من الله تعالى فليس بمنكر ولا محرم ، فقد أنشد كعب بن زهير قصيدته المشهورة" بانت سعاد"بين يدي النبي — صلى عليه وسلم — وكان مطلعها غزل ووقوف على الأطلال ،ولم ينكر عليه رسول الله — ﷺ — وكان في مطلع القصيدة ذكر لمحاسن المحبوبة ووصف لها ولكن بما ليس فيه إسفاف ولا خدش للحياء والعفاف . قال كعب بن زهير — رضي الله عنه — :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

وماسعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول

هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة   لايشتكي قصر منها ولا طول

تجلوا عوارض ذي ظلم إذا   ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

فهذا وصف كعب بن زهير — ﷺ — لمحبوبته ، وقيل زوجته سعاد وابنة عمه ، خصها بالذكر لطول غيبته عنها لهروبه من النبي — ﷺ — بعد ما أهدر النبي — ﷺ — دمه يوم الفتح الأعظم[٥]

ومن ذلك ايضا قول القائل :

---

(١) هو من شعر " نزار قباني" نقلا عن : حقائق وأكاذيب في حياة المرأة المسلمة (ص ٢٦) لمؤلفته : الزهراء فاطمة بنت عبدالله — مكتبة السنة ط٣/ ١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م القاهرة

(٢) من قصيدة المؤنسة لقيس بن الملوح :أنظر أبو الفرج الأصفهاني : مجنون بني عامر أخباره وشعره ، مكتبة صادر بيروت ص ١٠٢ — ١٠٣.

(٣) من ديوان ابراهيم ناجي (ص١٣) دا رالعودة — بيروت ١٩٨٨م .

(٤) من قصيدة لصفي الدين الحلي ، انظر ديوانه (ص٣٩٣) دار صادر — بيروت.

(٥) خبر كعب بن زهير وقصيدته في سيرة ابن هشام (٢/٥٠٢-٥١٥)وفي زاد المعاد لابن القيم (٣/٤٥٧).

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا　　وطاب عن طيب لقيانا تجافينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهمو　　حزنا مع الدهر لايبلى ويبلينا
إن الزمان الذي مازال يضحكنا　　أنسا بقربهمو قد عاد يبكينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا　　شوقا إليكم ولاجفت مآقينا
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم　　في موقف الحشر نلقاكم ويكفينا[١]

فنحو هذا كيف يقال إنه داخل ضمن المحرمات؟

قال ابو الفرج ابن الجوزي — رحمه الله — بعدما حكى مذاهب الناس في الغناء : "وفصل الخطاب أن نقول ينبغي أن ينظر في ماهية الشئ ثم نطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك ،والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات،فإن أقواما من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات أشعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وربما ضربوا مع إنشادهم بطبل فسماع تلك الأشعار مباح وليس إنشادهم إياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ،وفي معنى هؤلاء الغزاة فإنهم ينشدون أشعارا يحرضون بها على الغزو ، وفي معنى هذا إنشاد المبارزين للقتال .. وفي معنى هذا أشعار الحداة .. وقد روينا عن الشافعي — رحمه الله — أنه قال : أما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلابأس به .. ومن ذلك أشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين تزعج القلوب إلى ذكر الآخرة كقول بعضهم :

ياغاديا في غفلة ورائحا　　إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لاتخاف موقفا　　يستنطق الله به الجوارحا
ياعجبا منك وأنت مبصر　　كيف تجنبت الطريق الواضحا[٢]

ثم نقل ابن الجوزي بعد ذلك أقوال أئمة المذاهب في الغناء ، و لم اجد فيما نقله رحمه الله من صرح بتحريم الغناء ،وإنما أقوالهم تدور حول الكراهة والنهي عنه ،وزجر فاعله ونحو ذلك .

١- أما أبو حنيفة فكان يكره الغناء[٣]، وكذلك ابراهيم والشعبي وحماد وسفيان الثوري وغيرهم ،ولايعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهة ذلك والمنع منه إلا ماروى عن عبيدالله بن الحسن العنبري أنه كان لايرى به بأسا[٤].

٢- وأما مالك فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه ، وهومذهب سائر أهل المدينة إلا ابراهيم بن سعد وحده فإنه كان لايرى به بأسا .[٥]

٣- وأما الشافعي : فقال :الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ،ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته[٦].

٤- و احمد : فروى عنه ابنه عبدالله انه قال : الغناء ينبت النفاق في القلب ،لايعجبني ،وسئل عن استماع القصائد فقال : أكرهه ، هوبدعة ، فقيل له إنه يرقق القلب ، فقال هوبدعة ، وقال المروزي :سألت أبا عبدالله عن القصائد ، فقال : بدعة ، فقلت له : إنهم يهجرون ؟ فقال :لايبلغ بهم هذا كله [٧] أي لايصل الأمر إلى حد هجرانهم بسبب ذلك.

ثم يقول ابن الجوزي :" فهذه الروايات كلها دليل كراهية الغناء"[٨].

---

[١] من قصيدة لإبن زيدون الأندلسي ، المتوفى (٤٦٣هـ) انظر ديوانه (ص١١) ت : كرم البستاني ، دار صادر بيروت ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م.
[٢] تلبيس إبليس (ص ٢٢٢-٢٢٦)
[٣] نفسه (ص٢٢٩) ، وانظر الأمر بالإتباع (ص٣٥)
[٤] تلبيس إبليس (ص ٢٢٩)
[٥] نفسه ،وانظر : الأمر بالإتباع (ص٣٥)
[٦] تلبيس إبليس (ص٣٣٠) وانظر : الأمر بالإتباع (ص٣٥)
[٧] تلبيس إبليس (ص٢٢٨)، الأمر بالإتباع (ص٣٤)
[٨] نفسه.

ففي هذه الأقوال كلها من أئمة المذاهب الأربعة الحكم عليه بالكراهة لا بالتحريم ، إلا أن الأمر كما قلت سابقا : إن الغناء إذا كـــان مما يدعو إلى الفاحشة والمجون ، أويزين شرب الخمور والسكر ، فهو حرام ، ويشتد تحريمه إذا كان بصوت امرأة فاتنة الصوت ، أو بصوت مخنث يدعو للفتنة .

٥- التبرك بمواضع مخصوصة والنذر لها ، والدعاء عندها:

قال السيوطي :" ومن البدع ما قد عم الابتلاء به تزيين الشيطان للعامة ، تخليق الحيطان والعمد بالزعفران المجبول بماء الورد ، وإســـراج مواضع مخصوصة في كل بلد بما ليس عليهم فيفعلون ذلك ويظنون أنهم متقربون بذلك ثم يتجاوزون بذلك إلى تعظيم تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء وقضاء الحوائج بالنذر لها ، وتلك الأماكن من بين عيون وشجر وحائط ،وطاقة وعامود[(١)]

" وأقبح من ذلك أن ينذر لتلك البقعة دهنا لتنويرها أو شمعا ويقول : إنها تقبل النذر ـــ كما يقول بعض الضالين ، أوينذر ذلك لقبر أي قبر كان ، فإن هذا نذر معصية باتفاق العلماء لايجوز الوفاء به "[(٢)]

وهذا الذي ذكره السيوطي من البدع المنكرة التي انتشرت في كثير من بلاد المسلمين ، وكلها بدع محرمة ،وهي ذريعة إلى الشـــرك الأكـــبر بسبب تعلق بعض الناس بغير الله عز وجل ، بالتماس البركة منها والدعاء عندها حتى يصل بهم الحال إلى وقوعهم في الشرك الأكبر بدعاء غير الله والتضرع إليه ، وتقديم الذبائح والقرابين ونحو ذلك من الأعمال الشركية التي تقدح في عقيدة هؤلاء .

قـــال الســـيوطي :" وما أشبه ذلك بذات أنواط"[(٣)]وصدق ـــ رحمه الله ـــ و"أنواط"جمع نوط وهومصدر سمي به المنوط ، و"ذات أنواط" شجرة خضراء عظيمة لقريش ، وقيل شجرة سدر كانوا يأتونها كل سنة ، فيعلقون عليها أسلحتهم ويعلفون عندها دوابهم ، ويذبحون لها ، فهذا ـــ كما قال السيوطي ـــ شبيه بعبادة الأوثان ،وهوذريعة إليها ، وقد وردت قصة ذات أنواط في حديث أبي واقد الليثي ـــ ﷺ ـــ قال : خرجنا من مكة مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى حنين ، قال :وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ،قال : فقلنا:يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال :قلتم ،والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: (اجعل لنا إلها كمـــا لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون)[(٤)]، إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم "[(٥)].

فقـــد اخبر النبي ـــ ﷺ ـــ ان هذا الأمر الذي طلبوه منه وهو اتخاذ شجرة يعلقون بها اسلحتهم تبركا ،كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى ـــ عليه السلام ـــ حيث قالوا: (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة عليها ، والعكـــوف عندها اتخاذ إله مع الله ـــ جل وعلا ـــ مع انهم لايعبدونها، ولا يسألونها ، فمالظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات ، والإستغاثة بهم والذبح والنذر لهم ،والطواف بقبورهم ،وتقبيلها ،وتقبيل أعتابها وجدرانها والتمسح بها ، والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب لها ؟وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركا؟.

---

(١) الأمر بالإتباع (ص٣٦,٣٧)

(٢) الأمر بالإتباع (ص ٣٦,٣٧)

(٣) السابق

(٤) سورة الأعراف ، بعض الآية(١٣٨) ، الآية (١٣٩)

(٥) حديـــث صـــحيح رواه ابـــن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٤/٨٥-٨٤) والشافعي في بدائع المنن (ص٢٣) وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٧٦٣) والحميـــدي (٨٤٨) والطيالسي (١٣٤٦) واحمد (٢١٨/٥) والترمذي (٢١٨٠) وقال حسن صحيح ،وابن أبي عاصم في " السنة " (٧٦) وابن جرير (٤٥/٩) ،وابن حبان (١٨٣٥) والطبراني في الكبير (٣٢٩٤،٣٢٩٠) ،والبغوي في تفسيره ـــ هامش الخازن (٢٨٠/٢، ٢٨١) والبيهقي في المعرفة (١٠٨/١) عن أبي واقد الليثي بسند صحيح رجاله رجال الشيخين

قـال الإمـام أبـو بكـر الطرطوشي من أئمة المالكية :" فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أوشجرة يقصدها الناس ،ويعظمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها"[(١)].

وقـال أبـو شامة — من علماء الشافعية — :" ومن هذا القسم أيضا ماقد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد ، وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكى له حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه ويظنون أنهم متقربون بذلك".[(٢)]

وقـد يُحكـى عن هذه الأماكن قصص خيالية وأساطير ، يتخيلها بعض المهوسين أويروجها الشياطين على ألسنة بعض الجاهلين كأن يقال :إن رجلا دعا عندها فاستجيب له ،أونذر لهافقضت حاجته ،أو أنه رأى في منامه أحد الصالحين يقول له هذا مكان به سر، ونحو ذلك وتنسج حولها الأقاويل وتقص الأقاصيص ،ويزاد في الحكايات على ما اخترعها عليه صاحبها ، فيتلقفها غيره فينمقها ويحسنها ويضيف إليها شيئا من العبارات المؤثرة ،أو الأشعار حتى تعظم تلك البقاع في أعين الجهال فيعظمونها ويتمسحوا بها ويرتكبوا عندها المنكرات الشركية .

هـذه الأمكنة والبقاع كثيرة موجودة في أكثر البلاد ،وكما يقول السيوطي فهي بقاع لاينبغي أن يعتقد لها خصيصة كائنة ماكانت " فإن تعظيم مكان لم يعظمه الله شر مكان ،وهذه المشاهد الباطلة ، إنما وضعت مضاهاة لبيوت الله ،وتعظيما لما لم يعظمـه الله ،وعكفوا على أشياء لم تنفع و لم تضر ، وصدا للخلق عن سبيل الله ، وهي عبادته وحده لاشريك له بما شرعه علىلسان رسول الله — ﷺ — ، واتخاذه عيدا هو الاجتماع عندها ، واعتياد قصدها ، فإن العيد من المعاودة"[(٣)].

اما إجابة الدعاء عند هذه الأماكن فقد يكون سببه اضطرار الداعي ، وقد يكون سببه أمرا قضاه الله تعالى لا لأجل الدعاء ، وقـد يكـون سببه مجرد رحمة الله تعالى، وقد يكون له أسباب أخرى ،وإن كانت فتنة في حق الداعي ، وقد كان الكفار يدعون فيستجاب لهم ، فيسقون وينصرون ويعافون مع دعائهم عند اوثانهم ، وتوسلهم بها فتنة لهم ، وقد تنطق الشياطين من داخل هذه الأوثان فترد على عابديها فتنة لهم أيضا.

قال تعالى : (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ،وماكان عطاء ربك محظورا)[(٤)].

٦- بدع القبور :

ذكـر السيوطي أن كثيرا من الناس قد ارتكبوا مجموعة من البدع والمحدثات المتعلقة بالقبور، منها :الصلاة عندها ،واتخاذها مساجد ،وبناء المساجد عليها.

وقال السيوطي:" وقد تواترت النصوص عن النبي — ﷺ — بالنهي عن ذلك ،والتغليظ على فاعله"[(٥)].

ثم أورد السيوطي مجموعة من الأحاديث التي تؤيد ماذهب إليه وهي نفس الأدلة التي يستدل بها علماء أهل السنة على تحذير الأمة من اتخاذ القبورمساجد أوالصلاة إليها أو عليها ، او البناء فوقها،من ذلك:

١- قوله — صلى الله عليه وسلم — :" لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج"[(٦)]

---

(١) الأمر بالإتباع (ص٣٣) ، وانظر : تيسير العزيز الحميد (ص١٨٣).

(٢) الأمر بالاتباع (٣٦) ، وانظر تيسير العزيز الحميد (ص١٨٣) .

(٣) الأمر بالإتباع (ص٣٩)

(٤) سورة الإسراء ، الآية (٢٠)

(٥) الإمر بالإتباع (ص٤٢)

(٦) اخـرجه الترمذي(٢/١٥٦تحفة) وابن ماجه (١/٤٧٨) ،وابن حبان (٧٨٩) والبيهقي (٤/٧٨) والطيالسي (١/١٧١ترتيبه) واحمد(٢/٣٣٧) وابن عدي في الكامل (٥/١٦٩٨) ، (٦/٢٤٣٥) ، (٧/٢٥٨٦) وقال الترمذي :" حديث حسن صحيح" وإسناد هذا الحديث رجاله ثقات كلهم غير أن في عمـر بـن أبي سلمة كلاما لعل حديثه لايترل به عن مرتبة الحسن ، لكن حديثه صحيح لما له من شواهد ، انظر : الألباني : احكام الجنائز وبدعها(ص١٨٥) وانظر السيوطي : الأمر بالإتباع (ص ٤٢) .

وإذا كان النهي قد ورد عن النبي — ﷺ — عن اتخاذ المساجد على القبور ، فكذلك ورد النهي عن ايقاد المصابيح كالسرج والشمع والقناديل في هذه المشاهد ، بلا خلاف للنهي الوارد في ذلك[١] وقد سبق في الأحاديث الماضية.

والصلاة عند القبور لاتجوز وإن لم ين عليها مسجد فإن كل موضع يصلي فيه فهو مسجد وإن لم يكن هناك بناء.

٢- لقوله — صلى الله عليه وسلم — : "لاتجلسوا على القبور ولاتصلوا عليها"[٢]

٣- ولقوله — صلى الله عليه وسلم — :" اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولاتتخذوها قبورا"[٣] فدل هذا على ان القبور لايصلي فيها.

قال السيوطي:" واعلم من الفقهاء من اعتقد ان سبب الكراهة في الصلاة في المقبرة، ليس إلا لكونها مظنة النجاسة ، ونجاسة الأرض مانع من الصلاة عليها ، سواء كانت مقبرة أو لم تكن، وليس ذلك كل المقصود بالنهي ، وإنما المقصود الأكبر بالنهي إنما هومظنة اتخاذها أوثانا"[٤].

٦ — مشابهة الكفار وموافقتهم في اعيادهم ومواسمهم:

يقول السيوطي :" ومن البدع والمنكرات مشابهة الكفار وموافقتهم في اعيادهم ومواسمهم الملعونة كما يفعل كثير من جهلة المسلمين في مشاركة النصارى وموافقتهم فيما يفعلونه [٥]".

ثم ذكر السيوطي مجموعة من البدع والمنكرات التي يفعلها بعض جهال المسلمين موافقة منهم للنصارى في بدعهم فمن ذلك:

١- طائفة تجعل على أبواب بيوتهم ودورهم صور الحيات والعقارب والصلبان يزعمون أنها تطرد الهوام عنهم ،يقول السيوطي:" وإنما تطرد الملائكة" [٦]فقد صح عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :" لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولاصورة."[٧] .

٢- ومن ذلك خميس البيض، ويسميه البعض الكبير ، وسمي بخميس البيض لأن الناس فيه يلونون البيض بألوان مختلفة يلعب به الصبيان فترة ثم يأكلونه ،وهم بهذه المثابة يعتبرونه عيدا للفرح والبهجة ، يقول الشيخ على محفوظ — رحمه الله — :" فانظر مايقع من ا لناس اليوم من العناية بأعيادهم وعاداتهم — يقصد اعياد اليهود والنصارى — فهم يتركون أعمالهم من الصناعات والتجارات والإشتغال بالعلم في تلك المواسم ويتخذونها أيام فرح وراحة يوسعون فيها على أهليهم ، ويلبسون أجمل الثياب ،ويصنعون فيها البيض لأولادهم ، كما يصنع أهل الكتاب من اليهود والنصارى "[٨].

---

(١) المصدر السابق

(٢) صحيح مسلم — كتاب الجنائز ح رقم (٩٨,٩٧) وابو داوود في سننه — كتاب الجنائز ، باب : (٧٣) والترمذي — كتاب الجنائز — باب (٥٧) والنسائي في سننه ، باب (١١) عن القبلة.

(٣) صحيح البخاري (٤٤١,١١٨/١) ، (٧٦/٢) ، وصحيح مسلم ، صلاة المسافرين (٧٧٧) انظر الفتح (٥٢٩/١)

(٤) الأمر بالإتباع (ص٤٥)

(٥) الإمر بالإتباع(ص٤٥)

(٦) الأمر بالإتباع (ص٤٥)

(٧) صحيح البخاري — رقم (٤٠٠٢) الفتح (٣١٥/٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب اللباس ، باب (٢٦) رقم (٨٧,٨٦,٨٤,٨٣) والنسائي في سننه (١٨٥/٧) ،(٢١٢/٨) واحمد في المسند (٢٨/٤) ،وابن ابي شيبة في مصنفه (٤١٠/٥) ، (٢٩٠/٨) ، والطبراني في الكبير(١٤٤/٤) (٩٥/٥-٩٦).

(٨) الإبداع في مضار الإبتداع (ص٢٧٥) ،وانظر رسالة الأمر بالإتباع (ص٤٩)

وهذا من اتباع المسلمين سنن اليهود والنصارى الذي اخبر به النبي — صلى الله عليه وسلم — بقوله :" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قلنا :يارسول الله ،اليهود والنصارى؟ قال : فمن ؟"[١].

٣- ومن ذلك " مايفعله النساء من اخذ ورق الزيتون والإغتسال بمائه ، أو قصد الإغتسال في الحمام في يوم السبت الذي يسمونه "سبت النور"، أو الإنغماس في ماء فإن أصل ذلك ماء المعمودية"[٢]يقول السيوطي : "كل ذلك منكر وبدعة وهو شعار النصارى "[٣].

وعلى العموم فكل عادة أو عيد من أعياد النصارى أو اليهود أو غيرهم من ملل الكفر ، او مناسبة تخصهم ، او احتفال يفعلونه يحرم على كل مسلم مشاركتهم فيه ، لأن أديانهم باطلة ، وأعمالهم في ضلال وتباب ، ومشاركة المسلم لهم في باطلهم اقرار منه لهذا الباطل ، ورضي بالمنكر ، ومخالفة لأمر الرسول — ﷺ — بمخالفتهم فمشاركتهم مشابهة لهم في ظاهرأعمالهم ، وهذا التشابه في الظاهر قد يورث محبتهم في الباطن ، ومحب الكافرين والضالين والمغضوب عليهم على خطر عظيم ، فقد قال النبي — صلى الله عليه وسلم — :" المرء مع من أحب"[٤].

لذلك يقول السيوطي :" فموافقتهم في أعيادهم من أسباب سخط الله تعالى لأنه إما محدث ، وإما منسوخ ، والمسلم لايقر على واحد منهما ، وكما لايحل التشبه بهم في أعيادهم فلا يعان المسلم المتشبه بهم في ذلك ، بل ينهى عنه ، كما لايحل بيع العنب لمن يعصرها خمرا...واعلم أن مخالفتهم امر مقصود للشارع ، لأن الكفر بمنزلة مرض القلب وأشد، ومتى كان القلب مريضا لم يصح من الأعضاء شئ ، وإنما الصلاح أن لايشبه القلب في شئ من أمور الكافر لأنها كلها إما فاسدة أو ناقصة"[٥].

ولقد مدح الله تعالى من لم يشهد أعياد هؤلاء الكافرين فقال جل وعلا : (والذين لايشهدون الزور ....) [٦]قال أبو العالية ، وطاوس ومحمد بن سيرين ، والضحاك ،والربيع بن أنس ،ومجاهد : هي أعياد المشركين [٧]

ونقله القرطبي عن ابن عباس —رضي الله عنهما — [٨]

وقال ابن سيرين : هو الشعانين [٩] يؤيد هذا ماثبت عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال "...من تشبه بقوم فهو منهم" [١٠]

---

(١) صحيح البخاري — رقم (٧٣٢٠) ، الفتح (١٣/٣٠٠) ، صحيح مسلم كتاب العلم رقم (٦) ، أحمد في المسند (٣/٩٤,٨٩,٨٤)

(٢) الإمر بالاتباع (ص٤٩) والمعمودية :أحد الطقوس الخاصة بالنصارى

(٣) الأمر بالاتباع (ص٤٩)

(٤) صحيح البخاري — رقم (٦١٦٨) الفتح (١٠/٥٥٧) ، ورقم (٦١٦٩) ،(٦١٧٠) أيضا ومسلم في صحيحه ،كتاب البر ، رقم (١٦٥) والترمذي — كتاب الزهد ، باب (٥٠) ، كتاب الدعوات ، باب (٩٨) والدارمي — كتاب الرقاق ، باب (٧١) ،واحمد (١/٣٩٢) ،(٣/١٠٤,١١٠,١٥٩,١٦٥,١٦٧)

(٥) الأمر بالإتباع (ص٥٢)

(٦) سورة الفرقان ، بعض الآية (٧٢)

(٧) انظر : الأمر بالاتباع (٥٣) تفسر ابن كثير (٦/١٤٠) ، والأثر اخرجه ابو بكر الخلال في "جامعة " وأبو الشيخ في " شروط اهل الذمة " قال ابن تيمية في" منظار اقتضاء الصراط المستقيم) (ص١٨١).

(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٣/٥٤) ، والأثر أخرجه ابو بكر الخلال في " جامعة " كما في اقتضاء الصراط المستقيم ص(١٨١)

(٩) انظر :السيوطي : الأمر بالاتباع (ص٥٣) والشعانين : أحد أعياد النصارى .

(١٠) اخرجه احمد في المسند (٢/٥٠,٩٢) وسنده حسن ، وجود اسناده ابن تيمية في " اقتضاء الصراط المستقيم " (٣٩) وصححه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء ، وحسنه ابن حجر في الفتح (٦/٩٨) وانظر (١٠/٢٧٤) وابو داوود رقم (٤٠٣١) وعلق البخاري طرفا منه في صحيحه (٦/٩٨ الفتح) وله شاهد مرسل حسن الإسناد ، اخرجه ابن ابي شيبة من طريق الأوزاعي ، عن سعيد بن جبلة عن النبي صلى الله عليه وسلم (المصنف ٥ /٢١٣,٣٢٢) واورده الهيثمي في "المجمع " (١٠/٢٧١) وعزاه للطبراني في الأوسط وقال : " فيه علي بن غراب ، وقد وثقه غير واحد ،وضعفه

ففي هذا الحديث دليل تحريم التشبه بالكافرين ، مع ماورد من الأمر بالمخالفة — كما في قوله — ﷺ — "خالفوا المشركين ،ووفروا اللحي، واحفوا الشوارب"[١] وقال — صلى الله عليه وسلم — "خالفوا المجوس"[٢]

ولما علم السلف الصالح هذه النصوص التي تنهي عن مشابهة أحد من جميع أهل ملل الكفر ، أو مشاركتهم في شئ من ذلك ، لم يكن على عهدهم من يفعل هذه المشابهةأو هذه المشاركة.

فعلى المؤمن ان يسلك سبيلهم ، وان يقتفي آثار النبي — ﷺ — ، وأن يتمسك بطريق الهدى ولو قل السالكون ، وان يجتنب طريق الردى ولو كثر الهالكون.

القسم الثاني

مايظنه معظم الناس عبادات

يقول السيوطي " وأما القسم الثاني مايظنه الناس طاعة وقربة ،وهو بخلاف ذلك ،أو تركه أفضل من فعله ،وهوما قد آمر به الشارع في صورة من الصور ، من زمان مخصوص ، أو مكان معين ،كالصوم بالنهار ،والطواف بالكعبة أو أمر به شخصا دون شخص ، كالذي اختص به النبي — ﷺ — في المباحات والتخفيضات ، فيقيس الجاهل نفسه عليه ، فيفعله وهومنهي عن فعله ، أو يقيس الصور بعضها على بعض بسبب الحرص على الإكثار من إيقاع العبادات ،والقرب والطاعات ، فيحملهم الحرص على فعلها في أوقات وأماكن نهاهم الشرع عن اتخاذ تلك الطاعات فيها ، ومنها ماهو محرم ، ومنها ماهو مكروه ،ويورطهم الجهل وتزيين الشيطان بأن يقولوا: هذه طاعات وقرب قد ثبت في غير هذه الأوقات فعلها ، نحن نفعلها أبدا"[٣] ثم أورد السيوطي أمثلة على ماذكر فمن ذلك:

١- الصلاة في الأوقات المنهي عنها :

وهي بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس ،وبعد طلوعها حتى ترتفع قدر رمح ،وعند استوائها حتى تزول ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس "[٤].

والأدلة على ماقاله السيوطي مايلي :

أ — عن عقبة بن عامر الجهني — رضي الله عنه — قال :" ثلاث ساعات كان رسول الله — ﷺ — ينهانا أن نصلي فيها،وأن نقبر فيها موتانا : حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع ،وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تسيل ،وحين تضيف الشمس للغروب "[٥] .

ب — عن أبي هريرة — ؓ — أن رسول الله — ﷺ — نهى عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس ، وعن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس "[١].

بعضهم ، وبقية رجاله ثقات" وانظر تفسير ابن كثير (٨/٥٣) واتحاف السادة المتقين للزبيدي (٦/١٢٨) ، (٩/٣٥٦) والهندي : كتر العمال رقم (٢٤٦٨٠).

(١) صحيح البخاري رقم (٥٨٩٣) الفتح (١٠/٣٤٩) ، وصحيح مسلم (١/٢٢٢) رقم (٥٤) من كتاب الطهارة ،والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ١٥٠) ،وكتر العمال (١٧٢٢٤).

(٢) اخرجه احمد في المسند (٢/٣٦٦) ،ومسلم في صحيحه (١/٢٢٢) رقم (٥٥) من كتاب الطهارة

(٣) الإمر بالاتباع (ص ٥٥)

(٤) المصدر السابق ، ذهب مالك إلى أن الأوقات المنهي عنها أربعة : الطلوع والغروب وبعد الصبح وبعد العصر ،أجاز الصلاة عند الزوال ، وذهب الشافعي إلى أن هذه الأوقات الخمسة كلها منهي عنها ، والسيوطي في ذلك تابع لإمامه الشافعي ، إلا الزوال يوم الجمعة ، ،واستثنى قوم من ذلك الصلاة بعد العصر : انظر : بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١/١٩٨)

(٥) صحيح مسلم — كتاب صلاة المسافرين رقم (٢٩٣) وسن ابي داوود — كتاب الجنائز، باب (٥١) وسنن الترمذي — كتاب الجنائز ،باب (٤١) وسنن النسائي — كتاب المواقيت — باب (٣١،٣٤) ،وفي الجنائز باب ((٨٩) وابن ماجه — كتاب الجنائز باب (٣٠) والدارمي كتاب الصلاة باب (١٤٢) ،واحمد في المسند (٤/١٥٢)

فهـــذان الحديـــثان جمعا تلك الأوقات الخمسة التي ذكرها السيوطي وقد أجاز بعض الفقهاء الصلاة بعد العصرلما صح عن عائشـــة ـــ رضـــي الله عنهاـــ قالت :"ماترك رسول الله ـــ ﷺ ـــ صلاتين في بيتي قط سرا ولا علانية ركعتين قبل الفجر ،وركعتين بعد العصر "[٢].

فمن رجح حديث أبي هريرة قال بالمنع ، ومن رجح حديث عائشة او رآه ناسخا لأنه العمل الذي مات عليه ـــ رسول الله ـــ ﷺـــ قـــال بـــالجواز ، غير انه قد صح من حديث أم سلمة ـــرضي الله عنها ـــ انها رأت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يصلي ركعـــتين بعـــد العصر فسألته عن ذلك فقال : " إنه اتاني ناس من عبد القيس فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر وهما هاتان " [٣].

والمقصود أن كلام السيوطي ـــ رحمه الله ـــ في على موافق للأدلة الصحيحة ، ومن خالف هذه الأدلة وفعل على خلاف مقتضاها فهومبتدع[٤].

٢- الصوم في الأيام المنهي عنها :

" كـــالعيدين وأيام التشريق وكوصالهم في الصيام الذي هو من خصائص النبي ـــ ﷺـــ وقد اشتد نكيره على فعل ذلك ، فهؤلاء وأمثالهم متقربون إلى الله بما لم يشرعه الله بل نهي عنه"[٥]

فليس لمن ألهم شيئا من الخيرات ان يعمل به حتى يسمعه من الأثر ،فإذا سمعه من الأثر عمل به ، وحمد الله تعالى حين وافق مافي قلبه)[٦].

أ ـــ قال ـــ ﷺ ـــ :" إني لست كأحدكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني" [٧] وهذا في النهي عن صوم الوصال

ب ـــ وعن كعب بن مالك عن أبيه أنه حدثه أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعثه و أوس بن الحدثان أيام التشريق فنادى : " أنه لايدخل الجنة إلا مؤمن ،وايام منى أيام آكل وشرب " [٨] .

ج ـــ وعـــن أبي هريـــرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال :قال رسول ـــ ﷺ ـــ :" لاتخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولاتخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون صوما يصومه أحدكم "[٩]

---

(١) صـــحيح البخاري ـــ كتاب المواقيت ـــ باب (٣١،٣٠) صحيح مسلم ـــ كتاب صلاة المسافرين رقم (٢٨٥-٢٨٦) وابوداود في سننه كتاب التطوع (١٠) وسنن الترمذي ـــ مواقيت (٢٠،١٨).

(٢) صحيح البخاري ـــ كتاب المواقيت ، باب (٣٣)، وسنن النسائي ـــ كتاب المواقيت ،باب(٣٦) ،واحمد في المسند (١٥٩/٦)

(٣) صحيح البخاري ـــ كتاب السهو ، باب (٨) ومسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين رقم (٢٨٦،٢٨٥) وابو داوود في سننه كتاب التطوع باب (١٠) والترمذي في سننه ،كتاب المواقيت ، باب (٢١،٢٠،١٨) .

(٤) اختلف العلماء في الصلاة التي لاتجوز في هذه الأوقات ، فذهب ابوحنيفة واصحابه إلى انها لاتجوز في هذه الأوقات صلاة بإطلاق لافريضة مقضية ، ولا ســـنة ولا نافـــلة إلا عصـــر يومه ، قالوا : فإنه يجوز ان يقضيه عند غروب الشمس إذا نسيه ،واتفق مالك والشافعي انه يقضي الصلوات المفروضة في هذه الأوقات ، وذهب الشافعي إلى ان الصلوات التي لاتجوز في هذه الأوقات هي النوافل فقط التي تفعل لغير سبب ، اما ماكان لها سبب كركعتي المسجد وركعتي الطواف ، فيجوز فعلها ، ولايجيز مالك فعل ذلك ، بداية المجتهد (٢٠٠/١).

(٥) الأمر بالإتباع (ص ٥٦)

(٦) المصدر السابق

(٧) صحيح البخاري ـــ كتاب الصوم ،باب (٥٠،٤٩) والحدود باب (٤٢) والإعتصام ، باب (٥) وصحيح مسلم ،كتاب الصوم ، ح رقم (٥٧-٦١) والترمذي ـــ كتاب الصوم ، باب (٦١) والدارمي ـــ كتاب الصوم ، باب (١٤) واحمد في المسند (٢٣١،٢٣/٢) (١٧٠،١٢٤/٣) ، (٣١٥،٣١٤/٤) ، (٣٦٤/٥) (١٢٦/٦)

(٨) صحيح مسلم (٨٠٠/٢) كتاب اصيام ، باب (٢٣) ح رقم (١٤٥) سنن ابي داوود ـــ كتاب الأضاحي ، باب (١) ،وسنن الترمذي ـــ كتاب الصوم ،باب (٨٥) وسنن النسائي ، كتاب المناسك ، باب (١٩٥) وابن ماجه ـــ كتاب الصيام ، باب (٣٥) واحمد في المسند (١٥٢/٤) ، (٥/ ٢٢٤،٧٦،٧٥) .

(٩) صحيح مسلم(٨٠١/٢) كتاب الصيام ، باب (٢٤) ح رقم (١٤٨) ، والحاكم في المستدرك (٣١١/١) ، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١١٧٦)

د — وعنه — ﷺ — أيضا قال : قال رسول الله — ﷺ — "لايتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين ، إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه فليصم ذلك اليوم "[١]

٣- بدعة صلاة الرغائب :

هذه الصلاة يصليها المبتدعة في أول ليلة جمعة من شهر رجب ،وتعظيم هذا اليوم وهذه الليلة إنما أحدث في الإسلام بعد المائة الرابعة ، وروى فيها حديث موضوع باتفاق العلماء [٢].

قال الإمام أبو الفرج ابن رجب — رحمه الله —:" فأما الصلاة فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به ، والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من رجب كذب وباطل لاتصح ، وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء ، وممن ذكر ذلك من أعيان العلماء المتاخرين من الحفاظ أبو إسماعيل الأنصاري،وأبو بكر السمعاني ،وأبو الفضل بن ناصر، وأبو الفرج بن الجوزي ،وغيرهم ،وإنما لم يذكرها المتقدمون لأنها أحدثت بعدهم ،أول ماظهرت بعد الأربعمائة فلذلك لم يعرفها المتقدمون ولم يتكلموا فيها "[٣].

وقال السيوطي : " والذي عليه المحققون من أهل العلم : النهي عن إفراد هذا اليوم بالصوم ، وعن قيام هذه الليلة بهذه الصلاة المحدثة ، وعن كل مافيه تعظيم لهذا اليوم من صنع الأطعمة وإظهار الزينة وغير ذلك ، حتى يكون هذا اليوم بمنزلة غيره من الأيام ،وكذلك يوم آخر في وسط رجب تصلي فيه صلاة تسمى "صلاة أم داود " فإن ذلك أيضا لا أصل له "[٤]

وقال أبو عمرو بن الصلاح :" أما الصلاة المعروفة في ليلة الرغائب فهي بدعة ، وحديثها المروي موضوع ،وما حدث إلابعد أربعمائة سنة من الهجرة ، وليست ليلتها تفضل على أشباهها من ليالي الجمع "[٥]

٤- الابتداع في ليلة النصف من شعبان :

يقول السيوطي :" وأما ليلة النصف من شعبان فلها فضل ، وإحياؤها بالعبادة مستحب ، ولكن على الإنفراد ومن غير جماعة ، واتخاذ الناس لها ولليلة الرغائب موسما وشعارا : بدعة مكروهة ،وما يزيد فيها على الحاجة والعادة من الوقيد ونحوه ، فغير موافق للشريعة "[٦].

وقد ورد في فضل ليلة النصف من شعبان قوله — صلى الله عليه وسلم — : "إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه ، إلا لمشرك أومشاحن [٧]".[٨]

وقال — ﷺ — :" إن الله ليطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان ، فيغفر لعباده ، إلااثنين: مشاحن أو قاتل نفس "[٩] .

ومن حديث عثمان بن أبي العاص مرفوعا :" إذا كان ليلة النصف من شعبان نادى منادى :هل من مستغفر فأغفرله ؟ هل من سائل فأعطيه؟ فلا يسأل أحد شيئا إلا أعطيه إلا زانية بفرجها ، أو مشركا"[١].

---

[١] صحيح البخاري رقم (١٩١٤) كتاب الصوم باب (١٤) فتح الباري (٤/١٢٧-١٢٨) واللفظ له ،وصحيح مسلم (٦٧٢/٢) كتاب الصيام باب (٣) فتح الباري رقم (٢١) ،والبيهقي في السنن الكبرى (٤/٢٠٧)

[٢] انظر :السيوطي :الأمر بالإتباع (ص٦٠)

[٣] لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (ص٢٢٨) ت ياسين محمد السواسي

[٤] الأمر بالإتباع (ص ٦٠-٦١)

[٥] المصدر السابق (ص٦٠-٦١)

[٦] الأمر بالإتباع (ص٦١)

[٧] الشحناء : الحقد ، والشخناء العداوة ، والمشاحن في الحديث المعادي ، قال الأوزاعي : أراد بالمشاحن هاهنا صاحب البدعة والمفارق لجماعة الأمة . لسان العرب (٢٣٤ — ٢٣٥) ، وابن رجب : اللطائف (ص ٢٦٦)

[٨] سنن ابن ماجه رقم (١٣٩٠) في اقامة الصلاة ، باب ماجاء في ليلة النصف من شعبان ، واورده الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٣/١)

[٩] مسند الإمام احمد (١٧٦/٢) واسناده صحيح ، ذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد " (٦٥/٨) وقال :" رواه احمد وفيه ابن لهيعة وهو لين الحديث ، وبقية رجاله وثقوا" واورده المنذري " في " الترغيب والترهيب " (١١٩/٢) ، (٤٦٠/٣)

وهذا يؤيد قول السيوطي بأن لها فضلا ، قال ابن رجب :" وفي الباب أحاديث اخر فيها ضعف "[٢] .

وقـــال ايضا : " فأما صيام يوم النصف منه فغير منهي عنه ،فإنه من جملة أيام البيض الغر ،المندوب إلىصيامها من كل شهر "[٣].

وقال ابن رجب أيضا :" وليلة النصف من شعبان كان التابعون من آهل الشام كخالد بن معدان[٤] ومكحول[٥] ولقمان بن عامر [٦]وغيرهم يعظمونها ويجتهدون فيها في العبادة ،وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها ،وقد قيل : إنه بلغهم في ذلك آثار إســـرائيلية ،فلما اشتهر ذلك عنهم في البلدان اختلف الناس في ذلك ، فمنهم من قبله منهم ووافقهم على تعظيمها ، منهم طائفـــة مـــن عـــباد آهل البصرة وغيرهم ،وأنكر ذلك أكثر العلماء من أهل الحجاز منهم عطاء وابن أبي مليكة ، ونقله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة ،وهو قول أصحاب مالك وغيرهم ،وقالوا: ذلك كله بدعة"[٧].

وهكـــذا حصل الخلاف في ليلة النصف من شعبان من زمن التابعين ــ رضي الله عنهم ــ أما كون التابعين من أهل الشام يعتمدون في تعظيمهم لليلة النصف من شعبان على أخبار إسرائيلية ، فليس ذلك بحجة في الدين،وإنما الحجة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجماع الأمة ــ كما هو معلوم ـــلدى كافة العلماء والفقهاء،وإنني لأرى ان الصواب ــ إن شاء الله ــ مع جمهـــور العلماء الذين أنكروا ذلك من آهل الحجاز أهل المدينة و أصحاب مالك ــ رحمهم الله جميعا ــ لأنه لادليل على هذه العبادة المختصة بهذه الليلة على ماذكر ، وبناء على ذلك فتخصيصها بعبادة من غير دليل مما يدخل في عداد البدع ، التي ينبغي اجتنابها والتحذير منها ، فإذا وافقها العبد ،وكان من عادته قيام الليل ، فقامها بالصلاة والدعاء كبقية الليالي فلا ضير، وإن حصلت الصلاة جماعة خاصة اتفاقا من غير قصد فهذا أيضا لاينهى عنه ، أما إذا قصد الإجتماع العام كالإجتماع على التراويح في رمضان وتخصيصها بعدد معين من الركعات فهذا هو البدعة ،ولذلك قال ابن رجب ــ رحمه الله ــ :" واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها على قولين :

أحدهما :انـــه يستحب احياؤها جماعة في المساجد ، كان خالد بن معدان ،ولقمان بن عامر وغيرهما يلبسون فيها احسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك ،ووافقهم إسحاق بن راهوية على ذلك وقال قيامها في المسجد جماعة:ليست ببدعة...

والثاني :انـــه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء ، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها بخاصة نفسه ،وهذا قول الأوزاعي إمام آهل الشام وفقيههم وعالمهم ، وهذا هوالأقرب إن شاء الله تعالى "[٨] .

---

[١] كـــنز العمال رقم (٣٥١٧٨) وعزاه إلى البيهقي في" شعب الإيمان " (٣/٣٨٣) ،من روايه الحسن عن عثمان بن ابي العاص ،وقد اختلف في سماع الحسن منه .

[٢] لطائف المعارف (ص٢٦٢)

[٣] المصدر السابق (ص٢٦١)

[٤] خـــالد بـــن معدان بن ابي كرب الكلاعي، ابو عبدالله ، تابعي ثقة ، ممن اشتهروا بالعبادة ،اصله من اليمن ، واقامته في حمص (بالشام)شيخ اهل الشام ،وهو معدود في ائمة الفقه ،روى له الجماعة ،(ت ١٠٣هـ،وقيل بعد ذلك ــ طبقات ابن سعد (٧/٤٥٥) حلية الأولياء (٥/٢١٠) ، سير اعلام النبلاء (٤/٥٣٦) تهذيب الكمال (٨/١٦٧)

[٥] مكحول بن ابي مسلم ، ابو عبدالله، الهذلي بالولاء ، عالم اهل الشام في عصره ، من حفاظ الحديث ، اصله من كابل ، واستقر بدمشق (ت نحو ١١٢هـــ) حلية الأولياء (٥/١٧٧) ، تذكرة الحفاظ(١٠٧)

[٦] لقمان بن عامر الوصابي ، ابوعامر الحمصي ،روى عن ابي الدرداء وابي هريرة وجماعة ، صدوق ،ذكره ابن حبان في الثقات ــ تهذيب التهذيب (٨/٤٥٥)

[٧] لطائف المعارف (ص٢٦٣)

[٨] لطائف المعارف(ص٢٦٣) ، وانظر على محفوظ : الإبداع (ص٢٨٦)

وقـــال ابـــن تيميه :" إذا صلى الإنسان ليلة النصف وحده ، أوفي جماعة خاصة ، كما كان يفعله طوائف من السلف فهو أحسن ،و أما الإجتماع في المساجد على صلاة مقدرة ،كالإجتماع مائة ركعة ، بقراءة ألف : (قل هو الله احد) دائما فهذا بدعة ، لم يستحبها احد من الإئمة "[١]

فـــإذا اجتمع الناس على صلاة كهذه التي ذكرها ابن تيمية او أي صلاة أخرى مخترعة أو دعاء يحتوي على الغلو أو الشرك فهذا كله بدعة كما قال الأوزاعي وعطاء وابن بي مليكة واهل الحجاز واهل المدينة ،وابن تيمية وابن رجب والسيوطي .

وأصـــل هـــذه الصلاة المبتدعة التي يفعلها بعض الجهال في ليلة النصف من شعبان ماذكره أبو حامد الغزالي في "الإحياء " وابوطالب المكي " في قوت القلوب"وقد ذكرا فيها حديثا قد صرح الحفاظ بوضعه،قال الحافظ ابن الجزري :" وأما صلاة الرغائب أول خميس من رجب وصلاة ليلة النصف من شعبان وصلاة ليلة القدر من رمضان فلا تصح وسندها موضوع باطل "[٢] وقال الحافظ العراقي :" حديث ليلة النصف موضوع على رسول الله ـــ صلىالله عليه وسلم ـــ وكذب عليه :"[٣] ،

وقـــال الإمـــام النووي :" الصلاة العروفة بصلاة الرغائب ، وهي اثنتي عشرة ركعة بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة من رجـــب وصـــلاة ليلة النصف من شعبان مائة ركعة ، هاتان الصلاتان بدعتان منكرتان ،ولايغتر بذكرهما في كتاب قوت القلوب وإحياء علوم الدين ، ولا بالحديث المذكور فيهما فإن كل ذلك باطل ولا يغتر ببعض من اشتبه عليه حكمهما من الائمـــة فصـــنف ورقـــات في استحبابهما فإنه غالط في ذلك ، وقد صنف الشيخ الإمام ابو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي كتابا نفيسا في ابطالهما فأحسن فيه واجاد "[٤] .

وقال العلامة أبو شامة :" ومما أحدثه المبتدعون وخرجوا به عما رسمه الدين، وجروا فيه على سنن المجوس ، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا الوقود ليلة النصف من شعبان ،و لم يصح فيه شئ عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ،ولانطق بالصلاة فيها ، والإيقاد فيها ذو صـــدق مـــن الـــرواة ،وما أحدثة إلا متلاعب بالشريعة المحمدية ،وراغب في دين المجوسية ، لأن النار معبودهم ،وأول ماحدث ذلك في زمن البرامكة فدخلوا في دين الإسلام يموهون به على الطغام وهو جعلهم الإيقاد في ليلة النصف من شعبان كأنه سنة من السنن ومقصودهم عبادة النيران وإقامة دينهم ،وهو أخس الأديان ، حتى إذا صلى المسلمون فركعوا وسجدوا كان ذلك إلىالنار التي أوقدوها ، ومضت علي ذلك السنون والأعصار ،وتبعت فيه بغداد سائر الأمصار"[٥] .

ومن هذا يتبين أن كل مايفعله أهل البدع في تلك الليلة إنما هو بدع محدثة لا تزيد صاحبها من الله إلا بعدا ،ومن الإسلام إلا هدما ،نسال الله لنا وللمسلمين الهداية والتوفيق .

٥- قراءة سورة الأنعام في ركعة من صلاة التراويح :

يقول السيوطي :" ومن البدع قراءة سورة الأنعام في ركعة في صلاة التراويح"[٦].

واهل البدع إنما يفعلون ذلك لإعتقادهم انها قربة إلى الله تعالى ،ويستندون في ذلك إلى حديث لايصح ،وهوماروى أنه ـــ ﷺ ـــ قال :" أنزلت سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك بالتسبيح والتحميد"[٧].

وهـــذا الحديث لوصح لما كان فيه لهؤلاء مستند ولادليل على استحباب قراءتها في ركعة من صلاة التراويح ،ويتبين بدعية هذه القراءة من وجوه :

---

[١] مجموع الفتاوى (١٣١/٢٣)

[٢] نقلا عن الإبداع في مضار الإبتداع للشيخ على محفوظ (ص٢٨٧-٢٨٨)

[٣] المصدر السابق

[٤] نقلا عن الإبداع في مضار الإبتداع للشيخ علىمحفوظ (ص ٢٨٧-٢٨٨)

[٥] الإمر بالإتباع (ص٦٤-٦٥) وانظر على محفوظ :الإبداع (ص ٢٨٩)

[٦] الامر بالاتباع (ص٧١)

[٧] قـــال السيوطي في " الأمر بالإتباع " : " هذا الحديث اسناده ضعيف مظلم " واورده في الدر المنثور "(٢٤٣/٧) من حديث ابن عباس وعزاه لابن الضريس ،ومن حديث ابي بن كعب وعزاه لأبي الشيخ (٢٤٤/٧) ، و لم يعلق عليه

١- تخصيص ذلك بسورة الأنعام دون غيرها ، مما يوهم أن ذلك سنة فيه دون غيرها من السور والأمر خلاف ذلك .

٢- تخصيص صلاة التراويح دون غيرها ،وفيه نفس المأخذ الأول على تخصص السورة.

٣- مافيه من التطول على المؤمنين ،ومخالفة أمر النبي — ﷺ— بالتخفيف على الجماعة،وقد يقلق بعض الناس ويضجر ويسخط ويكره العبادة

٤- مافيـــه من مخالفة السنة من تقليل القراءة في الركعة الثانية عن الأولى وقد عكس صاحب هذه البدعة ماجاءت به السنة وخالف المشروع [(١)]

٦ .التبتل وترك النكاح :

قال السيوطي :"ومن الأمور المبتدعة : الإنفراد ،وترك النكاح رغبة عنه ،وذما له"[(٢)]

وهو الذي ترجم له الإمام البخاري بقوله :" باب مايكره من التبتل والخصاء"[(٣)] .

والتبـــتل : هـــو الانقطاع عن النكاح وما يتبعه من الملاذ إلى العبادة وهذا مكروه ، ومعدود في عداد البدع المذمومة ، أما المـــأمور به في قوله تعالى : (وتبتل إليه تبتيلا) [(٤)] فقد فسره مجاهد وغيره فقال : اخلص له إخلاصا ، وهذا تفسير معنى ،وإلا فأصـــل التبتل الانقطاع إلى الله إنما تقع بإخلاص العبادة له فسرها بذلك ، منه : (صدقة بتله) أي :منقطعة عن الملك ،ومريم البتول لانقطاعها عن التزويج إلىالعبادة ،وقيل لفاطمة : البتول لانقطاعها عن الأزواج غير علي ، أو لانقطاعها عن نظرائها في الحسن والشرف[(٥)]

ويـــدل عـــلى كراهة التبتل قول سعد بن ابي وقاص : رد رسول الله — ﷺ — على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا"[(٦)]

وقـــول أنـــس — رضي الله عنه — : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي — ﷺ — يسألون عن عبادة النبي — ﷺ — فلما اخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، قال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتـــتزوج أبدا فجاء رسول الله — ﷺ — فقال: " انتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ آما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد ، أتتزوج النساء ،فمن رغب عن سنتي فليس مني "[(٧)]

ولذلـــك قســـم بعض العلماء النكاح إلى الأحكام الخمسة ، فجعل لكل صنف من الناس مايخصه من حكم في أمر النكاح كالوجوب والتحريم والكراهة والإستحباب والإباحة .

قال المازري :"فالوجوب في حق من لايكف عن الزنا إلآ به .

— والتحريم في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق مع عدم قدرته عليه وتوقانه إليه

— والكـــراهة : في حق مثل هذاحيث لا إضراربالزوجة ،فإن انقطع بذلك عن شئ من أفعال الطاعة من عبادة او اشتغال بالعلم اشتدت الكراهة ، وقيل: الكراهة فيما إذا كان ذلك الرجل في حال العزوبة أجمع منه في حال التزويج.

— والإستحباب : فيما إذا حصل به معنى مقصودا من كسر شهوة وإعفاف نفس ، وتحصين فرج ونحو ذلك .

---

(١) انظر :الأمر بالإتباع (ص ٧١)

(٢) الأمر بالاتباع (٧٨)

(٣) صحيح البخاري — كتاب ا لنكاح ، باب (٨) الفتح (١١٧/٩)

(٤) سورة المزمل ، بعض الآية (٨)

(٥) فتح الباري (١١٨/٩)

(٦) صحيح البخاري رقم (٥٠٧٣) (٥٠٧٤) الفتح (١١٧/٩) واحمد في المسند (٣٧٨/٣، ٣٨٣) ومسلم (١٠٢٠/٢) ح رقم (١٤٠٢)

(٧) صحيح البخاري — رقم (٥٠٦٣) فتح الباري (١٠٤/٩) واللفظ له ،وصحيح مسلم (١٠٢٠/٢) ح رقم (١٤٠١) والنسائي — كتاب النكاح ، باب (٤,١٠,١٦,٢٨,٢٩,٣٧,٤٣) احمد في المسند (٢٤١/٣)

ـــ والإباحـــة : فيما انتفت الدواعي والموانع ، ومنهم من استمر بدعوى الاستحباب ، فيمن هذه صفته للظواهر الواردة في الترغيب فيه "(١)

وقال عياض : " هو مندوب في حق كل من يرجى منه النسل ولو لم يكن له في الوطء شهوة ،لقوله ـــ ﷺ ـــ : فإني مكاثر بكم "(٢) ولظواهر الحض على النكاح والأمر به ، وكذا في حق من له رغبة في نوع من الاستمتاع بالنساء غير الوطء ،فأما من لاينسل ولا ارب له في النساء ولافي الاستمتاع فهذا مباح في حقه إذا علمت المرأة بذلك ورضيت "(٣)

وقـــال السيوطي :" اعلم ـــ رحمك الله ـــ أن النكاح مع خوف العنت واجب ، ومن غير خوف العنت سنة ، عند جمهور العلماء ،ومذهب أبي حنيفة والإمام احمد ـــ رضي الله عنهما ـــ أنه أفضل من جميع النوافل ، لأنه سبب وجود الولد"(٤).

ثم أورد السـيوطي مجموعة من الأحاديث والآثار التي تحث على النكاح والترغيب فيه من ذلك مع مامضى من الأحاديث :قوله ـــ ﷺ ـــ "تناحكوا تناسلوا"(٥).

وقوله ـــ ﷺ :" دينار انفقته في سبيل الله ،ودينار انفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار انفقته على اهلك ، أعظمها اجرا الذي انفقته على أهلك "(٦) .

يقول السيوطي :" فإن قيل :النكاح يوجب الميل إلى الدنيا ، قلنا: هذا خلاف الشريعة ،فإن النبي ـــ ﷺ ـــ إمام الزاهدين ، كان أكثر هذه الأمة نساء .. فأما تركه ليقال : زاهد ، والعوام يعظمون هذا ، فيقولون :ماعرف امرأة قط ، فهذه رهبانية تخالف الشريعة .

وقـــال بعضهم : ينبغي أن لايشغل المرء قلبه بالتزويج ،فإنه يشغله عن الله فيرى هذا أن الأنس الطبعي بالزوجة ينافي انس القـــلوب بطاعـــة الله ، وليس هذا كذلك والله سبحانه وتعالى قد من على الخلق بقوله : (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) (٧)وفي الحديث الصحيح عن جابر ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبي ـــ ﷺ ـــ قال :" هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك " (٨) أي : هلا تزوجت بكرا، لما اخبره انه تزوج ثيبا ،وماكان يدله على مايقطع أنسه بالله ... لأنه لما كان مراد الله تعالى من إيجاد الخلق اتصال دوامها إلى ان ينقضي اجلها ، حث تعالى الآدمي على ذلك ،تارة من حيث الطـــبع بإيقاد نار الشهوة وتارة من باب الشرع بقوله : (وانكحوا الأيامى منكم) (٩) وقد طلب الأنبياء الأولاد وتسبب الصالحون إلى وجودهم ، ورب جماع حدث منه ولد صالح كالشافعي ،واحمد كان خيرا من عبادة ألف سنة "(١٠)

---

(١)فتح الباري (١١١/٩) وانظر : ابن قدامة :المغني والشرح الكبير (٣٣٤/٧)

(٢)يقول ابن حجر : صح من حديث انس بلفظ "تزوجوا الودود الولود فإن مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" أخرجه ابن حبان وذكره الشافعي بلاغا عـــن ابن عمر بلفظ "تناحكوا تكاثروا فإني اباهي بكم الأمم" والبيهقي من حديث ابي امامة...ومن حديث الصنابحي وابن الأعسر ، ومعقل بن يسار ،وسهل بن حنيف ،وحرملة بن النعمان ، وعائشة وعياض بن غنم ومعاوية بن حيدة وغيرهم " فتح الباري (١١١/٩)

(٣)الفتح (١١١/٩)

(٤) الإمر بالإتباع (ص٧٨)

(٥)سبق تخريجه في حاشية (٢)

(٦)صحيح مسلم ـــ كتاب الزكاة ،باب (١٢) برقم (٣٩) واحمد في "المسند" (٤٧٣/٢)

(٧)سورة الروم ،بعض الآية (٢١)

(٨)صـــحيح البخاري (٦٣/٤) ، (٥١/٧) ومسلم في صحيحه ـــ كتاب الرضاع رقم (٥٤) وسنن الترمذي رقم (١١٠٠) وسنن ابن ماجه رقم (١٨٦٠) واحمد في المسند (٣٠٨،٣١٤/٣)

(٩)سورة النور ، بعض الآية (٣٢)

(١٠)الأمر بالاتباع (ص ٨١-٨٢)

الفصل الثاني : موقفه من التصوف

المبحث الأول . تعريف التصوف

اختلفت الأقوال في أصل الاشتقاق اللغوي لكلمة التصوف فقيل :إنها مشتقة من الصفاء الروحي ، والشفافية النفسية والبدني مع ابتاع الشرع ، يقول الشيخ عبدالقادر الجيلاني[١] : " الصوفي من صفا باطنه وظاهرة بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله — ﷺ — "[٢] .

ولكن هذا الاشتقاق يبدو مردوداً من الناحية اللغوية ، ولذا رده شيخ الإسلام بن تيمية مبيناً : " أن اشتقاق الصوفي من الصفا بعيد من مقتضى اللغة ،وكان حقه أن يقال :صفائية أو صفوية "[٣] .

وقيل : إن الصوفية منسوبة إلى الصُّفَّة ، وهي المكان الذي كان يقيم فيه بعض فقراء المهاجرين في مسجد رسول الله — ﷺ — بالمدينة المنورة ممن لم يكن لهم أهل ولا دور ينزلون بها ، والذين قد فرغوا أنفسهم لطلب العلم والتعبد .

وهذا أيضاً غلط — كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية — لأنه لوكان كذلك لكانت النسبة إليه : صُفّي[٤]، وأعترض عليه كذلك القشيري[٥] في رسالته حيث قال : " فالنسبة إلى الصفة لاتجيء على نحو صوفي "[٦] .

وقيل : إنها منسوبة إلى الصف المقدم في الصلاة ، أو الصف المقدم بين يدي الله تعالى في عموم الطاعات والقربات ، وهذا أيضاً غلط لأنه لوكان كذلك لقيل : صَفّي.[٧]

والقشيري لايسلم أيضاً بهذا الاشتقاق رغم تسليمه بصحة المعنى الدال على أنهم كأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله ، ومع ذلك يقول : " ومن قال نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله قيل له ، كان

---

(١) هو : عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبدالله بن يحيى الزاهد ، الجيلاني ، أو الجيلي نسبة إلى جيلان أو كيلان ، وهي بلدة وراء طبرستان ، ولد سنة (٤٧٠ هـ) وتوفي (٥٦١هـ) رحل إلى بغداد وعمره ١٨ سنة والتقى فيها بجمع من العلماء الذين أخذ العلم عنهم ، أنظر : ذيل طبقات الحنابلة (٢٩٠/١) ،سير أعلام النبلاء ، (٤٣٩/٢٠) ، الكامل (١١/ ٩٢٣) ، الأعلام (٤٧/٤) .

(٢) الفتح الرباني — لعبدالقادر الجيلاني (ص ٢٠٧) ، نقلا عن سعيد بن مسفر القحطاني في كتابه : الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية ، والصوفية (٤٧٦) .

(٣) مجموع الفتاوي (٦/١١) .

(٤) نفسه .

(٥) عبدالكريم بن هوازن القشيري الصوفي ، صاحب كتاب الرسالة، المصنف في الكلام عن الصوفية وأحوالهم وأخلاقهم،ولد سنة (٣٧٥هـ) وكان عديم النظير في السلوك والتذكير ، لطيف العبارة ، طيب الأخلاق ، ويعتبر من شيوخ التصوف في خراسان ت (٤٦٥هـ) سير أعلام النبلاء (٢٧/١٨) ،نقلاً عن د/ سعيد بن مسفر القحطاني : عبدالقادر الجيلاني (٤٧٨) .

(٦) الرسالة (٥٥٠/٢) .

(٧) أنظر : مجموع الفتاوي (٦/١١) .

حقه أن يقال : صَفية"[١]

ثم يرجح القشيري أنه كاللقب عليهم ، لأنه لايشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق .[٢]

ويـــرجح شـــيخ الإسلام ابن تيمية أن الصوفية أو الصوفي منسوب إلى لبس الصوف ، فقال :" وكان السلف يســـمون أهـــل الدين والعلم " القراء " فيدخل فيهم العلماء والنساك ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء ، واسم الصوفية نسبة إلى لباس الصوف هذا هو الصحيح"[٣]

ومـــع ظهـــور الـــرجحان لهذه النسبة إلا أن القشيري يعترض عليها بان الصوفية ليسوا وحدهم الذين يلبسون الصوف بل يشاركهم غيرهم ، فما الداعي لتخصيص الصوفية بهذه النسبة دون غيرهم .[٤]

وأيا ماكان اشتقاق اسم " الصوفية " فقد أستقر أخيراً على أنه لقب لطائفة من الناس ، يميلون إلى العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى : " والاعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه عامة الخلق مـــن لذة في المآكل والمشارب والملابس والمراكب ، وعدم الاستكثار من المال والجاه ، والانفراد للخلوة من أجل العباءة للذكر والفكر والمناجاة .[٥]

والتصوف في الاصطلاح : وردت عن العلماء عبارات مختلفة في تعريف التصوف أو الصوفي منها :

١ـــ قال سهل التستري[٦] يعرف الصوفي : إنه " من صفا من الكدر ، وأمتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر"[٧] .

٢ـــ ويعرف الجنيد[٨] التصوف بأنه : " ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع "[٩]

ويلاحظ من هذا أن أصل التصوف إنماهو تمسك بالكتاب واتباع للسنة ، وعكوف على العبادة بالمحافظة على الفرائض ، والزيادة من النوافل ، وأعراض عن زينة الدنيا، وكثرة ذكر الله والتعلق به وحده دون سواه ،ويظهـــر أيضاً أنه لامؤاخذه شرعية على هذا الطريق بهذا المعنى الذي ذكر ، فالتوبة والورع والزهد والذكر

---

(١) الرسالة للقشيري (٥٥٠/٢) .

(٢) أنظر : السابق نفسه .

(٣) مجموع الفتاوي ، (١٩٥/١١) .

(٤) أنظر الرسالة ــ للقشيري (٥٥٠/٢) .

(٥) أنظر : ابن خلدون ، المقدمة (٣٣٣) .

(٦) هـــو : سهل بن عبدالله التستري ، صوفي زاهد ، له كلمات نافعة ، ومواعظ حسنة منها : " أصولنا ستة : التمسك بالقرآن ، والاقتداء بالســـنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذي والتوبة ، وأداء الحقوق ، ت (٢٨٣هــ) . أنظر : سير أعلام النبلاء (٣٣٠/١٣) ، شذرات الذهب (١٨٢/٢) ، طبقات الشعر اني (٦٦/١) .

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص ٩) .

(٨) هو : أبو القاسم ، الجنيد بن محمد بن الجنيد ولد ببغداد ، ودرس بها الفقه والحديث وتوفي ببغداد (٢٩٧هــ) . سير أعلام النبلاء (٦٦/١٤) ، طبقات الشعراني (١/ ٧٢) .

(٩) الرسالة للقشيري (٥٥٣/٢) ،نقلاً عن د/ سعيد بن مسفر القحطاني في مصنفه الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية (ص ٤٩٠

والصبر والمراقبة كلها امور شرعية أمرنا الله تعالى بها في كتابه ، وحثنا عليها رسوله — ﷺ — في سنته ، وطبقها الصحابة — رضي الله عنهم — .

ولكن الذي حدث بعد هؤلاء المتبعين ، أن أصبح المنتسبون إلى هذا الطريق يطلقون عبارات قدتكون مبهمة في بعض الأحيان وفي غالبها تحمل معاني مبتدعة كالحلول والاتحاد ، وغيرها من عقائد سيئة ، وسلوكيات بدعية لم يكن عليها السلف الصالح ، مما جعل التصوف ووحدة الوجود يتخذ منعطفاً آخر يظهر فيه التصوف كعلم له مناهج وفلسفات لاتمت إلى أصل الإسلام بصلة .

ومن هنا يمكن تعريف التصوف في العصر الحالي بأنه : مذهب أوله البدعة ي الزهد والذكر والعبادة ، والتدرج من ذلك إلى عقائد الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ووقف بعض المنتسبين إليه عند حد الرسوم والشكليات البدعية .

المبحث الثاني : نشأة التصوف

اختلفت آراء الباحثين في نشأة التصوف ، وفي البيئة التي نبتت فيها بذرته الأولى على قولين :

الأول : أن التصوف إسلامي النشأة ، وأن أصوله العقدية والسلوكية مستمدة من الكتاب والسنة وفعل السلف الصالح ، وهذا الرأي يتزعمه ابن خلدون الذي يرى أن الزهد والعكوف على العبادة والورع عن الشبهات كان عاماً في الصحابة — رضي الله عنهم — والسلف الصالح ، فلما فشى الاقبال على الدنيا في القرن الثاني ومابعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.[1]

ويمكن ان يصح هذا القول إذا لم يحدث خلط فيما بعد بين الزهد والورع والمراقبة التي هي خلق الأنبياء والصديقين وعباد الله الصالحين الذي يؤثرون ماعند الله تعالى على التنعم باللذائذ والمباحات ، والتي يخشون أنها قد تجرهم إلى الوقوع في المخالفات ، وبين مآل إليه التصوف من الانحراف العقدي والابتداع السلوكي والذي أصبح له مفاهيم وفلسفات وهواتف وأذواق ومواجيد غير منضبطة بضوابط القرآن الكريم والسنة النبوية

الثاني : أن التصوف لم يكن ذا أصل اسلامي ، فحين ظهر الإسلام كان التصوف منتشراً في جزيرة العرب ، باسم الكهانة ،وفي الهند وبلاد فارس ،ذلك لأن دياناتهم كانت مبنية على أساس الرياضة والرؤى والمكاشفات وكانت هذه الأمور ماينتحله النصارى الذين كانت دياناتهم سائدة في مصر والشام والعراق واليمن ، وكذلك عند اليهود ،كان يطلق على الشيخ اسم الكاهن أو العراف أو ما يرادفها في اللغات الأخرى . ولما جاء الإسلام اختفت هذه النحلة حتى استطاع كهانها أن يجدوالها صيغة مقبولة يظهرونها بها أمام الناس ، وهي صيغة الزهد والتقشف والروحانية التي تتخذ التظاهر بالعبادة والتبتل منطلقاً لها حتى تروج على كثير من الناس .

وقد عرف هذه الحقيقة بعض علماء المتصوفة القدامي مثل شهاب الدين السهرودي[2] الذي يقول : " ،أما

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٣٣) ، وأنظر د/ سعيد بن مسفر القحطاني : الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية ، والصوفية (ص ٤٩١) .

(٢) شهاب الدين يحيى بن حسين السهروردي ، فيلسوف ، كان يتوقد ذكاءً إلا أنه قليل الدين ،وكان بارعاً في أصول الفقه ،ولم يناظر

أنـــوار الســـلوك فـــي هـــذه الأزمنة القريبة فخميرة الفيثاغوريين ، رفعت إلى أخي أحميم (يعنى : ذا النون المصري)[١] ، ومنه نزلت إلى سياد تستر (يعني : سهل التستري) وشيعته ، وأما خميرة الخسروانيين في الســـلوك فهـــي نازلة إلى سيار بسطام (يعني : أبايزيد البسطامي)[٢] ، ومن بعده إلى فتى بيضاء (يعني : الحلاج[٣]) ومن بعده إلى سيار آمل وخرقان (أبي الحسن الخرقاني) [٤] .

ويظهـــر مـــن هـــذا أن التصوف ليس إسلامي النشأة وإنما هو مزيج من العبادات الفارسية ،واليونانية ، والنصــــرانية ، واليهوديـــة ، يؤيـــد هذا وجود الشبه الكبير بين الصوفية وبين أهل تلك الأديان في اعتقاداتهم وعـــباداتهم ، وخاصة في عقائد الرمز والظاهر والباطن والتأويل وغير ذلك ، وهذا ماذهب إليه السرّاج[٥] من أن منشأ التصوف كان في الجاهلية قبل الإسلام [٦] .

والحق أن كلاً الرأيين فيه شيء من الصحة ، مع شيء من المبالغة ، ولذا فإن الأعدل والأوفق أن يقال : إن أول نشـــأة للتصوف كان بالبصرة على يد بعض الزهاد الذين كانوا يبالغون في الزهد والعبادة ، وأن غالب ماكان يحكى من المبالغة في العبادة والزهد إنما هو عن عباد البصرة ، ثم تطور على يد بعض المنتسبين إليه ـــ كما ذكرنا ـــ فلبس عليهم إبليس فأخذوا ينتحلون آراء بعيدة عن الإسلام ، حتى آل الأمر إلى أنه لايذكر اســـم المتصوفة أو التصوف إلا مرتبطاً بعقيدة الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، ومأضيف إلى ذلك من بدع السماع والرقص ، والتعلق بطلب مرتبة الولاية،واستدراج الشيطان لهم حتى قالوا بتفضيل الولي على النبي ، واستمرار النبوة بعد رسول الله ﷺ وغير ذلك .

وفـــي هـــذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " أول ماظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية أصحاب عبدالواحد بن زيد[٧] ،وعبدالواحد من أصحاب الحسن ، وكان في البصرة من المبالغة في

احـــداً إلا أربى عـــليه ، قـــال عـــنه الذهـــبي ، وكـــان طياشـــاً أحمـــق مـــنحلاً " قـــتل ســـنة (٥٨٧هـــ) .سير اعلام النبلاء (٢٠٧/٢١) .

(١) دو الـــنون المصـــري : ثوبـــان بن إبراهيم ، شيخ الديار المصرية في وقته ، كان لايتقن الحديث ، ولكنه كان واعظاً فصيحاً عالماً حكيماً ،رمي بالزندقة ، مات سنة (٢٤٦هـــ) ، سير أعلام النبلاء ، (٥٣٢/١١) .

(٢) طيفور بن عيسى البسطامي ، أبو يزيد ، كان يقول : " لونظرت إلى من أعطى من الكرامات حتى يطير فلاتغتروا به حتى تروا كيف هـــو عـــند الأمـــر والنهي وحفظ حدود الشرع ،ونقل عنه أشياء مشكلة لامساغ لها ، ولكن كما يقول الذهبي : الشأن في ثبوتها عنه فـــتطوى ولاتروي إذ ظاهرها إلحاد مثل سبحاني ، ومافي الجبة إلا الله ، ومالمحدثون إن خاطبهم رجل عن رجل فقد خاطبنا القلب عن الرب . ت (٢٦١هـــ) ، سير أعلام النبلاء (٨٦/١٣) ، طبقات الشعراني (٦٥/١) .

(٣) هـــو : أبـــو منصـــور الحســـين بن منصور الحلاج الصوفي ، كان جده مجو سياً ، تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ لسوء سيرته ، ونســـبوه إلى الحلول والزندقة قتل مصلوباً بعد أن قطعت يداه ورجلاً ،وضرب ألف سوط وأحرقت جثته ونثر رمادها في نهر دجلة سنة (٣٠٩) هـــ سير أعلام النبلاء (٣١٣/١٤) ، طبقات الشعراني (٩٢/١) .

(٤) ولايـــة الله والطـــريق إليها لإبراهيم هلال (ص ١٧١) ، نقلاً عن (الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية لسعيد بن مسفر القحطاني (ص ٤٩٣) .

(٥) أبو نصر السرّاج ، عبدالله بن علي الطوسي ، كان شيخ الصوفية في عصره ، له كتاب اللمع في التصوف ،مات سنة(٣٧٨).

(٦) أنظر : السراج و اللمع . ص ٤٢) .

(٧) عـــبدالواحد بـــن زيـــد الزاهد ، كان ممن غلب عليه العبادة حتى غفل عن الاتقان فكثرت المناكير في حديثه حتى قال عنه النسائي ،

الزهد والعبادة ، ونحو ذلك مالم يكن في سائر الأمصار ، ولهذا كان يقال فقه كوفي ، وعبادة بصرية "

ثم قال رحمه الله :

" ولهذا كان غالب مايحكى من المبالغة في هذا الباب إنماهو عن عباد البصرة"[١] .

فهذا في بيان بداية نشأة التصوف ، أما عن التطور الذي حصل بعد ذلك فيقول أبن الجوزي — رحمه الله — :

" والتصوف طريقة كان ابتدأوها الزهد الكلي ، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص ، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرون من التزهد ، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب ... "[٢] ثم قال :

" وهـذا الاسـم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كـثيرة حاصـلها أن التصـوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى ... "[٣] ثم قال :

" وعلى هذا كان أوائل القوم فلبس عليهم في أشياء ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم كلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن .

وكـان أصـل تلبيسه عليهم أن صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود هو العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا مايصلح أبدانهم ،وشـبهوا المال بالعقارب ،ونسوا أنه خلق للمصالح ،وبالغوا في الحمل على النفوس حتى إنه كان فيهم من لا يضـطجع ، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير انهم على غير الجادة ، وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لايدري ... "[٤]

وفـي هذا الذي ذكر الشيخ ابن الجوزي إشارة إلى ماحدث من التطور في عقائد المتصوفة التي انحدرت إلى هـوة سحيقة ولم يذكر منها ابن الجوزي — رحمه الله — إلا إشارة يسيرة ، فإنه في مراحله الأولى اتجه ناحية الانحطاط إلى الجهل والبعد عن مجالس العلم والقعود عن الكسب .[٥]

ثـم انحرف اكثر بعد ذلك عندما ظهر عند اتباعه مايسمى بعلم الظاهر والباطن ، وإعلان سقوط التكاليف

مـتروك الحديـث ، أصيب بالفالج فدعا الله تعالى أن يطلقه وقت الوضوء ، فكان إذا أراد أن يتوضأ انطلق ، فإذا رجع إلى سريره فـلج ، وكان ذا وعظ مؤثر لدرجة أن بعض الجالسين في مواعظه يموتون ، قال عنه الذهبي ، رمى بالقدر وهو من كبار الزهاد ، والكمال عزيز ، ت سنة (١٧٧) هـ ، سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٨) .

(١) مجموع الفتاوي ، (١١/ ٦ — ٧) .

(٢) تلبيس إبليس (ص ١٦١) .

(٣) نفسه (ص ١٦٣) .

(٤) نفسه (ص ١٦٣ — ١٦٤) .

(٥) أنظر: طبقات الصوفية الكبرى للشعراني (٥١/١) .

الشـــرعية عـــن الأوليـــاء بـــزعمهم أنهـــم اطلعوا على علم الحقيقة عن طريق الكشف والالهام ،[١] ثم الفناء والمشاهدة [٢] .

واســتمر التصـــوف فـــي خط الإنحراف حيث تأثر بالنصرانية وقولها بالاتحاد والحلول ، وبالمجوسية وتقديســها للأشــخاص وبالهـــندية وقولها بالفناء والتناسخ ، وبالفلسفة اليونانية وإلحادها زندقتها والقول بوحدة الوجود .[٣]

ثم إلى دعوى العلم اللدني ، والتلقي عن الله مباشرة كقول البسطامي : أخذتم دينكم ميت عن ميت أما نحن فأخذنا عن الحي الذي لايموت [٤] وكقول ابن عربي : " والله ماكتبت من الفتوحات المكية حرفاً إلا عن إملاء إلهي أو إلقاء رباني اونفث روحاني ، أو روح كياني " [٥] .

ثــم بعــد ذلــك إلى التشيع والتجهم والإرجاء والقدر وذلك كله لبعدهم عن مناهج التلقي الصحيحة وهي الكتاب والسنة .[٦]

هــذه ملامـــح التصوف وسماته العامة باختصار شديد وأصله ،وكيف نشأ ،وبيان خط انحرافه وبعده عن منابع الإسلام .

المبحث الثالث : التصوف عند السيوطي

مـــن الملاحظ بوضوح ان السيوطي كان يميل إلى الإلتزام ببعض مناهج التصوف المتعددة ، ويلحظ هذا من كلامه في عقيدته ، وفي بعض مصنفاته .

ففي آخر رسالته " علم التوحيد " يقول صراحة : " ونعتقد أن طريق أبي القاسم الجنيد [٧] سيد الصوفية ، عـــلماً وعمـــلاً ، وصحبه ، طريق مقدم ، فإنه خال عن البدع " [٨] وإلى هنا كلام السيوطي مستقيم لامؤاخذة عـــليه فقد شهد أكابر العلماء لصحة طريق الجنيد ،وأنه طريق مستقيم منضبط بضوابط الكتاب والسنة كما قال الجـــنيد نفسه فقد ذكرت قبل ذلك قول الجنيد عن التصوف بأنه:" ذكر مع اجتماع [٩]، ووجد مع استماع[١٠] ،

---

(١) أنظر : بان تيمية / مجموع الفتاوي (١١/٤١٧ـ ٤٣٩) .

(٢) أنظر : إحسان إلهي ظهير : دراسات في ا لتصوف (ص ٢٣٥) .

(٣) أنظـــر : ابن تيمية : درء تعارض العقل ولانقل (٥/ ٨٢) وابن الجوزي : تلبيس إبليس (ص ٣٤٥) ، والبقاعي : تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي (ص ٢٢٤) .

(٤) أنظر : الشعراني : طبقات الصوفية (١/٥) .

(٥) الفتوحات المكية لابن عربي (٣/٤٥٦) .

(٦) أنظر : ابن تيمية :درء تعارض العقل والنقل (٥/٧) .

(٧) سبق ترجمته .

(٨) علم التوحيد ـــ مخ ـــ لوحة رقم (٣١) .

(٩) إذا قصـــد بالاجتماع : اجتماع الناس على الذكر برفع الأصوات ، والانشاد الجماعي ، فها من البدع المنكرة ،وإن قصد به ، اجتماع القلب وإقباله على ذكر الله فهو ذاك .

(١٠)إذا كان الاستماع للقرآن فنعم ،أما للغناء والرقص والضرب بالطبول والدفوف فهو المنكر الذي لايقره دين ولاعقل .

وعمل مع اتباع "[١] ،وقال أيضاً : " علمنا هذامبنى على الكتاب والسنة فمن لم يقرأ هذا القرآن ويكتب الحديث لايقتدي به في هذا الشأن"[٢]

وكـــان شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ يثنى عليه ويذكره بخير ، وقد نقل كلامه السابق في عدة مواضع .[٣]

ثم يكمل السيوطي كلامه فيقول : " فإنه خال عن البدع ، دائر التفويض والتسليم والتبريء من النفس ، ، مبني على الاتباع للكتاب والسنة "[٤] .

وقولــه فـــي هـــذا " مبـــني على التفويض " تحتاج إلى وقفة فإن كان السيوطي يقصد بقوله : مبنى على الـــتفويض ، أنه يتعلق بمسائل صفات الله ــ عزوجل ــ وأنه يفوض معاني الصفات الذي نسبه السيوطي إلى الســـلف ونقلـــته عنه ، فهذا التفويض المنسوب إلى السلف غلط على السلف وغلط على الكتاب والسنة ، فإن السلف لم يفوضوا في باب الصفات ، لكنهم أثبتوها إثباتاً حقيقياً بلاتمثيل ، ونزهوه ــ جل وعلا ــ عن مشابهة الخـــلق تـــنزيهاً بـــلا تعطيل ، وفسروا معانيها على مقتضى اللغة العربية التي نزل بها القرآن ،دون تعرض لكيفيتها في حق الله ــ جل وعلا ــ فالكيف في حقه تعالى مجهول والسؤال عنه بدعة . ، فإن مقتضى القول بالتفويض أن الله تعالى أنزل كلاماً لايفهم له معنى ، وأن الأنبياء والمرسلين لم يعلموا معاني ماأنزل الله تعالى عـــليهم مـــن هذه النصوص وحينئذ فيكون ماوصف الله تعالى به نفسه في القرآن أو كثير مماوصف به نفسه لايعـــلم الانـــبياء معناه ، بل يقولون كلاماً لايعقلونه ، ومعلوم أن هذا قدح في القرآن وفي الأنبياء إذ كان الله تعـــالى انـــزل كتابه الحكيم وأخبر أنه جعله هدى ونوراً للناس ، وأمر الناس بتدبره وعقله ، ومع هذا فأشرف مافيـــه وهوماالخـــبر بـــه الـــرب ــ جلا وعلا ــ عن نفسه بذكر أسمائه وصفاته لايعلم أحداً معناه ، فلا يعقل ولايـــتدبر ،ولايكون الرسول ــ ﷺ ــ بيّنَ للناس مانزل إليهم ولابلغ البلاغ المبين ، فيبقى هذا الكلام سداً لباب الهـــدى والبيان من جهة الانبياء والمرسلين ــ عليهم السلام ــ وفتحاً لباب الزندقة والإلحاد ، وبهذا يتبين ان قول أهل التفويض الذي ينسبونه إلى السلف من أشر أقوال أهل البدع والإلحاد .[٥]

وقد اشبعت هذا الموضوع بحثاً في فصل الصفات " بمايغنى عن إعادته هنا .

وإن كـــان مقصود السيوطي بقوله: " دائر على التفويض " أنه التسليم لأمر الله والتوكل عليه، والاستعانة بـــه تعـــالى والتبريء من الحول والقوة إلا به ــ جلا وعلا ــ فلاشيء ولا محظور بل هو المطلوب ، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون ، (فستذكرون ماأقول لكم وأفوض أمري إلى الله ...)[٦] أي وأتوكل على الله

---

(١) القشيري : الرسالة (٢/٥٥٣) .

(٢) نفسه .

(٣) منها في مجموع الفتاوي : (١١/٢١٠) ، جامع الرسائل (٢/١٢٣ــ ١٢٤، ١٨٦) .

(٤) علم التوحيد ــ مخ ــ لوحة رقم (٣١) .

(٥) أنظـــر : الشـــيخ فالح بن مهدي آل مهدي ، التحفة المهدية شرح الرسالة التدميرية (ص ١١٥ ــ ١١٦) ، ت وتعليق ــ عبدالرحمن بن صالح المحمود ــ دار الوطن ط/ ١٤١٤هـــ .

(٦) سورة غافر ، بعض الآية (٤٤) .

وأستعينه"[١]

ثم يقول السيوطي : " ... بخلاف طريق جماعة من المتصوفة كابن عربي الطائي وأضرابه فإنه زندقة منافية للكتاب والسنة " [٢] .

ولله در السيوطي في هذه العبارة فقد نطق فيها بالحق وأعلن ضلال ابن عربي وزندقته .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١٣٥/٧) .

(٢) علم التوحيد — مخ — لوحة رقم (٣١) .

{ **الأبـــدال** } : على قول من يثبت وجودهم ــ هم رجال تبدلت عوالمهم ، وتخلصت من الشوائب البشرية جواهرهم ٠ [١] وقـــد يجعـــلونهم أربعيـــن رجلاً [٢]أو سبعة [٣] ، كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً آخر [٤]أو أنهم أبدال الأنبياء[٥] ، وأنهم بالشام[٦] ٠

{ **والأوتـــاد** } ــ أيضـــاً على قول من يثبت وجودهم ــ : أربعة رجال مقام كل واحد مقام ركن من أركان الأرض ، واحـــد بالمشـــرق والثاني بالمغرب ، والثالث بالشمال والرابع بالجنوب [٧] ، كما وجد في كلام هؤلاء أيضاً إثبات وجود " النجباء الثلاثمائة " و" الأقطاب السبعة " ، و"الغوث " بمكة ٠

ورتبوهم على هذا النحو الهرمي :

١ ــ أولهم " الغوث " وهو على رأسهم ٠

٢ ــ تحته " الأوتاد " الأربعة ٠

٣ ــ ثم من تحتهم " الأقطاب " السبعة ٠

٤ ــ ثم من تحت هؤلاء " الأبدال " الأربعون ٠

٥ ــ ثم من تحتهم " النجباء " الثلاثمائة٠[٨] ٠

٦ ــ ثم قاعدة الهرم العريضة ، وهم بقية الأمة من العلماء والمحدثين والدعاة والأولياء والحفاظ والقراء وغيرهم ٠

وقالوا في مهمة هؤلاء جمياً : إن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم ، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة ، والثلاثمائة يرفعونها إلى الأربعين ،والأربعون إلى السبعة إلى الأربعة ، والأربعة إلى الغوث [٩]

والجـــلال الســـيوطي ــ عفـــا الله عنه ــ ممن يثبت وجود النجباء والأبدال ، والأقطاب ،والأوتاد ، ذكر بعضهم في مواضـــع وذكرهم جميعاً في رسالة مصنفه ضمن " الحاوي " بعنوان : " الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال [١٠] ٠

قـــال الســـيوطي : " ٠٠٠ والســـائحون مـــن الأصـــناف الـــثمانية المذكـــورة فـــي ســـورة بـــراءة (التوبة ١١٢)[١١] : هم الذين اختاروا الحق على كل شيء ، وثبتوا على ذلك ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وهؤلاء

---

(١) السيوطي : معترك الأقران (٣ / ٢٠٨) ٠

(٢) انظر : ابن تيمة : مجموع الفتاوي (١١/٤٣٣، ٤٤٢) ٠

(٣) انظر : معترك الاقران ٠ ٣ / ٢٠٨) ٠

(٤) انظر : مجموع الفتاوي (١١/ ٤٤٢) ٠

(٥) نفسه ٠

(٦) انظر : السيوطي : الحاوي للفتاوي (٢/٢٤٢ ، ٢٤٣) ، ومجموع الفتاوي ٠ ١١/ ٤٣٤) ٠

(٧) انظر : السيوطي : الحاوي للفتاوي (٢/٢٤٢ ، ٢٤٣) ٠

(٨) انظر : مجموع الفتاوي (١١/٤٣٣) ٠

(٩) انظر : السابق نفسه ، (١١/٤٣٧ـــ ٤٣٨) ٠

(١٠) انظر : الحاوي للفتاوي (٢/٢٤١ ـــ ٢٥٥) ٠

(١١) وهـــي قوله تعالى : " التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) ٠

يقـال لهـم (الأبدال) وأرباب الكمال ، وهم سبعة رجال ، قد تبدلت عوالمهم ، وتخلصت من الشوائب البشرية جواهرهم فأخذوا بالسياحة في البلدان لطلب لقاء الرجال إذ هي كبيعة الخير ، وفي الباطن لنيل المقامات والأحوال : الواردة من عين الجود بالجلال ، والكمال والجمال (١) .

فهذا كلام السيوطي في إثبات " الأبدال " وأنهم هم السائحون في الأرض للقاء الرجال ، وفي الباطن لنيل المقامات والأحوال فهم سائحون في الظاهر والباطن ، سائحون في الظاهر لطلب لقاء الرجال ، وسائحون في الباطن لطلب المقامات والأحوال ، هـل هـو لأخـذ العلم عن هؤلاء الرجال فهذا لايظهر لأنهم قد صاروا أبدالاً بمعنى أنهم قد كملوا ، وتبدلت عوالمهم ، وتخلصـت من الشوائب البشرية جواهرهم ، فهم ليسوا بحاجة بعد ذلك إلى طلب علم جديد خفي عليهم ، أم أنهم طلبوا لقاء الرجال لشيء آخر وهو الذي عبر عنه بقوله :" إذ هي كبيعة الخير " ، والذي يظهر من هذا أنها بيعة الصوفية التي يحصل مـن جنسها بيعة بين الشيخ والمريد ، أو أخذ العهد عليه ، ونحو ذلك ، ولا يعلم في الشرع بيعة إلا بيعة الخلافة العامة ، أوبيعة الإمامة العظمى ، فما مستند هؤلاء الذين يبتدعون بيعة المريد لشيخة أو هذه التي يسميها السيوطي " بيعة الخير "؟

ثم إنه لم يقل أحد من المفسرين بأن السائحين المذكورين في آية التوبة هم " الأبدال " فالوارد في تفسيرها ثلاثة أقوال:

الأول : انهم الصائمون ، وهوقول عامة المفسيرين (٢) .

الثاني : أنهم طلاب العلم ،ولوأن كل طالب بعلم تنقل من بلد إلى آخر لطلبه ، لصار جميع طلاب العلم أبدالاً ، وعلى ذلك فلامسوغ للقول بأنهم أربعون رجلاً أو أنهم في بلد معين بخصوصه وهي بلاد الشام .

الثالث : أنهم السائرون في الأرض للجهاد في سبيل الله .

ذكر هذه الأقوال الثلاثة الإمام الرازي في تفسيره (٣) ، وأشار الإمام القرطبي في تفسيره إلى قولين آخرين :

ـ أحدهما : أن السائحين هم المهاجرون . ـ الثاني : أنهم المتفكرون تجول عقولهم فيما ذكروا.(٤)

وأيـا ماكان تفسير السائحين في هذه الأقوال الخمسة فلايدل أحدها على ماذهب إليه السيوطي ، على أن العلامة ابن كثير رجح القول الأول . وهو القول بأنهم الصائمون،ولم يذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير قولاً غيره.(٥)

قـال ابـن كثير : " فهذه اصح الأقوال وأشهرها "(٦) يقصد الروايات التي اوردها عن النبي ـ ﷺ ـ في تفسير السائحين بـأنهم الصـائمون ،ثـم قال ـ رحمه الله ـ : " وليس المراد من السياحة ماقد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض ، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ن فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين"(٧).

أمـا عـن " الأوتـاد " فقـد قال السيوطي : " وأما الساجدون فهم الذين اقعدت رسومهم ، وفنيت بالمجاهدة نفوسهم وجسـومهم ، وهـم أربـاب الفناء المتجردون عن كل المناقد،تخلصوا من رق البشرية لتحققهم أنه اللطيف الخبير السميع البصير ، عاشوا عيشاً تاماً كاملاً ، فإن ترك التدبير لله عيش ، كما أن التدبير نصف العيش ، ويقال لهذا الوجه : " الاوتاد " وهم أربعة رجال مقام كل واحد مقام ركن من الأركان شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً "(٨) .

---

(١) معترك الاقران (٣ / ٢٠٨) .

(٢) انظر الرازي : التسير الكبير (٢٠٩/١٦).

(٣) نفسه .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٧١ـ ١٧٢) .

(٥) انظر جامع البيان (٣٧/١١ ـ ٣٩) .

(٦) تفسير القرآ ن العظيم (٤ / ١٥٧) .

(٧) نفسه .

(٨) معترك الأقران (٣/ ٢٠٨) .

والسـيوطي هنا يفسر " الساجدين " في سورة التوبة بأنهم هم " الاوتاد" كما هو واضح من سياق قوله ولم أر أحداً من المفسـرين قـال ماقاله السيوطي في تفسيرها بل كلهم مجمعون على أن المراد بقوله تعالى ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ أي المصلون الراكعون في صلاتهم الساجدون فيها .(١)

والسيوطي نفسه في تفسيره " الدر المنثور" أورد الروايات التي تفسر السائحين بأنهم الصائمون ، والراكعين الساجدين أنهم المصلون الصلوات المفروضة (٢) فكيف يورِد هنا مايخالف قوله هناك ؟

وكما قلت : إنه قدصنف رسالة في هذا الموضوع سماها " الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال " (٣) ، وأتى فيـه بتهويل ليس عليه تعويل ، إذ كلهْا لاتنهض للإحتجاج ، وهي تنبع من خيال المتصوفة الذين أصاب بعضهم الهوس وهم يلهثون وراء الولاية التي يلوح بها الشياطين لهم على طريق غير طريق رسول ا لله ﷺ وأصحابه الكرام — رضي الله عنهم جميعاً .

وفصـل المقال في هذه المسألة ما قاله ابن تيمية — رحمه الله — وهو يتكلم عن أهل الصفة وينكر قول من قال إنهم كانوا مستغنين عن رسول الله ﷺ وأنه لم يرسل إليهم ، وأنه تعالى أوحي إلى أهل الصفة ، في الباطن مأأوحاه إلى محمد ﷺ ليلة المعراج ، وبعدما رد هذه الترهات والزندقة قال — رحمه الله — : " وقد روى أنه بها (أي الصفة) غلام للمغيرة بن شعبة ، وأن النبي ﷺ قال : " هذا واحد من السبعة " { أي الأقطاب } وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم ، وإن كان قد رواه أبو نعيم في الحلية ن وكذا كل حديث يروي عن النبي — ﷺ — في عدة الأولياء ، والأبدال ، والنقباء ، والنجباء ، والاوتاد ، والاقطاب ، مثل أربعة أو سبعة أو أثنى عشر أو أربعين أوسبعين ، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أو القطب الواحد ، فـليس في ذلك شيء صحيح عن النبي — ﷺ — ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال ، وروي فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً ، وأنهم بالشام ، وهو في المسند من حديث علي — رضي الله عنه — وهو حديث منقطع ليس بثابت"(٤) .

وقـد سـئل — رحمه الله — عن الحديث المروي في الأبدال هل هو صحيح أو مقطوع ؟ وهل الابدال مخصوصون بالشام ؟ ... وماقول السادة العلماء في هذه الأسماء التي تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة ، ويقولون : هذا غوث الأغواث ، الكبير ...؟ فأجاب — رحمه الله — قائلاً :" أما الاسماء الدائرة على السنة كثير من النساك والعامة مـثل" الغـوث " الذي بمكة ، و" الأوتاد الأربعة " و" الأقطاب السبعة " و" الأبدال الأربعين " و" النجباء الثلاثمائة " : فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى ؛ ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ باسناد صحيح ، ولاضعيف يحمل [عليه] ألفاظ الأبدال.

فقـد روي فيهم حديث شامي منقطع الاسناد عن علي رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال : " إن فيهم — يعـني أهل الشام — الأبدال الأربعين رجلاً ، كلما مات رجل ابدل الله تعالى مكانه رجلاً"(٥) ولاتوجد هذه الأسماء في كلام السـلف ، كمـا هـي عـلى هـذا الترتيب : ولاهي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاًعاماً:وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشائخ وقد قالها أما آثرا لها عن غيره أو ذاكراً .

---

(١) انظـر في ذلك : تفسير ابن جرير (١١/ ٣٩) ، تفسير القرطبي (١٧٢/٨) ، تفسير الرازي (٢١٠/١٦) ، تفسير ابن كثير (١٥٦(٤) ، تفسـير السيوطي " الدرالمنثور " (٢٩٦/٤) ، تفسير ابي المظفر السمعاني (٣٥٢٩/٢ ، تفسير الشوكاني (٢ / ٤٠٩) ، أحكام القرآن لابن العـربي (١٠٢٠/٢) ، تفسـير الجلاليـن(ص ٢٦١) ، مختصـر تفسير الطبري (ص ٢٠٥) ، وأخيراً تفسير مخلوف بحاشية المصحف الشريف (ص ١٦٧) .

(٢) الدر المنثور (٤ / ٢٩٦) ، والجلالين (ص ٢٦١) .

(٣) الحاوي للفتاوي (٢٤١/٢) .

(٤) مجموع الفتاوي (١٦٧/١١) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١١٢/١) .

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار فيه من الحق مايوجب قبوله و من الباطل مايوجب رده ، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض ٠

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل

وقــوم صــدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق ، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل ، وهذا تحقيق لما اخبر به النبي ﷺ عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة ٠

فــإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل وهذا هو التبديل والتحريف الذي وقع في دينهم، ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة، وبالنســخ أخرى ، وهذا الدين لاينسخ أبداً لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان مايلبس به الحق بالــباطل ، ولابــد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل ، فينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولوكره المشركون ٠

فالكتب المنزلة من السماء ، والأثارة من العلم الماثورة عن خاتم الأنبياء ، يميز الله بها الحق من الباطل ، ويحكم بين الــناس فيمــا اختلفوا فيه وبذلك يتبين ان هذه ا لأسماء على هذا العدد ، والترتيب والطبقات ليست حقاً في كل زمان ، بل يجب القطع بأن هذا على عمومه واطلاقه باطل ، فإن المؤمنين يقلون تارة ويكثرون أخرى ، ويقل فيهم السابقون المقربون تــارة ، ويكــثرون أخــرى ، وينتقلون في الأمكنة ، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزْمنة ، وليس من شرط أولياء الله اهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين تعيين العدد ٠

وقــد بعث الله رسوله بالحق وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا اقل من سبعة ، ثم أقل من أربعين ، ثم أقل من سبعين ثم أقل من ثلاثمائة فيعلم أنه لم يكن فيهم هذه الاعداد ، ومن الممتنع أن يكون ذلك في الكفار ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة ، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة ،ومستقر النبوة وموضع خلافه النبوة ، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين ، ابي بكــر وعمــر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين، وان كان قد خرج منها بعد أن بويع فيها ومن الممتنع أنه قد كان بمكة في زمنهم من يكون افضل منهم ٠

ثم ان الإسلام انتشر في مشارق ا لأرض ومغاربها ، وكان في المؤمنين في كل وقت من اولياء الله المتقين ، بل من الصديقين السابقين المقربين عدد لايحصى عدده إلا رب العالمين ، لا يحصرون بثلاثمائة ولا بثلاثة آلاف ، ولما انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان في القرون الخالية من أولياء الله المتقين ، بل من السابقين المقربين من لايعرف عدده ، وليسوا بمحصــورين بعــدد ولامحدودين بأمد،وكل من جعل لهم عدداً محصوراً فهو من المبطلين عمداً أو خطأ ، فنساله من كان القطــب والــثلاثة إلى سبعمائة ، في زمن آدم ونوح وإبراهيم ،وقبل محمد عليه الصلاة والسلام في الفترة حين كان عامة الــناس كفــرة ؟ ! قال الله تعالى :﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ٠٠٠ ﴾ [١] أي كان مؤمناً وحده وكان الناس كفاراً جميعاً ، وفي صحيح البخاري " أنه قال لسارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك "[٢] وقال الله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين [٣]

وإن زعموا انهم كانوا بعد رسولنا عليه السلام نسألهم في أي زمان كانوا ؟ ومن أول هؤلاء ؟ وبأية آية ؟ وبأي حديث مشــهور في الكتب الستة ؟ وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقده ؟ لأن العقائد

---

(١) سورة النحل ،ب عض الآية (١٢٠) ٠

(٢) صحيح البخاري ــ ح رقم (٢٢١٧) الفتح (٤/٤١٠) ، وانظر ح/ رقم (٢٦٣٥) ، (٣٣٥٧) ، (٣٣٥٧) ، (٥٠٨٤) ، ومسند أحمد (٢ / ٤٠٤) ٠

(٣) سورة الجمعة ، الآية (٢) ٠

لاتعتقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة ، ومن البرهان العقلي (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين [١]

فإن لم يأتوا بهذه الأدلة الأربعة الشرعية فهم الكاذبون بلاريب فلا نعتقد أكاذيبهم ٠

ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وبنصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة ، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات ٠

" فأمـــا لفظ الغوث والغياث " فلايستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين ، فلايجوز لأحد الاستغاثة بغيره ، لابملك مقرب ولا نبي مرسل ٠

ومـــن زعـــم ان أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم ، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة ، والثلاثمائة إلى السبعين والسبعون إلى الأربعين ، والأربعون إلى السبعة ، والسبعة إلى الأربعة ، والأربعة إلى الغوث فهو كاذب ضال مشرك ، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ٠٠٠ ﴾ [٢] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ٠٠ [٣]

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من الحجاب ؟ وهو القائل تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فـــإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ [٤] وقال إبراهيم عليه السلام داعياً لأهـــل مكـــة ﴿ ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم مانخفي مانعلن ومايخفي على الله شيء في الأرض ولا في السماء ٠ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل واسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ [٥]

وقـــال النـــبي ﷺ لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالذكر " أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولاغائباً ،وإنما تدعون سميعاً قريباً ، ان الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته"[٦] وهذا باب واسع ٠

وقـــد عـــلم المســـلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولامشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم ، لاظاهراً ولاباطناً بهذه الوسائط والحجاب ، فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر مايقوله الظالمون علواً كبيراً ، وهذه من جنس دعوى الرافضة انه لابد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لايتم الإيمان إلا به ، ثم مع هـــذا يقولون أنه كان صبياً دخل السرداب من أكثر من اربعمائة وأربعين سنة ، ولا يعرف له عين ولاأثر ، ولايدرك له حس ولاخبر ٠

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه ، بل هذا الترتيب والاعداد تشبه من بعض الوجـــوه تـــرتيب الإســـماعيلية ، والنصـــيرية ، ونحوهم في السابق والتالي والناطق ٠ والأساس والجسد ، وغير ذلك من الترتيب ، الذي مانزل الله به من سلطان ٠

(وأمـــا الأوتاد) فقد يوجد في كلام البعض انه يقول : فلان من الأوتاد ، يعنى بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان ، والديـــن في قلوب من يهديهم الله به ، كما يثبت الأرض بأوتادها ، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء

---

(١) سورة البقرة ، بعض الآية (١١١) ، سورة النمل ،بعض الآية (٦٤) ٠

(٢) سورة الأسراء ، بعض الآية (٦٧) ٠

(٣) سورة النمل ، بعض الآية (٦٢) ٠

(٤) سورة البقرة ، الآية (١٨٦) ٠

(٥) سورة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ الآيات (٣٧، ٣٨ ،٣٩) ٠

(٦) صـــحيح البخاري ، ح رقم (٢٩٩٢)الفتح ٠ ٦ / ١٣٥) ، وانظر ح رقم (٤٢٠٥) ، (٦٣٨٤) ، (٦٤٠٩) ، (٦٦١٠) ، (٧٣٨٦) ، وصحيح مسلم (٢٠٧٦/٤) ح رقم (٢٧٠٤) ، ومسند أحمد (٤/ ٣٩٤ ، ٤٠٢،٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩) ٠

فكــل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة ، والجبال الكبيرة ، ومن كان بدونه كــان بحســبه ، وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر ، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض ٠

(وأما القطب) فيوجد أيضاً في كلامهم فلان من الأقطاب ٠ أو فلان قطب ، فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا ، باطناً أو ظاهراً ، فهو قطب ذلك الأمر ومداره ، سواء كان الدائر عليه امر داره أو دربه ، أو قريته أو مدينته ، أمــر دينها أو دنياها ، باطناً أوظاهراً ، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولاأكثر : لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا ؛ فهذا هو القطب في عرفهم فقد يتفق في عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة في الفضل عند الله سواء ، ولا يجب ان يكون في كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً ٠

وكذلــك لفــظ " الــبدل " جاء في كلام كثير منهم ، فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس من كلام النبي ﷺ ، فإن الإيمان كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام ، وكانت الشام والعراق دار كفر ، ثم لما كان في خلافة علي رضي الله عنه قد ثبت عنه عليه السلام أنه قال : " تمرق مارقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق "[١] فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام ، معلوم أن الذين كانوا مع علي رضي الله عنه من الصحابة مثل عمار بن ياسر وسهل بن حــنيف ونحوهما ، كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية ، وان كان سعد بن أبي وقاص ونحوه من القاعدين افضل ممن كــان معهما ، فكيف يعتقد مع هذا أن الابدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام ؟! هذا باطل قطعاً ، وان كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة فقد جعل الله لكل شيء قدراً ٠

والكــلام يجب أن يكون بالعلم والقسط ، فمن تكلم في ا لدين بغير علم دخل في قوله تعالى : ﴿ ولاتقف ماليس لك به علم ﴾ [٢] وفي

قوله تعالى : ﴿ وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ [٣] ومن تكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى: ﴿ يأأيها الذين آمنوا كونــوا قواميــن بالقسط شهداء لله ﴾ [٤] وفي قوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ [٥] وفي قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ [٦]

والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان : منها أنهم ابدال الأنبياء ومنها أنه كلما مات منهم رجل ابدل الله تعالى مكانه رجــلاً ، ومنها انهم ابدلوا السيئات من اخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات ، وهذه الصفات كلها لاتختص بأربعين ولاباقل ولابأكثر ،ولاتحصر بأهل بقعة من الأرض ؛ وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم " النجباء " ٠

فالغــرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، مثل تفسير بعضهم " الغوث " هو الــذي يغيث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم فإن هذا معدوم العين والأثر شبيه بحال المنتظر الذي دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة٠

وكذلــك من فسر " الأربعين الابدال " بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل ؛ بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين ، وصلاتهم وأخلاصهم، ولايتقيد ذلك لا بأربعين ولا باقل ولابأكثر ، كما جاء في الحديث المعروف أن سعد بن أبي وقاص قال : يارسول الله : الرجل يكون حامية القوم ، ايسهم له مثل مايسهم لاضعفهم ؟ فقال : "

---

(١) صحيح مسلم (٢ /٧٤٥) ح رقم (١٥٠) من كتاب الزكاة ،رقم (١٥٢) ، ومسند أحمد (٣/٢٢، ٤٨) ٠

(٢) سورة الاسراء ، بعض الآية (٣٦) ٠

(٣) سورة الاعراف ، بعض الآية (٣٣) ٠

(٤) سورة النساء ، بعض الآية (١٣٥) ٠

(٥) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٥٢) ٠

(٦) سورة الحديد ، بعض الآية (٢٥) ٠

ياسعد ! وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم واخلاصهم "[١] .

وقد يكون للرزق والنصر أسباب أخر، فإن الفجار والكفار أيضاً يرزقون وينصرون ، وقد يجدب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم لينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم ، فيجمع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكروب ، وقد يملي للكفار ويرسل السماء عليهم مدراراً : ويمدهم باموال وبنين ويستدرجهم من حيث لايعلمون ، إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر وإما ليضعف عليهم العذاب في الآخرة فليس كل انعام كرامة ،ولا كل امتحان عقوبة ، قال الله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا مابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وإما إذا مابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن كلا ﴾ [٢]

وليس في أولياء الله المتقين ، ولاعباد الله المخلصين ، الصالحين ولاأنبيائه المرسلين ؛ من كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس بل هذا من جنس قول القائلين ان علياً في السحاب، وأن محمد بن الحنفية في جبال رضوى ، وأن محمد بن الحسن بسرداب سامرى وأن الحاكم بجبل مصر ، وأن الابدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان ، فكل هذا ونحوه من قول اهل الأفك والبهتان ، نعم قد تخرق العادة في حق الشخص ، فيغيب تارة عن أبصار الناس أما لدفع عدو عنه ٠ وأما لغير ذلك ، وإما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل نعم ! يكون نور قلبه وهدى فؤاده ومافيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره ومعرفته غيباً عن أعين الناس ،ويكون صلاحه وولايته غيباً عن أكثر الناس ، فهذا هو الواقع وأسرار الحق بينه وبين أوليائه ، وأكثر الناس لايعلمون ، وقد بينا بطلان اسم الغوث مطلقاً،وأندرج في ذلك غوث العجم ومكة والغوث السابع"[٣]

فهذا كلام شيخ الإسلام بنصه ، وقد آثرت أن أنقله وإن طال ، وذلك لأهميته في هذا الموضوع ، ولأنه حجة في هذا الباب ، وحتى لايبقى بعده كلام لمتهوك أو لمتهوس يحجب به قرص الشمس ،ورحم الله تعالى السيوطي ماكان أحراه ،وهو الحافظ المحقق ، ألا ينجر وراء هؤلاء المبطلين وإن كثر الخبث وعمت البدع في أيامه ولياليه

المبحث السادس :الخضر — عليه السلام

العبد الصالح الذي سار موسى — عليه السلام — إليه هو الخضر وهو غير مذكور باسمه هذا في كتاب الله تعالى فهو من " مبهمات القرآن " لكنه مبين في الحديث الصحيح ، حيث بين ذلك رسول الله ﷺ وسيأتي حديثه إن شاء الله "[٤].

وفي سبب تسميته بالخضرفقد قال النبي — ﷺ — " إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء"[٥]

والفروة البيضاء قال عنها عبدالرزاق في مصنفه : " الحشيش الأبيض " ٠

وقال عنها إبراهيم الحربي : " هي القطعة من الأرض عليها حشيش يابس " ٠

---

(١) صحيح البخاري ، ح رقم (٢٨٩٦) الفتح (٨٨/٦) ولفظه : " هل تنصرون إلا بضعفائكم ؟" وعند أحمد :" وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم " المسند " ١٧٣/١) ، وفي المسند أيضاً (١٩٨/٥) : " أبغوني ضعفاءكم ، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم " ، وعند النسائي : " إنما نصر هذه الأمة بضعفهم ، بدعواتهم ، صلاتهم ، إخلاصهم " ، أنظر : ابن حجر : الفتح (٦/ ٨٩) ٠

(٢) سورة الفجر ، الآيتان (١٦/١٥) ٠

(٣) مجموع الفتاوي (١١/ ٤٣٣— ٤٤٤) ٠

(٤) ذكر السيوطي في كتابه : " مفحمات الأقران في مبهمات القرآن ، (ص١٤١ ، — ٠ إياد خالد الطباع : أن اسمه : إيليا ، وقيل : اليسع و قيل : إلياس ، وعزاه للكرماني في" عجائبه " وذكر ذلك ابن حجر في الفتح " (٤٣٣/٦) وزاد عليه بقوله : وقيل عامر ، وقيل خضرون ، قال : والأول أثبت ، ثم جر نسبه فقال : أبن ملكان بن فالغ ابن عابر بن شالخ بن أرفشخذ بن سام بن نوح ٠٠٠ كنيته أبو العباس ٠ أ ٠ هـ ٠

(٥) صحيح البخاري — رقم (٣٤٠٢) الفتح (٤٣٣/٦) ٠

وقال عنها ابن الأعرابي : " هي أرض بيضاء ليس فيها نبات"[١]

والذي يبدو لي من الحديث أن هذه معجزة من معجزات الخضر — عليه السلام — على القول الراجح بنبوته

ويبدوا أيضاً أنه — عليه السلام — جلس على قطعة من الأرض يابسة وعليها حشيش وعشب يابس ،فلما جلس عليها دبت فيها الحياة ، فاهتزت تحته لتصبح خضراء ، أي نبت العشب الأخضر على تلك القطعة ، ولهذا سمى " الخضر " من الخضرة والأخضرار ، وحكي عن مجاهد أنه قيل له الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ماحوله [٢] .

وردت قصة الخضر — عليه السلام — مع موسى عليه السلام ، في سورة الكهف من الكتاب العزيز ، وتبدأ القصة بقوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر عجباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ومأأنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا * قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا ﴾[٣]

يقول ابن كثير : " سبب قول موسى لفتاه — وهو يوشع بن نون — هذا الكلام أنه ذُكر أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم مالم يحط به موسى فأحب الذهاب إليه ، وقال لفتاه ذلك : ﴿ لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أي لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين ﴾ [٤]

ثم التقى موسى — عليه السلام — بالخضر — عليه السلام — فطلب موسى أن يتبع الخضر حتى يتعلم منه ، ثم كان من امر الخضر أن خرق السفينة ، وقتل الغلام ، فانكر عليه موسى — عليه السلام — ذلك لأنه إتلاف للأموال ، وإزهاق للأرواح البريئة من غير وجه حق في أحكام الشرع .

وروى قصتهما الإمام البخاري في كتاب التفسير من صحيحه كاملة وفيه قال الخضر :" ياموسى إني على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمك الله لاأعلمه ... "[٥].

وفي السبب الذي ذكره العلامة ابن كثير والذي دفع موسى إلى السير لملاقاة الخضر عليه السلام اقتضاب واختصار ، وقد بين النبي — ﷺ — ذلك السبب او ضح بيان وأتمه، ففي حديث سعيد بن جبير يرويه عن ابن عباس عن أبي بن كعب — رضي الله عنهم جميعاً — أن أبياً سمع النبي — ﷺ — يقول " إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، أو قال ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ، ولىّ ، فأدركه رجل فقال : أي رسول الله ، هل في الارض احد أعلم منك ؟ قال :لا ، أوأنه — عليه السلام — سئل:أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه:إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى : يارب كيف لي به؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل [٦] فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ "[٧] وذكر تمام القصة على سياق القرآن الكريم .

---

(١) انظر هذه الأقوال في فتح الباري (٤٣٣/٦) ،قال عبدالله بن الإمام أحمد في كلام عبدالرزاق ، " أظن هذا تفسيراً من عبدالرزاق " بمعنى أنه ليس حديثاً مسنداً إلى النبي — ﷺ — .

(٢) انظر : فتح الباري (٩/ ٤٣٣) .

(٣) سورة الكثف ، الآيات (٦٠ — ٦٥) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٧٤/٥) .

(٥) صحيح البخاري — رقم (٤٧٢٥) كتاب التفسير ، سورة الكهف ، باب (٢) .

(٦) المكتل على وزن منبر : زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً ، ترتيب القاموس (١٤/٤) ،وفي اللسان (٥٨٣/١١) المِكتل والمِكتلة : الزّبيل الذي يحمل فيه التمر او العنب إلى الجرين .. وهو بكسر الميم : الزمبيل الكبير كأن فيه كُتلاً من التمر أي قطعاً مجتمعة .

(٧) صحيح البخاري رقم (١٢٢) ، . ٤٧٢٥) ، (٤٧٢٦) الفتح (٢١٧/١) ، (٤٠٩/٨ —٤١٢) ، وصحيح مسلم (١٨٤٧/٤) ح رقم (٢٣٨٠) ، سنن الترمذي — كتاب التفسير — سورة الكهف (١٨) باب(١) ،واحمد في المسند

وليس المقصود هنا مجرد سياق القصة ، وإنما مقصودنا أن نبين ماقاله السيوطي عن الخضر اعتقاداً ، وفصل الكلام فيه ، وسأتناول هنا الكلام عنه في مسألتين اثنتين — إن شاء الله — :

أحداهما : هل الخضر نبي أم أنه مجرد ولي ؟

الثانية : هل هو حي الآن أم أنه في عداد الأموات ؟

أولاً : نـبـوة الخضر :

اختلف العلماء في حقيقة الخضر هل هوولي أو نـبي ؟

١ـــ فذهب أبو القاسم القشيري في رسالته ، وأبو علي ابن أبي موسى من الحنابلة ، وأبو بكر بن الأنباري ، وجماعـــة من المتصوفة إلى أن الخضر كان ولياً وليس بنبي [١] . وهذا هو الأساس الذي بنت عليه المتصوفة ضلالها في تفضيل الولي على النبي والرسول ، كما قال قائلهم :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي [٢]

وعلى هذا القول : الولي في اعلى المقامات ،ويليه النبي ، وأما الرسول فهو في أدنى المنازل ، وهذا رأي باطل والأدلة على خلافه .

٢ـــ وذهـب ابـن عـبـاس ووهــب بن منبه إلى أنه كان نبياً غير مرسل [٣] وهو قول جمهور العلماء من المفسرين والأصـــوليين والمحدثيـــن والمؤرخين ، فقد حكي ابن عطية البغوي عن اكثر اهل العلم أنه نبي [٤] . وقال الفخر الرازي : " قال الأكثرون أن ذلك العبد الصالح كان نبياً "[٥]

وقال القرطبي : " والخضر نبي عند الجمهور ، وقيل هو عبد صالح غير نبي ، والآية تشهد بنبوته ، لأن بواطن أفعاله لاتكون إلا بوحي وأيضاً فإن الإنسان لايتعلم إلا ممن هو فوقه وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي"[٦]

وقـــال أبو حيان: " والجمهور على أنه نبي "[٧] ، وقال الثعلبي : " هو نبي في جميع الأقوال "[٨] وفي هذا نظر لأن الخلاف مشهور .

غيـــر أنـــه لم يرد نص صريح بإثبات نبوته ،ولكن سياق قصته مع موسى — عليه السلام — في القرآن يوحى بنبوته ،ويدل على ذلك أدلة منها :

١ — قوله تعالى : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ [٩] والله تعالى يصف الأنبياء في أشرف المقامات بالعبودية ، كما

(١١٨/٥، ١١٩) .

(١) أنظر : ابن حجر : الزهر النضر ضمن مجموعة الرسائل المنبرية (١٩٨/٢ — ١٩٩) . وابن كثير : تفسيره (١٨٣/٥) ، وفتح الباري (٦ / ٤٣٤)

(٢) ابن تيمة : مجموع الفتاوي (٢٢٦/١١)

(٣) الزهر النضر . ٢/ ١٩٨) ، وأنظر : الدر المنثور (٤٢٥/١٦) .

(٤) انظر فتح الباري (٤٣٥/٦) .

(٥) التفسير الكبير (١٤٩/٢١) .

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٢/١١) .

(٧) انظر ابن حجر ، الزهر النضر في نبأ الخضر (١٩٨/٢) .

(٨) نفسه

(٩) سورة الكهف ، بعض الآية (٦٥) .

قال تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب ممانزلناعلى عبدنافأتوا بسورة من مثله ﴾ [١] والعبد هنا في هذه الآية هو رسول الله محمد — ﷺ — وقال جل وعلا — أيضا —:﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ··· ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿الحمد لله الذي أنـزل عـلى عبده الكتاب ··· ﴾ [٣]وقال تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ·· ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ فـأوحى إلى عـبده مـاأوحى ﴾ [٥] وقال تعالى : ﴿ هو الذي ينزل علىعبده آيات بينات ··· ﴾ [٦] وقال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ·· ﴾ [٧] وقال تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى ، عبداً إذا صلى[٨]

فهذه الآيات كلها في حق رسول الله ونبيه ومصطفاه محمد — ﷺ — ·

وقال تعالى في حق رسول الله نوح — عليه السلام — : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ [٩] ·

وقال تعالى عن نوح ولوط عليهما السلام : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأت نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ··· ﴾ [١٠] ·

وقال تعالى عن عيسى — عليه السلام — : ﴿ قال اني عبد الله ··· ﴾ [١١] وقال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكـون عـبداً لله ··· ﴾ [١٢] وقال تعالى : ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ··· ﴾ [١٣] ،وقال تعالى عن داود عليه السـلام :﴿ ·· واذكر عبدنا داود ذا الأيد ··· ﴾ [١٤] وقال تعالى عن سليمان عليه السلام :﴿ ووهبنا لداود سليمان نعـم العـبد إنـه أواب ﴾ [١٥] وقـال تعـالى عـن أيـوب — عـليه السـلام — : ﴿ واذكـر عـبدنا أيـوب إذ نادي ربه ··· ﴾ [١٦] ثم قال تعالى عنه : ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد ··· ﴾ [١٧] ،وهكذا حديث ربنا عن الأنبياء ووصفهم بالعبودية لأنهم أفضل من حققوا العبودية التامة الكاملة لله جلا وعلا ،وكذلك قال تعالى عن الخضر : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ··· ﴾ [١٨] فهو من جملة هؤلاء العباد الأنبياء ·

٢ — قولـه تعـالى : ﴿ ··· آتيناه رحمة من عندنا ··· ﴾ [١٩] والرحمة من معانيها النبوة قال ابن عباس —

---

(١) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٣) ·

(٢) سورة الاسراء بعض الآية (١) ·

(٣) سورةالكهف ، بعض الآية (١) ·

(٤) سورة الفرقان ، بعض الآية (١) ·

(٥) سورة النجم ، الآية (١٠) ·

(٦) سورة الحديد بعض الآية (٩)

(٧) سورة الجن ، الآية (١٩) ·

(٨) سورة العلق ،الآيتان (٩، ١٠) :

(٩) الاسراء ، الآية (٣) ·

(١٠) سورة التحريم ،بعض الآية (١٠)

(١١) سورة مريم ، بعض الآية (٣٠) ·

(١٢) سورة ا لنساء ، بعض الآية (١٧٢) ·

(١٣) الزخرف ، بعض الآية (٥٩) ·

(١٤) سورة ص ، بعض الآية (١٧) ·

(١٥) سور ص ، الآية (٣٠) ·

(١٦) سورة ص ، بعض الآية (٤١) ·

(١٧) سورة ص ، بعض الآية (٤٤) ·

(١٨) سورة الكهف ، بعض الآية (٦٥) ·

(١٩) سورة الكهف ، بعض الآية (٦٥) ·

رضي الله عنهما — أعطيناه الهدى والنبوة ".[١] .

يؤيـد هـذا قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أهم يقسمون رحمة ربك ... ﴾ [٢] .

قـال القرطبي : " يعنى النبوة " [٣] وكذلك قال الشوكاني [٤] وقال أبو المظفر السمعاني : " أي رسالة ربك " [٥] وبنحوه قال ابن كثير [٦] .

وكذلك قوله تعالى في سياق قصة نوح — عليه السلام — :﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ... ﴾ [٧]قال القرطبي : " أي نبوة ورسالة ، عن ابن عباس ، وهي رحمة على الخلق " [٨] .

٣ — قولـه تعالى : ﴿ ... وعلمناه من لدنا علماً ﴾ [٩] فقد أطلعه الله تعالى على علم بعض الأمور الغيبية ، وهذامـن عـلم النبوة ، يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ... ﴾ [١٠] قال القرطبي : " النبوة والخلافـة في الأرض والزبور " [١١] . وقال ابن كثير :" الملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة"[١٢] وكذل قيـل في قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ... ﴾ [١٣] أي ورثه في مهمة النبوة ، قال السمعاني : " ليس المراد منه وراثة المال ، وإنما المراد منه إرث الملك والنبوة " [١٤] .

٤ — لو لم يكن الخضر نبياً لكان غير معصوم ، وهذا معناه احتمال الخطأ في بعض أفعاله ، فكيف يتبعه ويتعلم منه نبي معصوم ؟ وإذا أخطأ في فعل من الأفعال فكيف يقتدي به النبي المعصوم ؟ فاتباع موسى — عليه السلام — له دل على عصمة الخضر في أفعاله ، ولا عصمة إلا للأنبياء .

٥ — إقدام الخضر على قتل الغلام دل على نبوته ،لأن قتل النفس المعصومة لايجوز إلا بالحق ،ولو لم يكن نبياً لما علم كفر الغلام ، وبخاصة ان موسى النبي الذي معه لم يعلم كفر الغلام .

ثم تعليل الخضر لموسى — عليهما السلام — بأن قتله لكفره ، يدل على أن الله أخبره بكفره ، وأمره بقتله .

٦ — قـول الخضـر : ﴿ ومافعلته عن أمرى ... ﴾ [١٥] أي لم أقم بهذه الأفعال عن امري الشخصي ، وإنما أمرني بها الله سبحانه وتعالى ، وهذا الأمر الرباني عن طريق الوحي .

---

[١] السيوطي : الدر المنثور (٤٢٥/١٦) .

[٢] سورة الزخرف ،الآية (٣١) وبعض (٣٢) .

[٣] الجامع لأحكام القرآن (٥٦/١٦) .

[٤] انظر فتح القدير (٥٥٤/٤) .

[٥] تفسير السمعاني (٩٩/٥) .

[٦] تفسير القرآن العظيم (٢١٣/٧) .

[٧] سورة هود بعض الآية (٢٨) .

[٨] الجامع لأحكام القرآن (١٩/٩) ، الدر المنثور (١٢/ ٤١٦) عن ابن جريج . وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ .

[٩] سورة الكهف ، بعض الآية (٦٥) .

[١٠] سورة النمل ، بعض الآية (١٥) .

[١١] الجامع لأحكام القرآن (١٣ / ١١٠) .

[١٢] تفسير القرآن العظيم (١٩٢/٦) .

[١٣] سورة النمل ، بعض الآية (١٦) .

[١٤] تفسير السمعاني (٨٦/٤) ، والشوكاني (١٢٩/٤) ، والدر المنثور (٣٤٤/١٩) .

[١٥] سورة الكهف ، بعض الآية (٨٢).

قال ابن حجر :" وهذه ظاهرة أنه فعله بأمر من الله والأصل عدم الواسطة ، ويحتمل ان يكون بواسطة نبي آخر لـم يذكره وهو بعيد ولاسبيل إلى القول بأنه إلهام لأن ذلك لايكون من غير النبي وحيا حتى يعمل به ماعمل من قتل الـنفس ،وتعرض الانفس للغرق ، فإن قلنا إنه نبي فلا إنكار في ذلك ٠٠ وكان بعض أكابر العلماء يقول : أول عقدة تحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبياً ، لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي "[١]

٧ ــ عتب الله تعالى على موسى ــ عليه السلام ــ عندما قال : " أنا أعلم الناس " فقال له الله تعالى : " إن عبداً بمجمـع الـبحرين هو أعلم منك " فالخضر أعلم من موسى في تلك المسائل ولايمكن أن يكون من ليس بنبي أعلم من النبي ٠

٨ ــ قول الخضر لموسى : " إني على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمك الله لاأعلمه"[٢].

وبـناء عـلى هذه الأدلة فلا مسوغ للقول بأن الخضر ليس بنبي وإنما هو ولي ، فهذا يقتضي تفضيل الولي على النبي ،وهذا أمر خلاف الإجماع ، ولذلك شدد بعض العلماء جداً في الأنكار على من نفى النبوة عنه قال القرطبي : " ولننبه هنا على مغلطتين :

الأولى : وقـع لـبعض الجهلة ان الخضر أفضل من موسى ٠ تمسكاً بهذه القصة وبما اشتملت عليه ،وهذا إنما يصـدر ممن قصر نظره على هذه القصة ولم ينظر فيما خص الله به موسى عليه السلام ــ من الرسالة وسماع كلام الله وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء ، وأن أنبياء بني اسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته ، ومخاطبون بحكم نبوته حتى عيسى ، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة ٠٠٠ والخضر وإن كان نبياً فليس برسول باتفاق ، والرسول أفضل من نبي ليس برسول ، ولوتنزلنا على انه رسول فرسالة موسى أعظم وأمته أكثر فهو أفضل ، وغاية الخضر أن يكون كواحد مـن أنـبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم وإن قلنا إن الخضر ليس بنبي بل ولي ، فالنبي أفضل من الولي وهو أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً ، الصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة "[٣] ٠

فقولـه : " والصائر إلى خلافه كافر " أي : إن القول الصحيح : أن النبي أفضل من الولي فمن صار إلى خلاف هـذا القول كفر ، ذلك لأنه يستلزم تنقص الأنبياء والإزراء بهم ، وإنزالهم منزلة دنيئة لم يردها الله تعالى لهم ، وهذا يـؤدي إلى اعـتقاد النقص فيهم والجهل وعدم الفطنة ، والبلادة وثقل الفهم ، كما أن مسألة تفضيل النبي على الولي مماعـلم مـن الدين بالضرورة ، لا يحتاج المؤمن معه إلى دليل ، فقد استقر في جميع فطر المؤمنين ان الأنبياء هم صفوة البشر الذين اختارهم الله تعالى سفراء بينه وبين خلقه ، ولايقع اختيارة سبحانه لمن يشغل منصب النبوة إلا على مـن لايفضـله أحـد مـن البشر كائناً من كان ، فإذا كان الولي أفضل ، فكيف يختار الله تعالى لهذا الشأن الخطير الشخص الأدنى دون الأعلى والأفضل وهو الشأن الذي به سعادة البشرية ونورها وحياتها ٠

وممـا سبق من الأدلة وأقوال العلماء يتبين بجلاء أن الحق والصواب هو أن الخضر نبي من أنبياء الله تعالى ، وأن القـول بولايـته دون نبوته باطل ،وهو مدخل كبير للكفر والزندقة والانحلال من أحكام الشرع الشريف ، وليس معـنى قولـنا إنه نبي أننا ننفي عنه الولاية فكل نبي ولي ولاينعكس بمعنى أنه ليس كل ولي يكون نبياً ، فالأنبياء هم افضـل الأولياء بمعنى أنهم تعدوا منزلة الولاية بمراحل بعيدة شاسعة ، فلا مقارنة بين الأنبياء وبين غيرهم ولامجال أن يقـترب الولي من النبوة ، فضلاً عن أن يقال أن الولي أفضل من النبي ، فهذا امر مقطوع به عقلاً ونقلاً ــ كما قـال القرطـبي ــ والصائر الى خلافه كافر ، ومثله من قال إن الولي لا يحتاج إلى النبي ، أو لايحتاج إلى الشرع

---

(١) الزهر النضر (ص ١٩٧ ــ ١٩٨) ٠

(٢) انظر هذه الأدلة في " البداية والنهاية " (٣٢٨/١) ٠

(٣) ابن حجر : فتح الباري (٢٢١/١) ،نقلها عن القرطبي ٠

الــذي أتىبــه النــبي ــ ﷺ ــ فهذا الكلام ايضاً ــ كما قال القرطبي ــ زندقة وكفر ،وقد حكم عليه بالقتل من غير استتابة ،والحق انه فعلاً يستحق هذا الحكم ، ونسأل الله تعالى الهداية للحق والثبات عليه ٠

إما الجلال السيوطي فقد رأيت له رسالة في فهرس مخطوطاته بعنوان " الوجه النضر في ترجيح نبوة الخضر " [1] ولـم أرها ، والظاهر من عنوانها أن السيوطي يرجح القول بنبوة الخضر ،وأنه بذلك قد وافق الراي الصحيح ، والقول الذي ذهب إليه جمهور الائمة ، فالحمد لله الذي وفقه لترجيح القول الصحيح ٠

ثانياً : هل هو حي أم ميت ؟

الناس في موت الخضر وحياته على ثلاثة أقوال :

١ ــ منهم من قطع بموته وعدم وجوده ٠

٢ ــ ومنهم من ذهب إلى أنه حي ٠

٣ ــ ومنهم من توقف ولم يقل بواحد من القولين السابقين ٠

أما السيوطي فله في هذه المسألة قولان :

١ ــ رأي ارتضاه وهو القول بانه حي ٠

٢ ــ والثاني التوقف ٠

ولاأدري أيهمــا أرجح عنده ٠ هل قوله بحياة الخضر كان أولاً، ثم رأي أن أدلة هذا القول لاتفيد القطع اليقيني بذلك وإن كانت وردت في حياته آثار وأقوال ، ومن ثم توقف في الحكم بحياته أوموته ٠

أم ان الــتوقف كــان أولاً ثــم رجحت لديه الأدلة فكونت عنده ظناً غالباً فارتضى بعد ذلك القول بحياته ،وإن ماتحت يدي الأن لايسعفني في الجواب على هذا التساؤل ،وسأورد الآن كلا رأييه :

أما قوله بحياة الخضر ، فقد قاله جواباً على سؤال سائل ضمن "الحاوي " قال السائل :

مأشـــــهر القوليـــــن يــــامن عـــلمه ... أربى عــــــلى الأقـــــران والـــــنظراء
فــي مــوت مشــهور الحيــاة أي الخضـــر ... وحياتــــــــــه يافائـــــــــزاً بثــــــــناء
قـــــولان مشـــــهوران قالهمـــــا الرضـــا ... شـــــيخ الـــــزمان وفـــــائق العـــــلماء
بقـــوام ديـــن ا لله لقـــب وهـــو مـــن ... بـــــبغداد يشـــــهر بيـــــن كـــل مــــلاء
وأقــــام بـــــرهاناً عـــــلى فقدانـــــه ... فــــــأعجب لـــــذا ياكـــــامل الآراء
لازلـــت معـــــدوداً لكـــــل مـــلمة ... وجـــزيت يـــوم الحشـــر خيـــر جـــزاء

فأجاب السيوطي على السائل بقوله

مــــن بعــــد حمــــدي دائماًوثـــــنائي ... ثـــم الصـــــلاة لســـــيد النجـــــباء
للـــناس خـــلف شـــاع فـــي خضـــر وهـــل ... أودي قديمـــــــا أوحــــــــي بـــــــبقاء
ولكـــــل قـــــول حجـــــة مشـــــهورة ... تســــمو عـــــلى الجـــوزاء فـــي العــــلياء
والمرتضـــــى قـــــول الحيـــــاة فكــــم له ... حجــــج تجــــل الدهـــر عــــن إحصـــاء
خضـــر وإليـــاس بـــأرض مـــثل مـــا ... عيســـى وادريـــس بقـــوا[2] بســـماء

---

(١) دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها " تأليف كل من : احمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني (ص١٤٩) ط / ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣م ،كشف الظنون (٢٠٠١) ، برلين (٢٥٥٨ / ٩) ، هدية العارفين (٥٤٤/١) ٠

(٢) هكذا في الحاوي (١٣٩/٢) بصيغة الجمع والصحيح أن يعبر بصيغة المثنى ولعله من ضرورة النظم ٠

(٣) الحاوي (١٣٩/٢) ٠

هـــذا جـــواب ابـــن الســـيوطي الـــذي عيســـى وإدريـــس بقـــوا[٢] بســـماء
يـــرجو مـــن الـــرحمن خيـــر جـــزاء[٣] "

وفي هذا إشارة إلى اختلاف الناس في موت الخضر وحياته ، ثم بين أن القول الذي ارتضاه هو القول بحياته ، وأما قوله

خضر وإلياس بأرض مثل ما عيسى وإدريس بقوا بسماء

فهو إشارة إلى الأثر الذي يقول : " أربعة من الانبياء أحياء : أثنان في السماء عيسى وإدريس وإثنان في الارض ، الخضر وإلياس ، فاما الخضر فإنه في البحر وأماصاحبه فإنه في البر "[١]

وأما توقفه في ذلك فقد رأيته في مقامة من مقاماته بعنوان " طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة"[٢]

وهـــي رد عـــلى أحد خصومه في عصره ، قال السيوطي ، " وأما الخضر بخصوصه فأئمة الحديث لايثبتون له الآن وجـــوداً ، ومايروى في حقه رأوه في ديوان الموضوعات معدوداً ، وأما أنافلا أقول فيه نفياً ولا إثباتاً،ولا أنطق في حقه بثاء ولاباء ولاتاء ، مراعاة لاهل الحديث والصوفية ،ولعدم أدلة بإثباته وفية" [٣]

وكما قلت فليس لدى الآن مايرجح أحد القولين اللذين تردد بينهما السيوطي ٠

أمـــا القائـــلون بحيـــاة الخضر فقد بنوا رأيهم على كثير من الروايات والحكايات والأقاويل ، وحتى بعض الخرافات والاساطير ويزعمون مقابلته لرسول الله ــ ﷺ ــ ومقابلته لأبي بكر وعمر وعلي وعمر بن عبدالعزيز ، ولقاءه مع كثيرمن الـــزهاد والعـــباد والمتصـــوفين ، وأنه يجوب الفيافي والقفار والأماكن المهجورة ، ويظهر على عابدين يعلمهم ويطعمهم ويكلمهم وأكثر الناس رواية للاساطير والاقاويل والحكايات المنسوجة حول حياته ولقاءاته هم الصوفيون ٠

وممـــن قـــال بحياة الخضر ــ عليه السلام ــ بعد رسول الله ــ ﷺ ــ من العلماء : الإمام النووي ، وابن الصلاح والسهيلي وغيرهم ٠

قـــال الـــنووي : " قـــال الاكثرون من العلماء :هو حي موجود بيننا ،وذلك متفق عليه عند الصوفية ، وأهل الصلاح والمعـــرفة ، وحكايـــاتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه ، وسؤاله وجوابه ،ووجوده في المواضع الشريفة ، ومواطن الخير أكثر من أن تحصر ،وأشهر من أن تذكر ٠

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاويه : هو جي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة معهم في ذلك ، وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين"[٤] ٠

---

(١) عـــزاه الســـيوطي في الدر المنثور" إلى ابن شاهين عن خصيف (٤٣٢/١٦) ، والخبر متنه باطل ، لأن المعلوم والمقطوع به من عقدية أهل الســـنة والجماعـــة ــ أن الله لـــم يجعل لبشر الخلد ، وأن كل الانبياء ــ عليهم السلام ــ أموات سوى عيسى ــ عليه السلام ــ بنص القرآن الكـــريم ،والســـنة الصحيحة المتواترة عن نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان ، أما الأثر الذي ذكره السيوطي ،فإن خصيفاً هذا هو ابن عبد الـــرحمن الجزري الحراني ، أبو عون ، ضعفه أحمد ، وقال مرة ليس بالقوي ،وقال ابن معين : صالح ، وقال مرة : ثقة ، وقال أبو حاتم : تكـــلم في سوء حفظه ، وقال يحيى القطان : كنا نجتنب خصيفاً ،وفي التقريب (١٧٢٨) صدوق سيء الحفظ خلط بآخره ورمي بالارجاء أ ــ هـــ ٠ وفـــي التهذيب (٢٠٢٨) عن أحمد بن حنبل : خصيف شديد الاصطراب في المسند ، وقال أبو حاتم : صالح يخلط ،وتكلم في سوء حفظه ، وقال الآجري عن ابي داود : مضطرب الحديث ٠ أ ــ هـــ ٠

(٢) انظر : سمير محمود الدروبي : شرح مقامات السيوطي (٦١٦/٢) ٠

(٣) شرح مقامات السيوطي (٦٩٨/٢ ــ ٦٩٩) ٠

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١٧٦/١ــ١٧٧) ٠

ورغـم أن هـذا الفـريق من العلماء اعتمدوا على أحاديث وأقاويل وروايات إلا أنه لم يصح منها شيء ، فكل هذه الروايات مابين الضعيف والموضوع ،ولم تصل واحدة منها لمرتبة الحسن فضلاً عن الصحيح ٠

ولذلـك نقـل ابـن حجر عن أبي الخطاب بن دحية في رده على السهيلي ـ والسهيلي ممن يقول بحياة الخضربعد البعثة ـ قال " الطرق التي أشار إليها لم يصح منها شيء ،ولاثبت إجتماع الخضر مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى عليه السلام ـ كما قص الله خبرهما ٠

وجميـع مـاورد في حياته لايصح منها شيء باتفاق أهل النقل ، وإنما يذكر ذلك من يروى الخبر ولايذكرعلته ، إما لكونـه لايعرفها ، وإما لوضوحها عند أهل الحديث ،وأما ماجاء عن المشايخ فهو ممايتعجب منه ، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصاًلايعرفه فيقول له :أنا فلان ، فيصدقه " [١]

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله بعد أن أورد روايات وأقوالاً عن حياته : " وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهـب إلى حياتـه إلى اليـوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لايقوم بمثلها حجة ، في الدين ، والحكايات لايخلو أكثرها من ضعف في الإسناد،وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي وغيره لأنه يجوز عليه الخطأ "

ثم قال : " وقد تصد الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه" عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر " للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات ،ومن الآثار عن الصحابة فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها ، وقد أجاد في ذلك وأحسن الأنتقاد " [٢]

الراجح الصحيح موت الخضر

المحققـون مـن العلماء على أن الخضر ـ عليه السلام ـ عاش حياته كما قدرها له الله تعالى ، ومات قبل بعثه نبينا محمـد ـ ﷺ ـ وهـم يردون أقوال من قالوا بطول حياته واستمرارها حتى قبيل قيام الساعة ، كما قال السيوطي : " لعدم أدلة بإثباته وفيه " [٣]

وممـن ذهب إلى موت الخضر قبل البعثة الإمام البخاري ، والإمام إبراهيم الحربي ، وابن الجوزي وابن كثير[٤] ،و مـال إلى هذا الحافظ ابن حجر في رسالته : " الزهرالنضر في نبأ الخضر " وقد استدل هؤلاء الأئمة على هذاالرأي بأدلة ذكر خلاصتها الإمام ابن كثير ،ومن ذلك :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾[٥]فالآية الكريمة تقرر أنه لايخلد أي بشر عـلى وجه الأرض ، والخضر من جملة البشر ، فدخل ضمن مفهوم هذه الآية ولايوجد حديث صحيح يخصص الخضر ويسـتثنيه من عدم الخلود في الدنيا ، كما صحت بذلك الأخبار عن الدجال ، وتصريح القرآن بحياة عيسى عليه السلام ، فليس ثمة دليل يخصص الخضر مثلهما ، وعليه يجب القطع بموته وعدم وجوده لأن دلالة الآية قاطعة بذلك ٠

٢ ـ قولـه تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا قال فأشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [٦] ٠

قـال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في تفسير الآية : " مابعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد

---

(١) الزهر النضر في نبأ الخضر (٢٠٣/٢) ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ٠

(٢) البداية والنهاية (٣٣٤/١) ٠

(٣) شرح مقامات السيوطي (٦٩٩/٢) ٠

(٤) انظر المنار المنيف (ص ٦٧ـ ٧٦) ٠

(٥) سورة الانبياء ، الآية (٣٤) ٠

(٦) سورة آل عمران ، الآية (٨١) ٠

وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه " (١)

والخضـــر عليه السلام ـــ إما أن يكون نبياً أو ولياً،وعلى كلاً الحالين هو مطالب أن يؤمن بمحمد ـــ ﷺ ـــ فإن كان نـــبياً فظاهر من كلام علي وابن عباس ، وإن كان ولياً فمن باب أولى أن يأتي إليه ويبايعه وينقاد له ، وإذ لم يحصل شيء من ذلك دل على أنه لاوجود له ٠

٣ ـــ أن الرسول ـــ ﷺ ـــ دعاربه في غزوة بدر الكبرى أن ينصر المسلمين قائلاً : " اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعـــبد فـــي الأرض "(٢) وكـــان مع تلك العصابة المؤمنة أبو بكر وعمر وخيار الصحابة كما كان معهم جبريل ومعه خيار الملائكـــة ومعـــنى ذلك أنه إذا هلكت تلك العصابة فلن يبقى في الارض من يعبد الله تعالى ، لا الخضر ولاغيره ، ممايبين عدم وجوده وأنه لايوجد وقتها مؤمن على وجه الأرض سوى هؤلاء الصحابة الذين كانوا مع النبي ـــ ﷺ ـــ ٠

٤ ـــ قوله ـــ ﷺ ـــ :" أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لايبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد "(٣) ٠

قال ابن عمر رضي الله عنهما فوهل الناس " أي أخطأوا وغلطوا) في مقالة رسول الله ـــ ﷺ ـــ تلك فيما يتحدثون من هـــذه الأحاديث عن مائة سنة وإنما قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ " لايبقي ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن "(٤) ٠

وعن جابر ـــ رضي الله عنه ـــ قال :" سمعت النبي ـــ ﷺ ـــ يقول قبل أن يموت بشهر :" تسألوني عن الساعة ؟ وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ماعلى الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة " (٥) ٠

فلو سلمنا بحياة الخضر حتى بعثة رسول الله محمد ـــ ﷺ ـــ وهذاغير صحيح ـــ لزم أن يموت خلال مائة سنة من تاريخ النطق بذلك الحديث ٠

٥ ـــ لوكـــان الخضـــر حياً لكان مطالبا بنشر العلم وتعليم الناس وتبليغهم أحاديث النبي ـــ ﷺ ـــ وتمييز صحيحها من ضعيفها وطيبها من خبيثها ، وكان مطالباً بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا لم يحصل ٠

٦ ـــ ثـــم ماهي الحكمة من اختفاء الخضر هل هو خائف أم مستح ٠ فإن قيل بالأول فهذا ليس من خلق الأولياء أن يكونـــوا جبناء ، فضلاً عن ان يكون خلقاً للأنبياء وإن قيل بالثاني فهو جبلة الأطفال والنساء وليس بخلق للأولياء فضلاً عن الأنبياء ٠

ثـــم كذلـــك ماهي الحكمة من ذهابه إلى الجبال والمغاور والكهوف والبراري ؟ ولماذا لايعيش مع الناس يصلي معهم الجمع والجماعات يعلم جاهلهم ،ويواسي فقيرهم ،ويعطي محرومهم ، ويمسح على رأس يتيمهم ؟ وهل يليق هذا بنبي كريم ؟ بل بولى على طريق مستقيم ؟ بل برجل عامي ذو عقل سليم ؟ ٠

وفـــي معـــرض بيان الأحاديث المكذوبة على النبي ـــ ﷺ ـــ يقول العلامة ابن القيم " ومنها الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب ،ولايصح في حياته حديث واحد " (٦) ٠

---

(١) ابـــن جرير ، جامع البيان (٣٣/٣) وروى ابن جرير أيضاً نحوه عن قتادة ، والسدي ، ونحوه أيضاً عن ابن عباس ،عند ابن كثير ، (٥٦/٢) وعزا السيوطي في الدر المنثور " (٢٥٢/٣) أثر قتادة إلى عبد بن حميد ، وأثر السدي إلى ابن أبي حاتم ٠

(٢) صحيح مسلم (١٣٨٤/٣) ح رقم (١٧٦٣) ، واحمد في المسند(٣٠،٣٢/١) ٠

(٣) صحيح مسلم (١٩٦٥/٤) ح رقم (٢٥٣٧) ٠

(٤) نفسه ٠

(٥) نفسه ، ح رقم (٢٥٣٨) ٠

(٦) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ٠ ص ٦٧) ـــ : تحقيق عبدالفتاح أبو غده ، مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب ـــ سورية " ٢ / ١٤٠٢ هـــ ـــ ١٩٨٢) ٠

ثـم سـاق بعض الأحاديث المكذوبة ثم قال : " سئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر وأنه باق ؟ فقال /: من أحال على غائب لم ينتصف منه ، وما ألقى هذا بين الناس الإشيطان ، وسئل البخاري عن الخضر وإلياس،هل هما أحياء فقال : " كيـف يكـون هذا ؟ وقد قال النبي — ﷺ — : " لايبقى على رأس مائة سنة ممن هواليوم على ظهر الأرض أحد " ... وسـئل شيخ الإسلام ابن تيمة — رحمه الله — فقال : لوكان الخضر حياً لوجب عليه أن ياتي النبي — ﷺ — ويجاهد بين يديه ويتعلم منه، وقد قال النبي — ﷺ يوم بدر : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد في الأرض ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذ ؟ "[١] .

وأفاض كذلك الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في تقرير الأدلة التي تثبت موت الخضر وعدم حياته ،وهي أربعة أنواع : القرآن ، والسنة ،وإجماع المحققين من العلماء ، والمعقول[٢] وهي في معظمها وجملتها لا تخرج عن الأدلة التي قدمناها

وبعـد هذه الأدلة وأقوال الأئمة المحققين نقرر ونؤكد أن الخضر عليه السلام — ليس حياً الآن بل مات قبل البعثة بمدة لايعلمها إلا الله وحده .

لذلك أدعو إلى طرح كل الروايات والأخبار والاقوال التي تنسج حول الخضر من الخرافات والاساطير والأباطيل التي لاحقيقة لها ، والله تعالى الموفق للصواب .

المبحث السادس: تطور الولي

المقصـود بتطور الولي عند السيوطي ، أن الولي من أولياء الله تعالى لديه قدرة على التشكل ببدنه في أشكال متعددة كما يقع ذلك للملائكة والجن .

ويصـح في عقل السيوطي ان يرى الولي في هيئة بدنية ضخمة تفوق الهيئة المعتادة باضعاف كثيرة ، ثم يرى بعدها على هيئة العصفور الصغير .

ويصـح أيضـاً في عقل السيوطي أن يرى الولي في مكانين متباعدين أو أكثر في آن واحد ، إما بضخامة جسمه ، وعظـم حجمـه بحيث يملأ الكون ، أو يكون من باب طي المسافة وزوى الأرض من غير تعدد ، او يكون من باب تعدد الصور والتمثل والتشكل .

ويـزعم السيوطي أن هذا التمثل والتشكل هو عالم المثال ، الذي تثبته الصوفية ، وهو عالم متوسط بين عالم الأجساد وعـالم الأرواح ، فهـو ألطف من عالم الأجساد وأكثف من عالم الأرواح ،وبناء على إثبات هذا العالم يتم تجسد الأرواح وظهورها في صور متعددة مختلفة من عالم المثال" [٣].

رحم الله الجلال السيوطي ، ماكان أحرى الأمة أن تستغنى عن هذا الهراء والخرافة ، وماكان أحراه هو — رحمه الله — وهو العالم المفسر لكتاب الله ، الحافظ لأحاديث رسول الله ، الفقيه الأديب الأريب ، ماكان أحراه أن يحارب الخرافة الـتي أتى الإسلام بهدمها ، والقضاء عليها ونقضها ، ولكن لكل جواد كبوة ، ولكل عالم زلة ، ولكنها زلة كبيرة من مثله ، تؤخذ عليه ولاتؤخذ منه .

وهاهو نص كلام السيوطي مع التعقيب عليه : قال السيوطي : " المنجلى في تطور الولي " قال بعد البسملة والحمد لـه : " رفع إلي سؤال في رجل حلف بالطلاق ان ولي الله الشيخ عبدالقادر الطشطوطي بات عنده ليلة كذا ، فحلف أخر بـالطلاق أنه بات عنده في تلك الليلة بعينها فهل يقع الطلاق على أحدهما أم لا؟ فأرسلت — يقول السيوطي — قاصدي إلى

---

(١) نفسه . ص ٦٧— ٦٨) .

(٢) انظر :المنار المنيف (ص ٦٩ — ٧٦)

(٣) انظر الحاوي (٢١٧/١ — ٢١٨) .

الشيخ عبدالقادر فسأله عن ذلك فقال : ولو قال أربعة إني بت عندهم لصدقوا ، فأفتيت بانه لايحنث واحد منهما "(١)

وناهيك عن بدعة الحلف بالطلاق ، فهي أهون من أختها ،إنما الداهية الكبرى في تأييد تلك الخرافة بالأدلة واعتبارها من الدين ،وينطق السيوطي في تثبيت هذا بأن الذي ينازع في وقوعها يتوهم أن وجود الشخص الواحد في مكانين في وقت واحـد غير ممكن بل هو مستحيل ، يقول السيوطي : " وليس كما توهمه هذا المتوهم من الاستحالة فقد نص الأئمة الاعلام على ان ذلك من قسم الجائز الممكن وإذا كان ممكناً فظاهر أنه لاحنث "(٢) يعنى في الطلاق من أحد الحالفين ٠

تعقيـب : هـنا يستدل السيوطي على إمكان وجود الولي في مكانين في آن واحد بقوله :" فقد نص الأئمة الأعلام " ، ونصوص الأئمة الأعلام ليست هي الدليل وأنما هذه النصوص يعوزها الدليل الشرعي ، وهو بهذا قد جعل المدلول عليه دليلاً ، وهذاخطأ ومثله في هذاكمثل من يقول : إن الدليل على وجوب الصلاة هو قول الأئمة إنها واجبة ، وإنما قول الأئمة مدلول يحتاج إلى دليل يدل عليه ٠

وكان الأجدر به أن يقول :إن الدليل على ذلك هو قول الله تعالى ، أو قول رسول الله ﷺ ولكنه لمالم يجد في قول الله تعالى ولافي قول رسوله ـ ﷺ ـ لجأ إلى الاستدلال بأقوال الأئمة ٠

وقـد ذكر السيوطي أسماء هؤلاء الأعلام فإذا هم من أعلام الصوفية وليسوا من اهل السنة كعلاء الدين القونوي (٣) ، وتاج الدين ابن عطاء الله السكندري(٤)، وعفيف الدين عبدالله اليافعي (٥)،ومعهم بعض الفقهاء المائلين إلى التصوف :كالتاج السـبكي (٦) وابن الملقن (٧) ،وغيرهما ٠ وليس من بين هؤلاء الأئمة من عرف بالسنة المحضة الخالية من شائبة التصوف كالأئمةالاربعة ومن على شاكلتهم ، وهذا يدل على تصوف السيوطي الواضح ، إذا يعتبر ابن عطاء الله السكندري إماماً له في ذلك وهو المعروف بمناواته لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨) فارس أهل السنة ومن عادي شيخ الإسلام وناوأه وخاصمة كان في قلبه دخن على الحق وأهله ، ودل على انحرافه وزيغه عنه ، فيكف يستشهد به على عقيدة ؟

---

(١) الحاوي (٢١٧/١) ٠

(٢) الحاوي (٢١٧/١) ٠

(٣) هـو عـلي بـن إسماعيل بن يوسف القونوي ، ابو الحسن ، علاء الدين ، فقيه من الشافعية ، ولد بقونية عام (٦٦٨هـ ـ ٢٣٧٠ م) ونزل بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة وتصوف له : شرح الحاوي الصغير ت (٧٢٩هـ ـ ١٣٢٩م) بغية الدعاة (٣٢٩) ، البداية والنهاية (١٤/ ١٤١٠) والدرر الكامنة (٢٤/٣) ، الاعلام (٢٦٤/٤) ٠

(٤) هو :أحمد بن محمد بن عبدالكريم ، أبو الفضل ، تاج الدين ، ابن عطاء الله السكندري أو الاسكندري ، متصوف شاذلي ، كان من أشد خصوم شـيخ الإسـلام ابن تيمية ،له الحكم العطائية في التصوف ، ت بالقاهرة (٧٠٩ ـ١٣٠٩م)، الدرر الكامنة (٢٧٣/١) ، الرحلة العياشية (١/ ٣٥٧) كشف الظنون (٦٧٥) خطط مبارك (٧/ ٦٩) دائرة المعارف الاسلامي (٢٤٠/١) ، الأعلام (٢٢٢/١) ٠

(٥) هـو :عبالله بن اسعد بن علي اليافعي ، عفيف الدين مؤرخ ، باحث ، متصوف من شافعية اليمن ، نسبته إلى يافع من حمير ، مولده في عدن (٧٦٨ هـــ ـ ١٣٦٧م) ٠ من مصنفاته " نشر المحاسن الغالية ، في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ، "وروض الرياحين في مناقب الصالحين ، الدرر الكامنة ٠ ٢٤٧/٢) شذرات الذهب (٦/ ٢١٠ ٩ طبقات الشافعية (١٠٣/٦) ٠ مفتاح السعادة (١٢٧/١) ٠

(٦) هـو عـبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي ، ابو نصر ، قاضي القضاة ، المؤرخ الباحث ، ولد بالقاهرة ٠ ٧٢٧ ـ ١٣٢٧م) وانتقل إلى دمشـق مـع والده ، فسكنها حتى مات بها (٥٥٨ ـ ١٣٧٠م) نسبته إلى (سبك (من أعمال المنوفية بمصر ،عزل من منصب قاضي القضـاة بالشام ، واتهم بالكفر واستحلال شرب الخمر ،وأتوا به مقيداً مغلولاً إلى مصر ثم أفرج عنه وعاد إلى دمشق فتوفي بالطاعون ، من تصـانيفه " طبقات الشافعية الكبرى " ومعيد النعم ومبيد النقم " انظ ر: الدرر الكامنة (٤٢٥/٢) ، حسن المحاضرة (١٨٢/١) ، جلاء العينين (١٦) ، الاعلام (١٨٤/٤) ٠

(٧) هـو : عمـربن عـلي بـن احمد الانصاري الشافعي ، سراج الدين ، أبو حفص ، ابن النحوي المعروف بابن الملقن ، له " طبقات الأولياء " وغيره ، الضوء اللامع (١٠٠/٦) ، خطط مبارك (١٠٥/٤) ، الأعلام (٥٧/٥) ٠

(٨) انظر : مامضى في ترجمة ابن عطاء الله السكندري ٠

قال السيوطي : " وحاصل ماذكروه في توجيه ذلك ثلاثة أمور أحدها : أنه من باب تعدد الصور بالتمثل والتشكل كما يقع ذلك للجان ٠

والـــثاني : أنه من باب طي المسافة وزوى الأرض من غير تعدد فيراه الرائيان كل في بيته وهي بقعة واحدة إلا أن الله طوى الأرض ورفع الحجب المانعة من الاستطراق فظن أنه في مكانين ، وإنماهو في مكان واحد ٠٠

الـــثالث : أنـــه مـــن باب عظم الحبشة للولي بحيث ملأ الكون فشوهد في كل مكان،كما قرر بذلك شأن ملك الموت ، ومـــنكر ونكير حيث يقبض من مات بالمشرق والمغرب في ساعة واحده ، ويسأل من قبر فيهما في الساعة الواحدة ، فإن ذلك أحسن الأوجه الثلاثة " [١] ٠

تعقيب :

أمـــا قوله " من باب تعدد الصور بالتمثل والتشكل كمايقع ذلك للجان "[٢] فهذا لانسلمه في البشر وإن وقع في الملائكة والجـــن ، أمـــا عن الملائكة فقد قال الله تعالى في حق جبريل : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً)[٣] قال ابن جرير : " فتشبه لها في صورة آدمي سوى الخلق منهم ، يعنى في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق " [٤] ٠

وقـــد جاءت الملائكة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في صورة بشر وظن أنهم بشر فقدم لهم الطعام فلما لم يأكلوا علم أنهم ملائكـــة قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ٠ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ٠ قال سلام قوم منكرون ﴾ [٥] أي مجهولون لانعرفهم قاله في نفسه [٦] ، (فراغ [أي مال] إلى أهله فجاء بعجل سمين ٠ فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فـــأوجس مـــنهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم) [٧] فلما بشروه بغلام ،وهو اسحاق[٨] ـــ عليه السلام ـــ علم أنهم رســـل الله من الملائكة ، ولذلك قالوا : ﴿ إنا إرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ [٩] وهم قوم لوط ـــ عليه السلام ـــ وقد قال تعالى في آية أخرى : ﴿ فلما راي أيديهم لاتصل إليه نكرهم،وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا إرسلنا إلى قوم لوط ﴾ [١٠]

ثـــم جاءوا إلى لوط ـــ عليه السلام ـــ في صورة شباب حسان الوجوه ، قال تعالى : ﴿ ولماجاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾[١١]

يقـــول ابـــن كـــثير : " تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان إمتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر "[١٢] ٠

---

(١) الحاوي للفتاوي (٢١٧/١ ـــ ٢١٨) ٠

(٢) نفسه (٢١٧/١) ٠

(٣) سورة مريم ، عليها السلام ـــ بعض الآية (١٧)

(٤) جامع البيان (٦٠/١٦) ٠

(٥) سورة الذاريات ، الآيتان (٢٤، ٢٥) ٠

(٦) تفسير الجلالين (ص ٦٩٣) ٠

(٧) سورة الذاريان ،الآيات (٢٦ ـــ ٢٨) ٠

(٨) هـــذا قـــول جمهـــور العـــلماء ، انظـــر: ابن جرير ، جامع البيان (٢٠٨/٢٦) ،والجلالين (٦٩٤) وكلمات القرآن لحسنين مخلوف بهامش المصـــحف (ص ٤٤٠) ، وروى ابـــن جريـــر (٢٠٨/٢٦) عن مجاهد أنه هذا الغلام هوإسماعيل عليه السلام ولكنه رجح انه اسحاق لان البشارة كانت بالولد من سارة و إسماعيل لهاجر لا لساره ـــ عليهما السلام ـــ

(٩) سورة الذاريات الآية (٣٢) ٠

(١٠) سورة هود ـــ عليه السلام ـــ الآية (٧٠) ٠

(١١) سورة هود ـــ عليه السلام ـــ الآية (٧٧) ٠

(١٢) البداية والنهاية (١/ ٤٣) ٠

وقـد كان جبريل — عليه السلام — يأتي رسول الله — ﷺ — في صورة دحية الكلبي [١] وتارة في صورة أعرابي [٢] رآه جمـع من الصحابة وقد وردت أحاديث عدة تثبت تمثل الملائكة في صورة البشر يضيق المقام عن حصرها ، وهذا إنما اثبتناه وصدقناه وآمنا به لأنه قد قطع بثبوته في القرآن الكريم ، وفي صحيح السنة النبوية ، ولولا هذا مأأثبتناه ولا قلنا به ، وإنما أثبتناه وآمنا ، تصديقاً بماورد في الكتاب العزيز ، وإيماناً بما صحت به السنة الشريفة ٠

وكذلـك تشكل الجن بصور الآدميين قد وردت الإشارة إليه من القرآن الكريم ، وصرحت به السنة الشريفة ، قال الله تعالى : ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ٠٠٠ ﴾ [٣] وهذا الشيطان قد جاء المشركين يوم بدر في صورة سراقة بن مالك ، على ماذكر المفسرون وأصحاب السير [٤] ولكنه لما رأى الملائكة تتنزل من السـماء عـندما التقى الجمعان والتحم الصفان ولي هارباً وتبرأ من المشركين ، قال تعالى : ﴿ ٠٠٠ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى مالاترون إني أخاف الله ٠٠٠ ﴾ [٥]

وفي حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — عند ما وكله النبي — ﷺ — بحراسة أموال الصدقة تصور الشيطان في صـورة سارق يسرق من المال ليلاً ،وزعم أنه يعلم أبا هريرة آية إذا قرأها في فراشه لايقربه شيطان حتى يصبح ، فقال — ﷺ — صدقك وهو كذوب ، أتعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال ياأباهريرة "؟ قال : لا، قال " ذاك شيطان " [٦] ٠

فهـذا أيضـاً قد وقع وتمثل الشيطان أو الجن بصورة الإنسان أيده الدليل الشرعي في أحاديث النبي — ﷺ — التي سـبقت وفـي غيـرها ، أما وقوع هذا التعدد للصور والتمثل في حق البشر فهذا لم يثبت ، ولم يقع لواحد من الصحابة — رضي الله عنهم — ولاوقع حتى في حق الرسول — ﷺ— ولم ينقل إلينا في حديث صحيح ولاضعيف بل ولاموضوع — فيما أعـلم — أن الرسـول — ﷺ — قد رآه شخصان فأكثر في مكانين او أماكن متعددة في وقت واحد ، ممايدل على بطلان ماذهب إليه السيوطي من أن الولي يُرى في صور متعددة او في أماكن متعددة في آن واحد ٠

أما هذا الذي يحصل لبعض الناس فلا يؤيده عقل ولاشرع ، إلا إذا كان يتمثل الجن بصورته في أماكن متعددة ، وهذا هـو الصـحيح لاغيره ، ولايضرنا تهويل السيوطي فيم ينقل عن هؤلاء الخرافيين المتعلقين من قلوبهم بغرائب الخرافات وشواذ النوادر من الحكايات التي لايؤيدها عقل ولاشرع ٠

وكل مانقله عن القونوي وابن عطاء الله ، وغيرها ليس بشيء وهو هراء لايؤبه به، ولا يعول عليه ٠

وقد وضح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأمر وأرجعه إلى المخاريق السحرية أو إلى أعمال الجن وتشكلهم وتمثلهم ببني آدم

قـال شـيخ الإسـلام — رحمـه الله — : " وفي أصناف المشركين ، من مشركي العرب ،ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم ،من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمتبع للرسل ولامؤمن بماجاءووا به ولايصدقهم فيما أخـبروا به، ولايطيعهم فيما امروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء لله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الامور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تتنزل عليه

---

(١) دحية بن خليفة الكلبي ، صحابي جليل بعثه الرسول — ﷺ — برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام ،كان يضرب به المثل في جمال الصورة ت نحو (٤٥هـ — ٦٦٥م) ٠ الاصابة (٤٧٣/١) ، والأعلام (٢ / ٣٣٧) وحديثه الذي فيه تمثل جبريل به رواه أحمد في المسند وابن سعد في الطبقات ، بإسناد حسن

(٢) فـي الصـحيحين من حديث عمر قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ٠٠٠ الخ وهو المعروف بحديث جبريل — البخاري (٥٠، ٤٧٧٧) ، صحيح مسلم رقم (٨ ، ٩ ، ١٠) ٠

(٣) سورة الأنفال ، بعض الآية (٤٨) ٠

(٤) انظر :ابن جرير : جامع البيان (١٨/١٠ ، وتفسير ابن كثير (١٦/٤) ، سيرة ابن هشام (٦١١/١) ٠

(٥) سورة الأنفال، بعض الآية (٤٨) ٠

(٦) صحيح البخاري رقم (٢٣١١) ، (٣٢٧٥) ، (٥٠١٠) ٠

الشـــياطين . قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ (١) وهؤلاء جميعهم ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلابد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم ، ولابـــد أن يكون في أعمالهم ماهو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش ، أو الغلو أو البدع في العبادة ، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان لامن أولياء الرحمن ﴾ (٢) .

وقال : " لوذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبده مجتهداً في عبادته ، ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله ــ وهو القرآن ــ كان من أولياء الشيطان ولوطار في الهواء أو مشى على الماء ، فإن الشيطان يحمله في الهواء "(٣)

وقال أيضاً : فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالكهان والسحرة وعباد المشركين ، وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً ، وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه مايناقض ولاية الله "(٤)

وقـــال أيضـــاً منبهاً على أن بعض الناس الذين يعتقدون الولاية في شخص ما يعتمدون في ذلك على صدور بعض المكاشـــفات عنه في بعض الأمور " أو بعض التصرفات الخارقة للعادة ، مثل ان يشير إلى شخص فيموت ، أو يطير في الهـــواء إلى مكة أو غيرها أو يمشى على الماء أحياناً ، أو يملا إبريقاً من الهواء أو يختفي أحياناً عن أعين الناس أوأن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه ، فقضى حاجته ، أو يخبر الناس بما سرق لهم ، أو بحال غائب لهـــم أو مـــريض أو نحو ذلك من الامور ، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله ، بل قد اتفق أوليـــاء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه .

وكـــرامات أولياء الله تعالى ، أعظم من هذه الأمور ، وهذه الأمور الخارقة للعادة قد يكون صاحبها عدواً لله فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين ، وأهل الكتاب والمنافقين ،وتكون لأهل البدع ،وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله "(٥) .

وقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه المكاشفات " قد توجد في أشخاص ، ويكون أحدهم لايتوضأ ،ولايصلي الصلوات المكـــتوبة بـــل يكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للكلاب يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل ، رائحته خبيثة ، لايـــتطهر الطهارة الشرعية ولايتنظف ... فإذاكان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان او يأوي إلى الحمامـــات والحشـــوش الـــتي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير ، وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواســـق ، أويشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان ، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها أويســـجد إلى ناحيـــة شيخه ولايخلص الدين لرب العالمين ، أويلابس الكلاب أو الفيران ، أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجســـة ، أويأوي إلى المقابر ، ولاسيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أوالمشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عـــنه ويقـــدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن فهذه علامات أولياء الشيطان " (٦) .

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص ١٨ ــ ١٩) .

(٢) نفسه ، ص١٩) .

(٣) نفسه (ص٣٩) .

(٤) نفسه (ص ٣٩) .

(٥) نفسه (ص ٦١ ــ ٦٢) .

(٦) نفسه (ص ٦٤ ــ ٦٥) .

ويؤيد ابن تيمية كلامه بماحصل له في الواقع فيقول :"وأعرف من هؤلاء عدداً ، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس او لعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك "[١] .

وذكر شيخ الإسلام — أيضاً — عن فجور هؤلاء الشيوخ المشعوذين الممخرقين ماينخلع له القلب ويتفطر له الفؤاد ممن يزعمون أنهم أولياء لله ، يقول ابن تيمية : " وشيخ أخبرني نفسه انه كان يزني بالنساء ويلوط بالصبيان ··· وكان يقول : يأتيـــني كلب اسود بين عينية نكتتان بيضاوان فيقول لي : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً نأتيك به ، وأنا قضيت حاجته لأجلك فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ويكاشفه هذا الشيخ الكافر ·· قال :وكنت أمشي وبين يدي عمود أسودعليه نور فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود"[٢] .

"وكـــثير ممـــن يستغيث بالمشايخ فيقول ياسيدي فلان ، أوياشيخ فلان اقض حاجتي فيرى صورة ذلك الشيخ يخاطبه ويقـــول له أنـــا اقضــــي لك حاجتك ، أو طيب قلبك ، فيقضي حاجته أو يدفع عنه عدوه ، ويكون ذلك شيطاناً قد تمثل في صورته لما أشرك بالله فدعا غيره ·

وأنـــا أعرف من هذا وقائع متعددة ، حتى ان طائفة من أصحابي ذكروا أنهم استغاثوا بي في شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن ، والأخر خائف من التتر ، فذكر كل منهم انه لما استغاث بي رآني في الهواء وقد دفعت عنه عدوه ، فأخبرتهم أني لم أشعر بهذا ، ولادفعت عنكم شيئاً ، وإنما هذا شيطان تمثل لأحدهم فأغواه لماشرك بالله تعالى "[٣] .

"فكلما بعدوا عن الله ورسوله — ﷺ — وطريق المؤمنين قربوا من الشيطان ، فيطيرون في الهواء ، والشيطان طار بهـــم ، ومنه من يصرع الحاضرين وشياطينه صرعتهم ، ومنهم من يحضر طعاماً وإداماً ، ويملأ الإبريق ماء من الهواء والشـــياطين فعلت ذلك فيحسب الجاهلون أن هذه كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هي من جنس أحوال السحرة والكهنة وأمثالهم " [٤] .

وقد بين ابن تيمية بعض طرق الشيطان في أغواء الخلق فقال : " أنا اعرف من تخاطبه النباتات بمافيها من المنافع ، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها ، وأعرف من يخاطبهم الشجر والحجر وتقول هنيئاً لك ياولي الله ، فيقرأ آية الكرسي فيذهـــب ذلـــك ، وأعـــرف من يقصد صيدالطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول : خذني حتى يأكلني الفقراء ، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسان ويخاطب بذلك ، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس ،وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار ، أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه ، فإذا أقرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله " [٥] .

ومـــن هـــذه الطرق الشيطانية التي يفعلها الشيطان لإغواء الخلق " أن كثيراً من العباد يرى الكعبة تطوف به ، ويرى عرشـــاً عظيمـــاً ، وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن ان تلك الصورة هي الله — تعالى وتقدس — ويكون ذلك شيطاناً ·

وقـــد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس ، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه شيطان كالشيخ عبد القادر في حكايته المشـــهورة حيـــث قال : كنت مرة في العبادة ، فرأيت عرشاً عظيماً وعليه نور ، فقال لي : ياعبد القادر أنا ربك ، وقد حلـــلت لـــك ماحـــرمت على غيرك ، قال فقلت له :أنت الله الذي لاإله إلا هو ؟ إخسأ ياعدو الله ، قال فتمزق ذلك النور ،

---

(١) نفسه (ص ٨٧) ·

(٢) جامع الرسائل (١/١٩٣ — ١٩٤) ·

(٣) نفسه (١/١٩٥) ·

(٤) نفسه (١/١٩٦) ·

(٥) مجموع الفتاوي (١١/٣٠٠) ·

وصـــار ظـــلمة ، وقال : ياعبدالقادر نجوت مني بفقهك في دينك ، وعلمك وبمنازلاتك في أحوالك ، لقد فتنت بهذه القصة ســبعين رجـــلاً ، فقيـــل له : كيف علمت انه الشيطان ؟ قال : بقوله لي : حللت لك ماحرمت على غيرك ، وقد علمت أن شريعة محمد ــ ﷺ ــ لاتنسخ ولاتبدل ، ولأنه قال : أنا ربك ، ولم يقدر أن يقول أنا الله الذي لا إله إلا أنا ٠

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئي هو الله ، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى في اليقظة ، ومستندهم ما شاهدوه ،وهم صادقون فيما يخبرون به ، ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان ٠

وهـــذا قـــد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد ، يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا لأن كثيرا منهم رأى ماظن أنه الله ، وإنما هو شيطان ٠

وكـــثير مـــنهم رأى من ظن أنه نبي او رجل صالح أو الخضر ، وكان شيطاناً ٠٠٠ فمن ظن أن المرئي هو الميت فإنما أتى من جهله ، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وبعض من رأى هذا ــ أو صدق من قال إنه رآه ــ اعتقد أن الشخص الواحد يكون بمكانين في حالة واحدة فخالف صريح المعقول٠

ومنهم من يقول هذه رقيقة ذلك المرئي أو هذه روحانيته ، أو هذا معناه تشكل ، ولايعرفون انه جني تصور بصورته " [١]

وهذا والله ــ الذي ذكره ابن تيمية هو عين الصواب ، وأن من قال بتمثل الولي أو بتشكله وظهوره للعيان في أكثر من مكان وفي وقت واحد ، فقد خالف المعقول والمنقول ٠

ــ أمـــا العقل فيحيل وجود شخص واحد في مكانين في وقت واحد ، ومن جعل ذلك واقعاً ، فقد جعل المستحيل ممكناً وهو باطل ٠

ــ وأما النقل ، فلم ينقل عن النبي ــ ﷺ ــ نفسه أنه حصل له ذلك ، ولا الصحابة ولا التابعون لهم بإحسان كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ٠

والحـــل الوحيـــد لذلك الاشكال هو ماذكره الشيخ ابن تيمة ان الجن يتمثلون بالشخص ويتشكلون بصورته ، فإن كان ساحراً دجالاً فقد يقع ذلك بعلمه وبفعله وإن كان صالحاً تقياً فإنه يقع بدون علمه وعلىذلك فلاتطور للولي ولاتشكل ولاتمثل ، بل هي من خرافات الدجالين ٠

فالحقيقـــة أن هـــؤلاء الـــزاعمين لـــلولاية ويظهرون للناس الخوارق التي يلبسون بها على العامة ويخدعون الطغام يستخدمون الشياطين والجن ، يتقربون إليهم بالشرك فتخدمهم الشياطين يقضون لهم بعض أغراضهم ، ذكر ابن تيمية ، أن كـــثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة ، وقد يقلبون حروف كلام الله عزوجل ، إما حروف الفاتحة ، وإما حروف قل هـــو الله أحد ، وإما غيرها ، ويذكر أنهم قد يكتبون كلام الله بالدم أوبغيره من النجاسات ، وقد يكتبون غير ذلك ممايرضاه الشيطان ، أو يتكلمون بذلك ، فإذا قالوا أو كتبوا ماترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم[٢] ٠

فهذا الذي ذكره الجلال السيوطي من خرافة " تطور الولي " هي من هذا القبيل ، ومن هذه الأنواع والأعمال السحرية التي يموه بها الزنادقة على الناس ، لايخرج عن ذلك ٠

وأقـــول : يرحم الله السيوطي فهذه إحدى زلاته التي اكتشفناها بعد طول البحث معه في كتبه ورسائله ومصنفاته ، بل هـــي زلـــة عظيمة من مثله ، فالرجال العظام تبدو زلاتهم عظيمة حتى ولوكانت في حق غيرهم صغيرة ، ولعل الله تعالى يغفرها له بسبب ماقدم من خدمة للدين جليلة ، في جانب اللغة والتفسير والحديث وعلومها ، وكذلك الفقه وأصوله والتاريخ والرجال ، ولعل دعاء ناله واستغفارنا له يكون سبباً آخر لمغفرة الله تعالى له والعفو عنه ، إنه جواد كريم ٠

---

[١] مجموع الفتاوي (١/١٧١ـــ ١٧٣) ٠

[٢] انظر السابق نفسه (١٩ / ٣٥) ٠

الخاتمة

بعد ان عايش الباحث ،ويعايش ايضا القارئ هذا البحث فإنه يخرج منه بالنتائج التالية :

١- السيوطي مكثر من التأليف ،ولهذا الإكثار من تصنيف الكتب أسباب كثيرة ووجيهة ذكرت خلال البحث .

٢- دعوى السيوطي لنفسه بلوغ مرتبة الإجتهاد ، ليست دعوى مبالغا فيها بل هي حقيقة يدل عليها ذلك الكم الهائل من المصنفات والمؤلفات العلمية والتي اصبح الكثير منها معتمدا لدى العلماء والدارسي والباحثين وطلاب العلم كما انه شهد له بالإمامة في الدين ،وهذا مما يدل على بلوغه تلك الرتبة .

٣- ولكن مع الإ قرار ببلوغ السيوطي تلك المترلة والمكانة العلمية ، فإنه ليس بمعصوم من الزلل والخطأ ،شأنه في ذلك شأن جميع البشر — عدا الأنبياء — والمرسلين وان ماأخطأ عند الإجتهاد فيه فله اجر الإجتهاد ،ولا يمنعنا هذا أن نقول عنه ان قد جانب الصواب في بعض المسائل من غير تعنيف ولا تجريح ،مع ماتكنه له قلوبنا وعقولنا من المحبة في الله تعالى ،ومع دعائنا له بالرحمة والمغفرة ،وان يتجاوز الله تعالى عن زلاته وزلاتنا ، فزلاتنا واخطاؤنا وذنوبنا بجانبها بحار لاسواحل لها .

٤- احسن السيوطي في امور عظيمة منها : انتقاده حركة الترجمة التي استفحل امرها في عهد العباسيين ،وكذلك نقده المنطق والفلسفة وعلم الكلام ، واحسن كذلك في الدعوه إلى التمسك بالسنة ، والتحذير من البدعة ، واحسن في كلامه عن توحيد الألوهية ،وتوحيد الربوبية وفي كلامه عن النبوات وما يتعلق بها ،وفي تقريره عقيدة الإيمان باليوم الآخر ،وترجيحه نبوة سيدنا الخضر — عليه السلام — .

٥- ويتفق السيوطي مع السلف واهل السنة ، في ان دين الإسلام بني على الإتباع ،وانه لامصدر لتلقي المعرفة الدينية إلا من جهة الوحيين الكتاب والسنة ،وان مهمة العقل التلقي والفهم عن الله تعالى وعن رسوله — صلى الله عليه وسلم — والخضوع لسلطان الشرع ،وان العقل لايستقل بالمعرفة عن الوحي ،وفي هذا رد على المعتزلة الذين مجمدوا العقل وقدموا احكامه على النقل ،الذي هو كتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم —.

٦- اثبت السيوطي قدم الصانع ، وحدوث العالم ،واثبت حشر الأجساد ،وهذا كالرد على الفلاسفة الذين قالوا بقدم العالم وانكروا حشر الأجساد وما اثبته السيوطي حق لايقول بخلافه مسلم .

٧- يتفق السيوطي مع اهل السنة والجماعة في ان اسماء الله توقيفية لايجوز لأحد من البشر تسميته تعالى بأسماء لم يسم بها نفسه الكريمة ، أو لم يسمه بها رسول — صلى الله عليه وسلم .

٨- السيوطي معتد بنفسه اعتدادا قد يصل احيانا حد ا لمغالاة ،كما يظهر من بعض كلامه ،ولعل هذا كان احد الأسباب التي ادت إلى وقوع الخصوصية بينه وبين اقرانه من العلماء.

٩- ولكن السيوطي مع ماسبق من جوانب محاسنه للعديدة — رحمه الله — اشعري المعتقد ، فقد صرح عن نفسه بذلك بجانب ماتبين من منهج خلال البحث ، كما ظهر ذلك من طريقته في تأويل الصفات ،وقوله بالكلام النفسي ،وإيجابه المعرفة الموجبة للظر.

١٠- وتظهر أشعرية السيوطي بوضوح تام عندما تكلم عن التأويل ،واختياره المعنى الثالث له ،وهو المعنى المحدث الذي لم يكن في القرون الأولى المفضلة ،وجعله هو الأساس الذي بنى عليه دراسة للصفات.

١١- قرر السيوطي ان مذهب السلف في الصفات هو التفويض ، بمعنى ان السلف الصالح — رحمهم الله — آمنوا بالصفات دون ان يعلموا لها معنى مراءا ففوضوا علمها إلى الله ،وتركوا البحث عن معانيها ، وزعم ان التفويض اسلم وهذا خطأ فأحسن ،وجهل بمذهب السلف الذي هو اثبات الصفات ، والإيمان بها ،ومعرفة معانيها وتفسيرها دون الخوض في الكيفية لأنها غيب.

١٢- ذهب السيوطي كبقية الأشاعرة إلى ان مذهب الخلف هو تأويل الصفات حذرا من التشبه — زعم — كما زعم ان هذا المذهب هو أحكم ،ولكن البحث قد بين ان مذهب السلف هو الأسلم ،والأعلم ،والأحكم.

١٣- حكى السيوطي مذاهب العلماء في صحة إيمان المقلب ،ولم يرجح واحدا منها صراحة ،وإن كان المتبادر إلى الذهن أنه لايخرج عن كلام الأشعري.

١٤- لم يتطرق السيوطي إلى فطرية المعرفة ، وهذا يدل على قناعته بأنها نظرية ،وهذا خلاف مايقوله السلف من ان المعرفة فطرية ،وان الرسل — عليهم السلام — لم يرسلوا لدعوة الناس ان يعرفوا الله ،بل ليعبدوا الله تعالى الذي استقرت معرفته في الفطر البشرية .

١٥- وهو مع تبحره في الحديث وعلومه حتى لقب بأنه حافظ ، أو انه خاتمة الحفاظ ،فإننا نجده إذا صنف في مسألة ما ،جمع تحتها جميع ماورد فيها من احاديث وآثار صحيحة وسقيمة وواهية ، من غير تحقيق ولا تمحيص ،حتى لقبه بعض الباحثين بأنه حاطب الليل. .

١٦- السيوطي ينتقد علم الكلام ، ويحرمه ويحاربه ، ويبدع من يشتغل به ،ويجعله مردود الرواية والشهادة ، غير موثوق في علمه وفي نفس الوقت يعتقد عقيدة الأشاعرة ،وهذه ازدواجية عجيبة قد اجبنا عليها خلال البحث.

١٧- وهوايضا صوفي ،وتظهر صوفيته من خلال كلامه عن السلوك والأحوال ،فهويتبنى مصطلحات الصوفية وبعض عقائدهم البدعية.

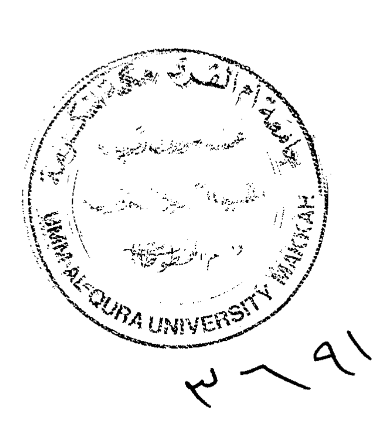
١٨- ومن تصوفه قوله بوجود الأقطاب والأبدال والنجباء والأوتاد ،وهذا كله لادليل عليه إلا أوهام وتخرصات.

١٩- وهو مع تبنيه القول بنبوة الخضر — عليه السلام — وهذا صحيح إلا انه صح إلى القول بحياته ووجوده بعد وفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — وهذا ايضا لا دليل عليه .

٢٠- وهو بعد ذلك ايضا يذم طريقة الهالك ابن عربي الطائي صاحب الفتوحات والنصوص ،ويصفها بأنها طريقة كلها زندقة وكفر ،وهذا ايضا حق لامرية فيه.

٢١- قول السيوطي بنظور الولي قول باطل بدعي لادليل عليه.

هذا واسأل الله تعالى ان يرزقنا الإخلاص في كل قول وعمل ،وان يمن علينا باتباع كتابه الكريم وسنة نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — اتباعا سليما صحيحا نقيا خاليا من البدع والأهواء ، كما كان عليه سلفنا الصالح ،وان يجنبنا الزلل، ومزالق الأهواء ، وان يغفر لي ولوالدي ولمشايخي ولجميع المسلمين انه سميع مجيب ،وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الآيات

سورة آل عمران

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة الواقعة

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الممتحنة

فهرس الأحاديث الشريفة والآثار

الألف

(الباء)

التاء

الحاء

الخاء

الراء

الشين

العين

الغين

الفاء

الكاف

اللام

الميم

النون

فهرس محتويات الرسالة

الموضـــــــــــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
الباب الرابع	
النبـــــــوات	